

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_I 190682

UNIVERSAL
LIBRARY

Osmania University Library

Call No. ٨٩٢٥٤٦

Accession No. 15308

Author الرضا بن عباد

١٥٣٠٨

Title رسائل - عبد الوهاب بن عطاء الله شافعي

This book should be returned on or before the date last marked below.

رَسَائِلُ الصَّاحِبِ بْنِ عَمَّادٍ

صححها وقدم لها

شوقي ضيف

مدرس

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عبد الوهاب عزائم

عميد

كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

دار الفكر العربي

رسائل الصاحب بن عباد

صححها وقدم لها

شوقي ضيف

مدرس

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عبد الوهاب عزام

عميد

كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

عثرنا في دار الكتب المصرية على نسخة مصوّرة من رسائل صاحب إسماعيل بن عباد . والصاحب — على مكاتبه في الأدب ، وذيوع صيته فيه ، وتولّيه الوزارة زمننا مديدا في القرن الرابع ، عصر ازدهار الكتابة العربية — لم تنشر رسائله ، فلم يقدر الأدباء مكاتبه بين كُتّاب عصره ، إلا بما قرءوا في كتب الأدب ، نُبذًا من كلامه ، أو إطراء لأدبه ، أو نقدا لطريقته .

فرأينا أن نبادر إلى نشر هذا المجموع ، تعريفًا بأدب صاحب خاصّة ، وبالكُتابة العربية في ذلك العصر عامة ، ولم نؤثر التأنّي حتى نعر على نسخة أخرى نحقق بها النص ، فاعتمدنا على النسخة التي وجدناها ، وصححنا غلطها ، وقوّمنا تحريفها ، جهد الطاقة ، ونشرناها نصًّا كاملا صحيحا ، إلا كلمات قليلة تعوزها المراجعة ، وإن يسّر لنا البحث نسخا أخرى رجعنا إليها في الطبعة الآتية إن شاء الله .

٢

والنسخة التي أخذنا عنها محفوظة بدار الكتب الملكية المصرية (رقم ٤٨٨٠ أدب) ، وهي مصورة عن مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس ، كُتبت في القرن السادس للهجرة ، وختمها ناسخها بهذه الجملة :

”فرغ من كتابتها أبو الحسن علي بن أحمد بن زكريا ، المعروف بابن الشصاص البغدادى ، بهمدان ، في شهر رمضان ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة“ .

وكتبت عنواناتها بخط الثلث ، وسائر الكتابة بخط النسخ ، وإعجامها تام إلا ما سماها عنه الناسخ ، وشكلها قليل . وقد وضع الناسخ مع الحاء والراء والسين والعين علامات تميزها من أخواتها المعجمات ، سُمّية الناسخين القدماء . والكتابة واضحة في الجملة . وليس في الرسائل حلية إلا علامات ، تشبه دائرة ، يتصل بها شكل مخروطى ، تختتم بها الفصول .

وعدد أوراق النسخة مائة وأربع عشرة ، وعلى كل ورقة رقم عربى فى الوسط وأفرنجى إلى اليسار . ويظهر أن الأرقام من عمل المكتبة الأهلية الباريسية . وعدد سطور الصفحة بين ٢٢ و ٢٤ ، وطول الصفحة ٢٤ س . م ، وعرضها ١٨ . وتشغل الكتابة منها ١٨ س . م طولاً ، فى ١٢ عرضاً .

وقد أثبتنا بين أقواس كلمات يقتضيها سياق الكلام ، قدرنا أنها سقطت من النسخ ، ولم نزد على هذا إلا ترقيم الرسائل فى كل باب ؛ ليسهل الرجوع إليها . ولا تتضمن النسخة رسائل صاحب كلها ، فهى مختارات منها ، مرتبة على أبواب ديوان الرسائل . ويقول جامع هذه المختارات فى أولها : " وخرجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله عشر رسالات ، ليخف حجم هذا المجموع ، ولا يعتاص تحفظه " ولـكنا نجد فى الباب التاسع والباب العاشر والباب الخامس عشر إحدى عشرة رسالة .

٣

وقد عرضنا ما فى النسخة من رسائل على مارواه ثقات الأدباء والمؤرخين ، فلم نجد منها إلا رسالة فى الجزء الثالث من خزانة الأدب للبغدادى ، وهى الرسالة التاسعة من الباب الحادى عشر ، ورسالة فى ترجمة ينيمة الدهر للصاحب ، وهى الرسالة الثامنة من الباب التاسع عشر . ولم نكتف بهذا فى تحقيق الرسائل ، بل عرضناها على التاريخ ، فوافق ما تضمنته من الأحداث والأحوال ، مارواه الثقات من المؤرخين عن دولة بنى بويه ، ففيها من أحوال دولتهم ، وأخبارها ، وذكر رجالها ، مالا يدع شكاً فى أنها لورير من وزراءهم . وفيها من الأمور الأخرى التى تخص صاحب كاستقبال عضد الدولة إياه ، واهتمامه بالمعتزلة ومذهبهم ، مالا يترك ريباً فى أن كاتبها هو صاحب إسماعيل بن عباد ، الوزير البويهى ، الذى عرف بدعوته إلى الاعتزال . ولو لم يسب هذه الرسائل إليه ما صعب على القارئ أن يثبت أنها له . وقد حاولنا جهدنا أن ننشر هذه الرسائل على أحسن وجه ، وفاتنا بعض ما نرجو ، ولـكنا قاربنا على قدر الطاقة . والله نسأل أن يرزقنا السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مدخل

١

بنو بويه

كتبت رسائل صاحب بن عباد وزير بني بويه في أزهى عصور دولتهم ، نقصد عصر ركن الدولة وأولاده : عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة . وقد كان البويهيون ينسبون أنفسهم إلى بهرام جور^(١) . وكان ركن الدولة وأخواه عماد الدولة ومعز الدولة أول الأمر قوادا في جيش ما كان بن كاكي الديلمي ، فلما انتصر عليه مرداويج بن زيار صاحب جرجان وطبرستان تحولوا إليه ، فوّلّى عليا الذي لقب فيما بعد بـ بلقب عماد الدولة ، السكرج^(٢) . وأخذ الإخوة الثلاثة ينشطون في فتح بلدان الجبل وفارس ، واستمروا حتى قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ فاستقلوا بما في أيديهم^(٣) . وما زال سلطانهم يتسع حتى استطاع أحمد ، الذي لقب فيما بعد بـ بلقب معز الدولة ، أن يستولى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ^(٤) ، وخلع عليه الخليفة المستكفي ، ولقبه بمعز الدولة ، كما لقب أخاه عليا ، وكان قد استولى على فارس ، بـ بلقب عماد الدولة ولقب أخاه حسنا ، وكان قد استولى على بعض بلدان الجبل ، بـ بلقب ركن الدولة ، وأذن لهم أن تضرب السكة باسمهم^(٥) ، وبهذا صار الخليفة في بغداد لعبة في أيدي البويهيين ، فهم يخلعونه حين يريدون ، ويولون غيره ، وليس له شيء من سلطان سوى ذكر اسمه على المنابر^(٦) .

ونحن نعرف أنه قبل دخول بني بويه بغداد بسنوات معدودة توزعت الخلافة العباسية إمارات مختلفة ، فبينما استقل بنو بويه بفارس والجبل وأصبهان والري ثم بغداد أخيرا ، استقل السامانيون بخراسان وما وراء النهر ، والزياريون بـ جرجان وطبرستان ، ومحمد بن إلياس

(١) تاريخ ابن الأثير طبع أوروبا ١٩٧/٨ .

(٢) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .

(٣) مسكويه ٨٥/٦ .

(٤) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .

(٥) ابن الأثير ١٩٩/٨ .

(٦) تجارب الأمم لمسكويه طبع آمدروز ٢٩٥/٥ .

وما بعدها .

بكرمان ، والبريدون بالأهواز وواسط والبصرة ، وأبو طاهر القرمطى باليمامة والبحرين ،
و بنو حمدان بالموصل وديار ربيعة ومضر ، والإخشيدون بمصر والشام ، ولم يبق للخليفة إلا
بغداد^(١) ، بل هذه استولى عليها أخيرا معز الدولة البويهى .

وقد كانت رئاسة البيت البويهى للأخ الأكبر . وهو عماد الدولة ، فلما توفى انتقلت
رئاسة البيت إلى ركن الدولة ، فكان معز الدولة لا يعصى له أمرا^(٢) ، وقد أقامه الخليفة مقام
أخيه عماد الدولة على فارس^(٣) . لأن عماد الدولة لم يترك عقباً ، وقد كان يقبى عضد الدولة^(٤) ،
ولعل ذلك ما جعل ركن الدولة يقيم ابنه عضد الدولة على فارس منذ توفى أخوه . واستولى
عضد الدولة على كرمان . وقد قسم ركن الدولة ملكه بين أولاده ، فجعل لعضد الدولة فارس
وكرمان وأرجان ، ولمويد الدولة الرى وأصفهان ، ولفخر الدولة همدان والدينور^(٥) ، وجعل
لعضد الدولة الرئاسة على أخويه ، وجعلهما حليفين له على ما بأيديهما . وخدم كل منهما أخاه
بالريحان ، على الرسم المعروف للبويهيين^(٦) . غير أن فخر الدولة لم يلبث أن حاول الاستقلال
عن أخيه ، فخرج عليه ، واستعان بقابوس صاحب جرجان وطبرستان^(٧) ، ولم تنفعه استعانتة
به ، فقد حاربتهما جيوش عضد الدولة ، ونزعت منهما ملكهما^(٨) ، فاستنجدا بالسامانيين ،
وتبعتهما جيوش عضد الدولة إلى نيسابور ، وسكنت بجيوش السامانيين تنكيلا^(٩) .

و عضد الدولة (٣٦٥ - ٣٧٢ هـ) هو أعظم حكام هذه الدولة ، فقد استولى فى مفتتح
ملكه على ما بيد ابن عمه من بغداد والعراق ، وكذلك استولى على ما بيد الحمدانيين من
الحصون والقلاع ، وقد استولى على جرجان وطبرستان ، وشنت جيوشه الغارات على الروم ،
وأنزلت بهم هزائم منكرة . ويظهر أنه كانت فى عضد الدولة شدة ، فقد بلغ من خوف
بعض قواده منه ، وهو المطهر بن عبدالله ، أن قتل نفسه خشية أن يتغير عليه ، حين لم يكتب له

-
- | | |
|--|--|
| (١) ابن الأثير ٢٤١/٨ وانظر مروج الذهب | (٦) مسكويه ٣٦٣/٦ . |
| للمسعودى طبع أوربا ٣٠٦/١ ، ٧٣/٢ . | (٧) ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع طبع . آمدروز |
| (٢) ابن الأثير ٣٦٦/٨ . | ص ١٥ . |
| (٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبع در | (٨) أبو شجاع ص ١٥ وما بعدها ، وابن الأثير |
| الكتب ٢٩٩/٣ . | ٨/٩ . |
| (٤) أحسن التقاسيم للمقدسى طبع ليدن ص ٤٤٩ . | (٩) أبو شجاع ص ٢٨ وابن الأثير ٩/٩ . |
| (٥) ابن تغرى بردى ١٠٩/٤ . | |

الظفر في حرب بعض الثائرين^(١). وقد قصده المتنبي في فارس وهو لا يزال أميراً، فأشاد به في غير قصيدة، ومن قوله فيه :

وقد رأيتُ الملوك قاطبةً وسرتُ حتى رأيتُ مولاها
ومَنْ منايهمُ براحتهمُ يأمرها فيهمُ وينهاها
أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الدولة فناخسرو شاهنشاهها

ويصفه ابن الأثير فيقول : إنه كان عاقلاً، فاضلاً، حسن السياسة، شديد الهيبة، بعيد المهمة، ثاقب الرأي، محباً للفضائل وأهلها، باذلاً في مواضع العطاء، مانعاً في أما كن الحزم، ناظراً في عواقب الأمور^(٢). وقد بلغ من حزمه أنه تدلّه بفتاة، فلما خشى على ملكه من تدلّعه بها، أمر بتفريقها^(٣). وكان كثير البر والعطفات^(٤). وهو أول من حوَّط بالملك شاهنشاه في الإسلام، وأول من خطب له على منابر بغداد بعد الخلفاء، وأول من ضربت الدباب على باب داره. ويُروى أنه لما أحسّ بالموت تمثّل بقول القاسم بن عبيد الله الوزير :

قتلتُ صناديد الرجال فلم أدعْ عدوّاً ولم أمهل على ظنّةٍ خلقتُ
وأخليتُ دور الملوك من كل نازل وبددتهم غرباً وشرّدتهم شرفاً^(٥)

وقد خلفه في فارس والعراق أولاده، بينما استقل أخوه مؤيد الدولة بالجليل وجرجان وطبرستان. ولم يلبث مؤيد الدولة أن توفي بعد أخيه بنحو عشرة أشهر^(٦)، ولم يعقب، فاستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور، وسلّمه مقاليد الدولة^(٧) عام ٣٧٣ هـ، وما زال فخر الدولة يدير شئونها حتى توفي سنة ٣٨٧ هـ.

وهؤلاء هم ملوك بني بويه الذين خدم الصاحب في دواوينهم، وقد بلغت الدولة في عهدهم كل ما كان يحلم به أصحابها من سلطان وهيبة وثروة. ويكفي في تقدير ذلك ما يروى من أن عضد الدولة بنى داراً بشيراز، كانت تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة، ويقول المقدسي في وصفها : "لم أر في شرق ولا غرب مثلاً، ما دخلها عامي إلا افتتن بها،

(١) ابن الأثير ٥١٥/٨ .

(٢) ابن الأثير ١٤/٩ .

(٣) أبو شجاع ص ٤٢ .

(٤) ابن الأثير ١٦/٩ وأبو شجاع ص ٦٦ .

(٥) ابن تقي بردى ١٤٢/٤ .

(٦) ابن تقي بردى ١٤٤/٤ .

(٧) أبو شجاع ص ٩٣ وابن الأثير ١٩/٩ .

ولا عارف إلا استدلل بها على نعمة الجنة وطيبها ... وعندى أنه إنما بناها على مثال ما سمع من دور الجنة^(١) .

ويروى المؤرخون أن خزانة الدولة خافت نحو مليونين وثمانمائة ألف من الدنانير ، ونحو مائة مليون من الدراهم ، كما خلف من الجواهر والياواقيت والماس والأؤلؤ ما قيمته ثلاثة ملايين من الدنانير ، وخلف مثل ذلك أيضا من أواني الذهب^(٢) .

وهذا ثراء مفرط ، ومن هذا الثراء كان البويهيون ينفقون على العلماء والأدباء ، وقد كانوا يعيدون في أول الأمر عن الثقافة العربية ، فإن معز الدولة حين قدم بغداد احتاج إلى مترجم بينه وبين علي بن عيسى^(٣) ، ولما كنا نراهم بعد ذلك يقبلون على الثقافة العربية ، ويتعلمون أدبها وشعرها ، ويصبح منهم شعراء . وقد عقد صاحب اليتيمة فصولا في قيمته لمن كان ينظم الشعر منهم ، مثل بختيار وعضد الدولة^(٤) . ويقول صاحب اليتيمة : إن الأخير كان يحب الشعر ، ويعطى الشعراء ، ويؤثر مجالسة الأدباء على مناداة الأمراء^(٥) . ويقول الرواة : إن كتاب الأغاني لم يكن يفارق عضد الدولة في سفر ولا في حضر . ويقول ابن تغري ردي إنه كان فاضلا نحويا^(٦) ، وكان يفخر بأنه غلام أبي علي الفارسي^(٧) . وكان يقرب العلماء ، ويجلس معهم يعارضهم في المسائل ، فقصدته العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح في النحو ، والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ، والموسيقى في الطب ، والتاجي في التاريخ للصابي^(٨) ، وهو في تاريخ بني بويه . وقد كانت له خزانة كتب كبيرة بشيراز . ويقول المقدسي : إنه لم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها^(٩) .

وقد كان بنو بويه شيعة ، ويظهر أنهم كانوا غالين في تشيعهم^(١٠) ، فقد زعم بعض

-
- (١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٤٩ وما بعدها .
(٢) ابن تغري بردى ٤ : ١٩٧ .
(٣) انظر المقدمة الإنجليزية لكتاب تاريخ الوزراء
لجلال الصابي طبع بيروت ص ٧ .
(٤) انظر اليتيمة طبع الشام ٢/٢ وما بعدها .
(٥) اليتيمة ٢/٢ .
(٦) ابن تغري بردى ٤ : ١٤٢ .
(٧) ابن تغري بردى ٤ : ١٥١ .
(٨) ابن الأثير ٩ : ١٦ .
(٩) المقدسي ص ٤٤٩ .
(١٠) ابن الأثير ٨ : ٣٣٩ .

المؤرخين أن معز الدولة أمر أن يكتب على المساجد بلعن الصحابة^(١) ، ويقال إنه أول من سنّ سنة ماتم الحسين ونذبه في يوم عاشوراء^(٢) ، ويصرّح ابن تفرى بردى مرارا^(٣) بأن البويهيين رافضة ، ويقول إنهم لم يفشوا ذلك خوفا على الملك^(٤) .

غير أن البويهيين — على ما يظهر — لم يجعلوا للتشيع أثراً في دولتهم ومعاملة أهلها ، فقد أبقوا على الخلافة العباسية ، وساموا الناس سياسة رشيدة ، فلم يفرقوا بين نخلة ونخلة ، ومذهب ومذهب ، وقد اتخذ عضد الدولة وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، وأذن له ، في عمارة البيع والأديار ، ومساعدة الفقراء من أهل الذمة^(٥) .

٢

الصاحب بن عباد

وصاحب الرسائل هو إسماعيل بن عباد أبو القاسم ، الملقب بكافى الكفاة ، ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٣٨٥ هـ ، وهو العام الذى توفى فيه أبوه^(٦) . وهو فارسي الأصل ، من أهل الطالقان وهي ولاية بين قزوین وأبهر^(٧) . وقد كتب أبوه عباد ، ووزر لركن الدولة^(٨) ، وكان على ما يظهر من الراسخين فى العلوم الدينية ، فقد ألف فى أحكام القرآن كتاباً نصر فيه الاعتزال وجود فيه^(٩) . ولا نعرف عن أم الصاحب إلا ما يروى من أنها كانت تعطيه كل يوم فى حديثه ، أثناء ذهابه إلى المسجد للدرس ، ديناراً ودرهما وتقول له : تصدّق بهذين على أول فقير تلتقاه^(١٠) .

وقد تخرج الصاحبُ على يد أديب عصره : ابن العميد ، وزير البويهيين المشهور^(١١) ،

- | | |
|---|---|
| (١) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٥١ هـ . | (٦) معجم الأدياء لياقوت طبع مصر ١٦٨/٦ . |
| (٢) انظر ابن تفرى بردى ٣٣٤/٣ وابن الأثير ٤٠٣/٨ ، ٤٠٧ . | (٧) انظر ابن تفرى بردى ٣٠٧٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٤ ، وكذلك ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ . |
| (٣) انظر ابن تفرى بردى ٣٠٧٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٤ ، وكذلك ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ . | (٨) انظر ابن تفرى بردى ١٤٤/٤ . |
| (٤) ابن تفرى بردى ١٤٤/٤ . | (٩) انظر ابن تفرى بردى ١٧٢/٤ وانظر ترجمة |
| (٥) ابن الأثير ٥١٨/٨ . | (١٠) انظر ترجمة الصاحب فى ابن خلكان . |
| (٦) ابن تفرى بردى ١٧٢/٤ وانظر ترجمة | |

ويظهر أن ابن العميد أعجب به فقر به منه ، وما زال يرقيه في دواوينه ، حتى اختاره وزيرا لمؤيد الدولة في أثناء إمارته على أصبهان في عصر أبيه . ولما توفي ركن الدولة عام ٣٦٥ هـ قصده أبو الفتح ابن أستاذه ذى الكفایتين ابن العميد ، فأزاله عن وزارة مؤيد الدولة ، ولكنه سرعان ما انتصر عليه وعاد إلى الوزارة^(١) ، وظل فيها ، حتى توفي مؤيد الدولة ، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة ، واستمر في الوزارة حتى توفي عام ٣٨٥ هـ .

ولم تكن مكانة صاحب في دولة بني بويه ترجع إلى أنه كان أدبيا فحسب ، فقد كان كاتباً ووزيراً وقائداً^(٢) ومديراً لشئون الدولة ؛ ولهذا عظمت مكانته لدى ملوك بني بويه ، فقد خرج عضد الدولة لاستقباله حين زاره عام ٣٧٠ هـ في همدان^(٣) ، وروى ياقوت أن صاحب كان إذا قال في مسألة قولاً ، وقال فخر الدولة قولاً آخر ، امثل قول صاحب^(٤) .

كانت للصاحب منزلة عظيمة في دولته ، وقد أخذت هذه المنزلة تكبر وتعظم على مر الزمان ، حتى قيل إن قواد بني بويه وحكامهم ومن يوالونهم من الأمراء كانوا يقفون ببابه ”ومن يؤذن له في الدخول عليه ، يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرّة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل في الدار ، وأذن له في الدخول إلى مجلسه ، قبل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعا ، إلى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس ... ثم ينصرف بعد أن يقبل الأرض أيضا مرارا ؛ ولم يكن يقوم لأحد من الناس ولا يشير إلى القيام ، ولا يطعم منه أحد في ذلك“^(٥) . ولما توفيت أمه سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ركب إليه فخر الدولة معزيا ، فأما سائر الأمراء والقواد ... فإنهم كانوا يحضرون خُفَاءَ حُسْرًا ، وكان كل واحد منهم إذا وقعت عينه على صاحب قبل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك إلى أن يقرب منه ويأمره بالجلوس ، فيجلس ، وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد بل كان جالسا على عادته في غير أيام التعزية^(٦) . ومما يدل على عظم منزلته ما يروى من

١٣٨/٤ حيث يقول إن عضد الدولة استقبله

في بغداد .

(٤) ياقوت ١٧٢/٦ .

(٥) ياقوت ٢٤٤/٦ .

(٦) ياقوت ٢٣٨/٦ .

(١) ياقوت ٢٥٠/٦ .

(٢) ابن الأثير ٣٩/٩ وقد قيل إنه سلم لفخر

الدولة خمسين قلعة . انظر ابن تغرى بردى ١٧٠/٤

وياقوت ٢٥١/٦ .

(٣) ابن الأثير ٤/٩ وانظر ابن تغرى بردى

أنه لما توفى أُغْلِقَتْ له مدينة الري ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدومه فخر الدولة وسائر القواد ، فلما خرج نعشه من الباب قام الناس بأجمعهم ، فقبلوا الأرض بين يديه ، وخرت قوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، ومشى فخر الدولة أمام نعشه ، وقعد للعزاء أياماً^(١) . وقد رثاه الشعراء رثاء حاراً^(٢) ، ومن قول أبي سعيد فيه :

أبعد ابن عبادٍ يَهْشُّ إلى الشرى أخو أمِّلٍ أو يسْتَحْجِجُ جَوَادُ
أنى الله إلا أن يموتا بموتِهِ فما لها حتى المعادِ مَعَادُ^(٣)

وهذه المنزلة الممتازة للصاحب كان يعصدها خلق رفيع ، فقد حدث الرواة أن رجلاً من ينطوى له على موجدة دخل داره في غمار الناس ، فكتب له بعض أصحابه بذلك ، فوقع : دارنا هذه خان ، لمن وفى ومن خان^(٤) . وقالوا إنه استدعى يوماً شراب السكر ، فجى ، بقدر منه ، فلما أراد شربه ، قال بعض خواصه : لا تشربه فإنه مسموم ، فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ، قال : أن تجرب به على من أعطاكه ، قال : لا أستجيز ذلك ، ولا أستحلّه ، قال فجربه على دجاجة ، قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز ، وأمر بصب ما فى القدح ، وقال للفلام : انصرف عني ولا تدخل دارى بعدها ، وأقرّ رزقه عليه^(٥) . ويظهر أنه كانت فى الصاحب رقة ودماثة ، فقد روى الرواة أنه كان يقول : " نحى بالنهار سلطان ، وبالليل إخوان"^(٦) . وكانت فيه إلى جانب ذلك فكاهة ؛ حدث الرواة أنه فى أثناء درسه فى شبابه ببغداد ، تعرض لشخص يسمى ابن شمعون ، كان متصوفاً وكان فيه هوس يطيله ويسهب فيه ، فسأله فى أثناء درس له عن قَدْ سيكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، وهو يريد بذلك أن يقطعه ، فأطرق الرجل ساعة ، ثم أخذ فى ضرب من الهديان ، فلما سكنت قال له الصاحب : هذا الذى تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله^(٧) ! . ويتصل بهذا الجانب الفكه فى الصاحب أنه كان يفسح فى حضرته لشعراء السكّدية ، من أمثال أبى دُلف الخزرجى^(٨) .

(١) ياقوت ٢٧٥/٦ وابن خلكان فى ترجمة

الصاحب وابن تفرى بردى ١٧١/٤ .

(٢) المينى للعبى مع شرح النينى ٢٠٢/١ .

(٣) ابن خلكان فى ترجمة الصاحب

(٤) اليتيمة ٣٩/٣ .

(٥) ياقوت ١٨٥/٦ .

(٦) اليتيمة ٣٨/٣ .

(٧) ياقوت ٢٦٨/٦ .

(٨) اليتيمة ١٧٤/٣ .

وقد كانت حضرة الصاحب محطّ رحال العلماء والأدباء في عصره ، وكان يتعهدهم جميعا بالعطاء . فمن ذلك ما قيل من أنه كان ينفذ في كل سنة إلى بغداد خمسة آلاف دينار تفرّق في الفقهاء وأهل الأدب^(١) ، وفي ياقوت أن عطاياه للأدباء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد^(٢) . وإن الإنسان ليخيل إليه أنه لم يبق أديب في عصره إلا قصد إلى حضرته لينال من عطاياه . يقول الثعالبي : " احتفّ به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يُرَبّي عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رقّ المعاني " ^(٣) . وروى عنه أنه قال : " مدحت بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية " ^(٤) . ويدل مديح الشعراء له بالشعر الفارسي على أنه كان يتقن الفارسية ، وفي ياقوت ما يدل على أنه كان يتكلم بها أحيانا^(٥) ، ويقال إنه اختبر مهارة بديع الزمان في الترجمة من الفارسية إلى العربية^(٦) .

ولم يخلُ الصاحب على عظم خدماته للأدب في عصره من زاروا حضرته وارتدوا حائقين عليه ، إذ لم يحقق لهم كل مآربهم . ومن هؤلاء أبو حيان التوحيدي ، فقد وفد عليه ، ولم يلبث أن خرج مغاضبا له ، فالف في ثلّبه وفي ثلب ابن العميد كتابا سماه : أخلاق الوزيرين ، وينقل منه ياقوت كثيرا^(٧) ، وقد تعقبه بالثلب أيضا في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)^(٨) ، ثم في رسالته المسماة (الصداقة والصدق)^(٩) . غير أن ثلب أبي حيان الصاحب لا يقدح فيه ، لأنه يرجع إلى أسباب شخصية ، قال ياقوت : " إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد في الري ، فلم يرزق منه ، فرجع عنه ذامّا له ، وكان أبو حيان مجبولا على الغرام ، ثلب الكرام ، فاجتهد في الغضّ من ابن عباد " ^(١٠) ، وهو غضّ خَصَمٍ شديد الخصومة .

(٦) لباب الألباب لمحمد عوفي طبع ليدن

١٧/٢ .

(٧) ياقوت ٢٦/١٥ وما بعدها .

(٨) الإمتاع والمؤانسة طبع لجنة التأليف ٥٤

وما بعدها .

(٩) الصداقة والصدق طبع القسطنطينية ص ٣٣ .

(١٠) ياقوت ١٨٦/٦ وكذلك ١٣/١٥ ، ٣٣ .

(١) المنتظم : نسخة مصورة بدار الكتب (رقم

١٢٩٦ تاريخ) الجزء السادس ، القسم الثاني ،

الورقة ٤٥٠ .

(٢) ياقوت ٢٤٩/٦ .

(٣) اليتيمة ٣٣/٣ .

(٤) ياقوت ٢٦٣/٦ .

(٥) ياقوت ١٦/١٥ .

والحق أن صاحب كان حسن السيرة ، وكان ما يزال يطلب الأدباء والعلماء إلى حضرته ، ومن طلبهم إليها القاضي عبد الجبار^(١) شيخ المعتزلة في بغداد، وقد ولّاه القضاء في دولته . وكان العلماء يرفعون إليه كتبهم كما يرفع الشعراء قصائدهم ، وقد رفع إليه ابن فارس كتاب الصحاح .

وقد كان صاحب على ما يظهر عالما في فنون شتى ، فله تأليف كثيرة^(٢) ، ألف في اللغة معجما ضخما يقع في سبع مجلدات سماه المحيط ، وفي دار الكتب المصرية قطعة منه ، وقد نشر له برونله كتاب المقصور والمدود ، وفي دار الكتب نسخة مخطوطة من كتابه الإقناع في العروض . وكما كان صاحب لغويا كان محدثا ، أخذ الحديث عن أبيه وغيره^(٣) ، ويروون أنه خرج يوما وهو وزير متطلسا متحنكا بزى أهل العلم ، لرواية الحديث وإملائه على الناس^(٤) . وكان مثل أبيه يذهب يذهب مذهب الاعتزال^(٥) . ويقول أبو حيان إنه كان يكره الفلسفة^(٦) ، ولكن له رسالة طبية في الباب التاسع عشر ، وهي تدل على صلته بالثقافة الفلسفية ، وقد قال فيها بعض الأطباء : " لو علمها ابن قُرة وابن زكريا لما زادوا عليها"^(٧) .

وقد عرف بسعة العلم . يقول صاحب المنتظم إنه " لم يكن من يذكر عنه العلم من وزراء الدولة الدبلوماسية كما يذكر عن صاحب"^(٨) . وقد قالوا : إنه جمع من الكتب ما يحتاج في نقله إلى أربعمائة جمل"^(٩) ، وكان يعنى بطلب النسخ الصحيحة إلى خزانة كتبه عناية عظيمة^(١٠) ، وقال أبو الحسن البیهقي إنه رأى فهرست كتبها ، وهو يقع في عشر مجلدات^(١١) . وقد أسس سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى دارا للعلم في الكرخ غربى بغداد ، ونقل إليها كتبها كثيرة ، وقد صنع ذلك منافسة للصاحب بن عباد^(١٢) .

وكان صاحب مثل ساداته من البويهيين متشيعا ، وقد ألف في إمامة علي بن أبي طالب

- | | |
|--|--|
| (١) المنية والأمل طبع حيدر آباد س ٦٦ . | (٨) المنتظم : الجزء السادس ، القسم الثانى . |
| (٢) انظر فهرست كتبه في ياقوت ٦/٢٦٠ . | الورقة ٤٤٩ . |
| (٣) ياقوت ٦/١٧٢ . | (٩) ابن الأثير ٧٧/٩ . |
| (٤) ياقوت ٦/٢٥١ . | (١٠) ياقوت ٧/٢٤٢ ، ٢٥١ . |
| (٥) ياقوت ٦/٢٨٤ . | (١١) ياقوت ٦/٢٥٩ . |
| (٦) ياقوت ٦/١٧٥ . | (١٢) Nicholson , Lit. Hist. of Arabs, P. 267 . |
| (٧) يتيمة ٤٢/٣ . | |

كتاباً^(١) ويقول أبو حيان : إنه كان يقول بمقالة الزيدية^(٢) ، و يروي الرواة عن القاضي عبد الجبار أنه كان يقول : ”أنا لا أترحم عليه لأنه مات عن غير توبة“^(٣) . ولسنا ندرى أيريد بذلك أنه كان غالباً في تشيعه ، أم يريد شيئاً آخر ؟ . ولم يرزق صاحب سوى بنت واحدة ، زوجها أحد الأشراف ، فلما أعقبت منه سرسوراً عظيماً . ومدحه الشعراء بهذه المناسبة مدائح كثيرة ، وقال هو فيها أيضاً شعرا يدل على مسرته وبهجته بهذه الحادث ، فمن ذلك قوله :

الحمد لله ——— دائماً أبداً إذ صار سيّط . سول الله لى ولداً^(٤)

ونحن نختتم حديثنا عن صاحب كتابنا وأنه صاحب المنتظم من أنه كان أفضل وزراء بني بويه^(٥) ، وما قاله الثعالبي ، من ”أنه كان صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا حرج في مدحه بما يمدح به كل مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهره سوق“^(٦) .

٣

الرسائل

ورسائل صاحب ليست رسائل إخوانية كأكثر رسائل أبي بكر الخوارزمي و بديع الزمان الهمداني ، بل هي رسائل ديوانية ؛ ومن هنا كان لها قيمتان : قيمة تاريخية وقيمة أدبية .

قيمتها التاريخية

وترجع قيمتها التاريخية إلى أنها سجلت طائفة من حروب بني بويه ، كما سجلت أسماء طائفة من حكامهم وقوادهم وقضاةهم . وقد صورت فيها بعض التصوير معاهداتهم ، كما صوّرت سياستهم ، ومعاملتهم الرعية ، ومجتمع الناس في عصرهم . فهي وثائق تاريخية مهمة في أمور الدولة البويهية السياسية والاجتماعية .

(٥) المنتظم : الجزء السادس ، القسم الثاني ،

الورقة ٤٥١ .

(٦) بتيمة ٣٢/٣ .

(١) ياقوت ٦/٢٦٠ .

(٢) ياقوت ٦/١٧٥ .

(٣) ابن الأثير ٩/٧٧ وأبو شجاع ص ٢٦٢ .

(٤) بتيمة ٣/٧٣ وما بعدها .

حق أن مسكويه كان معاصرا للصاحب ، وكتب في تجارب الأمم فصولا طويلة عن البويهيين . ومع ذلك فمسكويه ينقصه كثير من التفاصيل التي ألت بها هذه الرسائل ، كما تنقص هذه التفاصيل أيضا أبا شجاع صاحب ذيل تجارب الأمم .

وقد كتب أبو إسحاق الصابي في تاريخ البويهيين كتابه التاجي ولكنه مفقود ، وكذلك كتب عنهم حفيده هلال بن الحسن في تاريخه الكبير ، ولكن هذا التاريخ أيضا مفقود ، ولم يبق منه إلا ما يتناقله المؤرخون ، وإلا ما طبع في بيروت بعنوان تاريخ الوزراء ، وهي قطعة تتصل بوزراء المقتدر ، وقلمها عرضت لوزراء بني بويه .

ونحن لا ننكر قيمة ما قصه ابن الأثير وابن تغري بردي وصاحب المنتظم عن البويهيين ، غير أن ما قصوه جميعا لا يتضمن كل التفاصيل السياسية والاجتماعية لهذا العصر . ومن ثم كانت كل وثيقة سياسية جديدة تُنشر عن هذا العصر البويهى تعتبر عظمة الفائدة ، ولا سيما حين يكتب هذه الوثيقة وزير معاصر مشارك في أحداث الدولة وسياساتها مثل صاحب بن عباد .

ونحن نستعرض موضوعات هذه الرسائل التي كتبها صاحب حتى نقف على قيمتها السياسية والاجتماعية . وإن من ينظر فيها يجد الباب الأول منها خاصا بفتح عضد الدولة وحروبه . وهو يفتتحه برسالة تصور حربه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير صاحب جرجان وطبرستان . ويقص صاحب ما كان من هزيمتهما على باب إستراباد . ومن طريف ما يقصه أن بني بويه كانوا يطلقون من يقع في أيديهم من أسرى أعدائهم ، يمنون عليهم بذلك حتى يتألفوهم .

ونقرأ في الرسائل التالية لهذه الرسالة في الباب حروب عضد الدولة مع الروم ، وابن حمدان وكيف قضى عليه ، كما نقرأ إصلاحه بين سعدور بيعة . ونراه يتحدث في الرسالة السادسة عن استنجد إبراهيم بن المرزبان بركن الدولة على عمه وهسودان ، وقد اغتصب منه ومن إخوته ملك أذربيجان بعد وفاة أبيهم . ويفصل صاحب الحديث في إغاثة ركن الدولة إياه ، ويدكر من أرسله معه من القواد وما كان بعد ذلك من هزيمة وهسودان . وبينما تذكر كتب التاريخ أن ركن الدولة أغاث إبراهيم لأسباب شخصية^(١) ، نجد صاحب يدكر أنه

أغائه لأسباب سياسية ، إذ كان وهسوذان مفاضبا للدولة ، يكيد لها ، ويثير عليها الفتن . وقد خصَّ الصاحب الرسالة السابعة بحرب عضد الدولة وابن عمه بختيار ، وكيف استولى على بلاده ، وهو يفصل الحديث في ذلك ، ومن طريف ما ذكره أن خليفة بغداد كان يرسل عضد الدولة سرا ، وأنه خرج لاستقباله في دياالى بعد انتصاراته .

وربما كانت الرسالة الثامنة أخطر رسائل هذا الباب ، وقد خصَّها الصاحب بنهاية حرب قابوس وفخر الدولة ، وما كان من استعانتها بالدولة السامانية ، إذ ساقَت جيشًا بقيادة تاش . ولم يكن حظ هذا الجيش خيرا من حظ جيوش قابوس ، فقد سارعت جيوش عضد الدولة إليه في نيسابور ، وسرعان ما دارت عاياه الدوائر ، إذ قتل منه نحو ثلاثة آلاف ، وليس هذا كل ما في الرسالة ، فإن فيها وصفا دقيقا لحروب السامانيين والبويهيين ، منذ قامت دولتهم ، وإن الصاحب ليعدّد هذه الحروب ، ويعدّد أسماء قواد السامانيين فيها . وقد ذكر مادّة طريفة في إحدى معاهدات البويهيين مع السامانيين ، وهى : " أن لا يُقبَلَ في جهة من الجهتين أتباقي العساكر ، ولا يمهّد في جنبه من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحمَى على من عصا فشرد ، وشقّ العصا وانفرد " . ونقف من هذه الرسالة على شىء طريف آخر هو أن السامانيين كانوا إذا خلع بنو بويه خليفة وولوا مكانه آخر ، لا يدعون للمولى مكانه على منابرهم .

ونترك هذا الباب الخاص بالحروب إلى الباب الثانى الخاص بالعهود ، فنقرأ فيه أوامر الدولة وعهودها للقضاة والولاة والحنسبين ، وهى تبدأ بعهد عبد الجبار قاضى القضاة فى الدولة ، وفيه نرى الصاحب يأمره باتباع الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس ، كما يأمره أن لا يأخذ بالآراء الشاذة ، وأن لا ينقض آراء من سبقه من القضاة إلا ما خرج عن اتفاق الأمة ، وقد دعاه إلى أن يتثبت من الشهود ، وأن يعدل بين الخصوم ، وأن يسوى بين الغنى والفقر فى لحظه ولفظه وحكمه . ونرى من هذا العهد أن القاضى هو الذى كان يشرف على تعيين الأوصياء على اليتامى ، والنظار على الوقوف . والقوّم على السكة . وجاء فى هذا العهد أيضا ألاّ ترد التركة إلى بيت المال ، بل يأخذها الأباعد من ذوى الأرحام . وفى هذا ما يدل دلالة صريحة على أن بنى بويه لم يكونوا يتعرضون للتركات ، وقد امتدحهم المقدسى ونوّه بهم لذلك ^(١) .

وبلى هذا العهد عهد فى الحسبة ، ومنه نطلع على صفة المحتسب ، وأنه ينبغى أن يكون من الفقهاء ، كما نطلع منه على عمله وأنه كان يقوم بمراقبة المكاييل والموازين فى السوق ، كما كان يقوم بمراقبة السلع وحفظها عن الغش ، وكذلك كان يراقب النساء فى الأسواق ، وأهل الذمة ولبسهم للغيار وعقد الزنار . وقد كان له حق الحبس والتأديب . وإن الصاحب ليأمره أن يسوى فى العقاب بين أبناء الثروة واليسار ، وإخوان الخلة والإعسار .

ونقرأ بعد ذلك عهدا لحاكم ، وهو العهد الرابع من هذه العهود ، ومنه نعرف سياسة بنى بويه فى معاملة الرعية ، وما يأخذون به حكمهم ومروسيهم فى هذه المعاملة ، سواء أصحاب الصدقات ، وأصحاب الخراج ، وسواء المتولون لدور الضرب والقائمون على حراسة المكاييل والموازين ، وأصحاب معاون والشرط . وقد أمر الصاحب هذا الحاكم بالعمل على نفى الطرق من اللصوص ، كما أمره بالعدل المطلق بين الناس . ومن غريب ما جاء فى هذا العهد أن الصاحب أمر الحاكم ألا ينفذ الحدود إلا بعد الرجوع إليه "حتى يأتية من الأمر ما يبرمه ، ومن الحكم ما يرتسمه" . وجاء فى هذا العهد أيضا ما يدل على أن الدولة كانت تراقب سوق الرقيق مراقبة شديدة .

ونستمر حتى العهد الثامن وهو خاص بقسمة الماء فى بعض الأودية ، وفيه نرى الصاحب يأمر الحاكم بالعدل فى قسمة الماء بين أصحاب الضياع ، بحيث لا يقطع أحد ماء فى غير حقه ، ولا يسد فاه النهر فى غير شربه . وقد أمره أن يعاقب من يخالف ذلك حتى لو كانت ضيعته من خاص ضياع الدولة وخالص أملاكها . وإن فى هذا ما يدل دلالة واضحة على عدل بنى بويه ، وهو عدل تنقشر الدعوة إليه فى جميع صحف هذه الرسائل والعهود ، بحيث يخيّل إلى الإنسان أن بنى بويه كانوا من أعدل الحكام فى الشرق . وفى كل مكان من رسائل الصاحب نجد الآيات الدالة على ذلك . ومن الرسائل التى تفسره فى دقة ، الرسالة الخامسة فى الباب الثالث ، إذ نجد الصاحب يأمر الموظفين فى الدولة أن يَرْمُوا أنفسهم عن أن يطلبوا شيئا من الناس فوق الضرائب المقررة لهم .

وكما عني البويهيون بالعدل عنوا بالأمن ، ونفى الطرق عن أهل العيث والفساد ، وإن فى الباب الرابع الخاص بالحجيج والمصالح والثغور ما يفسر ذلك تفسيرا وافيا . وقد كان

البويعيون يكرهون كل ما يحدث خلافاً في الدولة أو يثير فتنة فيها ، ولعلمهم من أجل ذلك لم يحاولوا أن ينصروا مذهبهم الشيعي ، أو يؤيدوه في أي بقعة من بقاع دولتهم . وفي الباب السادس رسالتان طريقتان هما الخامسة والسادسة ، وقد كتبنا بصدد نشوب ثورة في قزوين بين العلوية وغيرهم ، وقد دعا فيهما الصاحب إلى وجوب الألفة بين الطوائف المختلفة ، بحيث لا يتعصب لأحدى الطوائف على الأخرى ، ولا يلزم أحد بالعدول عما اختاره من مذهب وطريقة .

وليس في الرسائل ما يدل على دلالة على أن دولة بني بويه كانت تدعو إلى التشيع . وقد كانت تتخذ العيون والجواسيس كما تدل الرسالة السادسة من الباب الثالث عشر ، ولكنها فيما يظهر كانت تستعملهم على خصومها السياسيين .

ونحن نجد في الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه ؛ فقد جاء في الرسالة التاسعة من الباب العاشر "مولاي يتدين بتعديل ربه ، ويعرف مواقع اللطف من صنعه ، ولا يشك في اقتران الصلاح بفعله" . وتكرر فكرة التعديل هذه في الرسائل كثيراً . والغريب أن الصاحب لا يدعو إلى التشيع في رسائله ويدعو إلى الاعتزال ! . وهناك رسالتان طريقتان في الباب السابع عشر وهما نصان صريحان في أنه كان يبعث دعاة له إلى البلدان المختلفة يدعون الناس إلى الدخول في مذهب المعتزلة . ولسنا ندرى أكان هذا من عمله هو أم كان من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال^(١) ، ويعرف التاريخ صلة دائمة بين التشيع والاعتزال منذ كانا . ويظهر أن التشيع اقترب في هذا العصر اقتراناً تاماً بالاعتزال ، إذ كان أهل السنة يكرهون التشيع والاعتزال جميعاً .

والرسائل تصرح بأن العلوية كانوا يخاطبون في هذا العصر بالشرفاء والأشراف ، وأنه كان يتخذ منهم النقباء . وقد أظهر الصاحب في الرسالة الحادية عشرة من الباب العاشر ، وهي خاصة بالمعتزية ، حرقاً شديداً على نقيب توفاه الله . وكذلك أظهر الصاحب هذه النزعة الشيعية في الرسالة التاسعة من الباب التاسع عشر وهي موجهة إلى بعض الأشراف . ونجد في هذا الباب أيضاً رسالة طريفة ، وهي الرسالة العاشرة ، وهي عهد إلى بعض النقباء ، وفيها ما يدل

على كثرة الصلات التي كانت تصل إلى العلويين من البويهيين ، وفيها أيضا ما يدل على أن النقيب هو الذي كان يتولى الحكم بين العلوية ، حتى لا يحكم بينهم أحد من الخارجين عن الأسرة . ومعنى ذلك أنه كان للعلوية قضاء مستقل في الدولة ، وأنه كان ينهض به في كل بلدة قاض منهم . ومن طريف ما في هذا العهد أنه يشير إلى أن أناسا كثيرين كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا في الدوحة العلوية ، ولذلك نرى صاحب يأمر هذا النقيب بتتبع المنتحلين للنسبة ، وإشهار أمرهم . ويظهر من جوانب أخرى في الرسائل أن الذي كان يحج بالناس في هذا العصر شريف من الشرفاء .

وليس الذي ذكرناه كل ما في هذه الرسائل من دلالات سياسية واجتماعية ، وإنما هو بعض دلائلها أثرناه لندل به على غيره ، حتى نصور بعض التصوير قيمة الرسائل من الوجهة التاريخية .

قيمة الرسائل الأدبية

قلنا آنفاً إن رسائل صاحب وثائق تاريخية مهمة في العصر البويهى ، ولا ريب أن قيمتها الأدبية أعظم من قيمتها التاريخية ، فقد تناولت موضوعات يصعب تطويعها للأساليب الأدبية ، من مثل سقى الأرض والخراج وأمن الطرق ، وأمور أخرى تحدّثها الحقائق ، ولا يتسع فيها الخيال ، ويصرّفها العقل ولا ينفسح فيها مجال العاطفة ، فلا يستطيع إلا كاتب قدير أن يسرد هذه الموضوعات وأشباهاها في أسلوب أدبى . وهذا دليل من أدلة كثيرة على اتساع الأدب العربى لموضوعات لا تعدّ في النظرة الأولى من موضوعات الأدب ، ولا يتسع المجال هنا للإفاضة في هذا الجانب .

ولم ينشر قبل هذه الرسائل لوزير من وزراء بنى بويه مجموع من الرسائل يماثل هذا المجموع ، بل لقد ضاعت رسائل هؤلاء الوزراء جملة ، ولم يبق منها إلا قليل روى في اليتيمة ومعجم الأدباء وغيرهما من كتب الأدب . وأعظم وزيرين أدبيين عرفا في فارس أيام البويهيين هما ابن العميد وتلميذه وخريجه ابن عباد . ولم ينشر لابن العميد ما يكشف عن فنه وأساليبه كشفا تاما . فكان لنشر هذه الرسائل فوائد كثيرة إذ نطلع منها على رسوم الكتابة الديوانية في إيران لهذه العصور .

وأول ما يدرك القارئ من رسوم هذه الرسائل الصحابية ، أنها تبتدىء بالتحميد والصلاة

على النبي وأحيانا بالدعاء ، وغالبا ينوّه الصاحب باسم سيده الذى تصدر الرسالة فى عهده ، وهو حين يذكره لا يُطَنَّب فى تلقبيه ، بل يكتفى باللقب الذى خلعه عليه الخليفة مثل مؤيد الدولة أو ركن الدولة ، وهو يذكر عضد الدولة باسم الملك السيد ، أو الملك شاهنشاه .

ويعبر الصاحب بكلمة الحضرة السامية ، أو الحضرة الشريفة ، أو الحضرة البهية ، وكذلك يعبر بالجلس العالى والجلس الشريف ، وقد يعبر عن نفسه بأنه عبد سيده ، ولكنه لا ينحدر من ذلك إلى الخنوع والتذلل ، على نحو ما حدث بعد ذلك فى الرسائل الديوانية ، من الغلو فى الأوصاف والإكثار من الألقاب والتفنن فيها فى صدور الرسائل ، وقد بالغ الكتاب بعده فى ذلك بصور مختلفة حتى قالوا : " خادم الخدمة الشريفة فلان " ، وقالوا : " قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة " (١) .

ويختتم الصاحب رسائله أحيانا بالدعاء ، ولا يطيل فيه ، إلا إذا كان بصدد فتح عظيم ، فإنه يسهب فيه ويطنب ، على نحو ما صنع فى الرسالة الثامنة من باب الفتوح ، فقد امتد الدعاء فيها إلى نحو عشرين سطرا . وربما يعرض الدعاء والتحميد أثناء الرسائل ، ولكن هذا نادر .

وإذا تركنا طريقة الافتتاح والاختتام فى الرسائل إلى اللغة والأسلوب ، فسالنا أكان للفارسية أثر فى كتابة الصاحب ، وقد قلنا آفا إنه كان يتقن الفارسية ، ويقول الجاحظ : " اللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد ، أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبها " (٢) . فهل أدخلت الفارسية الضيم على عربية الصاحب ؟

والإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نحتاط فيها ، إذ يجرى على أقلام بعض الأدباء دعوى تأثر العربية بالفارسية كلما كتبوا عن الأدب العربى فى العصور الإسلامية . وهى دعوى لا يستطيع إقامة الدليل عايبها إلا بالرجوع إلى الأدب الفهلوى ، الذى اشتق منه الأدب الفارسى الحديث ، وإلا بمسيرة الأدب العربى فى تطوره أثناء العصور الإسلامية الأولى . والذى يبدو لمن درس الأدبين أن موضوعات انتقلت من الأدب الفارسى المنشور إلى الأدب العربى ، وأن بعض رسوم الرسائل الفارسية تسربت إلى كتابة الدواوين العربية ، وأن ألفاظا فارسية كذلك استعملت فى العربية . وأما أن تركيب الجملة العربية طابع تأثير

(١) تاريخ الوزراء للصائى س ١٥٠ وما بعدها . (٢) البيان والتبيين للجاحظ طبعة السندونى ١٣٩/١

الفارسية ، أو أن أسلونا من أساليب العربية يعدّ محاكاة لأساليب فارسي ، فأمر عو.ص ينبغي أن لا يقدم عليه الداحت المتنت إلا بعد بحث طويل دقيق . ولولا هذا لأحلتنا بعض عبارات الصاحب على عبارات فارسية .

ومن أجل ذلك تقتصر — في إجابة السؤال السابق — على ما لا شك فيه من استعمال الصاحب ألفاظا فارسية في أمور الخراج وسقي الأرض ونحوها لا يجد من استعمالها مناصا . وهي مبثوثة في رسائله . وقد استعمل الظاء بدل الصاد في بعض كلماته مثل إقصاء فقد كتبت إفظاء^(١) والضغائن كتبت الظغائن^(٢) وأسا بدرى أهدا من عمله أم من عمل الساخ . وعلى كل حال نحن لا نملك القطع بأن الصاحب علمت عليه المحمة لمثل هذا الاستعمال . وقد جاء في الرسالة التاسعة من الباب الأول كلمة "مسجد حامعها" يريد مسجدها الجامع ، وهذه صياغة فارسية إذ يصيف الهرم الموصوف والتمعة معا إلى المصاف إليه

والصاحب يختار ألفاظه من ذات الحروف الصنمة ، حروف التعميم والإطلاق ، فتكثر في كلماته حروف القاف والصاد والظاء والصاد والظاء ونحوها مما يجعل الكلام جريلا ذا جلبة وريين . ومن أجل ذلك كان ماء الصاحب قونا صخا يروع القاري لأول وهلة بصلانته ومئاته ، وهو قصد إلى ذلك قصدا ، حتى يخلق في أجهاته العليا من فن الكتابة كما تتصورها وتقع في وهمه . ويتصل بذلك أنه يعرب أحرفا في ألفاظه ، فيختارها من المعجم غير المؤلف رعة منه في الازمعة ، وقد ساعد في ذلك ما يريده من ذلك ، أنه كان واسع العلم باللغة ، وقد ألف فيها معجما كما ذكرنا قولا

وإذا تركنا ألفاظ الصاحب إلى أساليبه كانت أهم ما يلفت فيها كثرة الاعتراض والمواصل ، فقد يفصل بين المبتدأ والخبر محملة تمتد إلى ثلاثة أسطر^(٣) ، وقد يفصل بين الفعل ومفعوليّه محملة تمتد إلى خمسة أسطر^(٤) . وقد يفصل بين فعل الشرط وجوابه بنحو سبعة أسطر^(٥) . وقد أخذ السامعون على ذلك . وثالثا إن هذا يحدث مازلا في أساليبه^(٦) . وكما ذكرنا من الاعتراض يكثر من المغمذ من المعطعات ، وخاصة إذا كانت محرورة ، ولذلك شكلناها

(١) انظر الرسائل ص ٧٦ .

(٢) الرسائل ص ١٦ .

(٣) الرسائل ص ٩١ .

(٤) الرسائل ص ١٧٥ .

(٥) رسائل ص ١٥ .

(٦) الإلماع والمؤاسة ٦٤/١ .

في مواطن كثيرة ، حتى يستبين القارئ تعلق الكلام ببعضه ببعض . وأكبر الظن أن صاحب كان يريد أن يدل على مقدرته ؛ وقد كانت لديه نزعة للإغراب . ويدل على تغافل هذه النزعة فيه أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة فوقع فيها ، ولما ردت إليه الرقعة لم ير فيها توقيع ، وقد تواترت الأخبار بالتوقيع فيها ، فعرضها الرجل على أبي العباس الضبي ، فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع ، وهو ألف واحدة ، وكان في الرقعة : " فإن رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل " . فأثبت صاحب أمام فعل أنقأ يعني أفعل ^(١) . وأيضاً روى الثعالبي أن صاحب صنع قصيدة ممررة من الألف انتى هي أكثر الحروف دخولا في المظوم والمنشور ، فتداولها الزمارة وعجبوا منها ، فصنع صاحب قصائد ، كل منها خالية من حرف من حروف الحجاء . وهذا كله يؤيد أن صاحب كان ينزع إلى الإغراب ، كما كان ينزع إلى أن يشق على نفسه : - حتى ينذر قدرته ومهارته ، ومن هنا يأتي استخدامه للغريب ، وإكثاره من الاختراش النادر بين المعطوفات .

وقد كان صاحب ينزع في أماليه لما شاع في عصره من استخدام السجع والبديع ، وقد اشتهر في عصره بأنه يكلف بالسجع كلفاً شديداً ، قال أبو حيان : " كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجدل والحرل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد ، قلت لا بن النسي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سبعة ينحلق بنوقها عروة الملك ، ويضطرب بها جبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرمٍ ثقیل وكثافة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يُفَرِّج عنها ويُخْلِصها ، بل يأتي بها ويستعملها : ولا يعاباً بجميع ما وصفت من عاقبتها " ^(٢) . ويزعم الرواة أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجها إلى أصفهان وطريقه رامين ... فجاوزها إلى قرية غامرة وماء مالح ، لا شيء إلا ليكتب إلينا : " كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت في نصف النهار " ^(٣) . ويستمر الرواة فيقولون : إن سَجَمَةَ اضطرت صاحب إلى عزل قاضي قم ، فقد كان عنده ، فقال له : أيها القاضي بقم ، وأراد أن يكمل السجعة فأعياه ذلك ، فقال : قد عزلناك قم ^(٤) .

(٣) معجم الأدباء ٢٢٠/٦ .

(٤) انظر مادة قم في معجم البلدان لياقوت .

(١) ينمية ٣٨/٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٢٠٧/٦ .

ولا ريب أن هذه روايات بولغ فيها ، فما بين أيدينا من رسائل صاحب لا يدل على هذا الكلف الشديد بالسجع ، إذ نراه كثيراً ما يكتب بالازدواج . وربما كان هذا كله مما لفته عليه خصمه أبو حيان أو خصوم آخرون ، وأعانهم عليه تكلف صاحب أحياناً في أسجاعه ؛ وإن سجعاً ليطرّد في كثير من فصوله اطراداً ، فلا يعوقه عائق ، ولا يخاطبه تصنع أو تكلف .

وكما كان صاحب يعنى بالسجع في أسلوب رسائله كان يعنى بالبديع ، وأكثر حلي البديع استهواء له حلية الجناس ، وكانت تغلب عليه حتى في أحاديثه . روى عن بعض ندمائه أنه قال : كنت يوماً بين يدي صاحب ، فقدم البطيخ ، فقلت لا مترك ، فقال بالعجلة : لمترك ، وكنت أريد أن أقول : لا مترك للبطيخ ، فسبقني إلى التنادر بهذا التجنيس^(١) .

وقد عنى صاحب في رسائله بالاقتناس ، ولا سيما من القرآن الكريم ، فهو مولع باقتباس الألفاظ والعبارات القرآنية ، وإدخالها في مادة لغته . وفي أحوال كثيرة نراه يختم الفصل في رسالته بآية من القرآن ، وقد صنع ذلك في طائفة من عهوده ، هالترزم فيها احتتام كل فصل بآية من الذكر الحكيم . وكما يقتبس صاحب من القرآن بقتبس من الشعر والأمثال ، ولسكنه لا يكثر من ذلك .

وقد تعلق صاحب باستخدام التشبيهات والاستعارات في رسائله ، وطلب شاذها وغريبها كقوله : ” فلم يكتسب بطلب الفرصة إلا تجرّع الغصة ، ولا من تتبع الغرّة ، إلا تدرّع الحرّة ”^(٢) . والحرة معروفة ولكن تدرّعها هو الغريب ، ومن ذلك قوله : ” عبد مولانا أخص بالخدمة ، وألبس للنعمة ، من أن يخبر عما تورده هذه الفتوح على نفسه ، وتأتيه في إعلاء منكبها وطرفه ”^(٣) . والتعبير بما تأتيه هذه الفتوح في إعلاء منكبها وطرفه غريب . ومن ذلك قوله ” أمسك ونيران قلبي تفور ، وأرض صدرى تمور ”^(٤) .

ولعل مرد هذا كله إلى ما كان في صاحب من ميل إلى الإغراب والتألق . وقد كان يتألق حتى في خطه ، وما يستعمله من قراطيس في رسائله ، فقد روى أنه لما أنشأ العهد إلى القاضي

(٣) الرسائل ص ١٤ .

(١) بتيمة ٣/٣٦ .

(٤) الرسائل ص ١٢٠ .

(٢) انظر الرسائل ص ٧ ، والحرة : شدة العطش .

عبد الجبار — وربما كان العهد الأول في الباب الثاني من هذه الرسائل — كتبه له بخطه ، واعتنى بزخرفته ، ويقال إنه كان سبعة سطر ، كل سطر في ورقة سمرقندی ، وله علاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة ، وقد أُهْدِيَ هذا العهد إلى نظام الملك في القرن الخامس^(١) .

ونرى من كل ما سبق أن صاحب عُني في رسائله بالسجع ، فلا ينفك عنه إلا نادرا ، كما عُني بطول الجمل وتحليتها بالبديع ، وخاصة الجناسات والاقتراسات والتشبيهات والاستعارات . وإن من يقرن رسائله إلى رسائل القاضي الفاضل وحليته من كتاب العصور التالية ، يدرك أن هؤلاء الكتاب إما استنوا في رسوم كتاباتهم بالسنن التي نراها هنا عند صاحب ، وقصد سنن تطويل العبارات ، وما يطوى فيها من سجع وبديع . وهي سنن اُتفقت عليها فيها أستاذ ابن العميد ، ومن المعروف أن ابن العميد تناول الكتابة بمن سبقوه ، وهي مليئة بالسجع ، على نحو ما نجد عند كتاب المقتدر ووزرائه^(٢) . ولم يكتب ابن العميد بالسجع فقد أضاف إليه البديع وكان يشغف بالطباق ، ثم جاء صاحب من بعده ، فارتفع بالكتابة الديوانية إلى الصورة التي وصفها . وهي صورة تستمد خطوطها وألوانها من السجع والتشبيهات والاستعارات والجناسات والاقتراسات وكل ما يمكن أن يُعَدَّ حلية بيانية . وقد تحكمت هذه الصورة في الأجيال التالية بحيث لم تستطع أن تضيف إليها جديدا مهما ، سوى ما كان من لون التورية .

ومجمل القول أن صاحب كان علما من أعلام البلاغة في عصره وبعد عصره ، وحق ما يقوله الثعالبي من أن " كلامه سار مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب " . وهو ليس كلاما مكرورا ، مما يقرؤه عند أصحاب الرسائل الإخوانية ، بل هو في موضوعات من التاريخ والسياسة والاجتماع ، وهي موضوعات لا يوفق إلى الإجابة فيها ، إلا من أوتي علم صاحب اللغة ، ودرسه للأدب ، وطبعه مدادا ، وملكة قياضة . والله المستعان ؟

(١) طبقات السبكي ٢٣٠/٣ .

(٢) انظر تاريخ الوزراء للصابي ص ٢٧٧ ، وكذلك معجم الأدباء ١٧/١٣٦ ، ٩٧/١٨ .

الرسائل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ذكرت - أطال الله بقاءك - شديد حرصك على تحفظ بعض رسائل
الصاحب كافي الكفاة رضى الله عنه ، واحتياجك إلى من تستعين به على جمع
ذلك مبوبا ، مختارا الأشف فالأشف منه . فوعدتك القيام لك به ، وجردت له
عنايتي ، وخرجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله العشرين عشر
رسالات ليخف حجم هذا المجموع ولا يعتاص تحفظه . وقد رجوت أن يقع
ذلك منك موضع الوفاق ، والله ولي التوفيق والإرشاد .

فالباب الأول

في البشائر والفتوح .

والباب الثاني

في اليهود .

والباب الثالث

في الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير ومراعاة

الكنيسة من السنين وما يجري مجراه .

والباب الرابع

في أمر الحجيج والمصالح والثغور .

والباب الخامس

في الاستعطاف وما يجاسه .

والباب السادس

في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين

العقوق بين ذوى الأرحام وما يشاكل ذلك .

والباب السابع

في المدح والتعظيم .

والباب الثامن

في الدم وتهجين وما يجري مجراه .

والباب التاسع

في التهاى .

والباب العاشر

في التعارى .

والباب الحادى عشر

في الإخوانيات والمداعبات .

والباب الثانى عشر

في التشكر .

والباب الثالث عشر

في الاستزادة والتقرير .

والباب الرابع عشر

في التنصّل والاسترضاء .

والباب الخامس عشر

في الشفاعات .

والباب السادس عشر

في توصية العمال بتجلبّ المال وإظهار العفاف

وحسن السياسة .

والباب السابع عشر

في الأدب والمواعظ .

والباب الثامن عشر

في فصول وغرر ، وتوقيعات وذرر .

والباب التاسع عشر

في النوادر وهى الكتب النادرة .

والباب العشرون

في الشوارد و [هـ] الكتب المختلفة المعانى .

الباب الاول

في البشائر والفتوح

١

كتابنا — أدام الله عزك — من المعسكر بظاهر إستراباذ^(١) ، وقد أنزل الله علينا النصر ، وسهّل لنا بعلوّ جدّ مولانا الملك السيد^(٢) العلوّ والقهر ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله وصحبه أجمعين .

(وأحسن نعم الله تعالى غُررًا وأوضاحا ، وأبينها فلَقًا وصباحا ، وأولاهها إذا تُصَفِّحت المواهب أخذًا بحظ السابق ، وأولاهها إذا تُتَبَّعت المناجح فوزا بالعز الشاهق ، وأحراها بأن تُثَنَّى عليها السنة الأيام والليالي ، وتُثَنَّى إليها أعناق الحامد والمعالى ، نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحةً ونصراً ، ونظمت نُجُجًا وقهراً ، واستذلت ممتطياً للبحرود لاهياً عن غَوْرِهِ ، مُسْتَشْرِياً في الغموط عادياً لطوره ، وتلك^(٣) النعمة عند مولانا الملك السيد ، إذ عَضَدَ الدولة . وتَوَجَّجَ الملة ، وحرس الأمة ، وزحزح الغمّة ، ورغد الخلافة ، وبَسَطَ العدل والرافة ، وطهر البلاد ، وعمرَ الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدّ الثغور . فشهدت فتوحه بأنه مؤيّدٌ من عند الله ، ومحوط الملك بيد الله ، لا ينزع رأيه منازِعٌ إلا تَلَّ لجبينه ، وعوجل بقطع وتينه . ولا يمانع رايته ممانع إلا غُلت يده دون مطلبه ، واقتطع أمدّه من مهرنه . ولم يعزّ بالتحصن عليه مارق ، والتمنع دونه مشاقّ مفارق ، إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكّن منه القضاء سمحاً فاستُنزل عن معاقله وصياصيه . وعيانُ ذلك لمشاهده ، قبل إقامة شواهد ، حادثٌ ما أجزانا الله عليه في ظله ، وباعتلاق

عضد الدولة .

(٣) في الأصل : فتلك .

(١) إستراباذ : مدينة في شمال فارس وكانت في

العصور الوسطى المدينة الثانية في إقليم جرجان .

(٢) يريد الصاحب دائماً في رسائله بالملك السيد

حبله ، في أمر الغامط قابوس^(١) بن وشمكير ، إذ مضى أخوه^(٢) وكان للطاعة عبدا ، ومع أيدي أوليائها يداً ، وهذا الجاحد مغمور في أهله ، مخفور في نفسه وفعله ، يكاد ضُمور القدر يخفي شخصه ، وغموض الذكر يتولى غمضه ، واستجار بنا وهو في قران ذهول ، وضمان خول ، فظنناه إذا اصططنعناه لمولانا الملك السيد ولنا^(٣) — منتضين له من غمد الامتهان والابتدال ، ومستأين من عادية الامتحان والاختلال — واستخلفناه على بلاد جرجان وطبرستان يشكر النعمة ويرتتها ، ويُدمن الخدمة ويحسنها ، فرفعنا خسيسته ، وجبرنا نقيصته ، وجمعنا له بين التمكن من هذه الأعمال والبقاع ، والإيثار بما فيها من المعامل والقلاع . فحين رأت عيناه ، ما لم يباغته مناه ، واتسعت نعمته ، بحيث لم تُنلْ همته — وقد نقلناه إلى رتبة لم يدر أنه راقٍ إلى سماوتها وأثقلناه بنعمة لم يأمل أن يتعلق بغلاوتها — نفخ الشيطان في سحره ومناخره ، وضرب بالأسداد بين أوائل أمره وأواخره ، وحبَّب إليه العناد حتى سيط بلحمه ودمه ، وكرَّه إليه الرشاد حتى ألقاه وراء ظهره وتحت قدمه ، وأقبل على الشروط ينقضها ، والمواثيق يرفضها ، والرعية يحتنكها ، والدماء يسفكها ، وسُنَّ الظلم يحبيها ، وسير العدل يميها ، والنفوس البريئة يرتتها ثم يغتالها ويُفيتها .

ومولانا الملك السيد في كل ذلك يُؤليه صفحة صفحة ، ويؤليه العفو من عفوه ، فيتجاوز عنه حلما ، ولا يتجاوز به التنبيه كظما ، ونسلك فيه هذا المذهب ونعمته ، ونحذره في أثناء الإغضاء وزُشده . رجاء أن يَنْزِعَ أو يَنْزِعَ ، أو يُتْلِعَ أو يرتدع ، إلى أن عاد بُدُو شره فادحا ، وفتى جهله قارحا ، فاستبد استبداد المضاع لا الطائع ، والحدوم والمتبوع لا الخادم الناع واستلان لبس الخازي ومدَّ سُجوفها ، وتلقَّب شمس المعالي^(٤) وكان كسوفها ، صنيع من لم يُؤتَ بَسْطَة في علمه ولا جسمه ، واستولى البؤس على عيشه واسمه . وما غادر مع ذلك من المروق مناطا إلا بلغه ولجج ، ولا بابا من الفسوق إلا قرعه وولج ،

(٣) يريد هنا مؤيد الدولة وكان صاحب وزيره ومشير .

(٤) هذا اللقب لقبه به خليفة بغداد على عادته في تلقيب ملوك الدول الإسلامية التي نشأت في ذلك العصر ألقاباً مخنّاة .

(١) أحد ملوك الدولة الزيارية التي تسلطت في طبرستان من عام ٣١٦ إلى عام ٤٧٠ هـ .

(٢) هو بيسنون بن وشمكير الذي توفي عام ٣٦٦ هـ ، خلفه أخوه قابوس أميراً على طبرستان ، انظر ابن الأثير طبع أوروبا ٥٠٦/٨ .

إلى أن صار السبب في استئزال فلان^(١) ، فدلّاه بغروره ، واستهواه إلى جانب ثبوره ، كأن لا رِقْبَةَ عليه ولا محاسبة ، ولا عصمة بينه وبين الطاعة ولا مناسبة . ولم تُرضه هذه المساوىء التي لا مُساوَىَ له في ارتكابها ، وقد ملأ حقائقه من إجتارها واحتقائها . فأخرج فلانا إلى جبل^(٢) شريار ، وبه^(٣) أخونا أبو الحسن على^(٤) بن كامة مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — من لا يَصْطَلِي الخالفون بناره ، حتى يحرقهم بشراره ، وقد نَسَخَ الجبل^(٥) قرنا بعد قرن ، وأوسع أركانهم وهنا بعد وهن ، فردوا نا كصين على الأعقاب ، متقمصين لباس الخُسْر والتباب .

ثم تصدّع شمل المقيم على العقوق^(٦) ، والمديم للمروق^(٧) ، تصدّعا نتجتة الخيفة والمهاية ، لا الرُّجْعَى والإِنَابَةَ . فعلم أن الله قد وكله إلى حول نفسه وخلّاه ، وخاف أن ينتقم منه وقد أملاه . وقرر مولانا^(٨) بحضرة سيدنا ومولانا الأمير^(٩) وقتا وقتا حال النواحي ومن كنا وليناه ، ودفعه بيد الكفر في صدر ما أوليناه^(١٠) . فكاتبني أمير المؤمنين على ما أشعت من الذكر ، وأشبت من النشر مستكفيا ، وأهاب بي لارتجاع الوديعة من جاحدها مستصفيا . ورأى أن تكون جرجان وطبرستان مضافتين إلى ما نليه حاضر النظر ، ونديره تدير العيان دون الخبر^(١١) . ووافانا من حضرة مولانا^(١٢) أبو حرب زيار^(١٣) بن شهر كويه مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — وعينه فرارُه ، واختاره حيث اختاره ، قد نجّذته الحروب ، وخفّت عليه الخطوب ، زعيا على من ضامّه من خيل ، كقطع الليل ، ورجال ،

(٨) يريد مؤيد الدولة .

(٩) يريد عضد الدولة .

(١٠) يريد قابوس .

(١١) يشير هنا إلى ما كان من سؤال عضد الدولة

الخليفة الطائع لله - حين حمى قابوس نحر الدولة

أن يعقد لمؤيد الدولة على أعمال جرجان وطبرستان

فأجابه إلى ذلك ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٥ .

(١٢) يريد عضد الدولة ، انظر المرجع السابق

ص ١٥ .

(١٣) في الأصل : زياد بن اشهر كويه وهو

تحريف ، وكان زيار هذا من كبار قواد عضد الدولة

ثم ابنه مصصام الدولة .

(١) يقصد هنا نحر الدولة فقد خرج على أخيه

عضد الدولة ، وهاجر إلى قابوس مستجداً به خياه

وكانت حمايته له سبب هذه الحرب .

(٢) أحد حصون بلاد الجبل أو الجبال التي كانت

تقع جنوب طبرستان .

(٣) في الأصل : وبها .

(٤) أحد قواد الدولة البويهية العظام وقد توفي

عام ٣٧٤ هـ . انظر ابن الأثير ٢٨/٩ .

(٥) هكذا في الأصل ولعلها الجبل وهم سكان

جبلان وهو إقليم وراء طبرستان

(٦) يريد نحر الدولة ، انظر ذيل تجارب الأمم

نشر آمدرود ص ٢٤ .

(٧) يريد قابوس بن وشمكير .

خلقوا لقطع الآجال ، مقرّونا من فلان بالسديد رأيا وروية ، الشهير في مجارى التدبير مشورة ناصعة وبصيرة قوية ، فنهضنا وقد ضمّنا الخليل الواردة إلى جيوش ترخف — بعون الله — لها الأرض ، ويستوى بها — والمنة لله — النشر والخفض .

وراسلنا المغرور نناشده حق الصنيعة ، ونبصره فرض الشريعة ، ونعلمه أن هواء الغمط وبيّ ، وفناء النكث فناء وحيّ ، وأنه — إذا حللنا بعقوّته — غرض الخوازم ، وهَدَفُ الخواطف^(١) ، وأن أتباعه رجلُ جراد وافت بها الريح في يوم عاصف . وعادت عنه أجوبة حققت أن الغامط مسوق إلى جزاء أعماله ، مسبوق بقضاء لا مطمع في انحلاله ، إلى أن شافها طبرستان وقد طار عنها أخوه^(٢) ، والآخرون ذووه ، واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلاهم نخورهم . فبسطنا بها المعدلة سهولا وجبالا ، وأمضينا^(٣) فيها الإحسان يمينا وشمالا ، وألف الجاحد باستراذ عديده ، وأرهف حده وحديده ، مستوثقا من مضايقتها ، معمقا لخنادقها ، مقدرا أن الحصون واقية من يطلبه جند الله وحزبه ، وحامية من يدهمه سخط الله وحر به . والمستأمنة منذ أول حطنا بويمة^(٤) ، إلى أن أمضينا في المناجزة العزيمة ، يتقاطرون نافضين أيديهم بالخذلان وزعيمه^(٥) ، آيضين إلى ذمام التوفيق وحر يمه .

وقد كان المشبور حسب المجاهدة تقع على باب إستراذ المفضى إلى سمت سارية^(٦) ، وهو سنك على الفارس والراجل ، ضيق على الزارق والنايل ، رجاء أن تتدارك المدافعة ، أو تتماسك المانعة ، وتأميلا لأن تكون جرجان وراء ظهره ، وباقية مدة مطاولته تحت أمره . وأملنا عنه أعنة الخيول إلى باب استراذ المواجه لجرجان برأي صائب سافر ، على طريق بكر لم يفتزع بخف ولا حافر ، فبردت أرواح الضلال ، وعلموا أن سعيهم في وبال وخبال . وشحنّا جرجان بخيل سربناها إليها ، وضمّناها إلى أبي الوفاء بكتكين الحاجب مولى مؤيد الدولة — أيده الله — ليطنب عليها ، فقد كان أهلها من عسف المارق وخبطه ، فيما ضاعفه عند نهوضنا لمحاصرته وضغطه ، فأزخى من خناق تلك الرعية ،

(٤) وية : بلدة صغيرة كانت في الجبال بين الرى وطبرستان .

(٥) يقصد بالزعيم قابوس

(٦) إحدى مدن طبرستان .

(١) الخوازم : السيوف ، والخواطف هنا : الرماح

(٢) هو جركاس بن وشمكير ، انظر ذيل تجارب

الأمم ص ١٧ .

(٣) في الأصل : وأقصينا .

واستخلصت من أنياب العسف ومخالب الأذى ، وخيمنا فأعدنا الذكري على الفار مع الاقتدار ، وحذرناه العقبى على قرب الدار ، آخذين بإذن الله ، عند مقاتلة البغاة ، ومقابلة الخوارج العتاة ، فخيل إلى المضعوف أن تركنا التسرع إلى قصده ، استصعاباً للخطب دون حصده ، ناسياً أن الحنف يتاح دفعة فلا يبقى ولا يذر ، والحين يساق ضربة فلا يؤخر ولا ينظر . ورصد في بعض أيامه لطليعة خفيفة قربت منه فتلقاها بأصحابه جميعاً ، وطمع في أن يركب منها مركباً فظيعاً ، فلم يكتسب بطلب الفرصة ، إلا تجرع الغصة ، ولا من تتبع الفرّة ، إلا تدرج الحرّة ، فتحققنا عند ذلك أن تركه في اغتراره ، غلو في تأخيره وإنظاره ، لا سيما وقد بدأ وهو مطلوب ، وتعرض وهو مغلوب ، فصممنا على اللقاء ووجوبه وقد استعدنا من البغي وركوبه ، وزحفنا يوم كذا مستظهرين بعادة الله وعِدته ، معلنين بشعار أمير المؤمنين ودعوته ، ومستنجنين بدولة مولانا الملك السيد وكلته .

وأطاع الغامط أذهب وجهيه^(١) مع الفرّة ، وأقضاها بالشقوة المستمرة ، وأقدم على المساورة ، وحض أصحابه على المصابرة ، وخف الأولياء إليهم فحلت الجبال سائرة ، والبحار نائرة ، والأسلحة تبصّ عليهم لمعان الشمس ، وتروع أطباق القلوب قبل إزهاق النفوس ، وشاهد المخاذيل منهم ما أطار العيون عن حجاجها ، وأطاح القلوب من انزعاجها . وثمرت الحرب عن ساقها ، وتنمّرت بحمرة أحداقها ، ودارت كأس الموت دهاقا ، وعاد لقاء القرن للقرن عناقا ، فكسرنا المداير بالديلم زرقاً ، وبالغلمان رشقاً ، ومليك عليهم الخندق^(٢) بعد أن جعل قتلاهم معابر ، وجرحاهم قناطر ، فما انتصف النهار إلا وقد انتصف الله للحق من الباطل ، وكُنِفْنَا بالأيدى القاهر والنصر الشامل ، واقتسمت المخاذيل الهزيمة بين قتلى أجروا من دمائهم الجداول ، وأسرى استنفدوا الكبول والحبائل . وكان من وجوه المأسورين وأعيانهم ، والمعدودين في جمهور أعضادهم وأركانهم لشكرستان بن لنكرين وفلان وفلان ، فأما من سواهم فلم يتميز بعد مجهولهم عن معروفهم ، لدخول ميثم في أضعاف ألوفهم . وأفلت المفرور ، في فل الثبور ، مفرداً مزدوداً^(٣) ، موحداً مهدوداً . قد عرّف نفسه أو عرفها ،

الرماة ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٦ .

(٣) في الأصل : مزدوداً .

(١) في الأصل : نفيه .

(٢) يشير إلى الخندق الذي حفره قابوس بظاهر

إستراباذ ، وكان قد بنى عليه أبراجاً رتب فيها

وجمعت بين عينيه مساويه التي اقترفها ، وهو متبوع إلى أن يذيقه الله بأسه وإن كان قد أذاقه ، ويلقيّه جزاء كفره وقد شدّ له نطاقه .

فأما ما ملكه هو وأشياعه من مال وكراع ورقيق وسلاح فإن الله عز وجل أفاء منه غنماً على الأولياء ، ما سبق يد الحضر والإحصاء ، وقد تقدمنا بالمرنّ على الأسرى اقتداءً بالسنة المتبوعة في حقن الدماء ، بعد سكون الدّهماء ، وإيثار الاستبقاء ، بعد الاقتدار والاستيلاء . فالحمد لله معز الحق وناصره ، ومذل الباطل وقاهره ، العذل فلا يلبث أعمال المحسنين ، ولا يرُدُّ بأسه عن القوم المجرمين ، حمداً يديم لمولانا أمير المؤمنين علاء الحكمة ، ومضاً الكلمة ، وأبهة الإمامة ، وعظمة الزعامة ، وإرث الرسالة ، وعز الحجة والدلالة ، فالدين مالم يُقرن بطاعته نفاق ، والدنيا ما لم تسكن مع جماعته شقاق ، وأطال بقاء مولانا الملك السيد حارساً بعزته الإسلام وحوزته ، وأقيا ببسطته وقبضته الإيمان وبَيَضَتَه ، ولا ينجم في أوساط الأرض وأطرافها ناجم فتنة إلا عاجله غير منتظر ، وغادره هشيم المحتظر ، وأوزعني الله أن أشكر نعمة الله وقد أيدني وأيد بي ، وأصلحني وأصلح على يدي . ووقفني لأن انتضتني يد الخلافة صارماً أذب عن أنصار الملة فضيت ، وارتضتني حاكماً أقضى على كفار النعمة ففضيت مفوضاً في كل حال إليه عز ذكره ، وموقناً أن القوة به والأمر أمره .

طالعناك — أدام الله عزك — بهذا الفتح الزاهر ، والنجاح الباهر ، لتوفر حظك من الأنس له ، والشكر عليه ، وتُنطق أعواد المنابر والسنة المحاضر به ، فرأيتك — أدام الله عزك — في إعلامنا موقع هذه البشرى لديك ، وما تورده من السرور عليك ، وذكر ماتوقعه من خبرك موقفاً إن شاء الله .

٢ - وله في فتح قلعة

كتابي ، ونم الله عند مولانا الأمير فيما يليه من نجمه ، ويمضيه من حكمه ، متوالية ، وكلته في مصارف الزمان ، وأحوال السلطان ، عالية ، وأنا سالم من بعده ، وبعالى جدّه ، والحمد لله وحده .

✓ ووصلت كتب سيدي مفصحة من آثاره عما يُطيب النشر ، ويُطيل الفخر ،

وعرفت ما يَسِّرته له سعادة الدولة القاهرة ، والعزة الظاهرة ، حتى طَهَرَ تلك البلاد عن شوائب الفساد ، وأطلع فيها كواكب السداد ، فصَمَد له من أمر القلعة التي حسب مودعها أولاده ومستحفظها عتاده^(١) أن حماها لا يَرَام ولا يُدْرَك ، وقاطنها لا يُضَام ولا يُمَلَّك فلما غشَّها سيدي هَوَلة الانتقام ، وولَّاهَا جانب الاصطلام ، انحَلَّت بساكنيها^(٢) معاقدها ، وزلزلت عليهم قواعدها ، فمَلَكْتَ قَسْرًا ، وأَلْبَسُوا ذُلًّا وقَهْرًا . وتلك عادة الله عند مولانا في أوليائه وأعدائه ، وتابى رايته ومحالفي رايه ، وَعِدَّتْهُ للأمير في الواقفين مع أمره ، والصادقين عن^(٣) رسمه ، والمتمسكين بشعاره ، والمتحكيكين بناره ، فلمن أخلص نَجْحُ السعادة وبلوغ الرضاة ، وإدراك الآمال عن كَثَب ، ونيل الأمانى بأقرب طلب ، ولمن داهن الخزيِّ العميم ، والدمار المقيم ، والسعى الذميم ، والعذاب الأليم .

وسيدى سيف الضريبة ، وليث الكتيبة ، ما جرده موليانا — أدام الله علاها — في خطب إلا نفذ وجدًّا ، وبرِّى وقدًّا ، ولا أفرداه بأمر إلا أوفى على الذروة والغارب ، وحاز منية الطالب ، وبغية الراغب ، فالحمد لله حمد العارف بمقادير النعم ومحالها ، ومواقيت الشكر وأحوالها ، حمدا يزيد أبناء الحق ظهورا ويوسع أشياع الباطل ثبورا . وعرضت في المجلس العالى ما ورد ، فارتاح مولانا لمودَّعه ، واهتزَّ لمتصفِّحه ، واستقبل من حمد الله على مننه ما هو رباط عطايه وعقالها ، والداعى إلى أن تتصل موادها وأمثالها .

والقلعة الأخرى إذا صرَّف مولاي أهلها بين خشونة إيعاده ، ولين ميعاده ، وأراهم بريق حسامه ، مشفوعا ببروق إنعامه ، لم يلبثوا أن يسلموها خاشعين ، ويستسلموا لأمره متتابعين ، اللهم إلا أن تكون الشقوة عليهم مكتوبة ، والختوف مصبوبة ، والمتالف لهم راصدة ، وإليهم قاصدة ، فلمولاي حينئذ استنزال^(٤) عوائد الله عند مولينا ، حتى يسوق إليهم المنايا الحر ، ويُرَوِّى منهم الرايات الزرق والصورم البُثْر . وسيدى يُضغى إلى ما يورده مولاي حق الإصفاء ويتأمله تأمل مثله من أولى العزائم والآراء ، ويأخذ فيه بأدب الأناة حتى يتدبَّره ، ويتصور أوله وآخره ، إن شاء الله .

(١) لعله يريد فابوس ، انظر ابن الأثير ٨/٩ . (٢) في الأصل : مع .
(٣) في الأصل هكذا : لسكنيها . (٤) في الأصل : في استنزال .

٣ — وله جواب بشارة بتذل الروم وطلبها للهدة

وصل إلى خادم مولانا الملك السيد — أطال الله بقاءه — ما شَرُفَ بالمكاتبة فيه من نبأ النعم التي كتب الله له أثبتها أساساً ، وسَهَّلَ لجلده أشرفها أغراساً ، حتى لا تتوجَّه من هممه العالية همةً إلى أعظم مرقوب إلا أطاع ودان ، ولا يمتد من عزائمه الماضية عزيمةً إلى آخر مطلوب إلا كان واستكان ، تكفلاً منه — تعالى جده — بجمع الذخائر لديه ، وقصر المعالي والمآثر عليه ، وآيةً نصَّها للعيون المبصرة ، والعقول المتصورة في أن الدنيا له — أدام الله سلطانه — أنشئت أقاليمها وأمصارها ، وإلى أمره مصيرها ، وعلى حكمه مدارها ، فمن استشعر التسليم ، وسلك الصراط المستقيم ، فذاك اسرؤ انحلَّت رِبْقَتُهُ ، ورجحت صَفْقَتُهُ ، ومن تقاعد عن مالك الدهر ، وتقاعس عن ولي الأمر ، فالحثفُ له بمرصاد ، والهلكُ منه على ميعاد . وعرف عبده وابن عبده ما أنشأه الرأي العالی في تدبير الروم بما ترك الشرك في أشراك التحير وامتلاك الكُتُب والتعثر ، وصرف الكفر بطرف خاشع ، وخدَّ ضارع ، وذلك حين أرهقتهم الخفاة بقدر مادنت المسافة ، وعلموا أن معاهد الإسلام لا تُحَلَّ ، وطوائل الإسلام لا تُطَلَّ ، وقد أطلع الله عليهم شمس الانتقام ، وأجرى فيهم قدر الاصطلام ، وألقى بأسهم بينهم مقدمة لما يَمْضِيهِ ، وفاتحة لما يَقْضِيهِ .

واستجرت المهابة رسل الجماعة إلى الباب المعمور للاستجارة ، فصرفهم مولانا على ما كان لشمس الدين أجمع ، وللكلمة الضلال أقمع ، واستخلص ما حازوه من معاقل طالما استندوا منها إلى أركان متينة ، واعتصموا بحصون حصينة ، واستنقذ من المسلمين من تراخت مدة بلواه ، وكاد يُفْتَنَ في دينه بديناه ، وغشى الثغور من ظله ما غادر الكفر يرمقه ساهم السحنة ، ساجد الجبهة ، واقع اليد ، متراجع الايد ، فكثرت^(١) — أطال الله بقاء مولانا — عدد من شكر وحمد ، وركع وسجد ، ودعا وأمن ، وأثنى وأحسن .

ولولا أن أيام مولانا يُسْتَصَفَر فيها كل عظيم ، ويُسْتَحَقَّر لعزها كل جسيم لكان ما تجدد أكبر ماثور ومؤثر ، ومعبر عنه ومُخْبِر ، ولزم أهل المشرقين ممن نطق بكلمة التوحيد وعرفها ،

(١) في الأصل : فيكثر .

وَأَمَلُ نُصْرَةِ الدِّينِ وَتَشَوُّقُهَا ، أَنْ يَشْغَلَ لِسَانَهُ وَزَمَانَهُ ، وَقَلْبَهُ وَجَنَانَهُ ، بِالْدُّعَاءِ لِمَوْلَانَا مَا اعْتَقَبَ ظِلَامَ وَضِيَاءِ ، وَتَقَابَلَتْ أَرْضُ سَمَاءِ ، وَاللَّهُ يَطِيلُ بَقَاءَ مَوْلَانَا لِلْعَلَّةِ وَالذِّمَّةِ ، وَالْدَوْلَةِ وَالْحَوْزَةِ ، وَالْأُمَّةِ وَالْبَيْضَةِ .

وْخَادِمِهِ مُسْتَشْرِفٍ لِقِرَاءَةِ مَا يَخَاطَبُ بِهِ — إِنْشَاءُ اللَّهِ — مُحَدَّثًا بِاسْتِصْفَاءِ الرُّومِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ بِلَادِ الْكُفْرَةِ ، وَمَوَاطِنِ الْمُرْدَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ امْتَلَكْتَ بِيَدِ الْهَيْبَةِ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى مَنْ فِيهَا بِسُلْطَانِ السُّطُورَةِ ، وَالْإِسْتِذْلَالِ أَحَدِ الْأَسْرِينِ ، وَغَرَسَ الْمَهَابَةَ أَحَدُ الْمَلِكِينَ .

٤ - وَلَهُ كِتَابٌ بَشَرِي

كِتَابِي ، وَإِذَا عُدَّدْتَ النِّعَمَ لَتُحْصَلَ مَوَاقِعُهَا مِنَ الْعِظَمِ ، وَتُمَيَّزُ مَرَاتِبُهَا فِي الْمَنْحِ وَالْقِسَمِ ، وَيُقَابَلُ كُلُّ مِنْهَا بِمَا يَطَاقُ شُكْرًا يُفَاضُ فِيهِ ، وَنَشْرًا يُشَادُّ بِعَالِيهِ ، كَانَ أَجْدَرُهَا بِالْعَظِيمِ وَالْإِجْلَالِ ، وَأَظْهَرُهَا فِي تَحْقِيقِ الظُّنُونِ وَالْآمَالِ ، وَأَحَقُّهَا بِأَنْ يَتَّصِلَ لَهُ الشُّكْرُ فَتَعْمَ جَوَادُهُ ، وَيَدُومَ عَنْهَا الْحَمْدُ فَلَا تَنْقُطُ مَوَادُّهُ ، نِعْمَةُ اللَّهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ — عَزَّ اسْمُهُ — جَعَلَ رَأْيَتَهُ الْعِلْيَا ، وَآيَتَهُ الْكُبْرَى ، وَنَزَّهَ مَا أَوْلَاهُ عَنْ أَنْ تَسْعَى إِلَيْهِ الْأَوْهَامُ فَتَدْرِكُهُ ، وَأَجَلَّ مَا حَبَاهُ أَنْ تَعْلُوهُ الْأُمَانِيُّ فَتَمْلِكُهُ ، وَنَصَبَ الْأَيَّامُ تَوَارِيخَ لِمَا يُعَزِّزُ مِنْ نَصْرِهِ ، وَالسَّاعَاتُ مَوَاقِيتَ لِمَا يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهِ . فَمَنْ وَقَفَ فِي ظِلِّ طَاعَتِهِ أَخَذَ بِالْأَمَانِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ ، وَاسْتَوْتَنَ مِنَ الزَّمَانِ أَحْمَدَ الْمَقَارِّ وَالْمَنَازِلِ ، وَاسْتَظْهَرَ فِي مَصَارِفِهِ ، وَظَفَرَ فِي مَوَاقِفِهِ ، وَحَمِدَ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَرَعَى مِنَ الْعَيْشِ أَهْنَاءَهُ وَأَرْغَدَهُ . وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْوَرُطَةِ الْعَظْمَى مِنْ سَخَطِهِ وَإِنْكَارِهِ ، وَتَهَوَّكَ^(١) فِي الْخِطَةِ الْكُبْرَى بِمُخَالَفَةِ أَعْوَانِهِ وَأَنْصَارِهِ خَذَلَتْ يَمِينُهُ شِمَالَهُ ، وَبَايَنْتَ أَعْضَاؤُهُ أَوْصَالَهُ ، وَكَانَ فِي الْأَشْقَيْنِ مَكْتُوبًا ، وَلِلْفَمِ وَالْيَدَيْنِ مَكْبُوبًا ، لَا يَسْعَى لَخْلَاصٍ إِلَّا تَعَثَّرَ فِي أَذْيَالِهِ ، وَتَكَوَّرَ^(٢) فِي ضَلَالِهِ ، وَعَادَ اجْتِهَادَهُ بُورًا ، وَاحْتِيَالَهُ هَبَاءً مَنْشُورًا ، لِيَكُونَ مَا يُؤْتِي اللَّهُ تَابِعِي حَكْمَهُ ، وَالْمُنْقَادِينَ لِرَأْيِهِ وَهَمَّهُ ، أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَى حَسَنِ الْبَصِيرَةِ ، وَالْإِزْدِيَادِ مِنَ خُلُوصِ السَّرِيرَةِ ، وَمَا يَحْلَهُ بِمَشَاقِّ أَوَامِرِهِ الْمَتَّبِعَةِ ، وَمِفَارِقِ أَلْوِيَتِهِ الْمَرْفُوعَةِ ، أَوْ كَدِّ الزَّوَاجِرِ عَنْ خَرَقِ جَمَاعَتِهِ ، وَأَوْضَحِ الْفُرُوقِ بَيْنَ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَطَاعَتِهِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : تَكَرَّرَ . وَتَكَوَّرَ : مُرْعَ .

(١) تَهَوَّكَ : تَرَدَّى .

هذا ، وقد عرف الله الكافة ممن نهض به فحُصه وتنقيره ، أو قعد به عجزه وتقصيره ، أنه — تبارك اسمه — سهّل طرائق ذلك ومجاريه ، ورفع قواعده ووبانيه ، بمن انتضى دون الخلافة سيفه فصدق رجاؤه ومضاؤه ، وجردّ عن الإمامة عزمه فنفذ قضاؤه ، ووقف على حماية الدين خواطره فساعدته الأقدار ، وشغل بالزيادة عن المسلمين عساكره فخّير له الاختيار ، وهو مولانا الملك السيد^(١) فما يقصد وعراً إلا آض سهلاً ، ولا يحكم عقداً إلا استعاض حلاً ، ولا ينادى بلفظه مصرّاً إلا أجاب بالتسليم ، ولا يناجي بفكره صقلاً إلا دان لبأسه العظيم ، ولا يُضمر له المداجاة مُضمر إلا خبّا جُزءه ، وتبرّم به عمره ، وتقطعت وصائل بقائه ، واتصلت حباله هُلُكه وفنائه ، فضلاً من الله فات رويّة الروّين^(٢) ، وسبق أخبار الراوين .

وكنت عرفت سيدى حال ابن حمدان^(٣) حين نفته الأرض عن منابها ، وضاحت عليه من جوانبها ، ونجّى اسمه من صحيفة الأحياء ، إلا ما أُملى له لاستكمال الشقاء ، وأن الحيرة في مهار به رمت به إلى الروم ، فلما ظن الشرك يستر نفسه ، والكفر يستخبي شخصه ، تبعته من سطوة الملك السيد صاعقة خطوب على هؤلاء الأعلاج إيراً^(٤) لمسكانها ، وإن رضى بالتذلل بين بيعها وصلبانها ، فأخرجوه فريداً حريداً ، وأبعدوه شريداً طريداً ، تملكه الشقوة ويرصده الحما ، ويزعجه الصبح ويذعره الظلام .

وكان الملك السيد كاتبَ عرب الشام في اقتناصه ، وإيهام الوجوه دون خلاصه ، فاستقرّيت أخباره ، واقتفيت آثاره ، وعاجله في البوادي التي تطوّح بينها وجوه العرب ، وحثّوا إليه رواحل الطاب ، معلّنين بشعار الدعوة ، مُعْتَزِينَ إلى منتهاها ، مستظّلين بأكنافها ، مُوضّحين بسيماها ، والتقوا فقبَلَت ريح الإقبال لأولياء الله ، ودَبَرَت ريح الإِدبار لأعداء الله ، وأخذَ ابن حمدان أسيراً ، وخرّ عقيراً ، ورُفِع قتيلاً ، وغنمت تنمة ماله ، واضطُلِمَت بقية رجاله ، وُصِّلَت جثته إتماماً للعبرة ، وأُصدر رأسه على الرّسم إلى الحضرة ، فلم يبق لتلك

آمدروز ٣٨٤/٦ وما بعدها وتاريخ ابن الأثير

٥٠٨/٨ وما بعدها .

(٤) في الأصل : لإواء . وإيراً من أورأ بمعنى

أعلم وأظهر .

(١) يريد عضد الدولة .

(٢) في الأصل : الراوين والفعل من الروية روى

(٣) هو أبو تغلب بن حمدان . انظر حربه مع

عضد الدولة في تجارب الأمم لابن مسكويه نشر

العصبة المجاهرة بمداوتها وعدوانها ، المترددة بين كفرها وكفرانها ، من ينتمى إليها بسبب ، أو يضرب فيها بعرق ونسب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة .

ووافق ورود هذه البشرى حضرة مولانا الملك السيد طلوع أخرى جارتها في رهانها ، وزادت في علو شأنها ، وذلك أن بنى شيان كان شرُّها استفحل ، وداؤها أعضل ، بعجز من تقدم من الولاة عن رميها بأحجارها ، ومحو آثارها ، وحسم أطعائها ، وقصر أبوابها . فلما عاد الملك السيد إلى مقر عزه من دار الإمامة ، وجوار الخلافة ، جهّز إليها من مقاب النصر ، وجيوش الكفاية والقهر^(١) ، من يقيهما على مناهج الاستقامة إن لم تُسلمها جرأثرها ، ويعيدها إلى مدارج السلامة إن لم توبقها كبائرها ، فأبى الله إلا أن يذيقها وبال ما ارتكبت ، ويُجنيها ثمار ما احتقبت . وحسبت ترك المعارف إلى المجاهل يقيها ما أظلمها ، والإبغال في المسارب والمهارب يحميها ما أقلها ، فجذّ الأولياء في طلبها ، وأتاح الله لها قرب الإحاطة بها ، فقسّم الجمهور منها بين أسيرٍ سريع ، وقتل ذريع ، وملكت عليها ذرايعها وأولادها ، وعدتها وعتادها ، وكُراعها وسوائمها ، وولدانها وولائدتها ، وطهر الله البلاد من أدناسها ، فتركها عبرة لأضرابها وأجناسها ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ولا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين .

فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، ما دام الحمد منظوقاً به وملفوظاً ، وكان الشكر لازماً ومفروضاً ، إذ مهّد لأمر المؤمنين الخلافة فعظّم دلائلها ، وفخّم جلائلها ، وظاهر أمارات صحتها وثباتها ، وضاعف سموّ منازلها وعلو رتباتها ، وعضدها من الملك بحافظ عزتها ، وتاج ملتها ، وسائس أجنادها ، ورافع عمادها ، ومذلّ من نكّب عن محجّتها وصدف ، ومال عن قبلتها وانحرف ، وأوزعنى الله أن أشكر هذه المنن التي يقصر عمر الزمان عن إحصائها عدداً ، وحضرها لسانا ويدا ، إنه فعال لما يشاء .

ولما كان ما يتهيأ من هذه المطالب ، ويُهنأ من هذه المواهب ، مختصاً بسيدي للأحوال التي شاركت بين النفوس في المناخ ، والمحاسن والمناجح ، بشرته بهذه الرغائب الجامعة إلى الاستبشار ، اعتباراً بلطائف الله تعالى ، وإلى الابتهاج ، إكباراً لعوارف الله .

٥ - وله جواب فتح

كتابي — أطل الله بقاء الملك — والأرض مهتزة الأعطاف والمناكب ، ريباً الأطراف والجوانب ، لما يوالى الله تعالى لمولانا الملك من العز المنوح ، ويظاھر لأنصاره من عز الفتوح . ومن أقرب ذلك عهداً ، وأوجب شكراً وحداً ، ما وردت به البشرى الكبرى ، وتجددت معه النعمى العظمى ، فى افتتاح البصرة أحد العراقين ، وأشهرها ذكر فى الخافقين ، حين ملكت بجيش الرُّعب ، قبل امتلاكها بأبناء الحرب ، ومآك الخافقين فيها من الذعر والرهب ، ما كفى كُلفة اللقاء والطلب ، ووردها أبو الوفاء طاهر بن محمد ^(١) — أيد الله — فى المضمومين إليه من أبناء الدعوة ، وأنشاء القرية والحضرة ، فأفصحوا فيها بشعار الحق ، وخلصوا أحرارها من سمة الرق ، وأماتوا فيها سنَّ الجور والاعتساف ، وأحيوا فيها سير العدل والإنصاف .

وقد سَعِدَتْ سعداً بالطاعة ، وحصلت خَصلَ السابقين إلى عز الجماعة ، وربع على ربيعة من هُجْنَةِ الزَّيغ ما عَفَّتْهُ بالإبانة والمثابة ^(٢) ، وتلافته بالتماس العفو وحسن المثابة . فإن المهبة بذلك كادت تجلّ عن لسان الشاكر ، وتعظم عن ذكر الذاكر .

فالحمد لله على حسن ^(٣) نظره للأرض برها وبحرها ، سهلها ووعرها ، معلومها ومجهولها ، صعبها وذلولها ، بجمعها إلى خطة مولانا الملك السيد وَحَوَّزَتِهِ ، ونَفْسِيَّتِهَا بأيده وعزته ، حمدا يُسْعِدُ ما طلعت عليه الشمس وغربت ، بالانطواء فى أثناء سلطانه ، وإضاءة الأرجاء بنور زمانه ، إنه فعّال لما يريد .

وعبد مولانا أَحْصَى بالخدمة ، وألبس للنعمة من أن يخبر عما تورّد هذه الفتوح على نفسه ، وتأنيه فى إعلاء منكبه وطرفه ، ويقوم به من فرض الله — تعالى — على عظيم مننه ، والتحدث على المنابر ، فى الأندية والمحاضر ، بما يجدد الله تعالى من فضله .

(٣) فى الأصل : حسب حس ، وحسب زائدة لا داعى لها .

(١) أحد قواد عضد الدولة . وانظر فى وروده الصرة تحارب الأمم نشر آمدرور ٣٧٠/٦ .

(٢) فى الأصل : المثابة .

٦ - واه

كتابنا — أدام الله عزك — عن سلامة قد وصل الله أسبابها بالسعادة ، وأجرى فيها على كريم العادة ، والحمد لله رب العالمين . ومواهب الله عند مولانا الملك السيد — وإن كانت فائنة للتعدد ، ضامنة للمزيد ، سابقة للحصر ، غامرة للشكر ، متجاوزة حدود العرف ، ممتعة على أيدي^(١) الإحصاء والسنة الوصف ، مقبلة بالفتوح المتوالية ، مشتملة على الكلم العالية ، ناظمة أشتات العوائد ، شافعة غر المآثر بزهر الحامد — يحكم تفضل الله فيها باستعلاء نجمه ، واستخزاء الزمان لحكمه ، وتطامن الأقدار لرسمه ، واستجابة الأقطار لهمه ، حتى لا يستثنى عند ذكر ممالكه بلد ، ولا يشذ عن احتذاء مراسمه أحد .

إن لكل رغبة تستقبل ، ومنقبة تؤثّل^(٢) ، ومسعاة تستنجد ؛ ومملكة تفتتح ، وراية تذهب قدما ، وروية تنتج غنما ، وداء أعضل الأمم السالفة فهان بدولته علاجه ، وطرف أعيال الولاة السابقة فدان لعزته رتاجه ، لحقا^(٣) من الإشاعة والإشادة ، والإفصاح بما جدد الله من كريم العادة ، ليعلم المستعلم^(٤) كما عرف الناظر ، ويوقن البادى كما أيقن الحاضر ، أن الله — تعالى — النافذ أمره ، العزيز نصره ، الجلى صنعه ، الخفى مكره ، قد ذلل لمولانا الملك السيد ولنا فى ظل دولته مصاعب الأمور ، وألف على طاعتها مذاهب الجمهور ، فمن مسعود يسبق إليها فى قران التخير ، ومن مثبور يحمل عليها فى ضمان التسخير . ذلك بما صرف إليه مولانا الملك السيد عزائم المرتضاة ، وصوارمه المنتضاة ، من حراسة حريم الدين وحياطة حرمته ، وحماية زمامه وشد غرّوته ، والقيام لمولانا أمير المؤمنين بإيفاء الخلافة حق الإكبار والتوقير ، والخروج إليها من فرض الإجلال والتعزير^(٥) ، وشرح صدور المختبئين لها بما اعتقدوه وشحد بصائرهم فيما قصدوه واعتمدوه ، لثلاث تمل بهم السبل ، ويختلف عليهم القول والعمل ، واستماله الناكثين عن لوازمها المكتبة ، واستنابة الحائدين عن فروضها الموجبة ، بالوعظ إذا أغنى وأقنع ، والإيقاع بمن جمح وامتنع . والله يزيد مولانا الملك السيد ولى النعم المآثر التى قعدت دونها خطرات القلوب ، وعيّت بها همّات النفوس ، وكذبت

(١) فى الأصل هكذا : ايد .

(٢) فى الأصل : قول .

(٣) فى الأصل : لحق .

(٤) فى الأصل : المستسلم .

(٥) التعزير : التوقير والتعظيم .

عنها مصارف الآمال ومبالغ العقول ، إنه فعّال لما يشاء .

وقد كنا أعلمناك — عند ذكرنا حال إبراهيم بن المرزبان^(١) في انتفاض غريمته ، واستمرار هزيمته ، واستنقاذ الأجل ذمّاه من طُجّي السيوف وقد شارفته ، وشبا الختوف وقد شافته ، وذهابه على وجهه فريداً موحّداً ، وطريداً مشرّداً ، لا يعلم أين المفر ، وكيف المفر ، قد احتملته رياح الخيفة ، ومهاجرة الزانات المطيفة ، واستأمن أتباعه متعرفين الخير في مساعدته ، كما تعرّفوا الخُسْر في مساعدته — أن^(٢) وهسودان بن محمد قد طالت للدولة العالية مداجاته ، ودامت لأوليائها مماراته ، يوم ، متى ضُفِط ، طاعةً يُضْمَرُ خلفها ، ويشير ، متى أهْمِل ، فتنة يَسْتَدِرُّ أخلافها ، متردّداً بين مكائد ينصبها فتنيّ إليه بقبّار ، وتشتمل عليه بدمار ، وتوبقه في خسار ، وتجمع له نكالا إلى صغار . قد غره أن نفس من خِناقة وعُدل عن إرهاقه ، وإنا عازمون على تحميله أثقال المعاقبة ، وتعريفه آيات سوء العاقبة ، بفضل الله وطوّله ، وظل مولانا الملك السيد وصوّله .

وكان خيّل إليه أن حزنه المسالك إلى بلده تُثَبِّطُ الخيول عن استباحة صفحته ، وصعوبة المنافذ إلى مقرّه تستأني الجيوش عن الإباخة بساحته ، ولم يدّر أن سعادة مولانا الملك تستخدم الأفضيّة ، وتعيد الدروب أفضيّة ، ومناجح سلطانه تَرْجِعُ المجاهل معارف ، وتثني المناكر معالم ، وعكف على إخراج بلده ، واقتلاع مساكنه بيده ، طمعا في أن تُصْرَفَ عنه الأعنة ، وتصدف دونه الصفاح والأسنة ، فتبقى تلك البقاع محرمة على الطالبين ، مزورة الوجه عن الخاطبين ، فحاطبنا الوليّ الصريح والكميّ المشيح ، والوفى النصيح ، أخانا أبا الحسن على بن كامة مولى أمير المؤمنين — أدام الله غره — في المسير إليه ، والانتفاض في الأولياء المهضين معه عليه ، وإذاقته وبال ما خبّب فيه ووخذ ، وقام به وقعد ، مفوضا إلى الله ، فهو المذيل والمنيل ؛

ما يرى الفارسي في تلك الرسالة . ويظهر أن هذه الجيوش كلها كانت بإمرة عضد الدولة لأن المتنبّي مدحه بقصيدة طويلة ذكر فيها انتصاراته على وهسودان ، ومطلع القصيدة (أرأثر يا خيال أم عائد) .

(٢) أطال صاحب هنا الفاصلة بين أعلم ومفعولها .

(١) إبراهيم بن المرزبان هذا كان أبوه صاحب أذربيجان ، ولما توفي قامت حروب بينه هو وإخوته وبين عمه وهسودان الذي حاول أن يستولى على قلاع أذربيجان وأن يطرد أولاد أخيه ، وقد حارب إبراهيم فهزمه ، على نحو ما يصف ذلك صاحب ، ثم لجأ إبراهيم إلى ركن الدولة ، فأمدّه بالجيوش لمحاربة وهسودان ، وقد تغلبت عليه أخيراً على نحو

والمنتقم والمذيل ، ومعتمداً على راية مولانا الملك السيد فهي الكافلة بافتتاح الأمصار ، وتملك الديار ، وارتفاع الأولوية والأعلام ، وحيازة مزايا الاستظهار والانتقام ، المؤذنة فيمن شرد عن ولائه الأزم ، وانفرد عن سواده الأعظم ، بتساقط القوى ، وتقاطع القوى ، وتحاذل المن ، وتهافت الجن .

وقد كان من أبي نصر المرزبان بن اسماعيل^(١) — أدام الله عزه — ما عرفته إعلانا بشعار الدولة القاهرة والدعوة الظاهرة ، مباينا لجده وخاله ، ونافضا بهما ليمينه وشماله ، ومستوليا على قلعة شميران^(٢) كما وافقناه عليه ، وأهنا به إليه ، منتظرا ما نرسم له فيها ، وفي سائر الأمور التي تليها ، فسار أخونا أبو الحسن والأولياء المضمومون إليه بقلوب تستعير الليوت ثباتها ، وصراهم تستخوف المنون شداتها . فما كان إلا أن عرف وهسودان خبر إطلاهم على تلك الديار ، حتى طار كل مطار ، وعاذ بقلعة الكوكبان ، ومنيتته ، عظم مناه ، يود لو لم يلبه أبواه ، وقدّر عند لصيقه^(٣) مدافعة إن لم يحمل بلاء ، ولم يثمر غناء ، ولديه متنفساً دون معالجة الثبات ، ومفاجأة سوء الانفلات ، فنفضهم سرعان الخيل نفضة أوسعهم ثبورا ، وتركهم هباء منشورا ، وامتلك الطرم^(٤) عليهم بنواحيها ، وضمّ منتشر حواشيها ، وأقيمت فيها الخطبة على سنتها ، وطهرت من ميسم بدعتها . وقد كان من وليها من أهل ذلك البيت صادقين عن الدولة العباسية عنادا ، ومظهرين لها شقاقا وإلحادا .

وامتد فلان إلى فناء الكوكبان محاصرا لوهسودان ، وإن كان يسأل ويستميل ، ويخشع ويستقبل ، ويبدل أغرّ بنيه رهينة عنه ، ويحكم في معقله وسائر ما يراد منه ، ويرقق بذكر منه وكبرته ، ويخضع في إقالته سابق عثرته ، وإن قل الإصغاء إليه بمسابقة الحل اعقوده ، ومعالجة النكث لعبوده ، ومبادرة الحث لأيمانه ، ومساوقة الفجور لأقسامه . ولم يبق بمشيئة الله من أمره إلا غبر اهتمام ، وعدة أيام ، إلى أن يستزل مستأسرا ، ويقضى عليه الرعب متحسراً .

(١) المتنبي في القصيدة السابقة فقال :
ما كانت الطرم في عجاجتها

(١) هو المرزبان بن اسماعيل بن وهسودان السابق .

إلا بعيراً أضله ناشد

(٢) قلعة بأرمينية .

يسأل أهل القلاع عن ملك

(٣) في الأصل : لفيقه .

قد مسخته نغامة شازد

(٤) الطرم ناحية كبيرة في الجبال ، وقد ذكرها

وولدنا أبو نصر المرزبان^(١) بن إسماعيل باذل في مباينة جدّه غاية طوقه وجدّه ، ومجتمع مع أخينا أبي الحسن على بن كامة على ما نحدّث ونمثّل ، ومُرخص المهجة في مزيد زلفة تحضّل وقربة تتأصل . فالحمد لله بحقّ الحقّ بأيّده ، ومزهُق الباطل بكيده ، ومنزل النصر على مستوجبهِ ، ومُفرّع الخذلان على مستجلبهِ ، الحاكم بالعز لمن ذبّ عن حوزة دينه ، القاضي بالدل على من استعاض شكّه من يقينه ، حمدا يديم لمولانا أمير المؤمنين اتّساق الأمر ، وعزّ النصر ، وسياسة الأمة ، ووراثه الأئمة ، ويواصل لمولانا الملك السيد ارتفاع الحكمة ، ونظاها العظمة ، وسموّ الراية ، وعلوّ المكانة والكلمة ، ويوقّقنا لشكر ما أولى ، والقيام بحق ما استرعى وولّى ، إنه فقال لما يريد .

طالعناك -- أدام الله بأيّديك -- ببدأ هذا الفتح الجسيم خطرا ، الكريم أثرا ، لتتقدم بإشاعته في الأولياء والرعية ، والتحدث به على المنابر والأندية ، فرأيتك في العمل بذلك ، وإعلامنا أخبارك وحاجاتك ، موفّقا إن شاء الله .

٧ -- وله

النعم تبدو من مطالع مختلفة الأقدار ، مؤنفة في جلاء الأبصار ، مفترقة في المواقع والمنارل ، متفقة في إحسان الله الشامل ، لكن أسعدها بئوالع ، وأعذبها مشاريع ، وأكرمها مناقب ، وأحمدتها عواقب ، بعمّة تُشرق لها غرة الخلافة ، ونُطبّق بعوائدها مصالح الكافة ، وتجلو عن عراض الدين عوارض التبسط ، ونقصر أيدي أولى العرارة دون التحكّم والتسلّط ، وتوافي وقد نقدمنها مواهب ترادفت أرسالا ، وبصفت جمالا وجلالا ، في فتوح لم يترانح العهد بين^(٢) بواديها وتواليها ، ولم تتمدّ الأمر بين أوالمها وثوانيتها ، بل مُدّ^(٣) كل واحد منها بما هو أوفى عددا ، وأعلى مرّقي ومجسّدا ، إلى أن تحوّلت غاية المبتغى ، وبلغت الغاية المقصوى . وذاك بعمّة الله عند مولانا الملك السيد فيما نهض له ، وأمر الله مؤدّر إلى صرامه ، ونصر الله منطوّر على أعلامه من حراسة بيضة الإسلام وحمية حوزته ، والذيادة عن سُدة السرير الأعظم توفيق الله وعونه ، واستخلاص بلاد الله وعباد الله من أيدي مضيفة واهنة ، وعود

(٣) في الأصل : وعد .

(١) في الأصل : أبو نصر بن المرزبان

(٢) في الأصل : من .

وسبعة راهنة ، فلقاه الله في كل منزل نزله أجل ما حاوله وأمله ، لا يعتاق رأيته ملتبس ، ولا يعتاص في أنحائه ملتبس .

وكنا طالعناك بما تيسر للملك السيد في فتح أهواز ، إذ حدث الخالفون نفوسهم بالمقارعة وقوارع الأيام تصطلمهم ، وطوالع الحماة تحسبهم وتحترمهم ، إلى أن أجلت الحرب عن حرب تردد أشياع الباطل في ضلاله ، وتعثر حزب الشيطان في أذياله ، فمن بين مأسور ومجروح ، ومقتول ومطروح ، وغريق وطافح ، وتريد وطأح .

وثلثنا بالبشرى ، في فتح البصرة . وقد استصعبت على وجه الأيام ، واستغلقت على إمام بعد إمام ، فألآن الله للملك السيد قيادها ، ورفع أسدادها ، ومكن حماة الدعوة منها ، وأزال ميسم ذوى العروة عنها ، ووافاها — أدام الله سلطانه — فرعاها ، وهى ثغر يُراع ، وحاطها وهى سرح يضاع ، وأمات الأحقاد من قبائلها وعشائرها ، وأحيا الصلح والصلاح في باديها وحاضرها ، ووضع الحق بذلك الصقع جبرانه . ووسع العدل مكانه وجبرانه .

وثلثنا بواسطة في توجه سرعان الخليل المنصورة إليهم ، وقد خيم طبقات الخالفين عليها ، فلما نمت إليهم أنباؤهم استفزتهم بوارق الرعب ، قبل صواعق الطعن والصرع ، فأطاعوا وهلمهم ، وعانوا أجلهم ، وأجفأوا يطأ آخرهم أولهم ، فصاروا بينداد تأخذ بهم الآراء الفائلة ذات اليمين واليسار ، وتستطيع بهم الخطوب الهائلة بأجنحة الثبور والنكاح ، وكانت أمانى الغرور تمثل لبعضهم ثباتا للمواقفة ، ورجوعا المكاشفة ، فما كان إلا ريث نهوض الملك السيد عن واسط حتى زلزلت الخافة أقدامهم ، ونسخ الإحجام إقدامهم ، وأيقنوا أن وعد الله حق فلا دفاع لما أرمه ، ولا امتناع مما شاء وأحكمه ، وصاروا شيعا لا تأتلف لهم كلمة ، وفرقا لا تجمعهم حكمة .

فأما معظم الديلم فلاذوا بجوار الاستئمان وذمته ، وتسرعوا إلى حضرة الملك السيد وخدمته . وأما بختيار فرأى أن لا خلاص ولا مناص ، ولا معاذ ولا ملاذ ، غير حكم الملك السيد وإبقائه ، وعفوه وإغضائه . وكتب يسأل تعده وإخوته وولده بالصفح عن جرائمهم ، وإغمد الصفاح دون جماجمهم ، ليتوجه إلى الشام معلنا شعار الطاعة ، باذلا

في الخدمة غاية الاستطاعة ، فخرى مولانا على عادته في الرعاية والإرعاء ، والإفالة بعد القدرة والاستيلاء ، فغشاه ظلُّ بُقياه ، وفسح له فيما ابتغاه .

ولما خلت بغداد منه ومن خفّ معه حدثت العباس^(١) بن فيلسار أحد نبّاغ الزمان نفسه بتأليف قوم من شذاذ تلك الأجناد إليه ، والالتجاء إلى طرف يحصى عليه ، وأخذ سمّت النهروان ، في طريق ينشعب بين الأهواز وحلوان ، وسبق خبره إلى حضرة الملك ، أدام الله سلطانه ، فرسم لأبي القاسم سعد بن محمد الحاجب ، أيده الله ، التعجل في ثلاثة آلاف من الأتراك والأعراب والأكراد لاقتناصه ، والحجاز بينه وبين خلاصه . وتجاوز ذلك المَحِينُ جسر النهروان فقطعه ، مقدراً قطع من ينهض ليلتبعه ، فعبر أبو القاسم الحاجب ، أيده الله ، ومن معه في مخاضات ، وعلى عبّارات ، ووقف الحذول ، في هؤلاء الفلول ، للمنازلة ، وكثرهم العسكر المنصور حتى أتى على نفسه ، وأزويّت الأرض من دمه ، ودماء من أوثقه حبائش جهله . ومولانا أمير المؤمنين — أدام الله إغرازه وإعلاءه — في كل ذلك مستقر على سرير عزته ، وضارب حجابيه دون بَحْتِيَّار ومن في جملته ، يكاتب الملك السيد مساترة عند إطافة الغواة بجفافي ملكه ، ومجاهرة لما انجلت غمائمهم عن رواق عزّه ، مُحَرِّجا عليه إن تأخر عن حضرته ، وخارجا إليه من الأمانة في التعجل إلى نصرته ، شاكرّاً ما تجشّمه من الأحوال ، وتحمله من الأثقال ، في الوصول إلى بابه مباءة كل مجد وشرف ، ومثابة كل ذى أدب^(٢) وطُرف .

فلما جاز الملك السيد دِيَالِي^(٣) ، وطالما أدالته من مخالفيه ، وقضى الله بها على مكاشفيه ، رأى مولانا أمير المؤمنين أن يَقْسِمَ له من الإكرام ، أعظم ما صدر عن خليفة وإمام ، فسار أمير المؤمنين في الماء بكبرياء الإمامة وعظمة الخلافة والزعامة مُبْعِداً في تلقيه ، ووصل الملك السيد إلى على مجلسه مستقبلاً بتمهّل بشره وتحفّيه . وابتدأه أمير المؤمنين بالإحماذ لمرضى مسعاته ، والإخبار عن موقعه من اعتداده ومرضاته ، وأنه — أدام الله عزه — لم يزل منذ أتاه الله ما أتاه ، واسترعاه ما استرعاه ، واثقاً بأن الله سيستخلص له قُرْبَه ، وإن تطاولت الأيام بما أحبه ، ليقوم بنشر الدين فيضّمّه ، وشعث المؤمنين فيكلمّه ، إذ كانت الدولة

(٢) نهر كبير شرقي بغداد .

(١) أحد أتباع بختيار .

(٢) في الأصل : أوب .

المهاشمية التي رفع الله عماد الحق بها ، وخفض منار الباطل لها ، لم تزل تعتلّ طوراً وتصح أطواراً ، وتمخلّ مرة وتستقل مراراً ، من حيث أصلها ثابت لا يتزعزع ، وبنائها راسخ لا يتضعضع ، فإذا لحقها الالتيث ، وزدحت عليها الأحداث ، يغمّر يرتع في أكلائها ، وعرّ يغفل عن شكر آلائها ، أتاح الله لإقرار الأمر في نصابه ، وحفظه على أصحابه ، وليا صفياً ، كافياً وفياً ، فلا تلبث أن تعود الدولة على يده غضة العود؛ معتدلة العمود ، جديدة اللباس ، متينة الأمراس ، فشكر الأمير السيد لله عظيم منّه ، وخليفة الله رحيب فضله . وأنبا عن أن مجرى عزمه ومفضي همه ، كان القيام دون أمير المؤمنين في جمع الكلمة على الطاعة ، وردّ المفرقين إلى الجماعة ، حتى لا يُبقي — بإذن الله — طرّفاً مأخوذاً إلا ارتجعه ، ولا حقاً مغلوباً عليه إلا انتزعه ، ويعيد إلى السلطان ما خرق من هيئته ، وإلى الفئى ما أضيع من سلّته ، وإلى الحج ما انتهك من حرمة ، ويدبر الثغور بما يرتق الفتوق مع استفحالها ، ويدمل الجروح مع إعضالها . كل ذلك بعون الله ومشيتّه ، وعز أمير المؤمنين وميامن أويته .

وعاد من حضرة أمير المؤمنين إلى معسكره بظاهر بغداد ، فائثاً من سلف من الأقران ، سابقاً غايات أهل الزمان ، قد سنّى الله له فتح الفتوح ، وأفضى إليه بأشرف موهوب وممنوح . وأعلم سكان الأرض من دانٍ وقاص ، ودائنٍ وغاصّ أن الذى ابتدأه الملك السيد وأجراه ، وأشأه وأمضاه ، وصلّ رحم الدين وشفّع وسائله ، وقوى غارب الإسلام وشدّ كاهله ، وإن ساءت — قبلُ — ظنون قوم آخرين ، وعرفوا نبأه بعد حين .

والحمد لله رب العالمين ، قول العارف بفضل هذه العوارف ، على ماخوّل فأجزل ، وسهّل فمَجَل ، ووهب ففَرَّب ، ووفرّ فيسّر ، مؤيّد أوليائه بالظهور والغلب ، متوعّد^(١) أعدائه بسوء المآب والمنقلب ، حمداً يقضى لأمر المؤمنين بما قضى به لآبانه الراشدين — صلوات الله عليهم أجمعين — من النصر المبين ، والكيد المتين ، وإعزاز الأنجاد والأنصار ، وإذلال ذوى العناد على اختلاف الديار والأمصار . ويَهْنِي الملك السيد ما أتاه من صنّع لم تره النواظر قبله ، ولم ترو الألسنة مثله ، فما يُسدّد سهام اقتراحه إلى مرام فيخشى اعتياضه ، ولا يشهر

(١) فى الأصل : متوحد .

حَسَام اجتياحه على مرام فيرجي^(١) خلاصه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

طالعناك بهذا الفتح الممدودة أظلته ، المسعودة أهلتة ، المرفوعة ألويته ، المعمورة أنديته ، لتصدع به على المنابر ، وتشيع نبأه بين الرعايا والعساكر ، فيعلم الحاضر والبادي ، ويوقن الموالي والمعادي ، بأن الله متكفل بهذه الدولة الثابتة البنيان ، الواضحة البرهان ، وإن أُملي لأعدائها إلى مدة ، واستدرجهم بعد أنفاس ممتدة ، فَرَأَيْكَ .

٨ — الفتح الأكبر بخرجان الواقع بين الخراسانية^(٢)

للنم - أدام الله عزك - من الشكر قيم ، وللمنح من الحمد قسم ، فأعلاها قيمة ، وأعلاها غنمة ، وأحرزنا حظاً وقسماً ، أثبتنا في صحيفة المجد رسماً ، وهي وإن سكافات طوراً ومفاضلت أطواراً ، ونقاربت مرة ونماعدت مراراً ، فمها فرائد بدخرها الله لأفراد ، ويؤخرها لميقات وميعاد ، حتى إذا حان حينها ، وقدر لها كفوها وأمينها ، سيقت إليه لأمدّها المضروب ، ورهنت لدهه على سننّها المطلوب ، فعدت كريمة الدهر ، واعتدت يتيمة الفخر ، وأصابت شمساً طلعت بمناجيح الأئمة الأبرار ، وسطعت بمصالح الأئمة الأخيار ، وألبست نبيع الحق عزاً تضفو أعطافه وذيله ، ونبدو غرره وحجوله ، ويطنب شرقاً وغرباً شعاعه ، ويمتدّ عوراً ونجداً ذراعاً ، ودرّعت أتباع الباطل ذلاً يحتم بالعقاب ، ووهناً يحتم^(٣) على الرقاب ، ووهياً ينهك القوى والقدر ، وضعفا يملك السمع والبصر ، فلا يفتى عن الضالين التآزر وإن كثروا ، ولا التظاهر وإن أمروا ، كواهب الله التي سوغ مولانا الملك شاهنشاه عهد الولاية وتاج الملة جلالها ، وقسم لنا فضائلها ، وحازله خصائصها ، ورهن عندنا نفائسها ، وجعل إليه مآلها ومرجعها ، دوسّع بنا مرادها ومُنْتَجَمها ، وأفاض على دولته عزها وفخرها ، وفوّض إلينا عقدتها وأمرها . ذاك بما عَصَد من دولة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وأيدنا ، وأسس وشيّدنا ، ومثّل واقفيننا ، وسبق وصلينا ، حتى ضرب الدين بحجرانه ، وانبعث الحق بعد حيرانه ، واستوسقَ الملك على نظامه ، وأرّخت المحاسن

(١) في الأصل : يرجى .

(٢) في الأصل : ينجم .

(١) في الأصل : يرجى .

(٢) كذا في الأصل !

بأيامه ، وسكنت دهاء الأمة وكانت مضطربة ، وخذت بيران الفتنة وكانت ملتهبة ، وغرف المعروف وكان منكوراً ، وقير الإصاف وكان مقهوراً ، إن الله لا يصمم أحر الحسين ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وقد علم من كشف عن سمعه ، و أعطى على لته ، وفتح عن نصره ، ولم تختم على قلبه ، ما جرت عليه الحال بسبب أهل البيت وبين ولاية خراسان قرناً بعد قرن ، وقرأ بعد قران ، بدعوتهم إلى طاعة حمراء الله في أرضه ، وأحدهم لما كتب الله لهم^(١) في لإرام فرضه . هذا وقد كانت خراسان دار الهجرة العاسية ، وأهاليها شعبة الدولة الهاشمية ، إلى أن بدّل من ولايتهم من درج أشع المدارج ، وربع مريع الخوارج ، وغرد دهرأ بخطب للأموات على المدارج رأة على الدين . ويحدد المطيع لله --- صاوت الله عليه --- إمرة المؤمنين ، والحرب بسبب وبينه^(٢) فائمة ، وآفاق الصلح مظلمة فائمة ، نخبر حيوته إلينا فيهنزَم ، وسرت خيوله فتحطم ، ويحشد جموعه فتفرق كل مفرق ، ويحشر جنوده فتعرق كل ممرق ، قد فصّ أحمد^(٣) بن محمد بن الحناج دعوات بدتاً عن الزانات السود . وقلّ ابن قراكين^(٤) عن ثنات بدفعا عن رواق الخلافة الممدود . ورد ابن عبد الرزاق^(٥) هيثم كسيرا . وأوثق ابن ما كان^(٦) هشيا أسيرا . فلم يبق من أصحاب جيوشهم إلا من وسمناه بيسم الانفال ، وشهرناه في موسم الصلال . فهم من لجأ إلى طاعتنا فعاش حمدا ، ومضى سعيدا ، ومهم من شرّد عن جماعتنا فأظّر غويّا ، وقصّ شقيّا ؛ إلى أن علموا أن الفراع لا بنتج إلا قرع صعاهم ، والبراع لا يشمر إلا نزع شباتهم ، فمخمو بالخطمة المطيع لله --- رحمة الله عليه ورسوانه --- على أيدينا التي عودها الله البسطة ، وحرس بها الإمام والأمة ، واستعدنا إليهم ثوب الطاعة وقد خرّبوه ، ومحربا لهم العهد على تلك الملاذ وقد حرموه . فنفوا على هذه الجملة زماناً وعادات الفساد ، تترى بهم دون

(١) في الأصل : له .

(٢) في الأصل : بينهم .

(٣) أحد قواد خراسان وقد بولى قياده الحيوش

الخراسانية كلها عام ٣٢٧ هـ . اطر اس الأثر

٢٦٧/٨ .

(٤) أحد قواد خراسان أيضا ، وقد ولى على الحيوش

الخراسانية عام ٣٣٤ هـ ، اطر اس الأثر ٣٤٦/٨ .

(٥) هو محمد بن عبد الرزاق صاحب طوس

وأعمالها . اطر اس الأثر ٣٥٣/٨ .

(٦) كان مقدم الحيوش الخراسانية عام ٣٤٤ هـ

واشتك مع اس العميد في حرب أحد فيها أسرا .

اطر اس الأثر ٣٨٣/٨ .

استعمال الرشاد ، ووشمكير بن زيار^(١) يدبّ لإغوائهم ديبب الخمر ، ويعرض نعم الله عندهم لصوائب القدر ، فهموا بالمعاودة ، واهتموا بالمعاندة ، وطالبوا أبا الحسن محمد بن إبراهيم ابن سيمجور^(٢) — أيده الله — بالسير والاجتماع في منازعتنا مع الضال وشمكير ، فسارت تلك الجنود والتخاذل دأبها ، وبلغت الدامغان^(٣) والتواكل ينتابها ، فلم يرعها إلا خذلان نزل بوشمكير ، فجعله فرية الخنازير ، وكشف لذوى البصائر عن سريرة المقادير ، فاعتبر معتبر ، وانزجر منزجر .

وتراجعت تلك الخيول إلى نيسابور^(٤) ، فلم تشجع الخرسانية من بعد ذكر المنازلة ، ولم يخطر ببالها ذكر المقاتلة ، وأخذوا يعرضون بطلب الصلح فنعرض امتحانا لعقائدهم ، وابتلاء لمغازيهم ومقاصدهم ، إلى أن صرّحوا بعد التعريض ، وصحّحوا بعد التمريض . فجنحنا للسلم حين جنحوا لها إذ كان ذلك أدبا من آداب الله ، وأمرنا نصّا في كتاب الله ، ومميّتا للضغائن والإحن ، ومزيلا للحوادث والفتن ، ومفرّغا لتسديد الثغور عن ذوى الشرك والإلحاد ، وموفّرا على عمارة الحج وسبيل الجهاد . وأكّدت العقود ، وأخذت العهود ، وكتبت الشروط وأشهدت الشهود ، وآتى كلّ صاحبه موثقا من عند الله ، وحافا مقرونا بعهد الله ، وجعل ما أمضى من ذلك مشروطا على التأيد لا يتعقب وفاقه بخلاف ، ومقصودا بالتخليد يرثه الأعقاب عن الأسلاف . فلم يمض ماضيهم لسبيله ، حتى أخذ خلف السوء في تبديله ، بخرق لأوصال الوفاء قطاع ، وعرق إلى الضلالة السوء نزع ، وبمشورة أحداث لم تعرّكهم الثّربة عرا كها ، ولم تفلقهم الحنكة أشرا كها ، كأن لم يعلموا أن من سلف من سلفهم لم يرجعوا للمصافحة ، إلا وقد عيئوا بالمكافحة ، ولم يجنحوا للمسالمة إلا وقد عجّزوا عن المقاومة ، ولم يركزوا الرماح إلا لأنفذ منها مسارب ، ولم يغمدوا الصفاح إلا حدّ منها مضارب .

وكان من فواتح ما أنكرناه أن أرجأوا الخطبة لأمير المؤمنين الطائع لله^(٥) بعد وقوع

(١) وشمكير : هو صاحب طبرستان وهو والد تابوس ، وتوفى عام ٣٥٦ هـ .

(٢) صاحب جيوش خراسان حينئذ وقد سيره الأمير منصور بن نوح لمساعدة وشمكير ضد ركن الدولة البويهى . انظر ابن الأثير ٤٢٧/٨ .

(٣) بلدة كبيرة بين الرى ونيسابور .

(٤) مدينة كبيرة في أول إقليم خراسان

(٥) هو الخليفة بعد الطمع ، وتولى الخلافة عام ٣٦٣ هـ .

البيعة وتسليم الأمة ، وإصفاق الكافة ، واستقرار سبيل الخلافة ، على عاداتهم الأولى في جَحد الإمام الحى واجب حكمه ، وعقد الجمعة بشعار الميث واسمه ، إلى أن ينهضوا من رقدة الإغفال ، وحلّانهم^(١) عن مشارع الإهمال ، وشجنت حراسان بالدعوة ، ومددنا حلّ أمير المؤمنين على هذه الهفوة ، وسعينا لهم في تجديد الولاية ، وأكرمناهم بتنجرّ التشريف وعقد الولاية . وجدّدوا على نفوسهم الميثاق لما على الإخلاص ، وأظهروا الرعدة في إعادة الصّهر دلالة على الاختصاص .

وكان من قواعد الصلح وأحكامه أن لا يُفْتَل في جهة من الجهتين أبتاق العساكر ، ولا نُمَهّد في جُبّة من الجنبتين للخالع والمافر ، ولا يُنْحَتمى على من عَصَى فَشَرَدَ ، وشقّ العصا وانفرد ، واعتصر - في أثناء هذه الأحوال - أن الخدول قابوس س وسمكير كشف عن العناد وسمر ، وجحد بعمّا عليه وكمر ، فحُيِب ظنه وغُجِّل مكذبه ، وحُيِم داؤه وسرّ له طيبه . وقد كان من قبل راسل الخرسانية يرؤو ما لديهم في ناه ، ويدلّهم على ما كمن في عصانه ، فشجّدوا بصيرته في الخلاف ، ووعدوهم بالمثوبة والاكتناف ، حتى إذا رحزحماء عما أُمِّل وارقب . وطوّحناء جزاء عما احتقبت وارنكب ، لجأ إليهم فهدوا له في جوارهم . ودأّوه بغرورهم واعتارهم . وقد كان العاق^(٢) رديقه في العمايه ، ورميله في سوء الهداية ، فراساهم كرسالته ، وقد ضلّ في مخالفتها كضلالته ، فحرصوا على قبوله حرصا جليّ عن مدفون ضمائرهم ، وأبدى عن مكسوس سرائرهم ، وأوضح أن مرادهم التائب علينا والتائب ، والترتيب والتحزب ، وأقبل الأغمار المستولون على صاحب بخارى يحسبون ببصائرهم العليلة ، ويرون بأبصارهم الكليلية ، أن أنا الحسن بن سيمجور^(٣) - أيده الله - حجاب بنينا ونسهم مشد ، وحجار مستطيل ممتد ، وأنه لو قد أرل عن مقرّه ، لاستمرّ تديرهم علينا في ممرّه . غير عالمين بأن ذلك الشيخ هو الذى قد اربصع أفاق الرمان ، وحلب أحلاف الليالى والأيام ، وعرف ما أنا الله من قوة وإقران ، وغدّة وإمكان ، وسود

الدولة . وتذكر كتب التاريخ أنه عمل عن مادة
جيوش حراسان وولى مكاه أبو العباس تاش .
اظهر ابن الأثير ٧/٩ .

(١) في الأصل هكذا : وطدناهم .
(٢) هو غر الدولة كما سبق بيانه .
(٣) يظهر من كلام الصاحب ها أن ابن سيمجور
لم يكن من رأيه مؤاررة قابوس وحرب عضد

مرفوعة للنصر، وجنود كمدد القطر، وأموال ككثبان الرمال، وذخائر أملاء الهمم والآمال، وعزائم تطبع السيوف على غرارها ويُتبع ما تنهج^(١) من آثارها. ووفق ينخسف عليهم من ورق الصيانة، لئلا ننكشف عورات قصورهم، وتتبرج هنات أمورهم. لا جرم أنهم قرفوه بالمداينة، وسرفوه عن ربهته الإهانة. مقدرين أنهم يرفعون منه سدّادا، وإنما عدموا به سدّادا، وظلائين أنهم يدفعون بعزله شرأ مرصودا، وإنما هتكوا عن عجزهم سترأ ممدودا. واعتمدوا لجيشهم تاتس^(٢) يستبدلون من الطيب خبيثا، ورفدوه بفائق^(٣) يستمضون من التذكير تأنيثا. واستنفدوا قواهم فيما جمعوا من الأموال، وبلغوا مداهم فيمن لقوا من الرجال، حتى أناخوا على بضائع التجار وأهل الصناعات يجبونها غصبا، وعلى وقوف المساجد والرباطات يتناولونها نهبا، وعطلوا الثغور باستجاشة من فيها من الحماة، وسلطوا مجاوريهم من المشركين بمن صرفوا عن وجوههم من الكفاة. كل ذلك للطمع أن يشفوا من البغي علينا غليلا، وبشتروا بعهد الله ثمنا قليلا.

وحصل تاش بنيساور وقد سبقه فائق، واستعجل نحوها العاق. وقد وردا الخذول المارق. فلم ندع أن أصدرنا إلى زعيمهم رسلنا مذكرين بالعهد المبذول، وميثاق العقد الموصول، ومحذرين من عاقبة الناكثين، وما كتب الله من العقاب للناكثين، ومطالبين برد الآبقين، على أمان لهما تتبرع ببذله، وصفح عنهما نأخذ بفضله. فأصرّ هو ومدبروه على الامتناع، وعتلوا على الدفاع، وأخذوا يشفعون شفاعة التحكم، ويشفعونها بالتوعد والتجرّم، يحسبون استثناءنا لهم فكرا في حشرهم وحشدهم، واحتفالا بجدهم وجندهم. وزاد رققتنا بهم في إغوائهم وإغرائهم، ووكد مرائر اجترانهم واستشرائهم وأخذ الخذول قابوس يوههم من نفسه وبقية خيله أمورا، وملأ مسامعهم بهتان وزورا، ماضيا على شاكلة أبيه في التلبيس عليهم والتمويه، فيخيل لهم رَفَرَفَ الباطل حقًا، ويمثل عندهم زخرف القول صدقا. وبدأ العاق يوسوس إنهم بأن موقعه — كان — من هذا البيت يُميل إليه الأعناق متى وقع إكثاب، ويعطف عليه الأجناد متى اتفق اقتراب، ويرُيهم سوء التبصر ما يأفك به يقينا،

وفائق خصي من موالى نوح بن نصر ومن قواد
الحراسانية العظام

(١) في الأصل: يهيج.
(٢) صاحب الجيوش الحراسانية بعد ابن سيمجور
(٣) في الأصل: فغاريق وهو تحريف واضح،

وما يذنبق بإيراده برهانا مبينا . فحبسوا الرسل طغيانا لم يمهّد في جاهلية ولا إسلام ، وضيقوا عليهم المطعم والمشرب انتضاع هم وضعف اهتمام ، ومنعواهم عن إقامة الصلوات ، ودفعواهم عن الجمع والجماعات ، وفيهم فقهيا ، أعلام وقضاة تكون بحضرة أمير المؤمنين من دارالسلام ، صنع من لا حياء له يردعه ، ولا دين يهجن له القبيح ويَزَعُه .

وخفّ الخصى^(١) والحذول على طريق نسا^(٢) يتقارضان أكاذيب الأمانى وهى زاد المائى وتعلّة الجاهل ، وامتد التركى^(٣) والعاق على سمت قومس^(٤) يتفاوضان تحديث النفس بالباطل ، حتى إذا عرفوا أن اجتماعهم لدينا كافتراقهم ، واختلافهم فى الطرق والعزائم كاتفاقهم ، خشوا أن تَبْدَه^(٥) إحدى الطائفتين بانتساف ، ونعجل عليها باختطاف : فأذنت الخفأة بينهم المسافة ، إلى أن صاروا يداً واحدة وقد كتب الله بقصرها ، وحرّم على الأقدار تولى نصرها ، وجدوا فى تسير قبالة جرجان والإقبال عنهم ممتاز منصرف ، والتوفيق دونهم منحاز منحرف .

وقد كنا استخرنا الله — تعالى — فى البروز^(٦) بمسكرنا المنصور إلى ظاهر جرجان على سمت خراسان مفوضين إليه ، معولين عليه ، راجين ما لديه ، عالمين أن الفلج بيديه ، مولين البغى من تولاه ، وانكثت من اختاره واصطفاه ، وقرب المخاذيل فكففنا عنهم إلى أن بدأوا بالقتال ، وحسن لهم الطغيان نحوه الصيال ، وقد كان طردهم بل حصدهم ممكنا — بعون الله — من^(٧) أول لقاءهم لولا إثارتنا البُقىا فى إمهالهم وإمهائهم^(٨) ، وتقديرنا أنهم إذا مارسوا الحرب فوقدتهم بنارها ، وأقذتهم بعوارها . وعرفوا ما بين المطوع له فى أمره ، والمطبوع على قلبه وصدره ، تلافوا أحوالهم ، فلم تُرَقْ دماؤهم هَدَرًا ، ولم تُفَرَّقْ أشلاؤهم جَزَرًا ، ولم تذهب أموالهم هَمَلًا . ولم ترجع أملاكهم كَفَلًا .

واختلف بيننا وبينهم اثنتا عشرة حربا ، ما انصرفوا عن واحدة منها إلا وقد استعجز الجرح فى صناديدهم ، وانتقص القرخ من عديدهم ، وعرضت القيود بأسراهم ، واستعفت

(١) الخصى هو فائق . انظر ابن الأثير

١٠٥/٩ .

(٢) مدينة بخراسان .

(٣) هو أبو العباس تاش .

(٤) كورة عظيمة قصبها الدامغان .

(٥) فى الأصل هكذا : سده بدون نقط .

(٦) فى الأصل : البروز إلى مسكرنا المنصور

بظاهر جرجان . وأصلناها بما يقتضيه السياق .

(٧) فى الأصل : عن .

(٨) إمهاء : من أمهى الفرس إذا أرخى له من عنانه .

للحوذ من قتلاهم ، حتى بلغ عدد من قتل قبل الوقعة الأخيرة ، والصدمة الميرة ، ثلاثة آلاف ، قد ناء جالها بأنامها . ويطوق الأورار في أراملها وأيتامها ، إذ ساقهم ليطعنوا نور الله بأفواههم ، ولم يعلموا أن الله بكنهم قبل ذلك لجساهم . فأما المستأمنة فجاءت كاتقظا أرسلالا . وفارقت حرم الإديبار محاهرة واسلالا . فلم يزد المدابير على الأنام ، إلا إصراراً على الآثام ، ولم يقادوا للعير اعتراضاً نظنون كالأحلام ، إلى أن ماتدنا ما عهد الله إلى الولاة ، في حسم أدواء العفاة ، وفرض على العاذ ، في إبادة حصراء العتاة .

وكانت لهم يوماً -- وهو يوم الأرماء -- لثمان نفين من ذى القعدة -- حركة إلى المعركة ترشحوا فيها بين مديم للأقدام وأخير ، وتعجيل للإقدام وبعدير . مقدرين أنما يجرى على العادة في إرجائهم وتركهم يعودون من ورائهم ، فجردنا استحارة الله في صدس الحملة ، وبصيدها واحده الدولة والملة . وأهنا بالأولياء أسود الدلوف وصرامه ، ونسور الختوف وقشاعه ، ورحموا إلى أعداء الله العجرة ، وأكثروا من شعار المحاهدين البرد . وتاروا تحملت الأرض مائخة ، والمحار هائجة ، والنجوم مكدره . والسماء مغطيه ، وصار الفارس أقرب إلى الفارس من طله . والسيف أدنى إلى الوريد من حبله ، وواصلت^(١) الصربات بين ررق الرانات ، لا يعرف الإحكام انصامها^(٢) ، وأحدث اليماح بطير سررها ، والعموس عارق قصرها^(٣) ، وثملت الزوينات^(٤) من الدماء ، فتعترب في الدجوى ، وبكسرت في القلوب والصدور وعاب أعداء الله هول المطمع ، فولوا الأذمار ، وطاروا كل مطار ، وبعهم الأولياء يعيصون الصوارم على الترائك^(٥) ، فبصص الصماح على الججوم الشوايك . والمحاذيل يتطارون عن القما جفا . ويطيحون عن الطي هباء ، ولو عرجوا بعمسكهم لمحط طارف ، أو وقفوا على دحائرهم خلصة حائف ، لما تخلص منهم صافر ولا صائت ، ولا يحا منهم ناطق كما لم ينج صامت .

وكيف لهم بالثبات ، وقد ملك عليهم حتى فيلهم العظيم الذي نوارثه آل سامان ، وهولوا به في الحروب زماناً بعد زمان . وقد ركب سرعان الخيل أقفاهم ، يشلّوهم إلى يسائر

(٤) الروبي : فارسية وهي حرة قصيرة

(٥) في الأصل : التراك . والترائك جمع تريك

وهي بيضة الرأس .

(١) في الأصل : نواصت .

(٢) في الأصل : انصامها .

(٣) القصير : أصل العنق .

شَلَّ النِّعَامَ ، وَيَسْلُبُونَهُمْ أَرْوَاحَهُمْ بِأَيْدِي الْحِمَامِ ، لِيُوقِنَ هَؤُلَاءِ الْأَعْتَامَ ، أَنَّ الْأَطْوَادَ الشَّمَّ لَا يُطَالُ بِالنَّجَافِ ، وَالْجِبَالَ الرَّعْنَ لَا تُزَالُ بِمَحَصَّاتِ الْمَقْدَافِ ^(١) .

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَانِّ عَلَى خَلْقِهِ عَمَّا لَا تُنَالُهُ الْأَمَالُ كَرَمًا ، وَلَا تُنْقَلُهُ الْجِبَالُ عِظَمًا ، الْقَاسِمِ لِدَوَى طَاعَتِهِ مَا لَا مُنَّةَ تَلَعَتْ ، وَلَا طَلِبَةَ أُتَجَعَتْ ، كَمَا أَعَدَّ لَهُمْ ^(٢) مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، الرَّاصِدِ لِمَقَارِفِي مَعْصِيَتِهِ بِظُلْمٍ مِنَ الْخِذْلَانِ تُزْهَقُ وَتَعْسَفُ ، وَتُزْهَقُ وَتَكْسِفُ ، وَتَوْتِقُ وَتَنْسِفُ ، وَتَوْتِقُ وَتَخْسِفُ ، كَمَا تَوَعَّدُهُمْ ^(٣) بِعَذَابِ الْخُلُودِ ، حَمْدًا يَكُونُ كَهَاءَ مَا هُنَا فَقَرَّبَ ، وَهَنَا فَاطْلَبَ . وَإِلَيْهِ زُرْفُ الرِّعْبَةِ الصَّادِقَةِ ، وَبَقَدَّمَ لِنَسَائِلِهِ السَّاقَةِ ، فِي الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ، الْهَادِي الْمَهْدَى ، أَفْضَلَ مِنْ دَعَا إِلَى رَبِّهِ صَادِعًا بِالْأَمْرِ ، وَنَصِيحَ خَلْقِهِ فَاطِعًا لِلْعُذْرِ . وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ عَظَمَهُمْ تَوْقِيرًا ، وَطَهَّرَهُمْ بَطْهِيرًا ، وَإِطَالَتِ بَقَاءَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَادًّا مَسَدًّا آيَاتِهِ الطَّاهِرِينَ ، فِي سَعْيِ يَلْقَاهُ ، وَتَشْرِيطِ يَضْمُهُ ، وَوَاهِ يَسُدُّهُ ، وَتَلَمَّ يَسُدُّهُ ، لِيَقْزَحَ زِيَادُ الْخَيْرَاتِ مَنَارِهِ الْمَرْفُوعِ ، وَيَسْتَنْزِلَ عِيَادَ الْبَرَكَاتِ شِعَارِهِ الْمُتَنَوِّعِ ، وَإِدَامَةَ أَيَّامِ الْمَلِكِ تَهَادُشَاهُ السَّيِّدِ سَاطِعِ الْأَدَلَّةِ ، مَشْرِقِ الْأَهْلَةِ ، مَمْدُودِ الْأُظْلَةِ ، عَاضِدِ الدَّوْلَةِ ، مَتَوَجِّعِ الْعِلَّةِ ، وَيُوقِنُ لِحَقِّ مَا اسْتَكْفَاهَا مِنْ حِفْظِ عِرَاصِ الْخُورَةِ وَأَطْرَافِهَا ، وَاسْتِدْلَالِ مَنْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ فِي خِلَافَتِهَا ، لِحُكُومِ الْمَلِكِ مِنْ جَوَاسِهِ وَأَرْجَائِهِ ، وَبَدَأَ فِي اللَّهِ دَعْوَبَ مَنْ رَضِيَ مِنْ أَمْنَائِهِ . ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا مُجَدَّدًا ، بَاقِيًا مُؤَبَّدًا ، عَلَى مَا لَيْتَ مِنْ أَحَادِعِ هَذَا الْخُطْبِ ، وَسَوْعَنَا مِنْ وَاسِعِ النَّصْرِ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ ، بَعْدَ أَنْ سَاءَتْ ظُنُونُ ، وَرَاعَتْ قُلُوبُ وَعْيُونَ ، وَحَسِبَ كَثِيرٌ أَنْ فَدَّ سَمْسَنَا الْيَدَ فِي خُطَّةِ صَعْبٍ مَرَامِهَا ، دَخَصَ مَقَامَهَا ، فَحَقَّقَ اللَّهُ الْأَمَلَ بِطَوَّلِهِ ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ . فَأَصْحَحْنَا وَقَدْ شَهِدَ الْعَدُوُّ مَضْطَرًا خَاشِعًا ، شَهَادَةَ الْوَلِيِّ مُحْتَارًا طَائِعًا ، أَنَّ لِلَّهِ لِسَانَ هِدَايَةٍ يُلْقَى عَلَى عِزَائِمِنَا الصَّوَابِ مُحَضًّا ، وَيُفْضَى بِمَصَارِفِنَا إِلَى الْإِثْرَادِ عَصَا ، حَمْدًا تَرْفَعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّرُونَ ، وَدَعَاءَ يُؤْمِنُ عَلَيْهِ الْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ .

حَدَّثَنَاكَ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ — بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَإِنْ كَبُرَتْ عَنْ بَيَانِ الْخُبَرِ ، وَلِسَانِ الْمُبَشِّرِ ، وَإِطْنَابِ الْكَاتِبِ ، وَإِسْهَابِ الْخَاطِبِ ، وَكَاتِ وَاسِطَةِ فِي قَلَائِدِ الدَّهْوَرِ ، وَجَامِعَةِ لِفَوَائِدِ

الجمهور ، لتعلم أن الله صادقٌ مَوْعِدُهُ ، محيطٌ بالناسِ كثيرين مَرَصَدُهُ ، فَأَشِيعُ نبأ ما طالعناك به حقَّ الإشاعة ، ويُقْرَأُ على المنابر لتساهم الرعيةُ أولياء الطاعة ، واكتب بذكره إلى النواحي والأطراف ، وأعلن بنشره في النواحي والأكناف . وأعلمنا موقعه منك ومن الكافة وإن كان معلوماً ، وأبدي الشكر وأعدّه إنه كان فرضاً محتوماً ، إن شاء الله .

٩ -- نسخة الخطاب بإسقاط مال الإحصاء

وكان كتبها عند هذا الفتح ليمنه^(١)

إن الله --- عز اسمه قد فرض عند كل طارئ من النعم ، وطارف من المنن ، شكراً يُتَنَاقَى به إفضاله فيستحفظ معتاده ، وحماً يقابل به إحسانه فيستجلب مَزَادُهُ . وليس الشكر بمقصود على اللسان دون العقد ولا على القول دون الفعل بل الواجب أن تتكافأ فيه نتائج الألسنة وضمائر القلوب وتوصل له مواقف الثناء بالتقرب المقبول ويُجْعَل من أمارات المعرفة بحق ما سَوَّغَ الله فرهن ، وأسبغ فأحسن ، وتقديم الأعظم فالأعظم مصلحة بين الناس ، والأحسم فالأحسم مَفْسَدَةٌ عن العام والخاص ، ليشمل الجمهور عائدة ما يتوخى ويقصد ، وينظم التابع والمتبوع بركة ما يتحرى ويعتمد ، ومن عند الله التوفيق . إنه خير من هدى وأسعد ، بالإرشاد إلى السنى لا معقب لحكمه ، ولا خير إلا بإرادته وإذنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون .

ولئن كانت مواهب الله - عز اسمه - لدينا نفوت حصر الحصين . وتجاوز ذكر المستقصين ، ومناخه عندنا تحوز غايات التأميل ، وتفوز بحسنات التخويل ، فكنا^(٢) لشكر ذلك مديتين ، وبالحد عنه مغمورين مرتهنين ، لا نخلو من الاعتراف بالقصور عما يلزم منه ، ولا نغرى من استدفاع عوارض التقصير عنه . إن ما قسم لنا --- تعالى --- آفنا من هذا الفتح العظيم ، والتمتع الكريم ، والنجاح القريب ، والنصر المستجيب ، وسهل من استدلال الخالفين ، وردهم أسفل سافلين ، ومقابلتهم عن البغي ارتكبهوا بالخسار دُرْعَوْهُ ، ومكافاتهم عن النكث احتقبوه بالتفأر قنْعَوْهُ ، فَرَضُ^(٣) ما يستقل بنفسه ، ويُطَالَب

(١) في الأصل : ليمنه . فرض : افرض .

(٢) في الأصل : ليمنه . فرض : افرض .

(٣) في الأصل : ليمنه . فرض : افرض .

في يومه بما قد نُذِر في أمسه ، والله تعالى أسأل أن يرشدنا لمصالح الأعمال ، ومناجيح الأفعال ،
ويثبت عزائمنا على الخير نصل مراتبه بعُراه ، والعدل بنبسطه فيمن نسوسه ونرعاه ، إبه
رءوف رحيم .

وحين روَّأنا في القُرب التي رأينا تجديدها ، والزلف التي نذرنا تمهيدها ، وجدنا
من أولاهها بالاهتمام ، وأجراها مع العدل في الأحكام ، إذالة رسوم الإرصَاد بأصهبان قديهما
وحدِيثها ، عتيقها وجديدها ، أصولها وفروعها ، كثيرها وقليلها ، والإعفاء مما يجري في حقوق
البذرة والمكس فيها^(١) ، وما يلحق من التوابع والمؤن بها ، إذ كان شيئا لم نأذن في ابتدائه^(٢) ،
ولم نُرخص في إنشائه^(٣) ، وإنما تهوَّكت فيه جماعة أذاقها الله وبالها وأساء عاقبتها ومآلها .
عالمين بأن نفع ما يَحْطُّ من هذه الأحوال يشمل ذوى البضائع في بناعاتهم ، وأولى النجارة
في تجارنهم ، وأرباب البياعات في بياعاتهم ، وأنحاب الضياع والزراعات في غلاتهم ، ثم
لا يفتَصِر على ذلك الحَقُّ وقطَّانه ، ولا يتفرَّد بجدواه من يحلّه من سكانه ، حتى يتَخَطَّى إلى
كافة المجتَمِين إليه من البلاد الدانية والقاصية ، والكُور المجاورة والمتراخية ، في شرق
الأرض وغربها ، وبرها وبحرها . ويدعو إلى زيادة ما يُنْقَل ويُتَّار ، ويرد به المجهزون
والتجار ، فيعظم النفع ويزداد الرخص ، وتشمل البركة ويؤمن البُخس .

هذا وأصهبان أولى بلاد المملكة — حرسها الله — بالتخفيف ، وأحرى كورها بالحماية
عن أُنْقال التوظيف ، إذ كانت منشأ الدولة القاهرة ، ومطلع أنوارها الزاهرة ، والنية فيها
وفي أهلها أحسن نية ، وأدعاها إلى تصيير الخيرات شورى بين الرعية . وإذ كان الرصد
في سائر بلادنا مرفوعا ، والاعتراض به على الرُقُق والقوافل ممنوعا ، فذلك البلد بإزالته عنه
أخلق وأحق ، وتكلفه على الرعية فيه أثقل وأشق . وقد أسقطناه مريدين وجه الله بما أتيناه ،
لا يثنينا عنه كثرة قدره ، والعُرْجة على نفعه أو ضرره ، إسقاطا يستمر على التأيد . وأوعزنا
فوضِع بحضرتنا عن الدواوين حتى لا يبقى له اسم ، ولا يحجب منه رسم . وأذنا في إقامة النداء

(٣) في الأصل : إنشائها

(١) في الأصل : حقتها .

(٢) في الأصل : ابتدائها .

بحذفه في أسواق اصهبان ومجامعها ، وأبواب خاناتها ومسجد جامعها ، والتقدم إلى التجار بذكره في كتبهم إلى معاملهم وخطاطهم ، ومضاربهم وشركائهم ، لا طلبا منهم للشُّمعة ، ولا مراعاةً بالقُرْبَة ؛ بل ليعلموا أن الذي يوردونه ويصدرونه محروسٌ عن التحثيف ، محوطٌ عن التخوُّف ، ويشقوا بأن أموالهم تصل إليهم في ضمان التوفر ، وبضائعهم ترجع عليهم بالزيادة والتثمر ، فيُكثِّروا شكرهم لله رب العالمين ، ويُشركوا لنا بين الدعاء والتَّأمين . إن الدعاء مرغوبٌ فيه ، متنافسٌ عليه ، موعود من عند الله بالاستجابة له والإجابة إليه .

فاعمل — أدام الله تأييدك — بما رسمناه ، فقد حَتَمناه ، وامثل ما حددناه ، فقد جزمناه ، وقَدِّمه فقد تقدمنا بإماطة هذا المال من تلك المعاملات ، وحطّه عن التقارير والتوظيفات . واصرف عن المراكز هؤلاء العشارين الذين عادتهم الظلم ، ومكاسبهم الإثم ، وطُعْمَتهم السُّخْت ، وتقدّم بهدم مراكزهم ، وإبارة مراتبهم ومراقبهم ، ليجتاز المجتاز بما يصدر ويورد ، ويحمل وينقل ، وليس عليه رقبة من معارضٍ ولا مُستَوْقف ، ولا نُقْبَة من مطالب ولا مستخرج ، وما احتيج إليه لحافِظي دروب البلد من جارٍ ، فأطْلِقْهُ من بيت المال لئلا يبقى أثرٌ لما حُظِرَ يُتَوَصَّلَ بقليله إلى الكثير ، ويُتَوَسَّلَ بصغيره إلى الكبير ، وراع من بعدُ الأمر مراعاةً تتولّاها عيونك من الأمانة ، وأهل الثقة في الإخبار والإنهاء ، فإن عثروا بعاشر أو راصد ، أو تابع لهم أو حافد ، قد استخرج بعد النداء ما قلّ قدره ، أو عظم أمره ، فلا ترضَ فيه بغير التنكيل ، واجمع عليه العقاب إلى التمثيل .

واقرا كتابنا على مشايخ البلد ووجوهه وتجاره وعيونه . وتقدّم بالإشادة به على المنبرين و بُتُّ نَسَخَه في المصرين ، لتظهر الكلمة وتشتهر ، ويُعلن بذكرها فلا تستتر . إن سماع الخير داعٍ إلى أمثاله ، وقاضٍ بتكثير أعماله . جعلنا الله مريدين بما نأتي ونذر رضا ، لا نريد الجزاء والشكور من سواه ، وإليه نرفع الرغبة متوسلين بجلاله ، في الصلاة على النبي محمد وآله ، وعليه نعول ليبارك لنا وفينا ، ويصلح بنا ويصلحنا ويصلح على أيدينا ، فإنما نحن له وبه ، ولا ندعى الحول والقوة من دونه ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

١٠ — نسخة الخطاب بالفتح العظيم بِجُرْجان

الذى تقدم الكتاب الكبير به

كتابنا من المعسكر المنصور بظاهر جُرْجان على سمت خراسان يوم الأربعاء لثمان بقين من ذى القعدة ، وقد أنزل الله النصر أعم إنزال ، فكشفنا لنا كثرين كشف الاستئصال ، وسرنا إليهم يومنا هذا هاجمين على معسكرهم مستنصرين بنصر الله ، مستظهرين بعون الله ، معولين على ما عود الله مولانا الملك شاهنشاه السيد المنصور عضد الدولة ، وتاج الملة وعودنا من الإظفار والإظهار ، فحكم أولياء الحق في أشياح الباطل سيوف الانتقام ، وجزروهم جزر الأنعام ، فولى المفلول تاش والمنقوص فاتق والعاق على والمنحوس قابوس وقد كلوا طبائع الخذلان ، وأتاهم بأس الله من كل مكان ، ناكسين على الأعقاب ، راجعين على الأدراج ، وغنم أنصارنا كراعهم وأموالهم وأسلحتهم وخيامهم ، وهام من نجا من استلحام الحديد عاريا ، لا يلوى أول على آخر .

وقد سر بنا في طلبهم الأتراك ركضا ، والأعراب حنا ، والأكراد حضا ، وأمرناهم بأن لا يكذبوا عن نيسابور بإذن الله ، وسبستأسر من أخطاه السيف بمشيئة الله ، إن الله متبع الخاسرين الغادرين ذلا بعد ذل ، ووهنا بعد وهن ، فالحمد لله الذى منح وأنجح ، ومن ، وأحسن ، ويسر ، ونصر ، حمدا يحرس الدولة ، ويحفظ الدعوة ، ويوزعنا شكر ما ذلل لنا من هذا الخطب الذى أعيا القرون ، وأعجز القروم . رسما إصدار هذه الجملة إلى أن ينفذ المبشر بشرح الفتح فى غد ، إن شاء الله . آخر الباب من الفتوح .

الباب الثاني

في العهدود

١ - عهد قاضٍ ضُمَّ إلى أعماله أعمال

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد^(١) حين ألفاه الكافي فيما استكفاه ، الوافي بما قلده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قضاياه ، بما أحمد فيه رضى مسعاته ، مؤدياً حق الله في الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجب الدين ومقتضاه ، والإمضاء على سنن الشرع ومقتضاه ، لا يميل به هواه عند الارتياح ، ولا يختلف مغزاه في الاعتبار والاجتهاد ، الورع مركبه وسبيله ، والحق مقصده ودليله ، قد ضربت بحسن مذهبه الأمثال ، وشدت إلى اقتباس علمه الرّحال ، فرأى أن يضيف له إلى ما يليه من أحكام مملكته الحكم على آنف ما استضافه بأمر أمير المؤمنين الطائع لله ، أطال الله بقاءه ، إلى مملكته من جرجان وطبرستان وما يجرى مع أعمالها ويعد من سفوحهما وجبالهما ، برّ ذلك وبحره ، سهله ووعره ، ثمنعاً رعية هذه البلاد بكفايته ، قاسماً لهم حظوظهم من رعيته ودرايته ، فأولى الولاية من جمع فيه الحلم والحجى ، وأكفى الكفاة من أجمع عليه في العلم والتقى ، والله ولى الخيرة فيما يراه ، والبركة فيما أمضاه ، إنه سميع بصير ، وعلى كل شيء قدير .

أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات المنجية ، ومغلاق الشهوات المردية ، الداعية من استشرعها لباساً ، وجعلها قاعدة وأساساً ، إلى أجدى الأقوال ، وأزكى الأفعال ، وأهدى الأعمال ، وأرضى الأحوال ، الكاسية من أطرحها وراء ظهره ، وصرفها^(٢) عن سبيله وأمره ، خسران الصفقة ديناً ودنياً ، وانحلال الرقة أولى وأخرى ، لا تقبل منه حسناته ، ولا تكفر

— على ما يظهر من هذه الرسالة — جرجان وطبرستان بعد فتحهما .
(٢) في الأصل : وصرحها .

(١) فاض معتزلى مشهور ولى القضاء . لرى وينا تحت حكم مؤيد الدولة من البلاد عام ٣٦٧ هـ .
انظر ابن الأثير ٨ / ٥١٠ . وقد أضيفت إلى أعماله

عنه سيّأته ، يوم تسودّ وجوهُ المجرمين ، وتبيض وجوهُ المؤمنين ، وينجى الله الذين اتقوا بمغافرتهم لا يمسه السوء ، ولا هم يحزنون .

وأمره بأن يجعل مصباحه في ظلم الأمور ، واستنجاحه في الحكم بين الجمهور ، كتابُ الله الذي أنزله ، وبينه وفصله ، وأودعه ما قدم وما حدّث ، ونصبه حجةً على من ورث وورث ، لا تنزف بحاره ، ولا تبلغ أغواره ، ولا تكسف أضواؤه ، ولا تخلف أنواؤه ، ولا تلتبس مذاهبه ، ولا تنقض عجائبه ، قاطعة أحكامه ، ساطعة أعلامه ، كافٍ إلزامه ، إليه يرجع كل ذاهب ، وبه يجمع كل ناكب ، ليس عن محبته معدّل ، ولا يستبدل بمحبته مستبدل ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — تالية كتاب الله في الاقتداء ، وجاريةً مجردة في الاقتفاء ، إذ كانت العروة التي لا تنفصم ، والعمدة التي لا تنثلم ، والصراط الذي لا يعيل ، والبرهان الذي لا يستحيل ، قد رتبها الله بياناً لما أشكل ، ولساناً لما أعضل ، وعياناً لمن غاب ، وإيقاناً لمن ارتاب ، فالتمسك بها ناج يوم الخيفة ، راج للدرجات المنيفة ، واخْلُ بها مدخول دينه ، خفيفة موازينه . ومن يرد الله به خيراً يهيء له من أمره رشداً .

وأمره بأن يتلقى الإجماع بالاتباع ، ويحتسب معه من الابتداع والاختراع ، فقد خصّ الله بفضيلته أمتنا دون الأمم الماضية ، وشرّفهم به على القرون الخالية . وهو حبل من الله ممدود ، وكنف في دين الله ممدود ، لا تضطرب أسبابه ، ولا يهتلك حجابها ، ولا تُعمل الآراء مع وجوده ، ولا تسوّغ العبرة^(١) بعد معقوده ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين يؤلّه ما تولى ، ونصّل جهنم وساءت مصيراً .

وأمره إذا عرض له ما لم يفصح به الكتاب نصّاً وإسماً ، وإن لم يفرط فيه تضميناً وإداعاً ، ولم تأت به السنة كَشْفًا وتنوياً ، وإن اشتهت عليه فحوى وتنبها ، ولم يسبق فيه اتفاق ، لا يسع من بعده افتراق ، أن ينظر نظراً يُفعمه ، ويصبر الفكر فيه فلا يسأمه ، فإن الله إذا علم أن الحق بُغيته ، والصالح نبته ، أدّى به إلى ما يريد ، ووقفه فلا يضلّ

(١) العبرة الاعتبار ، وفي مصطلح الفقهاء القياس .

ولا يحيد ، ورفده بصائب الخواطر ، وهياً له أجلى الأشباه والنظائر ، ولم يُنهِم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بلطفه من الذين يستنبطونه ^(١) .

وأمره بأن يكون اختياره إذا اختار ، وإيثاره إذا اعتمد الإيثار ، من أقوال السلف المشهورين ، وفقهاء الأمة المذكورين ، رحمة الله عليهم أجمعين ، لا يُعَرَّج بالمذاهب الشاذة ولا يتَقَبَّلُها ، ولا يَتَرَخَّص في الأقوال الشاردة ولا يتَحَمَّلُها ، ويصدر أحكامه عن قولٍ شهير وبيان مستنير ، واستبصار واضح المنهاج ، واعتبار متألي السراج ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولى المعارف الموفورة ، من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قنية ، والإسلام حنية ، فإنه وإن كان موصوفاً بالاستقلال ، فما أحدٌ خلق للكمال ، وقد جعل الله في وفور العدة ، مزية لم يجعلها للوحدة ، وعرف في الاستمداد والاستكثار ، فضيلة لم يوجدوها في الاستبداد والاستئثار ، ثم له الإمضاء إذا استشار ، والعضاء إذا تخير واستخار ، فقد أفصح منصوص الذكر ، بقوله تعالى : وشاورهم في الأمر .

وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ، ويؤدب عاداته قبل أن يؤدب من قبله ، ويروض أخلاقه على الحلم فإنه أحمد ما اعتاد ، والصبر فإنه أفضل ما ارتاد ، لئلا يقضى في حال قلق أو عتق ، أو غيظ أو حنق ، أو ضجر أو ملال ، أو حرج أو كلال ، بل ينظر بين الخصوص ، وقد سدَّ خاصته ، وقضى عامة أربه وخاصته ، واستظهر بملك نفسه وإربه ، وعرك المساخت والمغايظ بنجبه ، ليؤدي فرض الله في عظيم ما نطوقه من الفروج والدماء ، ويحتذى أمر الله في جسيم ما اعتنقه من حقوق الدماء ، فإن الله سائله يوم تشهد الأشهاد ، ويُحْشَرُ العباد ، عن قليل ذلك وكثيره ، ومحاسبه على صغير ذلك وكبيره ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين .

وأمره بأن يعدل بين الخصوص في مجالس قضائه ، ويعمهم بحسن استماعه وإصفائه ،

(١) يشير صاحب هنا إلى الآية الكريمة : **“ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم”** .

ولا يَجَلَّ بمن قد غشيتُه هيبَةُ الحكم فيخَصَر ويَحْرَج ، ولا من مَلَكَته روعَةُ الخصم ، فيحسِر ويتلجلج ، ولا يَقسم لواحد منهما في لفظه إذا لفظ ، ولفظه إذا لفظ ، إلا مثل الذى يَقسمه لصاحبه ، ويوجب له المنازعة ومجاذبه ، لئلا يطمع قوًى في انظلام ضعيف ، أو يجزع مشرُوف من اهتضام شريف ، فالحقُّ أكبر من كل ذى محلٍّ وثروة ، والدينُ أعظمُ من كل ذى منزلة وحظوة ، والله على كل فاض فيما يخفيه فيبطنه ، أو يبديه فيعلنه ، رقيبٌ لا تاحقه غفلة ، وحسبٌ لا نفوته خصلة ، ما يَلْفِظُ من قول إلا لديه رقيب عتيد . وأمره أن يتخير كفاته وخلفاه ، وكتابه وأمناءه ، فمن صبح وعف ، وصلح وكف ، أقره ، وفسح له ممره ، ومن صدف عن التورع والظلف ، وانحرف إلى الجشع والنطف ، قدَّم عزله ، وحسَم عن المسلمين كله ، فالمرءُ مسئول عن بطائنه ، كما هو مسئول عن أمانته ، يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

وأمره بأن يتصفح الشهود تصفح مَنْ عدالة المسلمين أثر إليه من الجرح ، وسلامتهم فى الدين أوقع لديه من القدح ، فالمسلمون بظواهرهم عدول ، إلا من ثبت منه فسوق أو غلول ، وأن يُجَبَّر أحوالهم بعد أن لا يقبل ظنيماً ولا عبداً ، ولا من أقام عليه القذف حداً ، ويستشفهم فيما بُصِّدوا ويوردون ، ويتحملون ويؤدون ، ثم لا يقدم أحدهم فى شهادته على لبس ، أو يهجم به ضعف درايته على زيادة أو نقص ، فما كل الشهود يؤتى ^(١) من سوء السريرة ، وإنما يؤتَوْنَ من سوء المعرفة والبصيرة ، ولذلك فضل من فضله علمه وقَدَّم من قدَّمه فهمه ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد ، فلا يعول فى حفظه إلا على الأمين السديد ، ويؤكَّل به عيناً من ملاحظته ، ويدأ من حفظه ومحافظته . ليؤمن فيه الأكل بالمبطل ، والتعريض لخبث المطاعم والمآكل ، ولينفق منه عليه إنفاقاً وسطاً فى التقدير ، بين التبذير والتقتير ، إلى أن يبلغ الحلم والنكاح ، ويستكمل الرشد والصلاح ، فيحصل ماله فى يديه ، ويُشهد به عليه ، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً

(١) فى الأصل : يؤتى به .

فليستغف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا .

وأمره بأن يضع المواريث إذا دُفعت إليه مواضعها من الاستحقاق والاستيجاب ، ويوصلها إلى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سَمَّى وأسهم ، وأبقى بعد ما قسم ، وأن يجزى ذوى الأرحام على ما رآه أكثر الأمة ، وقال به جمهور الأمة ، من إيجاب التوريث عند فقد ذوى التعصيب ، فلو لم يكن في ذلك إلا حراسة التراث ، عن^(١) معارضة عمال المعاون^(٢) والأحداث ، لوجب تغليب من هذه فُتْيَاهُ ، والحق فيها غرضه ومرماه ، فكيف وقد تلى في نص كلام الله : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .

وأمره ألا يفسخ حكم القضاة قبله إذا كان مما يسوغ الرأي مثله ، فلو نقض الاجتهاد بالاجتهاد ، لما استقرت أحكام قضاة البلاد ، وإن هو وجد من ذلك ما خالف إجماع الحجة ، وخرج عن انفاق الأمة ، أتى فيه ، ما يلزمه في تلافيه ، فالباطل أولى بأن يدفع ، والحق أحق أن يتبع .

وأمره بتزويج الأيامي اللاتي ولايتهن إليه ، وعقدتهن بيديه ، متخييرا الأكفاء ، وطالبا في الصدقات الوفاء ، علما أن تقديم ذلك أذعى إلى العفاف ، وأرجى للكفاف ، وأقرب إلى العدل ، وأبعد من العُضْل ، وقد قال الحكيم الرحيم في القرآن المبين : وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم .

وأمره بأن ينصب للوقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه ، ويصدق اشتغاله بها واهتمامه ، تنالا نبور أصولها بالخصايص ، أو تقوت حقوقها باقتطاع ، وتجرى أقسامها على ذلها . وتصرف في وجوهها وسبلها ، وتسمى عن مكائد من يسعى في نقضها برأى من آراء المجتهدين ، ويتأني حلها بفتوى من فتاوى المختافين ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه .

وأمره إذا ثبت عنده الإعسار أن يُنظر ويُنهل ، ويؤخر ويؤجل ، فإن الله فرق بين ذى المتربة والمقدرة ، فقال : وإن كان ذو عُسْرَةٍ فنِظْرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ .

وأمره أن ينصب لحفظ السكك في دور الضرب أمناء يحرسون العيار ، ويعرفون السبك والاعتبار ، ليسكون ما يُطَبِّع على الإمام المعلوم ، والمثال المرسوم ، فلا يستطيع من أراد دَعَاً ، أن يوقع خَلَّالاً ، فتجرى المعاملات على السَّدَاد ، وتُحَفَظَ النقود عن الفساد ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

وأمره إذا رُفِعَ إليه ما يوجب حداً أو قطعاً ، أو قتلاً ، أو جلدًا ، أن يأخذ بأبعد المذاهب من إباحتها ظهر المسلم فإنه الحى ، وإراقة دمه فإنه الحرمة العظمى ، وإبانة أعضائه فالأصل الحظر ، ولا إطلاق ما استعجم الأمر ، وأن يجرد عند ذلك المسألة عن البيّنات ، ويأخذ بالسنة في دَرءِ الحدود بالشبهات ، فإن وضح له ما يوجب إقامة الحد أنهاء ونفذه بحكم الله ، ولم تأخذه رافة في دين الله .

هذا عهدنا إليك ، وعهد الله به عليك ، لم نألك فيه تذكيرا ، وإن كنت به بصيرا ، ولم ندّخر عنك بيانا ، وإن كنت تقتله علما وإيقانا ، فاستخر الله المقيت يُلقك سَدَدًا ، ويؤتلك ما بقيت رشدًا ، إليه تفويضنا فيما نبدى ونعيد ، وعليه^(١) تعويلنا فيما نعزم ونريد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢ — وله عهد في الحسبة

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين لفلان . إنا لما أنهى إلينا ، وتنأهى فى الوضوح لدينا ، من علمك المشهود ، وسترك المددود وموقعك فى أعيان الفقهاء ، وموضعك من الاضطلاع والغناء ، رأينا اعتمادك لما صدق به اهتمام الأئمة ، ومست إليه حاجة الأمة ، من الحسبة التى تنظم مصلحة الكافة ، وتجمع مرارة الحق إلى حلاوة الرأفة ، ففوضناها بالرى وأعمالها إليك ، ناظرين للرعية ، وطالبيين فيها وجه المزية ، إذ الاحتساب مشتمل على الأمر بالمعارف والزجر عن المناكر والتواصى

(١) فى الأصل : وعلينا .

بالحامد والتناهي عن المقابح . والله ولى إرشادنا وتأييدنا ، وإسعادنا وتسديدنا ، نعم الوكيل ، وعليه التعويل .

فباشر ما عَصَبَنَاهُ بِكَ ، مُؤَثَّرًا بِقَوَى اللَّهِ ، فَهِيَ الْعُدَّةُ وَالْعَصْرَةُ ، وَالنَجْدَةُ الَّتِي فِيهَا الْفُتُورَةُ ، وَالْحُجَّةُ الْأَمْنَةُ مِنَ الْإِخْتِلَالِ ، وَالنَّجَاةُ السَّالِمَةُ مِنَ الْإِعْتِلَالِ ، مَنْ اعْتَصَمَ بِحَبَالِهَا ، وَتَدَرَّعَ بِسِرِّهَا ، نَقَدَمَتْ خَطَايَاهُ ، وَسَلِمَتْ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، وَمَنْ رَاغَ عَنْ مَقْتَضَاهَا ، وَرَاغَ عَنْ مُقْتَضَاهَا ، أَصْلَحَ عَثَارُهُ ، وَأَثْقَلَتْهُ أَوْرَارُهُ . وَأَوَّلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَنَارِهَا ، وَإِقَامَةِ شَعَارِهَا ، مَنْ عُدَّ فِي ذَوَى الْعِلْمِ وَالْدِرَايَةِ ، وَاعْتَدَّ فِي أَوَّلَى الْفَهْمِ وَالرَّوَايَةِ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .

وَنَقَدَّ مَا اسْتَرْعَيْتَهُ بَيْنَ عَمَافٍ يَهْتَدِي فِيهِ بِهَدَايِكَ ، وَتَقْتَدَى بِمَقْصِدِكَ وَمَغْزَاكَ ، فَإِنْ مِنْ أَصْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ تُقْبَلُ دَعَاؤُهُ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، وَامْتَثِلْ قَوْلَهُ فِي السَّكْفِ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَبَيْنَ عِلَظَةٍ عَلَى أَهْلِ الْفُسُوقِ نَقْوَمٌ دَرَاهِمٌ وَنَشَقَّةٌ ، وَتَهْدَبُ مَا لَيْسَ لَهُمْ وَتَوْقِفُهُ ، فَهَذِهِ الْعَصْبَةُ مَتَى لَمْ تَرِ جَانِبًا مَنِيعًا ، وَلَمْ تَخْشَ إِسْكَارًا وَسَيْعًا ، انْهَمَكْتَ فِي شَهْوَاتِهَا ، وَتَدَارَكْتَ عَلَى سُوءِ عَادَاتِهَا ، وَلَيْنَ عَلَى الْمَشْهُورِينَ بِالْإِسْرَافِ وَالْعِفَافِ ، لَيَرْغَبُ الْمُمْتَازُ عَنْهُمْ فِي الْإِحْيَايزِ إِلَيْهِمْ ، فَذَلِكَ أَقْوَمُ قِيلًا ، وَأَهْدَى سَبِيلًا ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَاهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمَعَايِيرِ وَالْمَسَاكِيلِ ، وَالْقِسْطَاسَاتِ وَالْمَوَازِينِ ، اهْتِمَامًا بِتَقْصِيصِ افْتِقَارِ الْمَعَامَلَاتِ أَجْمَعِ إِلَيْهَا ، وَرَجُوعِ الْمُبَايَعَاتِ عَلَيْهَا ، فَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَصِّ الْمَصْحَفِ ، وَزَرَ الْبَاخِسِ وَإِثْمِ الْمَطْفِ ، فَقَالَ : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُونُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ .

وَأَجْرُ الرِّعْيَةِ ، عَلَى طَرِيقَةِ سُوْيَةٍ ، فِي الْمَنْعِ عَنِ الْمَجَاهِرَةِ بِمَا يَحْظَرُ ، وَالْمُبَادَرَةِ بِمَا يَنْكَرُ ، غَيْرُ مَفْرُوقٍ بَيْنَ أَنْبَاءِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ ، وَإِخْوَانِ الْخَلَّةِ وَالْإِعْسَارِ ، فَالْجَمَاعَةُ عَمِيدُ اللَّهِ ، لَا تَخْتَلِفُ فِيهِمْ حُدُودُ اللَّهِ ، بَلِ الْأَعْنِيَاءُ — إِلَّا مِنْ عَصَمَ اللَّهُ — أَجْرًا عَلَى الْمُنَاكِرِ ، وَأَقْدَرُ عَلَى بُلُوغِ اللَّذَاتِ بِالتَّبْذِيرِ ، إِنْ أَكْرَمَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ .

وَأَلْزَمَ النِّسَاءَ إِذَا تَخَلَّلْنَ الْأَسْوَاقَ^(١) وَالْحَالَ ، وَدَاخَلْنَ الشُّوَارِعَ وَقَابَلْنَ الرِّجَالَ ، أَنْ

(١) فِي الْأَسْلِ : الْأَسْوَاقِ .

يضر بن بخمرهن^(١) على جيوبهن ، ويمددن جلايبهن على وجوههن ، فذلك أدفع للمحة الفاسق ونظرته ، وأسلم للعبد الصالح وعفته ، ولهذا أمر الله تعالى بغض العيون كما أمر بتحسين الفروج ، قل للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم .

وراع السلع مراعاة تحوطها عن الغشوش ، فأثمها عظيم ، ووزرُها جسيم ، ولها إفساد للبياعات ، وتَحْرِيمٌ للمعاملات ، إلى الوكس الداخل على أهل الملة ، وأولى العهد والذمة ، ومن صحَّ إصراره على استعمالها ، وإقدامه على وبائها ، فبالغ في تقويته يَصِرْ مُثَلَّةً لمن سواه ، وعبرة لمن يجري مجراه ، إن الله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

وامنع من سَدِّ الشوارع دون السابلة بأمتعة الباعة وآلاتها ، وبصائنها وأدواتها ، فليس لأحد أن بضيق على المسلمين طرقهم ، ويشحنها بما عسى أن يعوقهم ، ليلزم كلٌّ منهم موضع بيعه وشراه ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، إن أذى المسلم حرام . وحجازه دون محازه تمام ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وخذ أهل الذمة بلبس الغيار ، وعقد الزنار ، والتمييز عن المسلمين الذين ألبسهم الله ثوب العزة ، وأفردهم حتى في الشعار والبرزة ، وحمام الذلة والهون ، وأعلام ولو كره المشركون .

وقد أدن لك في حبس من يجب حبسه ، وتأديب من نغره نفسه ، لتعم المصلحة وتُقلع المفسدة ، ويخف العنت وتكف المردة ، بعد ألا تدع تقديم الإبدار ، والتقويم بالإنكار ، فإن نجح القول فذاك أقرب مأخذا ، وأرشد منفذا ، وإن احتجج إلى تعديه فلا إقصار دون القيام بحق الله ولا اقتصار^(٢) على ما يُغري بسخط الله ، إن الله لا يحب الفساد .

هذا ما عهدناه إليك ، فاستمر على منهاجه ، واهتد بسراجه ، وإن عرض ما يقتضيك الاستئثار ، لا الاستئثار ، فَأَنْهَ بِأَتِكَ مِنَ التَّبْصِيرِ مَا يُنْجِزُ عَنْ وَحْشَةِ الاسْتِبْدَادِ وَالْإِفْرَادِ ، إِلَى أَنْسَةِ الاسْتِظْهَارِ وَالْاسْتِمْدَادِ ، واستخر الله تعالى يَجِرْ لَكَ ، ويسدِّ عملك ، نعم المولى ونعم النصير .

(٢) في الأصل : والاقتصار .

(١) في الأصل : بخمورهن .

٣ - ولله

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد ، حين ولاه قضاء القضاة بالرى وقزوين وسهرورد وقم وساعة وما يجرى معها ، ويتصل بها ، علما بما لديه من علم يهتدى بأضوائه ، وورع يستسقى بأنوائه ، وكفاية يكتفها الحلم والحجى ، وأمانة يبعثها النسك والتقى ، وموقع فى علية أهل الدين ترمقه النواظر ، ومكان من صفوة المسلمين تعقده الخناصر ، والله ولى الإرشاد ، والمعونة على حسن الارتياح . أمره بتقوى الله ومراقبته ، وتخوف سطوه ومعاقبته . إن التقوى زمام الأفعال الصالحة ، وإمام الأعمال الرابحة ، من لجأ إليها أتاه التوفيق فى مصارفه ، وواتاه السداد فى مواقفه ، ومن مال عنها تحاماه الرشاد فى أنفائه ، وتخطاه الصواب فى آرائه ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا . وأمره بأن يجعل القرآن قبله مساعيه ، ووجهه مطالبه ومباغيه ، فينصب إليه تاليا ، وينتصب له فارنا ، ويخلو به متدبرا ، ويواظب عليه متبصرا ، فهو حادى الحكم ، وهادى الأمم ، والجلاء عند الاشتباه والاستعجاب ، والضياء فى مشكلات الإعضال والاستبهام ، من فزع إلى ذخائره أثرى من المراند واستظهر ، ومن عدل عن بصائره أقوى من المحامد وأعسر ، فله أنزل على الجبال لخشعت ، وأعلى الأطواد لتصدعت ، ما فراط فيه ، ولا تجوز فى أوامره ونواهيه ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله --- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه --- مرجعا ، ويرضى بها مرادا ومُنْتَجعا ، فيرد إليها أحكامه ، ويلتمس منها حلال الدين وحرامه ، إذ كانت العدة إذا اشتبهت الأمور ، والعمدة إذا اختلف^(١) الجمهور ، وفيها تفصيل ما أجملته النصوص ، وتبيان ما اعتوره العموم والخصوص ، تنكشف بها^(٢) الشبه ، ويؤمن بها^(٣) العمه ، محبتها بيضاء ساطعة ، وحجتها غراء قاطعة ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا .

(٤) فى الأصل : به .

(١) فى الأصل : اختلفت .

(٣) فى الأصل : به .

وأمره بأن يلتقى سالف الإجماع بحسن الاستماع والاتباع إذ كان حبل الله المعقود لا تفتك قواه ، وظله المدود لا تستباح حماه . فضل الله به أمتنا على الأمم ، وجعل كلمتها فيه فوق الكلمة ، حتى وسماها في كتابه بالوسط ، وآمننا فيها من الخطأ والغلط^(١) ، لا يخشى على اتفاقها عوارض الالتباس ، وقد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، فليس لذي حكم ونظر ، وأخذ بتأويل آية أو خبر ، أن يخالف ما أطبقت عليه الأمة ، وسبقت إليه الأئمة ، بل عليه التسليم والافتقار ، والتفويض والاقتداء ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونُصِّلَ جهنم وساءت مصيرا .

وأمره إذا عن ما يشتبه الكتاب عليه بعمينا ، ولا كشف عنه الأثر تبينا ، ولا سبق به الإجماع يقينا ، أن يعمل فيه اجتهاده طويلا ، ويُنهض له ارتياده بكرة وأصيلا ، ويسنشد مُودع النص وفخواه ، ويستنجد موجب الأثر ومقتضاه ، ويقيس الأشباه والنظائر ، ويستنبط الأمارات والدلائل . فذاك الجدد الذي كان السلف الصالح — رحمهم الله — يسلكونه وقال الله تعالى . لعلمه الذين يستنبطونه .

وأمره إذا عارض في الأحكام ما يعضل استخراجيه ، ويستبهم رناجه ، أن يتبين ويتند^(٢) ، ويفكر ويجهد ، ويستشير أمثال العلماء ويستمد ، ويأخذ من آراء الفقهاء ولا يستبد ، حتى إذا وضحت له القضية أكمل فضل الاستشارة بيمين الاستخارة ، وأمضى من الحكم ، ما يأمن فيه مصارع الظلم ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وأمره بأن يواصل النظر بين الخصوم ، والأخذ من الظالم المظلوم ، فاتحا لذلك بابه ، ومُلبنا حجابيه ، ومسويا في الخصومة إذا اشتجرت ، والألحاظ إذا تصرفت ، والألفاظ إذا جرت ، بين الغني المثري ، والفقير المقوى ، والقوى الموقر ، الضعيف المستحق ، فليس بالثراء نشراف المنازل وترفع ، ولا بالإفواء تضعف الوسائل وتضع . وبعد فكل عباد الله يسعهم فضله ، وشرع في حكم الله يشملهم عدله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأمره بأن يدرع الهينة ، ويؤثر الوفار والسكينة ، أيفشى ما استكفاه جمالا ، ويؤفى ما استرعىه جلالا ، ويسير سيرة لا الضعف يتخللها فيوهنها ، ولا العنف يتجللها فبهجنها ،

١ يشير إلى الأثر المروي "لا تجتمع أمتي" (٢) في الأصل : يتايد هكذا . على ضلالة .

لستمر أحواله مكنوفة بالمحاسن ، محروسة عن المطاعن ، مروية في السير الصالحة ، محيية عن الألسن القاذحة ، متوكلاً على ربه ، في قل أمره وكثره ، وصغر شأنه وكبره ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وأمره بأن يتخير لأحكامه الأوقات التي يجمع لها لُبه ، ويملك فيها إِرْبه ، ويأمن معها منازعة الوطر ، ومساورة الضجر ، لتصدر قضائاه عن رأى مُسْتَجْمِع ، وصدر مُتَّسِع ، ونفس مُرَاحَة ، وعقل مُزَاحَة ، ذا كراً عند القضاء . فَضْلَ القضاء ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأمره بأن يتسلم دينان القضاء من المتولى — كان — قبله بمحاضره وسجلاته ، ومثابت حججه وبياناته ، وذِكْرِ المحتسبين بمبالغ الحقوق وأسماء الخصوم ، ويعرضه بفهرست يعقده فهو جامع للمسلمين حقوقاً جمّة ، وعقوداً مبهمة ، ويُعْكِلُ به من ثقافته من يحوطه عن الأيدي الممتدة ، والأطماع المشتدة . والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

وأمره بأن يختار لخلافته على قضاء البديان المقررة في يده ، المذكورة في عهده ، ولاسكتابته ، وسائر ما يتوكل من جهته ، من يجمع إلى الرّعة عزوفاً عن النّطف ، وإلى المعرفة عكوفاً على الظلف ، ويطالع أخبارهم ، ويشارف آثارهم ، فمن راع عن الطريقة المثلى ، ولم يَخْشَ وخيم العقبى ، صرّفه زَجْراً وتحذيراً ، وردعاً وكبيراً ، ومن استقرّ على الحسنى ، وسلك الحجة الوسطى ، أقرّه بَعَثاً لمثله ، على الأخذ بهديه ، والاقتداء بسعيه ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وأمره بأن يَسْتَشِفَّ أحوال الشهود وبستكشفها ، ويبالغ فيها حتى يتعرفها ، فعليهم مدار الأحكام ، وبهم استقرار النقض والإبرام ، فمن ألفاد سَتِيراً سديداً ، حرّاً مسلماً رشيداً أحله محل المزكّين أعمالاً ، المقبولين أقوالاً ، ومن ارتاب في أمره ، وامترى في ستره ، وقف ببابه إلى أن ينحسر وجه ارتيابه ، ومن انكشف له عن ظنّة لا تؤمن معها مضرتة على الدين ، أو شهادة زورٍ تكثرت بها معرّته على المسلمين ، جرحه جرحاً ظاهراً ، وكفى الناس شره مجاهراً ، فقد قرن الله قول البهتان بعبادة الأوثان ، فقال : فاجتنبوا الرّجسَ من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور .

وأمره بإقامة الحدود على مستحقها إذا وجبت ولزمت ، وقامت بها البيئات وانتظمت ، وأن يدرأها بالشبهات ما أطاق ، ويَحْتَنِ الدم ما جاز ألا يراق ، ولا تأخذه في إمضاءها على حقها رافة مانعة ولا ملالة دافعة ، فقد نبه الله على ذلك تنبيه الزاجر فقال : ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .

وأمره بأن يحتاط على الوقوف أشد احتياط وأوفاد ، وأحفظه لما لها وأوقاد ، ويعتمد فيها على أمناء يَعْفُونَ عَنْ خِيْبَةِ^(١) المطاعم ، ويكفون عن خطئة المآثم ، لتصل ثمراتها إلى أصحابها ، وتُنْفَقَ في سبلها الصادرة عن أربابها ، وليوضع ما يجب إنفاقه على المساجد الجوامع ، وإنفاذه إلى الثغور والمصانع ، مواضع الاحتياط ، فتؤمن عوادي التخون ، ونقبض أيدي الخيف والتخرم ، وتحصل بذلك الزلفة عند الله تعالى ، وما عند الله خير وأبقى .

وأمره بمراعاة العيار ، في هذه الأمصار ، ومطاعة أحوال السكك لتجرد في الحرم كل سنة على الشنة في مثلها ، ويُبْطَل مَحْوًى وكسراً ما كان منقوشاً قبلها ، وأن يحتاط على الإمام المقرر لدار الضرب بالحمدية عينا وورقا ، ويُوعز إلى صاحب العيار بالتحفظ ممن يوقع غشا ، أو يَعْمَل دَغَلًا ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وأمره بتزويج الأيامي اللاتي إليه ولايتهن ، ولا وليّ سواه لهن ، أو يريد الأولياء عضلهن ، إذا وجد الكفء وحلّ العقد ، وبذل صدق المثل ، ولم تحجز شبهة ، ولم تبق عِدَّة ، كما قال الله تعالى في كتابه المبين : وأنسكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، والله واسع عليم .

وأمره بالاحتياط على مال اليتيم الحاصل في حجره ، اللازم له تدبر أمره ، وأن ينفق عليه إنفاقاً قَصْداً ، ولا يُلْقِيهِ إِسْرَافاً ولا جهداً ، حتى إذا بلغ الحلم مميّزاً بين مصالحه ومفاسده ، ومضالّه ومراشده سلّم ماله إليه ، وأشهد به عليه ، قال الله تعالى ، وقوله الحق ، وأمره الحتم : وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً .

(١) خِيْبَةٌ بكسر فسكون ففتح : الخبيث

وأمره بحبس من يثبت الحق في ذمته ، ويطالب الخصم بحبسه على توفيته لحقه ، إلى أن يبرأ مما حُبِسَ [عليه ^(١)] أو يخرج منه على واجبه ، أو تقوم البيّنة على إعساره ، فيؤخذ بحكم الله في إنظاره ، كما قال الله تعالى : وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة .

وأمره بأن لا يفسخ حكم من تقدّمه ، ولا ينقض ما أبرمه ، إلا إذا كان للإجماع خارقا ، ولللسان الأمة مفارقا ، فإذا وجد ما قد خرج عن تأول المتأولين ، وقول المختلفين ، فله أن ينقضه ويتعقبه فيدحضه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذا ما عهدنا إليك فاقف دليله ، واحتذ تمثيله ، واستهد الله يهدك وبرشدك ، واستكفه يُعَنِّكَ وُبدُّكَ ، إليه نُفُوضٌ ، وعليه نعوّل ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل .

ج - - ولله

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين إلى إسفهلار بن كوريكنج ^(٢) مولى أمير المؤمنين حين ولّاه أعمال الصلاة والحرب والأحداث والمعاون وسائر وجوه الجبايات بقزوين وواحيتها ، إلى الأعمال التي كان يابها ، مقدّرا فيه حُسن الانضلاع ، والوفاء بحق الاصطناع ، والأخذ بالهدى الصالح ، والتأدب بالسعى الرابع ، والله ولي التوفيق والتسديد لأحمد نهج وطريق .

أمره بأن يتقى الله حقّ تقاته ، ويحذر عظيم نقاته ، ويراقبه في سرّ أمره وجهره ، ويخشاه في بطن حاله وظاهره ، فذلك المشرع الذي من ورده فاز ونجا ، والمتهيم الذي من تنكبه ضلّ وعوى ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وأمره بإقامة الصلوات على المفروض والمسنون من حدودها ، واستعمال الخشوع في ركوعها وسجودها ، وحراستها عن التأخير والاهل ، وحياطتها من ^(٣) التسويف والكسل ، لتؤدّي على شرائط القبول ، ونُحْمَى عن عوارض الخداج ^(٤) والغلول ، ويقام شعار الدعوة

(٣) في الأصل: على .

(٤) الخداج : النقص .

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) هو أبو منصور بن كوريكنج الملقب

بالإسفهلار صاحب قزوين . انظر ابن الأثير

على ماضى السنّة فإنه نظام الجماعة ، وعنوان الطاعة ، وقوام السعادة التامة ، وملاك الخاصة والعامّة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

وأمره بأن يتدبر لوازم القرآن وأوامره ، ويتجنب نواهيه وزواجره ، ويقتفى ما أوصحته السنة من مجمله ، ودلّ عليه الإجماع من متأوّله ، وأرشد إليه الاجتهاد من ودائع منزّله ، فإنه الشفاء من كل معضل ، والجلاء لكل مُشكّل ، والبصيرة عند اعتراض العمّة ، والواضحة عند اعتراء الشبهة ، من اعتمد عليه غنم ، ومن ألحد فيه قُصم . كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على سيد المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بإشاعة العدل بين الرعية ، وحملهم على الحجة السويّة ، والنظر بالنصفّة بين المستظهر والموسر^(١) ، والأمر بالمقوى ، ليرتفع التغالب والتجاذب ، ويم التعادل والتناصف ، ويأمن الضعيف سخاوة القوى ، والفقر غزاة الغنى ، فإن الكل من عباد الله ، وشرع في شرائع الله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأمره بأن يجري الخراج والمواقفات وسائر أهل المعاملات على رفوتهم^(٢) المقدرة ، وشروطهم المقتنّة ، ويستوفى حقوق بيت المال في محالها ونجومها ، وعلى عقودها ورسومها ، لا حيفَ ولا إغفال ، ولا جَفَ ولا إهمال ، ليكون ما يورده ويصدره ، ويقبضه ويدبّره ، واقفا مع السيرة العادلة والنصفّة الشاملة ، فإن الله تعالى عالم بما يخفى ويعلن ، ويُمِدّ ويُبْظن ، وكان الله بكل شيء عايما .

وأمره بأن ينفذ الطرق عن أهل العمى والفساد ، ويشحنها بأولى الجلد والجلاد ، لتحاط عن الخراب ، وتعمّر بالمير والأجّلاب ، وتؤمن عوادي المتلصّصة على الرّقّ والقوافل ، والجوآد والعوادل ، وتشمل الأمانة فتنتظم ، وتنحسر الخفاة وتنحسم ، فمن ظفر به من قطاع السبيل ، قابله بالعقاب والتنكيل ، إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

كلمة رفوتهم بمعنى الأوامر وأهلها جمع رفعت الفارسية ومعناها ذهب ، ويكون معناها هنا الأوامر الماضية .

(١) في الأصل : المورث

(٢) في الأصل هكذا: رفوتهم وتكرر في الرسائل

وأمره بأن يُعَظَّم المنصوب للحكم ويُكَبَّره ، ويعزَّزه ويوقِّره ، إذ الأحكام أولى الأمور بالاهتمام ، وأجلها في شرائع الإسلام ، والمتولَّى لها معتمدٌ لصالح الدماء ، ومؤمَّنٌ على الفروج والدماء ، وأن يقبض الأَطَاع عن المعارضة فيما يورده ويصدره ، ويمضيه ويقرره ، ويقصر الأبواعَ عن محبسه ويطلقه ، ويفرج عنه ويوثقه ، وأن يُلْزَم الموسوم^(١) بالمعونة إحضار من عسى أن يتأبَّى عليه ، أو يتقدَّم بسوء القول والفعل بين يديه ، إن الله لا يُضِيع أجر المحسنين .

وأمره بتخيير أصحابه ومتصرفيه وكتابه ، إذ كانوا الشفراء بين الرعية وبينه ، والمباشرين لكثير من الأمر دونه ، وأَنْ يأخذهم بالتنزه والظلف ، ويزجرهم عن الشره والنطف ، ويقبض أطرافهم عن الرعايا أجمعهم ، ويُوَكِّل بهم عيوناً لا ترقد عن تصفّحهم وتتبعهم ، فمن كانت الثقة سبيله ، والرَّعة دليلاً أقرّه على أمره ، وشرح بالإحسان من صدره ، ومن ألقاه خبيث المطعم ، جريئاً على المأثم ، لا يكفّ عن المأكَل الذميم ، ولا يَعيْف عن المَشْرَعِ الوخيم ، صرفه وأبعده ، ونبذهُ وشرَّده ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان .

وأمره بأن يُلْزَم متولى دار الضرب إِيثار الصحة ، ويقوى المنصوب للعيار على حفظ السكك ، ويلزمهما اتباع الإمام المُنْفَذ من الحضرة اثلاً يعترض — بعدُ — مخاف ، أو يَرُوج بهَرَج أو زائف ، ومن عرف منه إذهاباً في ذلك وقلة أمانة ، وإجراً إلى غشٍّ أو اجتراء على خيانة ، تُرِكَ عبرةً للناظر ، ومُثَلَّةً للنواظر ، إن الله لا يَهْدِي كيد الخائنين .

وأمره بأن يأخذ أهل الذمة كل حولٍ بحوالى^(٢) رؤوسهم ، المستبقية لأرواحهم ونفوسهم ، فيستوفى على كل حالم جزيته ، ويحصن بها مهبجته ، ولا جالية على معضوب ولا شيخ فاني ، ولا على الأنث والولدان ، بل يُلْزَمُها الأصحاء البالغون ، ليؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وأمره باستيفاء الصدقات على العدِّ والإحصاء ، وحوطها عن الظلم والاعتداء ، واختيار السعاة النصحاء لها ، واستكفاء الكفاة الصلحاء فيها ، لا جمع بين مفترق ، ولا تفريق بين مجتمع ، ولا يد على أَكُولَةٍ^(٣) الراعى وغل الغنم ، ولا رخصة في اختيار الأعيان

(٣) أَكُولَةُ الراعى : الشاة التي تُعْزَلُ للأكل وتُسَمَّن ، ويكره لصاحب الصدقة أخذها .

(١) الموسوم بالمعونة : هو القائم بأمر الشرطة .
(٢) الجوالى جمع جالية ويريد بها صاحب الجزية على أهل الذمة .

والعِيم^(١)، فقد قال الله تعالى لنبيه عليه السلام في الأوامر التي بعثه لها : خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكّيهم بها .

وأمره بأن يؤثّر^(٢) الأمر بالمعارف أشد إشاراً ، ويتممّ النّاكر بأعظم الإنكار ، فهما مفروضان بحسب الإمكان ، وموجبّان على اختلاف الأزمان والأديان . لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون .

وأمره بحراسة المساكيل والموازن عن التطفيف والبخس ، والزيادة والنقص ، فشأنها عظيم ، والمتسمّح فيها أثيم ، وقد أنطق الله بالوعيد في ذلك كتابه المبين وأنزل في نصه : وَبَلِّغِ الْمُطْفِفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ .

وأمره إذا ارتفع إليه فيما يوجب حدّاً ، ويُلزم قوِّداً ، أن يتنبّث في تعرف البنات ، ويميل على دَرْء الحدود بالشبهات ، فإذا ثبت لديه ما يصحّحه النظر ويحقّقه ، وتتحاماه^(٣) الشبهة فلا تعوّقه ، ، كتب مُصَوِّراً مستأمراً ، وأصدر كتاب الحاكم قبّله مستظهما ، ليأتيه من الأمر ما يُبرمه ، ومن الحكم ما يرسمه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وأمره بأن يحفظ على المسلمين أبقاهم إلى أن يُعادوا إليهم ، وضواهم ولقّطهم لترّد — بالتعريف — عليهم . ومن اشتبهت حاله فلم يُهتَد لصاحبه ، وما استمر استعجابه ، فلم يُظنّر بمالسه وُضِعَ على يدي موثوق به يُسَكَّنُ إليه ، واستُطْلِعَ الرأى فيما يُعمَل عليه . إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها .

وأمره بأن يستكنّى سوق الرقيق عفيفاً في نفسه ، مالكا لإزبه ، خشنا في دينه ، خاشيا لربه ، لِيَكْتَبَ العهد بعد صحة الرق ، في الأمان من الحرية والعق ، ويحتاط على الإماء ، فإن أمرهن متصل بشواجر الأنساب ، وبواشج الأحساب ، ومراعاة أحوالهن في المواقيت ، أَمْنٌ من دخول الفساد على المواليد ، قال الله تعالى في محكم الفرقان : واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام .

(٣) في الأصل هكذا : معاه .

(١) العيم جمع عيمة ، وهي خيار المال .

(٢) في الأصل : يورث .

وأمره بأن يُغشى العوامَ ظلَّ هيبته ليردعها عن التحزب ، ويمنعها من التعصب ، ويدفعها عن التباين والتدابير والتوصل^(١) باختلاف المذاهب إلى التماهى والتنافر ، ليقبل كلُّ على عمارة ما آثره لمعاده ، ويشغل بالإقامة على ما تحيَّره لزاده ، إلا من قال قولاً خرج عن إطباق الأمة ، وخرق إجماع الحجة ، فإن للسلطان — دون الرعية — استكشاف ما أتاه ، والمعاقبة بما يراه ، ومن خالف هذا المنار المضروب ، والمثال المكتوب ، موقداً نار الفتنة ، ورائشاً نبيلَ الفرقة ، أحلَّ به ما يعتَبر معه أعوانه ، ويزدجر إخوانه . لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت الآية .

وأمره إذا عنَّ له ما لم يعهد فيه إليه أن يطالع ويستمد ، ويتطلع فلا يستبد ، إلى أن يكتب بما يجعله وجهة حله وعقده ، وقبلة صدره وورده .
هذا عهدنا إليك فاقف معالمة ، واحتذ مراسمه ، واستعن بالله يسدِّدك ، وعوّل عليه يرشِّدك ، وانقطع إليه يؤيِّدك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٥ -- ولله

كتانى — أطال الله بقاءك — وأنا بدولة الأمير مؤيد الدولة سالم ، والله تعالى شاكر ، وإليه في الصلاة على النبي محمد وآله راجب .
ولما ورد — أعزك الله — أمر مولانا الأمير ركن الدولة ، وخرج إذن مولانا الأمير المؤيد بارتياح من بلى ناين^(٢) ودهاتها^(٣) ، مدبراً عملها ، ومتلافياً خللها^(٤) ، ومصلحاً فاسدها ، ومتألفاً شاردها ، ومعيداً عماراتها ومحضناً ارتفاعاتها ، ومأخياً ما ينمى فيها من آثار الجور والظلم ، وقاصراً ما بسط على الرعية فيها من أيدي الاهتضام والغشَم .
وكنتَ — أعزك الله — من قد عرفتُ في الأيام المتطاولة ، واتصال المعاملة ، لزومك طريقته المثلّية ، وسلوكك الحجة الوسطى ، فاستخرت الله ولّى الخيرة في تفويض الناحية إليك ، والاعتماد في ضمانها عليك ، فتقلد — أدام الله عزك — ذلك وتطوّقه ، وتشمّر له واعتقه ، واجعل تقوى الله — عز وجل — قبالتك التى لا تنحرف عنها ، ووجهتك التى

(١) في الأصل : التوصل .

(٢) ناين من قرى أصهان .

(٣) في الأصل : ودواتها ، ودهاتها جمع دِه .

بالفارسية أى قرية

(٤) في الأصل : ظلها .

لا تَسْتَبْدِلُ منها ، فإن من اهتدى بها هُتِدَتْ ، ومن صدف عن سبيلها أُرْدَتْ .

وسرٌّ في الرعية ، بالنِّصْفَةِ والسُّوِيَّةِ ، من حيث لا يَعمُرُضُ استيفاءُكَ غنْفٍ ، ولا يَكْتَفِ مَعْدَكَ تَكَّ ضَعْفٍ ، واستوفِ حقوقَ السُّلْطَانِ على العبرة القائمة والرفوت الجارية ، والقوانين السابقة ، في مواقيتها المعلومة ، وعلى نجومها وتواريخها المعروفة ، ولا تُخْلِ من قعدت به حاله عن المسارعة إلى التصحيح ، والمبادرة إلى التوفير ، من إنظار ومياسرة ، وإمهال ومقاربة ، وطهرُ البلد من دَنَسِ المغالبة والراغمة ، ليكون الناس سواء في المجاورة والمعاملة ، وحُطِّ السابِلة ، والرُّفْقُ الصادرة والقافلة ، لتدرَّ الأجْلاب ، وتتصل الأحمال ، وتتق التجار ، وأذْكَ العيون في المفاوز المتصلة بعمالك على أهل الدعارة . والمتعرِّضين للمارّة ، مستنثنا أخبارهم ، ومقتضًا آثارهم ، لئلا يتوجه لهم على أموال مجتلبَةٍ ^(١) حيلة . أو تستمر منهم على أَرْبابِ الجَلْبِ مكيدة ، فإن ذلك من أولى ما نطالب به ، وأولى ما تشغل بضبطه .

وصحَّحَ لأبي منصور الحسين بن محمد مال الضمان على واقع العقد ، وواجب الشرط ، مغنيا عن هزٍّ وحثٍّ ، وحضٍّ وبعثٍّ ، وأنه — أدام الله عزك — أمر الجنائيات إذا عظمت ، والجرائر إذا كبرت ، لنحد لك فيما يجب من عقوبة ، أو حدٍّ ماتقف لديه ، وتعمل عليه ، والله وليُّ التوفيق ، وعليه التعويل . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٦ — وله

كتابي أيها القاضي — أطال الله بقاءك — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد الدولة وعافيتي بعده ، والحمد لله شكرا لنعمته ، وصلواته على النبي وعترته ، وما زلت أروِّي في أمر [قاضي] فاسان ^(٢) وأستعلم القضايا بها والأحكام ، فيبلغني من شره الموسوم — كان — بالحكم ونظفه ، وسوء تأتبه وقلة ظلفه ، ما يبعث على التكثير ، ويفرض الاهتمام بالتغيير ، فتعوق قواطع ، ونعرض موانع ، فلما انقطعت سمائمها ، وأسفرت غمامتها ، أنهيت ما كانت الأخبار تتواتر به وتظاهرها ، والألسنة تترافد عليه وتتناصر ، إلى مولانا الأمير مؤيد الدولة فأوعز — لماعليه نيته من إفاضة المعدلة في رعيته ، وقبض يد من عدل عن سيرته ومسجيته —

(٢) فاسان ناحية بأصبهان .

(١) في الأصل : مختلفة .

في صَرَف ذلك الطبرى — صرف الله قلبه وتقليد من أتحققُ سَدَادَه وعلمه ، فلما تدبَّرت ونظرت ، وصوَّبت وصعدت ، لم يَعدُ الاختيار من سبق له الاختبار ، وهو أنت — أدام الله عزك — فأبنتُ عن مكانك من الدَّراية والصيانة ، والمعرفة والأمانة ، وأحمدَ مولانا مؤيد الدولة مارأيتَه ، ورسم إمضاء مااجتبيته ، وكاتبك القاضى أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر — أدام الله عزه — مفوضاً الحكم بقاسان وأعمالها إليك ، ومعتمداً في قضاياها عليك . واثن كنت برشادك واعتقادك ، وفضلك وسدادك مستغنياً عن التبصير ، مكفياً مؤونة التذكير ، إن رهني لسانى عنك ، وارتهانى بما يبدو منك ، يبعثاننى على تقديم الوعظ ، ويقتضياننى الحض على موضع الحظ ، فاتق الله حقَّ تقاه ، واخشَ عظيمَ تقماه ، واعمل بعلمك ، وتصرف على حُكم عَقْدك ، وانظر إلى الدنيا بعين الخارج عن أبوابها ، ونافس في الآخرة منافسة الواثق بشواها وعقابها ، وأدرع من ثوب عفافك ، مايشمل كافة أطرافك ، وعدل الأمر بين الخصوم ، وخذ من الظالم — وإن عزَّ — للمظلوم ، وسوِّ بين المتنازعين فى ملاحظتك ، ثم فى مجلسك ومخاطبتك ، واحتطَّ على أموال الوقوف والأيتام ، وزوَّج الأيامى اللاتى ولايتهن إلى الحكم ، وميز أمر الشهود فاقبل من ظهرت عدالته ، وعُرفت أمانته ، واجرح من تدنس بحُطام ، أو تلبَّس بآثام .

وليكن دليلك فى كل الذى قلته كتابَ الله ، فقد جمع مايكفى ، وأودع مايشفى ، بين حظِّ يوثق ، وإباحةٍ تطلق ، وندبٍ يُرغب ، وحتمٍ يوجب ، وحكمٍ يفصل ، وقضاء يعدل ، وأمرٍ يلزم ، ونهىٍ يحزم ، ووعظٍ يُصلح ، وسعْيٍ يُنَجِّج ، ثم سنَّة رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فهى أنارة العلم التى من اهتدى بها ورى زُنداً ، وسعيدَ جدّاً ، واهتدى حلاً وعَقْداً ، ومن أعرض عنها تعثر فى الضلالة ، وتخبَّط فى الجهالة ، ودُفِع عن موقف الهداية ، ورُدِّد فى أثناء الخزاية ، ثم إجماع الأمة خير الأمم ، فقيه كشف الغم ، وإنارة الظلم ، وزوال الاختلاف والمضادة ، وانحسام الافتراق والمشادة . ثم لك رأىٌ قد حَقَّل شروط الاجتهاد فأثره عند فقد النص والأثر ، وأعمله عند عدم الاتفاق والخبر ، غير طالب الرُّخص من شواذ الأقوال المتروكة ، ولا منتهز الفُرص فى شوارد الفتاوى المهجورة ، فى آراء مشهورى العلماء فُسحة للطالب ، ونُدحة للراغب .

وليكن جلوسك للحكم بعد تحليتك ذَرَعك ، واستنفادك فى الاستخارة وسُعَكَ ،

وقضائك أوطارَ نفسك ، وجمعك لوفارك وحلمك . والله وليُّ توفيقك وتسديدك ، وإرشادك وتأييدك ، وهو حسبي وكفى .

٧ --- وله عهد عامل إلى الناحية

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين لمحمد بن أحمد الكاتب . إنا لما عرفناه من غنائك وكفايتك ، وجربنا من وفائك وشهامتك ، وشهدت له آثارك فيما مارسه ^(١) ودلت عليه أفعالك فيما لابسته ، ورجونا فيك من مزيد الاضطلاع ، عند زيادة التقديم والاصطاع ، رأينا تقليدك القمدان ^(٢) سنة كذا وما بعدها ، أعمالها وأموالها ، وخراجها وأعشارها ، وصدقاتها وجواليها ، ومراصدها وسائر ما يجري معها وينضاف إليها .

وأمرناك بتقديم خشية الله فيما تبطن وتظهر والاعتصام بمراقبة الله فيما تقدّم وتؤخر ، فإن عصمة التقوى تُهدى المناجح ، وتُدنى السعادات والمصالح .

وأمرناك باقتفاء ^(٣) سنتنا في إفاضة العدل وبسطه ، ونشر الإنصاف وفرشه ، ومحو آثار الظلم والاهتضام ، وإزالة مراسم الجور عن الخاص والعام ، لتنبؤاً الرعية أكناف الأمن والدعة ، وتثقيلاً في أطلال الرفاغة والسعة ، لا يمتد طمع الى تحييفهم ، ولا تتسلط يد على تعسفهم .

وأمرناك بحمل المعاملين مع اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم ، على رفوتهم القائمة ، ورسومهم الثابتة ؛ لا تنقض لأحد شرطاً ؛ ولا تتبع عقداً مؤبداً حلاً

وأمرناك بتتبع آثار المتلصصة ، وأهل العبث والدعارة ، وإذكاء العيون عليهم في مظانهم ومكانهم ، وإفشاء ^(٤) الطلب إليهم في معادهم ومساكنهم ، لتأمين المارة وتنظير السبل ، وتصفو الأطراف وتهذب الطرق ، وتتصل القوافل وتنقاطر المير والرُفق ،

(٣) في الأصل : باقتفار .

(٤) في الأصل : إنشاء .

(١) في الأصل : رسمته .

(٢) هكذا في الأصل .

ومن ظفرت به من هذه الطبقة ضَيِّقَتْ حبسه ، وأنهيت أمره ، لنحدّ لك في بابِه ما تقتضيه أحكامُ الملة ، وتوجبه معالمُ السنة .

وأمرناك باستيفاء الحقوق السلطانية على شرائط العقد ورسوم من تولى قبلك ، متصرفاً مع المعدلة والتعديل ، ومتوخياً لسواء السبيل ، من حيث لا تُغمض عن استبداء واجب ، ولا تُفْضى عن استيفاء لازم ، حاملاً المؤدين على نجومهم وآمادهم ، وشروطهم وآجالهم .
وأمرناك بأخذ الجوالى على العد ، من كل ذمى بالغ الحد ، لا جزية على صبي ولا أنثى ، ولا شيخ فإن قد بلغ المدى .

وأمرناك باعتماد من يأخذ الصدقات على فرائض الله المكتوبة ، وأحكامه الماثورة ، لا جمع بين مفترق ، ولا تفريق بين مجتمع .
وأمرناك باستطلاع الرأى فيما يعرض مما لم يُعهد فيه إليك ، ولم يُعرض مثاله عليك ، لتؤمّر بما تلتزم حده ، وتقف عنده .

هذا عهدنا إليك فانتهج ما مثل ، واته إلى مارسَم ، واستعن بالله فى أمورك يكفك ، وعوّل عليه يَهْدِكَ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٨ - وله عهد لتولية أمر الوادى

قد اعتمدناك — لما نؤول إليه من كفاية مستفادة عن الدربة ، ودراية مُستَقاة من الحُنْكة ، وأمانة موجبة للاستئانة ، وسدادٍ مستدعٍ للسكون والاعتماد — فى تولى قسمة ماء وادى زرين روذ .

ورسمنا لك أن تباشر ذلك باتقاء الله تعالى ومراقبته ، فإنهما يزجران عن احتقَاب المآثم ، والإسفاف لخبئة المساعم ، وتعديل الحال بين أهل الرساتيق والضياغ ، حتى يستوفى كلُّ حظّه فى وقته المعلوم ، ويستوعب قسطه فى شربه المقسوم ، وتُقصر دون الحيف الأيدى الغالبة ، وتحسم عن الظلم الأطماع الكاذبة ، ويكون الناس فى حقوقهم أمثالاً لا يتفاضلون ، وعلى سواء لا يتفاوتون ، ويمجرى الأمر فى المقاسم والفُرْض والسدود والرشانات على ما توجبه الدستورات القديمة ، والمثبت العتيقة ، والرسوم المعهودة ، والشئَن الموروثة ، وتقع الاستعانة بالجوبذين^(١) الثقات الذين لا يوطئون العُشوة ، ولا يقبلون الرّشوة ، ويَسْتَظْهر عليهم بأغلظ

(١) الجوبذ : القسيم على النهر .

الأيمان ، وأؤكد الأقسام ، فمن عُثِر منه على خيانة ، عوقب بما يتركه سُمعة ، ويغادره مُثلة . وإن اجترأ أحد من الأكرّة والمزارعين ، والحماة والمتولين ، إلى اقتطاع ماء إلى غير حقه ، أو سَكَرَه ^(١) إلى أرضه في غير شرّبه ، عوقب عقاباً رادعاً ، وقوّم نكالاً وازعاً ، ولم يُبَقَّ عليه وإن كانت النضيعة من خاصّ ضياعنا ، وخالص أملاكنا . فالأمر الذي قلده قوام البلد ، وملاك الدخل ، وقيمة الأملاك ، وأحرى المهمات ، بالاهتمام والمراعاة ، أمر [ماء ^(٢)] الوادى الذى جُعِل منه كل شيء حيّاً . فكُن عند الظنّ بك ، واحذر خلاأ أو زللا يقعان منك ، فقد علمت أنا نعاقب من تجاوز أوامرنا أو تعدّاها ، كما نثيب من وقف عندها لا يتخطاها . واستوف الرسم الجارى لك ، ولعمال الماء قبلك ، على أحسن وجوه الاستبداء ، وأرفق طرق الاستيفاء ، والله يهديك للحُسنى ، ويوفقك للطريقة المُثلى ، وهو حسبنا وكفى .

٩ - وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين لإبراهيم بن محمد الحاجب حين قلده الراورق يدين ^(٣) . أمره بتقوى الله وخشيته ، والاعتلاق بدمّة مراقبته ، وتوخى رضاه فى إعلانه وإسراره ، وتجرى زُلفاه فى إبدائه وإضماره ، فالتمق لله فائز فى دنياه ، حائز النجاة فى أخراه . وأمره بإقامة الصلوات على هينة ، ووقار وسكينة ، وتوفية لما فيها من فرض ونفل ، وحتمٍ وفَضْل ، وشحنٍ منابر عمله بشعار الدعوة التى تحصّن الخيرات ، وترتهن البركات ، وتورد مِشارِع الهدى ، وتُحَلّى ^(٤) عن موارد الردى .

وأمره ببسط النصفّة لمن فوّض تديره إليه ، واعتمد فى سياسته عليه ، وتخوّل جميعهم بإيالة لا العنف متخللها ، ولا الضعف متجلّ لها ، وفى ذلك ما نظم الأمور وأصلح القامد ، وهذب الشئون وأقام المائد ، وجمع شمل الخير وضّمّه ، وأحصَد ^(٥) حبل البركة وأبرمه .

وأمره بأن يستعين بصالحى الولاية ، ويستظهر بأمناء الكفاة ، الذين يتزهون عن خبثّة المطاعم ، ويتعففون عن حُطّة المآثم ؛ وأن يكون له عليهم أعين راصدة لا ترقد ، ولواحظ

(١) سكر النهر : سدّ قاه .

(٢) زيادة يقتضيه السياق .

(٣) مكنا فى الأصل .

(٤) فى الأصل : تجلّى .

(٥) أحصد الجبل : أحكم فله .

مُذْكَاةً لا تهجد ، فمن أحسن السيرة وأجلها ، وأخلص السريرة ونخلها ، جزاه عن فعله جيلا ، ومن أسنَّ إلى الخيانة ، وأخلى طويته من الأمانة ، أوسعاه عن جُرمه عقابا وتنكيلا ، ليتبصر كافة من يليه ، وترشد جماعة من يوليه ، فيؤمن التحيف للحقوق السلطانية ، واستمرار الحيف على ضعفاء الرعية .

وأمره باستيداء ما يستأديه على لين في المعاملة ، ومعدلة في المواقفة ، ورفق في المحاسبة ، وتأس بالسنن العادلة ، وإماتة للرسوم الجائرة ، واعتماد للمعاثب القديمة الراتبة ، وتعويل على الدستورات الصحيحة الخالدة ، واستخراج على النجوم المقدرة القائمة ، لتأمين الرعايا غوائل الاهتضام ، وتسكن أفياء السلامة والسلام .

وأمره بصرف همه ووكده ، وجده وجهده ، إلى تطلب الأكراد المردة ، وسائر المتلصصة المفسدة ، إذ كانت قد اتخذت تلك البقاع دار هجرتهم ومأواهم ، وجعلتها أم مسكنهم ومشواهم ، وصدق النية في إرواء السيوف من نحورهم وطُلائهم ، وتمكين الرماح من أكبادهم وكُلائهم ، لتغفو آثارهم من تلك الديار بإذن الله ، وتسرع إليهم مواد التبار بحول الله ، كما فرض الله في أولى العناد ، وأمضى حكمه في الساعين بالفساد .

وأمره بأخذ الصدقات من دون ظلم ولا إغنيات ، بل على الفرائض المشهورة ، والسنن المنقولة الماثورة ، وعند استكمال الحول في وفاء من النصاب ، لتوضع مواضعها المتلوة من الأصناف^(١) . وأمره بالحماية على أهل الذمة ، واستيفاء ما كتب عليهم من الجزية ، ليشغلوا بمكاسبهم آمنين ، ويؤدوها عن يدٍ صاغرين .

وأمره بالتوفر على العارة بأقصى ما يطيق وأبلغ ما يستطيع ليتثمر الدخل ، ويزول الخلل ، وتبدو صفحة الغناء فيما قلد ، وتلوح غرة الكفاية فيما نصب له واعتمد .

وأمره بالتعديل بين الغنى الموسر ، والفقير المقتدر ، إذا رُفعا إليه وُجعا للنظر بين يديه ، لئلا يطمع المكثر ليساره ، في اهتضام المقلل لإعساره ، وليكون المشروف والشریف ، والقوى والضعيف ، في الحكم على سواء ، لا محاماة تُعتَوَّر ، ولا محاباة تُحَذَّر ، فإن الله مسائل عن خطفات العيون ، وخطرات القلوب ، يوم ينادى المنادى من مكان قريب .

للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، الآية .

(١) يعنى بالأصناف أصناف أهل الصدقة المذكورة في سورة التوبة ، وهى : إنما الصدقات

هذا عهدنا إليك فاتتهج معاملة ، وأمرنا لك فاقترف مراسمه ، واستطلع الرأي في الأمور السانحة عموماً ، وفي الحدود الواجبة خصوصاً ، يأتك ماتعمل عليه ، وتنتهى إليه ، واستخر الله بخرك لك واستكفنه يرؤف بك ، وهو حسبنا كافياً ومعينا ، وناصراً ودليلاً .

١٠ - والـه

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي على للحسين بن أحمد ابن عبد الله بن هرون . إنا لما قدمت من حُرْمَةٍ مكتسبة وموروثة ، وأثلت من عصمة قديمة وحديثة ، واستظهرت به من وسائل توجب الاقتضاب والاضطباع ، والتجأت إليه من ذرائع تقتضى الإلحاق بأهل الفناء والاضطلاع ، قلّدتك الخراج بأصفهان لسنة كذا وما بعدها ، بعد أن استخرنا الله تعالى طويلاً ، ورغبنا إليه في حسن الهداية كثيراً .

فباشر ما قوّض إلى منابك ، ووكّل إلى قيامك ، مستشعراً خشية الله التي من جعلها قبلة يتوجه إليها بأعماله ، وعصمة يعوّل عليها في أفعاله ، هدته إلى الضياء المبين ، وأعلفته بالحبل المتين ، وأدّته إلى المشارع العذبة ، وأخذت به إلى الشرائع الرحبة . واجعل جل ما تقترب بتوحيه ، وتطلب الزلفة بتحرّيه ، إيثار النعمة فيما تتقلده ، واستعمال المعدلة فيما تحلّه وتعتقه ، والصدوف عن موارد الأثام ، والعزوف عن مسالك الظلم المحفوفة بالظلام ، مقتدياً بهدينا في إيضاح معالم العدل ، وطمس آثار العداء والغشم ، وأدّرّع من التعفف عن أموال رعايانا ثوباً تلوح عليك جدته ، وتبقى عليك بهجته ، واحذر خبئة المطاعم التي لا يقارّ عليها وجيه^(١) لوجاهته ، ولا يرخص فيها مع نبيه لنباهته .

واحمل أرباب الخراج على رسومهم القائمة ، وشروطهم الثابتة ودستورات البلد الخالدة ، وأوارجاته الواضحة ، من دون تغيير لسنة ، ولا فسخ لشريطة ، ولا أخذ واجدٍ بمعدم ، ولا مطالبة برئٍ بمجرم ، ولا إلزام شريك عن شريكه ، ولا بسط يدٍ على قسمٍ عن قسمه ، ولا قط^(٢) لمتحير^(٣) ، ولا تجديد تقسيط عن بائر ، ليأمن الجميع دَرَكا ينالهم من حيث لا يجب ، وتبعيةً تلحقهم من حيث لا تلزم .

(٣) متحير الماء : مجتمعه أى المستنقم

(١) في الأصل : وجيه .

(٢) القيط بالكسر : الصك وكتاب المحاسبة .

وافتح النجوم في الأوقات التي يخرج بها الإذن ، ويتجدد فيها الأمر ، على رفقٍ بالمؤدين وإمهال ، محوطين عن التراخي والإهمال ، وأورد الديوان عند كل نجم حسانا بأصله وإضافاته ، وإقطاعاته واحتساباته ، وما تقوم به الحجة من نفاقه ، ليخلد ديوان الأصل بعد تنبئه في ديوان الزمام ، فإذا انقضت السنة الخراجية فارفع حسانا جامعاً لدخلها وخرجها ، وأصلها وفرعها ، ورؤاؤها وواقصها ، واحذر إيقاع التحويلات ، إلا على الملأ الثقات ، بعد تصديرها من حصرها . وافحص أيدي الكتّاب عن تغيير يتجه لهم في اسم ، أو حيلةٍ تفذ منهم في حاك ، أو تسمع يتقدمون عليه في نديل ونقل ، فالخراج مادة المملكة ، وقوام الجيش ، وقيمة الأملاك . وأرواح الرعية ، وعمدة السلطان . ونحسب هذه الأحوال يحب على متوليه فرط الشمر والتيقظ . وتناول المسمى لإقطاعك ، ومبلغه عشرون ألف درهم ، مستعينا به على أداء حق المصلحة ، والتزهد عن الماء كل الذميمة ، واستكف الله يكفك ، واستعن به يهدك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب الثالث

في الأمان والآمان والمواقفات والمناشير

ومراعاة الكبيسة من السنين وما يجري مجراه

— ١ —

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة لفلان وفلان . إنا لما نؤثره في وفد الله من حجيج بيت الله صيانةً تكفهم وتحرسهم ، وحمايةً تتقدمهم وتخصهم ، ورفقا بهم صادرين وواردين ، وإشبالا^(١) عليهم ذاهبين وعائدين ، رأينا تفويض زعامة حجاج الرى والمنضمين معهم إليك ، والاعتماد في تديرهم وتسييرهم عليك ، لما عُرف من سداد مذهبك وجميل غنائك في المعصوب بك ، فتول ذلك مؤديا حق الأمانة فيما استرعيته ، وفرض النصح فيما استكفيتته ، وتوَحَّ من الإحسان إلى هذه الرُّقُق ما يُجْزَل حظوظها من الحماية ، ويعتمدها بفضل الحفظ والرعاية . وسِرُّ بها سيرا لا يجهدُها تعجلا ، ولا يفوتها المناسك تمهلا ، وأحسن التوقف على الضعيف والراجل ، والفقير والمُزْمَل ، والمبدع^(٢) به وذوى المرض .

وتوَحَّ في الجماعة أفسح المنازل ، ورِدِّ بهم أعذب المناهل ، وكن شفيقا على أموالهم ، رفيقا بهم في أحوالهم . واعرض هذا المنشور في المسالك التي تقطعها ، والمراصد التي تَرِدُها ، لِيُعْلَمَ تقليدنا إياك ما قلدناك ، وتؤثرَ ومن في جملتك بالعناية في متوجِّهك ومغزأك ، وتُقَصَّرَ الأنواع من مضارتك ، وتُحَسِّمَ الأطماع عن هَضِيمَتِكَ . والله وليّ توفيقك في مصارف الأحوال ، وتأيدنا في مجارى الأقوال والأفعال ، عليه نعول ، وإليه نفوض ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٢) أبدعت الراحة : ظلمت وكَلَّت .

(١) إشبالا : عطا .

٢ — وله كتاب أمان

هذا كتاب من مؤيد الدولة لفلان . إنه أنهى ما اضطررك إلى الحال التي ركبته ، والخطة التي احتقبتها ، والتماسك من نظرنا ما يثبت قدمك ، ومن أماننا ما يتلافى به فرطك ، فانت متى سلمت القلعة إلى ثقاتنا ووردت حضرتنا ، أو أين اخترت من بلاد مملكتنا ، آمن بأمان الله — عز وجل — وأمان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأماننا المقرون بالوفاء ، المعروف حكمه في الدهماء ، ولك عندنا تجديد الاصطناع وسنى الاقطاع ، لا نؤاخذك بجريرة تقدمت ، ولا جريرة سلفت . وعهد الله بذلك مبذول . وعليه مأخوذ ، والله حسنا ونم الوكيل .

٣ — وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور لفلان . إنك أنهيت الحال في ترويع فلان لك ، وإشفاقك من بعض ما أنكرنا فيه فعلك ، ورغبت في إجرائك على عادة الاحسان ، وإنشاء ما تسكن إليه من الأمان ، واستظهرت إلينا بشفاعه النبويه مكانه ، الوجه كلامه ، فرأينا لما عليه عادتنا في الصفح عن الجرم ، وإقالة المنتدم المتحرم ، تحقيق طلبتك ، ونصديق رغبتك ، فعاود مسكنك في كنف أماننا وعهدنا ، لتجربى على سنة إنعامنا ورفدنا ، وتسكن ظلاً من الإغراز لا ينحسر ممدوده ، ولا يتجافى بمهوده ، ما استأنفت حالاً ترضى منك ، وأقلعت عن مثل ما بدر عنك . ومن قرأ كتابنا هذا من الولاة والصمماء ، والعمال والأولياء ، فليعمل بما رسمنا ، وليحذر على ما نهجنا ، وليحذر مخالفة ما أمرنا .

٤ — وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة لأهل قصبه الدينور . إنا لما عرفناه من حالكم ، وتمثلنا من اختلالكم ، وتصورنا من كثرة عددكم ، واشتراك عالم من الضعفاء وأهل المسكنة في مؤدى خراجكم ، رسمنا تعهدكم بالصيانة والحراسة ، والحماية والحيطة ، وإجرائكم في الخراج المقسوم بينكم على عدل الشئ ، وأخف القوانين ، لازيادة تلحقكم ولا مؤونة تلزمكم ، ولا

كلفة تتوجه إليكم ، ولا مرفق ولا نائبة عليكم ، ولا تتبع متناصفتكم بينكم ، ولم يستأكل قوئكم ضعيفكم ، وكنتم على سنن التواصي والتظاهر ، ولم تخرجوا إلى التحدى والتناكر ، وحظرنا أن يزداد عليكم في الإتيان بطروق من يطرق من الخيول ، وزيادة من يزيد من الجيوش ، وتقدمنا بتعفية ما كان عمال السوء وولاة الجيش يأتون مداخله في هذه المعاملة ، يتوصلون بها إلى ارتشاء منكم ، وارتفاق من جهتكم . فمن قرأ أو عرض عليه كتابنا هذا من الولاة وعمال الحرب والخراج والمعاون بكورة ماه^(١) الكوفة فليعرف ذلك من رأينا وأمرنا ، وليحذر من مخالفة مثالنا ورسمنا ، إن شاء الله .

٥ - وله شرط

هذا كتاب كتبه للأمير المؤيد مؤيد الدولة فلان على نفسه مختاراً لأمره ، في صحة من جسمه ، وثبات من عقله ، حين تخوله — أدام الله عزه — بإحسانه ، وظاهر عليه ملابس إنعامه ، ووسمه باقتضابه واصطناعه ، واعتمده بسابغ نظره وإقطاعه ، وأوجب له ولأصحابه من مواد خيره وإفضاله ، ما وسعهم كلهم ، وتحمل ثقلهم وكلهم ، واعتمد بهم بحماية الطرقات والمناذ ، وحراسة الرُفُق والقوافل ، وخفارة الضياع والمزارع ، بالرى وقزوين وقم^(٢) وساة^(٣) وآبة^(٤) والتيمرتين^(٥) وما كان جارياً في حماية من أعمال أصفهان .

شرط فلان على نفسه أن يقوم بما فوض إليه مشيحاً ، ويباشره جادا نصيحاً ، ويتصرف على أحكام الطاعة وإقامة فرائض الجماعة ، وينفض السبل عن أبناء العيث على اختلاف أجناسهم ، ويطهرها من معارثهم وأدناسهم ، ويكفهم مما يخرجون إليه من مدافعة ومقارعة ، وممانعة ومواقعة ، لا يعتل بكثرة أعدادهم ، ولا يحتاج بفضل ازديادهم ، ويكفي أرباب الإقطاعات والتناات^(٦) والمقاطعات مضار أصناف الأكراد والمتلصصة ، والشهبان

- (١) ماه بالفارسية : قصبة . و ماه الكوفة : مدينة بين الرى وهمدان .
 دينور ، سميت بذلك لأن معاوية جعلها لأهل الكوفة صراداً حين كثروا . انظر معجم البلدان لباقوت في مادة نهاوند .
 (٢) مدينة كبيرة بين أصفهان وساة .
 (٣) آبة : قرية من قرى أصفهان أو قرى ساة .
 (٤) التيمرتين : قربتان من قرى أصفهان .
 (٥) التناات : لإقطاعات الدهاقين .

والمثبته ، لتكون الرساتيق دانيها ونازحها مكنوفة بالأمنة ، والمسالك جوادها وعوادها محروسة عن الخافة ، مسلوكة بالمير والأجلاب والبضائع والحمول غير محتاجة إلى استظهار من يذب مصاحباً ، ويحمي مسائراً ، فتمت وقع في النواحي والطرق التي تكفل بتهديب مدارجها ، وتطهير منهاهجها ، عيث أو إفساد ، أو ضرر أو إضرار ، أو سلب أو انتهاب ، كان على فلان تتبع الجاني حتى يسلم أو يهلك ، ورد ما أخذ أو أرش به بالغاً مبالغ ، لا يقبل له في ذلك ولا في شيء منه عذر ولا اعتلال ، متى وقع خلل أو إخلال .

وشرط أن يزّم أصحابه ووجوههم ، وأتباعهم وأماثلهم ، وأشياهم ورءوسهم وأذنانهم ، لتكون الطاعة ملاً بسهم ، والعفة مقاصدهم ، والمسمى لهم مطاعهم ، لا يسفون إلى خبثة المآكل ، ولا يتوجهون إلى وارد أو صادر ، ولا يتجاوز هو ولا هم في الخفارات وغيرها الرسوم المقررة والنفقات المقرنة ، ويستوفي ذلك على يد الكاتب المنسوب من الديوان المعمور ، ويعفى أهل الضياع بقم والتميرتين من التزل على قراهم ، وحلولهم في مشتاهم ، ويقتصر في المسارح والأفياء ، والمياه والأكلاء ، على البقاع التي رسمت له ، ووسمت به ، لا يتعداها إلى ماعداها ، ولا يتخطاها إلى ماسواها ، ومن جاوز من أصحابه هذه الأمثلة المضروبة ، والمراسم المشروطة ، عاجله بالقبض عليه ، وعمل فيه بما تنفذ به الأوامر إليه ، وأن يخف مع هذه الشروط في البيجارات العارضة ، ويتصرف فيها مع ولده ورجاله بالنيات الخالصة ، لا يبحث بأخذ أهبة ، وتأخر عدة ، وتناقص عدة ، بل يباشر ما يهاب به إليه ، باستقلال من رباط الخيل وشاكي الأسلحة وعدد الاستظهار .

شهد الشهود إقرار فلان بالتزام هذه الشروط واعتناقها بعد معرفته بما بذل فيها ، وذلك في شهر كذا سنة كذا .

٦ — وله كتاب أمان

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة مولى أمير المؤمنين لفلان . إنه أنهى عنك إخلالك بمرکزك من كذا خيفة من أحوال رقيت عنك ، وانبساط أيدي لضمنا في فضل استخراج منك ، ورغبتك في إنشاء أمان تعود به إلى وطنك ، موفوراً

غير مغدور، فرأينا — لما عليه النية، في كافة الرعية — الإيعاز بذلك، فانت — متى عاودت مقرك، ولزمت شأنك وأمرك — آمن بأمان الله وأمان رسوله وأماننا الذي لاحت لمعهوده، ولا نقض لمعهوده، ولك أن نوعر بصياتك، وحياطتك، وقبض الأيدي عن هضميتك. ومن قرأ أو عرض عليه كتابنا هذا من طبقات الولاة والضمناء، والعمال والأولياء، فليعمل ذلك من رسمنا، وليقتف ماضى حكمنا، إن شاء الله

٧ واه

كتابى أطال الله بقاءكم — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد الدولة، واطراد السعادات في أحواله، وانتظام البركات بإقباله، وعافيتي في ظلاله، والحمد لله، وصلواته على النبي محمد وآله. وقد علمتم — تولاكم الله — أنكم بدأتكم بحضور البساط العالى راغبين، وسألتم القبول والإقطاع طالبين، فأحسن مولانا الإصغاء لكم، والرفق بكم، وأبدلكم من التوحش اصطناعا، ومن التفرق اجتماعا، ووطنت لكم المشاتى والمصايف، وأفيضت عليكم العطايا والموارف، وشهرتم في جملة الأولياء، ومُيزتم عن النظراء والأكفاء، ولم تنسلخ سنة إلا عن زيادة تُؤثرون بها، ووجوه نظر نُؤهلون لها، من إحسان ونعمة، وخُملان وخلعة.

وكان ما يُنوى فيكم أكثر مما أفيض عليكم، وما يُدخر لكم أوفر مما أُوصل إليكم، ووُثق بكم الثقة بالأخصيين من الخدم، والمتحققين من أنشاء النعم. ثم أنهى أن إخلالا وقع منكم بما كزكم، ومفارقة لمواضعكم، مع توالى الكتب بأن أكابركم ووجوهكم كرهوا ذلك ولم يتحمّدوه، وأن الأصاغر أقدموا عليه وآثروه، وأجرت طائفة إلى قطع الطرق، وأخذ أموال الرُفق، نكوصاً على الأعقاب، وتحككاً بالعقاب.

ووردت الآن [رسل^(١)] منكم يذكرون أن أخبارا كانت سقطت إليكم استطارتكم حذرا، واستفزتكم خوفا وذعرا، فأنهيت إلى مولانا الصورة، وأوضحت القصة، واستقلت لكم العثرة، واستوهبت الزلة، فقال مولانا: إن حُرّ ماتهم تقتضى التغميض عن

(١) زيادة يقتضيه السياق.

هفواتهم إذا أنابوا ، وعَصَمَهم تبعث على غفران جرائمهم إذا تابوا . وقد أنشئ المنشور بالأمان ، والوعد بالإحسان ، وختم بعالي ختم مولانا ، لازال نافذا في الأقاليم ، ماضيا مضى المقادير .

وكانت أبا عيسى بما يذكره لكم ، ويلقيه إليكم ، لتزدادوا سكونَ نفس واشتدادَ ظهور ، فعاودوا مواضعكم ، والزموا أما كنكم ، وأجروا في الطاعة على رسومكم ، ولا تُضيّعوا متوكّد حقوقكم ، فظلّ الخدمة أمدّ ، ولباس عزها أجد^(١) ، وإنما تقع هذه النزوات أياما ثم تأتى العواقب بمالاقبل به ، ولا ثبات في وجهه ، وأبو الهيجاء بكتاش الحاجب مولى مؤيد الدولة قد رُسم بقاسان ، وهو صائر إليها ، ومكاتبَ باعزازكم وإكرامكم ، وإيثارك وبسطكم ، ودفع كل أحد عن مضارّكم ومساءتكم . وأبو منصور بن محمد مخاطب ببلوغ الغاية في الاشتغال على جماعتكم ، وتوفية حقوق كافتكم . وأنا أنتظر ما يكون منكم ، خار الله لكم ، والخيرة أجمعها في الطاعة المأمونة الغوائل ، المرجوة الفواضل ، الجامعة إلى صلاح المعاش ، صلاح المعاد ، وإلى تحصيل النجاح ، سلامة الأرواح ، وهو — تعالى — حسبنا ، ونعم الوكيل .

٨ — وله في مراعاة أوقات المعاملات والكيسة من السنين

وصل كتاب الأمير ركن الدولة بما ورد به أمر مولانا أمير المؤمنين من نقل سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة إلى سنة ثلاث ، لينزل التفاوت الذى تخلّل السنين بين الشهور الخراجية والشهور الهلالية ، ولتكون المعاملات جارية على أوقاتها ، والإجازات منسوبة إلى زمانها ، والجماعات مصدّرة بمحالها ، والتواريخ منتظمة على حقوقها ، والكيسة واقعة على رسومها .

وحمدت الله وشكرت له على مامن به على الأمة ، وأفاضه على أهل الملة والذمة ، من نظر أمير المؤمنين ورعايته ، واهتمامه بمصالحهم وعنايته ، وتدير أحوالهم بما يجريها على أذلالها ، ومطالعة أمورهم بما يؤمن من اختلالها ، وتنقيف شئونهم بما يضاهى سنن آباءه الراشدين ، من الخلفاء الماضين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ممن استرعاهم حياتهم ، ووكّل إليهم سياستهم ، حتى أصبحت الكلمة يمين إيلائه متفقة^(٢) ، وأسباب البلاد والعباد

(١) في الأصل : واجد .

(٢) في الأصل : متفقة .

متسقة ، وحتى برز الحق في أحسن ملابسه ، ونجم العدل في أزكى مغارسه ، وأصبح الظلم لا يُقْتَدَى بحكمه ورسمه ، ولا يُعْرَف إلا بذكره واسمه ، حداثاً يَحْصُنْ لأمير المؤمنين جلاله مواهب الله ونعمه ، ويمْتَرِى إليه فواضل مَنَحِهِ وقِسْمِهِ ، ويؤذن له بدوام قدرة لا تَحْتَلُّ قُوَاهَا ، وبسطة لا تَحُلُّ عُرَاهَا ، ويوجب للأمر ركن الدولة — بذبّه عن دين الله ، وقيامه بحق خليفة الله ، وتوفيره على ما أصلح خَدَمَهُ ورعاياه — مزيداً من مناحه وعطاياه .

وقابلت الأمر بامتثاله ، على الرسم في أمثاله ، وأوعزت في بناء الحسابات ، وعقود الضمانات ، وما يجري مجراها من الشروط والمواقفات ، على ما رُسِمَ ومثَّل ، وقرَّر وحَصَّل ، فصار كل حول يدعو إلى نفسه ، ويخبر عن دَخْلِهِ وخَرَجِهِ ، لا حاجة لعامل ولا معامل إلى تبديل جارى سُنَّة ، واستعارة اسم سنة لسنة .

وكاتبت بذلك أصحاب الأطراف التي استخدمني الأمير السيد في مراعاتها ، ليُجْرُوا عليها أمر رفوعها وحُسْباناتها ، فيكون ما تجدد من رأى أمير المؤمنين شاملاً شمول عوارفه ، وما قدمه الأمير السيد عاماً عموم فواضله ، وليصير رسماً يدوم ويخلد ، ويقرَّر على وجه الدهر ويؤبَد ، لا تهتدى الأيام إلى فسخه ، ولا ترتقى الليالي إلى نسخه ، فيتجدد لأمر المؤمنين — على تجدد الزمان — الذكر الجميل للمأثور ، والثواب الجزيل للموفور ، وللأمير السيد الدعاء المؤذن بالمنائح الشاملة ، والسعادات العاجلة والآجلة . أنهيت إلى مولانا الأمير وليّ النعم ما أقت به رسم الخدمة ، فإن رأى الأمير أن يديم تشريف عبده^(١) ، بالتصريف بين أمره ونهيه ، فعل إن شاء الله .

٩ — — — — —

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة لصدقة بن أحمد وأولاده . إننا — لما أظهرتموه من احيار الى جملة الأولياء المخلصين ، وامتيار عن غمار الأكراد المفسدين ، وأبدىتموه من صفحة الإقلاع ، وتعلقتم به من عصمة الارتداع ، والتمستموه من قبول انقطاعكم ، وسألتموه من تجديد اصطناعكم — فَسَحْنَا لَكُمْ في ورود حضرتنا ، مستظهرين بأمانتنا وذمتنا ، فأنتم وكل واحد منكم — ما اعتنقتم شروط الموالة ، وتطوقتم عهود المصافاة ،

(١) في الأصل : عبده .

وكنتم لأشباعنا شيعا ، ولأنصارنا تبعا ، وعلى المارقين يدا قاصدة ، وعينا راصدة — آمنون على أنفسكم ودمائكم وأرواحكم وشعوركم وأبشاركم ومالككم وكُراعكم ، وسائر ما تنضمّ عليه ملكتكم ، بأمان الله — جلّ اسمه وتعالى جده — وأمان رسوله — صلى الله عليه وعلى آله الذين اجتبي — وأماننا الذي لا يتسلّط الإخفار عليه ، ولا ينسبط الانقباض إليه ، لا تؤاخذون بجرائركم الواقعة قبل إنابتكم ، وكبائركم المكفّرة بثابتنكم .

فثقوا بذلك مثني وموَحدا ، واسكنوا إليه شتى وجميعا ، وردوا الباب ليوصل إليكم حلالة الطاعة وبرّ دُها . وتدبّر لكم أخلاف الإحسان وتوفّر مزيّتها . ومن قرأ كتابنا هذا ، أو أقرّ به ، أو عرف أمرنا فيه وأنبئته ، فليعرف صدّر ذلك عن أسر جزم ، ونفوذّه عن مضاء غزم ، وليحذر تعدّي أحكامه وحدوده ، وتخطّي مراسمه وشروطه ، إن شاء الله .

١٠ — وله

إنما لسا عرفناه من كفايتك ، ورجونا من غنائك ودرايتك ، رددنا أمور الدرب والبدركة^(١) الموفرة أموالها على العرب إليك ، واعتمدنا في ضبطها واستخراج الواجب منها عليك ، ورسمنا لك أن تستوفي الرسوم من حيث لا يلحق الرعية والسالبة اهتضام ، ولا ينال استحقاقات العرب انتقاص واخترام ، وأن تجعل الإمام الذي ترجع إليه فيما تستوفيه ، المنشور الوارد من الحضرة البية وما يُبين فيه ، وتُحصّل الأموال على حقوقها مُياومة ومُشاهرة ، وعند كل رقعة صادرة وواردة ، ولاتستعين إلا بمن تسكن إلى ثقته ، إذ كنت المؤاخذ بعهدته ، ليخرج حق إبراهيم بن محمد الحاجب من الأموال بقسطه ، ويوفر^(٢) كل من العرب على حقه وقسمه .

فباشر مامثلناه ، بإيثار للنصح لا تنعدها ، ونقاء من الجيب لاتخطاه ، ورفق بالمعاملين بحسب مادة النظم ، واستقصاء للأولياء يغنيهم عن التألم ، واستزد من إحساننا إليك بالمقام على الطريقة الحميدة ، والشيم الراشدة ، إن شاء الله .

الباب الرابع

في الوصاة بالحجيج والمصالح وأمر الثغور

١ كتاب في أمر الحجيج

كتاني --- أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش --- وأمور السلطان وأحوال ممالك مولانا مطردة في استقامة المجاري وعادتها ، وانفق المناجيج وتواصلها ، على ما يجب الحمد مغرقة فيه ، والشكر مسبها في تعاطيه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين . وكان وصل كتاب الأمير على عادته في عمارة سبل الخيرات ، والبعث على الأعمال الصالحات ، أحسن الله أدائه^(١) ، وشكر إسماعه^(٢) . فتلقيت رسمه بالامتنال ، وأنهيت إلى حضرة مولانا حقيقة الحال ، فاعتد للأمير باطف البداية إلى ما فيه مرضاة مفتتمة ، وفي تقديمه مثوبة ومكرمة ، وأوعز في أمر الحج بما لا شك في انتهاء أبنائه ، فلا حاجة في إعادة القول بعد ابتدائه ، وأضحوا الكتب إلى الحضرة بدينة السلام ، وإلى طريق الجبل وهذان عما شملهم ظله ، وعمهم فضله . وحين عاد الحجمة^(٣) أنهيت هذه الجملة إلى الأمير ، والله يُنهضني بالتصرف على مراده ، ويوقني لاجتلاب رضاه وإحماده ، بمنه ، فإن رأى الأمير أن يخاطبني بأمره لأثقله ، ورسمه لأمثله ، فعل إن شاء الله .

٢ --- وله جواب كتاب صاحب الثغر بالإحماله

كتابنا وسم الله لدينا موفورة ، وعوارفه مشكورة ، ودعوة الحق بنا منوطة ، وحوزة الدين عندنا محوطة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتابك صادرا عن ثغر أردبيل^(٤) --- أحسن الله حمايته ، وتولى وقايته ---

وفي الأصل : المحمرة .
(٤) مدينة كبيرة بإقليم أذربيجان .

(١) في الأصل : أداءه .
(٢) في الأصل : إسماعه .
(٣) الحجمة : الذين يركبون الجميزة : الإبل .

نصف استقامة شأنه ، وتراجع مكانه ، وانتظام أموره ، وتكامل العمارة في سورة ، بحسن تأتّبك ، وجميل تهديك ، وتجردك لتلافي ما تشعث من بنيانه ، وردّ من نفر من قُطّانه ، حين ألجأهم سوء الملكة ممن كان يليهم ، ويسير سيرة العدوان فيهم ، إلى الإخلال بديارهم ، ومفارقة محالهم ومقارنهم ، فحُصِيت للدين . حمية مثلك من المهتدين ، وقمت بحق الله قيام الجادّين المجتهدين ، فعاد الشارد ، واستقام المارد ، وأنسّ النافر ، وسكن الثائر ، وانحسرت أطماع الكفرة عن الثغر - حرسه الله - بعد امتدادها إليه ، وردّ الله آمالها خائبة بعد انقضائها عليه ، وأن الذي قطعك عن مكاتبة حضرتنا ، بعد اعتصامك بطاعتنا ورايتنا ، هذه الحواجز التي ملكت عليك اختيارك ، إلى أن بلغت فيها إيثارك ، وأنجح الله مساعيك وآثارك .

وفهمناه حامدين من له الخلق والأمر ، ويده النفع والضر ، على ما تكفل به من إعزاز دينه وإعلانه ، وإظهار أنصاره وأعوانه ، وإثارة برهانه ودليله ، وإعانة المجاهدين في سبيله ، حذا يقضى لأوليائه بالغلب ، وعلى أعدائه بسوء المنقلب ، وأحذناك على جدك في خلل أزلته ، وأود عدّته ، ونارح استعدته ، وثلم سدّته ، ووهن شدّته ، كفاء اهتمامنا بما أصلح الدنيا والدين ، وعنايتنا بما أحاط حريم المسلمين ، فقد آذن الله بمحصّد شوكة الكفار والفجار ، حزب الشيطان وكلاب النار ، والله المرشد ، والمعين ، والسدّد - في فضّ حكمتهم ، وتفريق كلمتهم ، وفك أسلحتهم ، ومحت أثلتهم - عزيمة حاضرة . بعو - بمشيئة الله عز وجل - دعوتها ، وتبطل سطوتها ، ويُعلّى جذّها ، ويمضى حدّها . وتُشرح صدور المؤمنين عندها ، والله بالغ أمره ، متمم نصره .

وعذرْك في تأخير كتبك ورسلك حتى الآن محمود . ونَعَالِك بما صرفت إليه جهدك ووكدك محمود ، فأحسن المثارة ، على ما أنت بصدد من المحاهدة ، واستدلال الكفرة بصدق الجالدة ، فكثيرهم قليل ، وعزيزهم ذليل ، ومعاشهم غرور . ومعادهم ثبور ، وأنصار دين الله قلّتها كثرة ، ومحنتها منحة ، وبقاؤها سعادة ، وفناؤها شهادة ، تكتب خطاهم حسنات ، ويُكفّر بها خطيئات بعد خطيئات . والله زائدكم إلى عزهم عزًّا^(١) ، ومرسل الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزا . وثقّ منا بالعناية الصادقة ، والإلحاق بأهل الخصوص والساقية ،

والتخوّل بالإحسان والإنعام ، والتعهد بالتشريف والإكرام ، وعرف من لديك من المرابطين لوجه الله ، والمجاهدين في سبيل الله ، ما عندنا إشبالا عليهم وعلى أمثالهم ، واشتالا على ما قوى من آمالهم وأحوالهم ، ليزدادوا على الكفرة العجزة ثقل وطأة ، وصدق جرأة ، وحدة جوانب . وشدة مناكب ، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .
ونابع كتبك بأخبارك وآثارك ، فيما يحدد الله من إذلال الكفرة في أطرافك ، وأطرارك ، واستمع من رسولك ما يؤدّيه . وانتهج نهج الامتثال فيه ، واعرض ما يسنح ويعن من أربك ، والله رابعك وكافيك ، وواقيك وهاديك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٣ — وله في إجماد صاحب الثغر

كتاني ومولانا الأمير مؤيد الدولة فيما يوجهه الله تعالى من ولائه . ويسطه من ولايته ، ويتضيه من رأيه ويعليه من رايته ، ويعرّه من كلمته ونصره ، وينفذه فيما قرب وبعد من أمره ، على أفضل ما أقام الله به قناة الجماعة ، وألف معه الأهواء على حسن الطاعة ، وما أدبره من أمر خدمته مستقيم ، وإحسان الله فيه جسيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك نافذا من ثغر أردبيل — حمّاه الله السوء^(١) فسرني ما أخبرت به من حاله ، ودلت عليه من عمارته واستقلاله ، وعود سوره بعد اختلاله ، وأوب من أخلّ من مرابطيه ورجاله ، حين أنالهم من كان يليهم ، ولا يراقب وصية الله فيهم ، ظلما أزعج ساكنهم ، وأخرج قاطنهم ، وكاد الإسلام فيه يضعف ركنه ، والشرك يصدق ظنه ، إلى أن انتدبت انتداب النذب في دينه ، الثبت في يقينه ، الحامي بحميته ، المرامي بحسن نيته ، فتلافت ما فرط^(٢) وأدנית [ما]^(٣) اشحط ، واستعدت من شرد ، واستدلت من عند ، وعمرت ما تشعث ، وأبرمت ما انتكث ، واستدف^(٤) أمر الثغر^(٥) حاطه الله — وقد شارف

(١) استدف : استقام .

(٢) في الأصل : الثغور .

(٣) في الأصل هكذا : سو .

(٤) في الأصل : فرط .

(٥) في الأصل : وأشحط .

الانتشار ، واستمر عقده - وكده الله - وقد صافح الانتار ، وتراجعت آمال الكفرة خاسئة على أذانيها ، خائبة على أعقابها ، قد ردَّ الله مكائدها في نحورها ، وبقيَ لواخها في صدورهما ، وعدًا منه حنًا في قسم كل من أراد بالدين سُوءًا ، وكان للمسلمين عدواً ، إما في عاجلة تائبه ثوب التَّغَرُّ ، أو في عاقبة تورده دار البوار .

وقد حمدت الله - تعالى - على ما قواك عليه ، وأجراك إليه ، وسألت الله أن يصلي على محمد خير بشير ومبعوث ، وأفضل وارث وموروث ، وعلى آله ، ويريد دينه تمهيدا ، والمجاهدين فيه عزًّا وتأييداً ، ويحسن جرائك عما اخترت وآثرت وأبليت .

وعرَّض كتابك بحضرة مولانا الأمير المؤيد فاهنر اسماع ما أنهيته ، وثقك الرضا عما أنيته ، كفاء ما تقتضيه هممه التي وقفها على ضمِّ نشر الإسلام ، ولم شعث الإيمان ، فعمَّ الله الجماعة بعدله ، وخصَّ أبناء الطاعة بفضله ، وأوصح منهاج الحق في ظله ، وأثقب سراج الدين بين عزمه وفعله ، وأحمدك على ما أمدته في ملافة الكفرة أعداء الله من بحدة وبأس ، وشدة ومراس ، واعتدك في خاصِّ خدمه ، ورصدك بلاحقٍ نظاره ، فوسيلتك أوجه الوسائل وأوقعها ، وذريعتك أنبه الذرائع وأرفعها ، جهاد في سبيل الله رب العالمين . واجتهاد في تذليل أعداء الله المشركين ، وبذل للمهجة في مرضاة الله ، وتحمل المشقة في ذات الله .

وفد قبل مولانا ما قدمته من العذر ، ونصوّر تشاغلك عن المكاتبة بمصالح الثغر ، ولا خدمة عنده - - أعلى الله جده - أدعى إلى نيل القربة ، وأقضى برفع الرتبة من الاشتغال بمثل شغالك الذي تحمى به من حواشي الإسلام حاشية ، وتسد به من نواحي الجهاد ناحية ، وسنبجز الله بمولايئنا الملك السيد والأمير المؤيد وعده ، ويصدق عهده ، فعزائمهما في اجتثاث دوحه الشرك محصية ، قد آن أن يُنجزا ميعادهما ، وصوارمهما لاقتلاع عمدة الإفك مرهفة قد حان أن تهجر أعمادهما ، وسيشاهدُ بمشيئة الله عز وجل عن قرب كيف تحقّق ألوية الحق وراياته ، وكيف تتلى قوارع النصر وآياته ، وكيف تجتمع حلقتا البطان^(١) ، على عبدة الأوثان والصُّلَبان ، فيعذبهم الله بكفرهم ، ويريههم وبال أمرهم ، لا يجدون في السماء مصعداً ، ولا على الأرض مقعداً ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن

(١) البطان : الخزان الذي يكون على صدر الراحات

تجد اسنة الله تبديلا ، فهذه الدولة المحمودة ، والدعوة المسعودة ، هي التي أسأها الله ليعمر بها أوسية الإيمان ، ويصممع أبنية المهتان ، ويميد وحه الإسلام عصاً ، ويترك جمع الصلال منفصلاً ، له القوة والحول ، ومنه القدرة والطول

وعمايتي بك عناية فرضها الدين ، ونكتتها وتقتضيها صحة اليقين ، وتوجبها لما ظهر من حسن قيامك ، وفصل إمامك ، ثم لما اعتناقتته من حمل الخدمة لمولانا الأمير ، فما أحد اعتنم به إلا أكتب مرآذه ، وأمرع مرآذه ، وفأجت حجتة ، ووصحت محجته ، وقد أدى رسوئك ما حثته ، وصادف من القبول ما أمته ، وأعدت إليه في الحواب ما تسكن إليه ، وبعمل تنويفك الله عليه ، فذم - أيدك الله - على ما أتت بصددته ، واستمر على القصد من جدده ، فإنه لم يبح التواضع . وتبخر الراح ، إن الله لا يصيب أجر الحسين وابع كتاك إلى الخضرة النبية مما تتحدد من خير ويسهل من طفر ، ونحمد من أثر ، ويعرض من وطر ، ملاحظنة مولانا بصمن الانحاب في مطالبك ، وتبخرى يسهر في قرب مآرك ، إن شاء الله

٤ وله

كتاني . أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش - - والله تعالى عند مواليها منامح تنساة . إلى نهايات السعادة وآمادها ، وتناسق بعادات الزيادة وأعدادها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد نبيه وآله أجمعين ، وكان كتاب الأمير ورد على مهناً طوله الذي لا أحلو من استغشاء لباسه ، واجتماع أغراسه ، فسألت الله تعالى أن يديم مامنحه ومنح به أوليائه ، ويشكر له عى ما لا أستطيع جزاءه

وعرفت ما رآه الأمير صاحب الجيش في أمر الحاج اهتمامه بمصالح المسلمين والإسلام ، واختصاصا لبيت الله الحرام ، وعرصت ماورد على بحضرة مولانا فكان ارباحه لطلعه ومودعه كفاء ما عنده من الاهتزاز الكلى ما يجرى له صاحب الجيش ذكراً ، ويميره هما وفكراً . هذا إلى ما لديه من العناية الساقية ، والرعاية الصادقة ، لهذه العصابة القاصدة حير مقصد ومثانة ، وأكرم بقعة منتانة ، وقد أعاموا في اجتيازهم وظلال الكرامة بقيهم ،

ونهضوا وأجفحة الحاية تحميمهم ، وامتد الجمّزان معهم إلى الحضرة العالية ، وسينهيان ماسارت به الركبان عن مولانا الملك السيد في تسيير وفد الله أجمعين بين أطراف محفوظة ، ومصانع معمورة ، ومعالم منيرة ، ومشارع غزيرة ، وللأمير صاحب الجيش في كل ذلك أجر المساهم وثواب المقاسم ، فالدال على كل خير كفاعله ، والشافع فيه كعامله . وحين انكفأ الجمّزان أنهيت هذه الجملة إليه ، وجدّدت ذكرى لديه

٥ — وله جواب الكتاب الوارد في إصلاح قنطرة النوبهار

كتابي — أطل الله بقاء مولانا الملك السيد — والأمير المؤيد موفور السلامة ضافها ، مسعود في الأعمال التي يخلف مولانا فيها ، والحمد لله وصلاته على نبيه محمد وآله .
ووصل ما خوطبت به من المجلس العالي بذكر قنطرة النوبهار^(١) ، فتشرفت بما استخدمت فيه ، وأهلت للقيام به ، وحمدت الله تعالى على ما يحضر مولانا الملك السيد في كل حال وأمر من الاهتمام بمصالح الخلق ، وحسن النظر لهم عن قرب وبعد ، والمأثرة في شأن هذه القنطرة عظيمة ، والثوبة جسيمة .

وقد جمعت وجوه القياسين والخصاصين والمصهرجين وأخرجتهم إلى الموضع لتأمله ، وأوصيتهم ببناء الأمر على ما يقصد به التأييد والتخليد ، ويؤمن عليه عدوان الماء عند الزيادة الحادة ، وتقدمت إليهم ببناء سدّ أمام القنطرة يدفع عن أساسها حدة الماء إذا كثر ، فعلى هذا عملت القناطر المتقدمة بهذه الديار ، فلم تتمكن السيول من الإضرار بها ، وحددت أن يقدروا تقديرأ ما ، وإن كان الاعتماد في الإنفاق على ما يخرج العمل بأيدي الثقات .

وأشير في الخطاب العالي إلى استخدام فلان في ذلك ، وهذا أمر يحتاج له إلى من يلزم ذلك المكان ولا يفارقه إلى حين الفراغ ، وفلان محالف للدار والخدمة ، ولا يكاد يفرغ أكثر نهاره ، وخادم مولانا يستخدم في هذا غيره ممن ينوب منابه ، ويقوم فوق قيامه ، ويُجرى المال على يد فلان ، وينهى أمر التقدير إذا عاد القياسون ، ويتبدى بابتياح الآلات لتكون مُعدّة لانحسار البرد . ونسأل الله التوفيق لشروط الطاعة .

(١) النوبهار : موضع قرب الرى .

٦ - وله

كتابي ، ونم الله عند مولانا على ما يرفع نواظر خدمه ، وأنا سالم بكرم نظره ، والحمد لله وصلاته على النبي محمد وآله .

ووصل كتاب سيدى فسرني ازدياد الدار قربا ، وما تولاه به [الله ^(١)] في مسيره كفاية وحفظا ، وسألته أن يجعل مواهبه لديه دائرة لا ينقطع لها مدد ، ولا يقف بها عدد ، وقد كان مولانا متطوعاً لأقرب أخباره عهدا ، وأدناها ورّداً ، وارتاح لما أنهيته ، وأنس بما حكّيته . وكان رسم تسمية من يستقبل سيدى ويشحن بالخدمة طريقه ، وفي هذا خرج فلان فيمن أضحج من القواد ، والله يوقعهم للتقرب إليه ، والتخفف بين يديه ، ويسعدني بوده ، وكرّيم عهده .

فأما الحجييج مولانا على اهتمام بأمورهم ، ومراعاة لأحوال جمهورهم ، وملاحظة لسيرهم ، حتى يقعوا ^(٢) في ظل الصون والسداد ، ويأمنوا عوارض العيث والفساد ، وإذ قد [ورد] ^(٣) الأمر الممثل بذلك من الحضرة العالية ، فإن النافلة فيه تعود فرضا حتما ، وحكما جزما ، ومتى ورد الكتاب بذكر انفصالهم أخرج العدد والعدد الجم من الأولياء ، وإيهم الله ، ليوردوهم بإذن الله مكثوفين محوطين ، من أعين محروسين .

٧ - وله فصل في أمر الحاج

فأما الحاج - أحسن الله كفايتهم ، وأجل حمايتهم - فقد اعتدّ الأمير المؤيد بما رسم إنشاءه في أمورهم ، وابتدأه من هزّ لحقوقهم ، إذ كان جمال ذلك ليس بخافي الخير ، ولا عافي الأثر ، بل هو مسعد ديناً ودنياً ، ومُجدِّ البدء والعقبى ، ومن أوّلَى بأن يهدى للفحجة الوسطى ، وينبه على مواقع الخير والهدى من الأمير ، وهو علّم في العلم بالسياسة ، وجامع مصلحة العامة إلى مصلحة الخاصة ، وقد لزمى عن كل كتاب وصل شكر أستاذف فرضه وأستجدّ ، واعتداد أجتهد في حقه وأجدّ .

(٣) زيادة لسياق .

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) في الأصل : بقم .

وقد كان الأمير - حين عرف انفصال الحاج - رسم إنهاض من ينقص السبل
ويَقْدُم الرُّفْق ، وَيُسَيِّر آخر من ورد . ووصلوا مكنوفين ، وهم على الخروج ، محوطين ،
وقد نفذت الكتب مدَّ الطريق تما يبعث الجميع على إعزازهم ، وإكرامهم في مجازهم ، وهم
بذلك عاملون متقيلون ، بمشيئة الله

٨ - - ولله

كتابي أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش --- ومولانا الأمير المؤيد مستفيد من
مزيد العز والنعمة ما يطابق مواقع البغية ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد
 وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير الجليل قد ألبسني فيه من مستجد التقريظ مع قصرى بنفسى
عن ^(١) رتبة التقريظ ^(٢) ، ما أحسن ظنى بأمرى وقد ساء ، وعُظِمَ علىَّ منه كيف شاء ،
فقول الأمير حتم ، ورضاه شرف ومجد ، وحمده ذخيرة وعز .

وقد عرفت ما أحده الأمير من جميل شر الحبيج عن هذه الحضرة ، وكل الذى بلغ
ويبلغ بالمنفصلين عن تلك البقاع - حرمها الله - فظلال الأمير تمتد عليهم ، وسحائب
اهتمامه تنصب إليهم . معتقد وجوبه ، مستشعر لزومه ، مقر بالقصور عن المفروض منه ،
غير مستدعى - بعد قبول العذر - الشكر عنه ، ومهما وفقنى الله له فى هذه الأحوال
فبرأى من الأمير حسن فى وأرانى الرشد ، وهدانى القصد ، أعاننى الله على ما يُزلف لديه ،
كما سطر بأنواع العرف يديه

٩ - - ولله

كتابي يا أخى وأثيرى - أطال الله بقاءك - ومولانا مؤيد الدولة سالم فى نفسه ،
محروس فى ملكه ، موفق فى أمره ونهيه ، وأنا معافى فى ظله الظليل ، مؤفٍ بدولته أحكام
التأميل ، والحمد لله وصلواته على خيرته ، محمد النبي وعترته .

ووصل كتابك صادرا عن الثغر أحسن الله وفاقته ، وأجل رعايته ، بعد أن تَرَقَّب
لصدق الاهتمام بخبرك وحالك ، وأحوال أتباعك ورجالك ، إذ كان مولانا — والله يعر
سلطانه ويعلى شأنه — يراعى من أمور الثغر ما يستتضح — إن شاء الله — مناهجه ، وتظهر
نتائجها ، فيزداد دين الله ظهورا ، وأعداء الله ثبورا ، وقد أنيسَ — كبت الله حساده ، ورفع
عماده — بما أنهيت من حسن قيامك في حراسة ما إليك ، وسياسة من لديك ، والعاظلة على
الكفار عتدة الإيمان ، وعبدة الصلابة .

وقد رسم — أدام الله علمه — أن نَعُدَّ في المستخلصين من أوليائه ، والمختصين بمحسن
رائه ، ولذلك ترايع من كرمه ، وشوافع من نعمه ، وقد وقفت في التماس الخطوة ، كما وقفت
في إقامة الدعوة ، ومهما ازدادت على الكفر بأسا وشدة ، زادك — أدام الله سلطانه
إكراما وقربة ، وضاعف لك بعد رتبة رتبة ، فأحسن — أيدك الله — الثبات على أمرك ،
وقوة بصائر التائمين بنصرتك ، فإن الكفار وإن كانوا ذوي عدد كثير قيدُ انخلاقهم يقتلهم ،
وعز الإيمان يذلهم ، والله الكافل للدين ، والمقامم للملحدين .

وعندى لك — أيدك الله — الإكبار الذي يتبعه الإيثار . والإكرام الذي يشفعه
الإينعام ، كما يفرضه العقْد الصحيح ، والدين النصريح ، ثم ما أنبأ به كتابك من فضلك ،
ودلّ عليه من وفور عقلك ، وإذا ورد رسولنا فأكرم مودده ، وأحسن مصدره ، بإذن الله ،
فتابع كتبك ، واذكر أنباءك ومآربك ، إن شاء الله .

١٠ — والـ

كتابنا عن سلامة ، قد وصلها الله محسن الولاية . وارتفع الراية . والحمد لله رب العالمين ،
وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتابك — أيدك الله — صادرا عن الثغر
العصوب بك — حرسه الله — وقد كما له متطلعين ، ولما أنهيته من خبرك متوقعين ، كفا .
ما فرضه الله تعالى في حكم الدين ، من إعظام أعلام المجاهدين ، فسرنا ما أنبأت عنه من
استقامة الأمر ، ونظف كفاية الله في مهمات الثغر ، إلى ما وصفته من حسن مشايعتك ،
وحسن مولاناك ومناصحتك وإقامتك الدعوة لنا سالكا أحد المذاهب ، وحافظا في طاعتنا
أسعد الضرائب

وأحوال الثغور من أهم ما نراعيه ، وأخص ما نخلص الاهتمام فيه ، وستكشف الأيام - بمشيئة الله - عما شحذناه من العزائم ، وأرهفناه من الصرائم ، حتى ينجز الله - تعالى - على أيدينا وعده . وينصر تحت رايتنا جنده ، ويعز الدين وحضرته ، ويذل الصليب وعبدته ، فكن - أيدك الله - على عزيمتك الثاقبة ، وبصيرتك الصائبة ، فإن الله يتم الإنعام ويسبغه . ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وإن أهل الكفرة إلى حين ، وأملى لهم بكيد متين .

وعنايتنا لك - أيدك الله - شاملة ، وأمدادنا نظرتنا - متى أردت - متواصلة ، ومعونتنا لأبناء الجهاد مبذولة ، وسيوف أوليائنا على أبناء الإلحاد مسلولة . فاقو نفسا وظهراً ، ورأيا وأمراً ، ولا يهولنك كثرة الأرجاس ، فإنهم أزواد الضباع ، وآ كال السباع ، ومشارع السيوف ، ومراتع الختوف ، كثيرهم قليل ، وعزيزهم ذليل ، وهم بين سواتين ، إما إملاء بمقت من الله - عظيم ، أو إفضاء^(١) إلى عذاب أليم ، كما أن المجاهدين في سبيل الله بين حُسنيين ، إما سعادة في الحياة الدنيا ، أو شهادة في التي هي خير وأبقى ، والله ولي تائيدك ونسديك ، وتقوية أنصارك وعدبك .

(١) في الأصل بكتابة الضاد ظاء .

الباب الخامس

في الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة

والتودد إليهم بعباساتهم وما يقارب ذلك

١ — كتاب تودد واعتذار من تأخير إطلاق

كتابي -- أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش -- ونعم الله عند مولانا الملك السيد في تهذيب الأمور وتسديد الثغور ، وتزايد النصر المبين ، وشفاء صدور المؤمنين ، على أفضل ما وعد تعالى وعود ، وجدد في حال ومهد ، ومولانا مؤيد الدولة مصحح في جسمه ، موفق في بسطه وقبضه ، وحله وعقده ، وما أراعيه جارٍ أحمد محاريه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير على عادته لدى في مبرة يصل أسبابها ، ويوثق أطناها ، ويتابع عددها ، ويلت مددها ، ولو قد كان الشكر وقى ، بسالف مألولى ، لرجوت أن يستقل بعرض ما نستقبله ، ويقابل آنف ما يُنحوله ، ولكن فضله بتواليه يعجز عن أمد الوجوب ، ويقف بصدد القصور واللغوب ، فأطال الله بقاء الأمير في نعم تكنفه غير منحسرة . وتشمله غير مقصرة ، وأدام على المكارم إعانته ، وإلى المآثر هدايته ، إن الله يفعل ما يشاء .

وقد أدى فلان ماتحمل بذكر الضياع والتماس حلها ، واستخلاصها لحقها ، وعرض ماورد من الحضرة البهية بذكرها ، ووصف اهتمام الأمير بأمرها ، فصادف الجميع عند مولانا ارتياحا للخطاب ، واهتزازاً للإطلاب ، ومحبة لأن تكون تلك الأملاك مقررة على سبلها ، وما تحوى في وجوه دخلها . وقال -- أدام الله علوه -- إن أمثالها لو أريدت لأصاغر من على ذلك الباب لما رأينا غير الإسعاف والإيحاب . فكيف بالأوجه رتبة ، الأنبة قرينة .

هذا والأمير صاحب الجيش الوسيط والمشير ، فلا خلاف عليه ، فيما يوصى بالإيثار إليه . إلا أن الدليم تعرف صورهم في الإقطاعات إذا غلقوها وفارقوها ، وتملكوها وفكروها ، وإن

ارتجاع ما يراد تخليصه منهم مقتضى أدنى ترققٍ وتهل . والإرضاء بالاندال من دون تهجم ونعجل . ولولا ذلك لما عاد الرسول إلا بالإجابة التي كانت النفس معها أذهب ، ولها أطلب ، وقد مثَّلَ لى أن أشغل كتاب الجبش والإقطاع بتعويض من رضى بالمعوضة ، والإسعاف بالزيادة والمعونة . وهذا أمر يلزمنى فيه مع امتثال الأمر بذل الجهد ، واستغراق الوُسع ، وسبأنى بمعونة الله ما يقرب المدة وبُدنِها ، وييسرها ولا يراخيها .

٢ - - ولله

كتبتى - - أطال الله بقاء الشيخ - - ومولانا الأمير سالم النفس . متظاهر العز ، مخيم السعادة ، نافذ الأمر ، وأما بدولته - - تلتها الله - - مستقل الجسم ، مكنوف من الله بلفيف الصنع ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتاب الشيخ فكان الوافد المؤثر ، والوارد المنتظر ، ونضمن من أ. . . المضرة في السلامة المجاللة ، والسعادة المتصلة والمسار المتوالية ، والحاجات الجملة الصافية ، ما فهم النفوس ، ويشرح الصدور ، ويرفع بواظر الأحرار ، ويرضى عن مجارى الأقدار ، لازانات نعم الله لديه محروسة عن التنكر ، محظورة عن التغير ، باقية بقاء المسند ، نامية انتهاء الأبد .

وعرفت من خبر الشيخ فى نفسه ، والخاص والعام من أمره ، ما يُهينُنِي المواهب ، ويملئني النجح الرواتب . ففى حراسة الله لرِباعه ، وسطه لأمله وباعه ، جمال للفضل ومن أخذ منه بخنل ، وقوة للكرم ومن حظى منه بقسم ، فأدام الله ما آتاه ، وأحمده عُنِي كل أمر ومأتاه ، والذي يأتيه الأمير فى مواصلة مولانا للحاطبته ، ومراسلته ، وعمارة مسالك برّه وشفقته ، قد غرس فى صدره ، من وده ، ما لم تسمع الآذان بشبهه ، ولا يوفى العيان بكُنهه ، فكيف الخبر بتقصى حقه ، والإصابة فى وصفه . وقد عرض فلان ما صحبه من المكائبات ، وردفها من المشافهات ، وعززها من المبرات . فكان لكل منها أخص موقع فى الاعتداد والتقبل ، والزيادة فى الحمد والتحمد .

أما الخطاب فلما تضمن من خبر مؤس للنفس كان متوقفا . وأما الشفاه فلتفاوض بودائع الصدر كان متطلعا ، وأما التحف فلرفعها كلفة الاحتشام ، ودفعها سُدفة الانقباض ،

وفسحها الطريق إلى إثبات الاسترسال ، والجري على سَنَنِ الانبساط في كل حال .

ولما تيسر لفلان وقتُ الإياب . وَحَمَلَ ما وجب في كل باب ، كاتبت الشيخ بمواصلته التي تهدي إلى الصدر روحاً ومسرة ، وللطرف جِلاء وقرّة ، وعلى ذكر فلان فهو السديد أداءً وسماعا ، الحقيق تقديمًا واصطباعًا ، ما أعرّضته — يشهد الله — شهادة ، ولا أعطيته فيها زيادة ، فقد أُحمد مورده ومصدره . وارتضى مطواه ومُنشّره ، ومولاي أولى بما قيل في عظيم من الكرام ، سهل الحجاب مؤدّب الخدام ، ورأى الشيخ في مواصلتي بكتبه ، وتصريفي على مآربه ، موفقٌ إن شاء الله .

٣ — وله اعتذار وإيجاب

كتابي -- أطال الله بقاء الإصْفَهِيذ^(١) -- ومولانا ثابتُ معاقدِ العز والقدرة ، راهن عوائدِ الملك والبسطة . وأنا في ظليل ظله محظوظٌ من إحسان الله وفضله ، والحمد لله . وقد أنقذت للإصْفَهِيذ كتب تحمّلت من جميل قوله ما لا أستبدعه مع خلوص وده ، وتضمنت من لطيف بره ما لا أستغربه مع خصوص عهده ، ووقفتُ على آخر ما أهدته مخاطبته ، وأدّته مراسلته ، وعجبت من الأحوال التي كانت سبقت إلى فكره ، وانتهت إلى تضيق صدره ، فقد علم الله مالك الشقاء والسعادة ، وعالم الغيب والشهادة ، أني منذ وصل الله حبل المشاركة بيني وبين الإصْفَهِيذ آخذ نفسي في الشفاق على بيته ونعمته ، والإيثار لحبته ومصالحته ، عمالا أحسب أحدا يحاسب ضميره على مثله ، ويجده في مودّع سره ومتصفح جهره ، لأمر : منها مكانه العظيم في مشايخ الدعوة ، وموقعه الشريف من الإكبار والحظوة ، وتصرفه للدولة السامية مع الاخلاص الغضّ ، والوفاء المحض ، في حالي الضرورة والاختيار ، وزماني الكراهة والإيثار ، ومنها أن التعصب لبيته الرفيع ، وشرفه الواسع ، واجب على كل ذي جبلة صحيحة ، وأرومة صريحة ، ومنها ما في الطباع من مقابلة الجليل بالجميل ، ومكيلة الود الوكيد بالإخلاص البليغ ، وقد أظهرت إلى الأيام منه ما عقدت عليه بنائي ، وانصبت إليه بجنائي .

(١) لقب أمراء طبرستان .

هذا إلى سائر البواعث التي يكثر تعديدها ، ويصعب تحديدها ، وكان مما يُقر عيسى في بابهِ ، ويشرح صدرى لأسبابهِ ، ما أجد عليه مولانا ! كباراً لوزنه ، وإيثاراً لبسطه ، وتحسيناً لذكركه ، واهتماماً بأمره ، فإن وقع في وقت استبطاءٍ فغن غير تنكّر ، ولا تنمر ، ولا اعتراض تغير ولا تدمر ، بل كما لا يَحِلُّ من مثله الأعمام ، والأقارب الكرام ، وكيف جاز أن يتخالَج الإصفهيد رَيْبٌ ، أو يَفْشَى فكره رَيْثٌ ، بتسرّع متسرّع إلى مضارّته ، وتَعْجَل متعجّل إلى محادثته ، لم يُرَفِد بِإِذْنٍ ، ولم يُحَلَّ من عَتَبٍ .

وسطرت هذا الكتاب بخطى ليزداد الإصفهيد إليه سكونا ، وعليه عكوفاً ، فلعله قد عرف منى أنى لا أطلق يدي إلا بما أقبله يقينا ، وألبسه برهانا مبيّنا ، فليتحقق أن مكانه من رأى مولانا مكان لا يهتدى له الزمان ، ولا تؤثر فيه الأيام ، ولا تجرى بخلاف استقراره الأوهام ، أعان الله الإصفهيد على استحفاظ ذلك بدواعيه ، وغرر مساعيه — وفيما يكتب به فلان — مما سمعه لفظاً ، ووعاه عند مولانا حفظاً — غُمِيَّةٌ دون التطويل ، وعمدة تؤثّل الاستئمانه كل التأثيل ، وسيعرف من نتائج ما يُقر الناظر ويسلم الخاطر . ويُحمد العقب ، وينتفى الرَيْب بِإِذْنِ الله ، فإن رأى أن يخاطبني مواصلاً ، ويباسطني مطاولاً . فعل إن شاء الله .

٤ -- وله في إظهار المشايعة والبسط

كتابي وأمور الحضرة على ما عود الله فيها من الرجاء رفعة شان ، ومنعة سلطان ، والحمد لله وصلاته على نبيه محمد وآله . ووصل كتابك بوصف ما شاهدت عليه فلانا مُقَاماً على أَجَلٍ ما وعد الوفاء عنه ، وشاهدته عين الثقة منه . وعرفتُه وسائر ما توليت الإبانة عن صورته ، والتحدث بحقيقته .

وقد علمت أن مودتي لفلان ليست لدواعي الرغبة وبواعث الزهبة ، وإن كان مرهوباً إليه ، ومرهوباً منه ، وإما قصدي عمارة موقعي من رائه ، وأن يعُدّني في أوّل نُصَحَاتِهِ ، كما أعد نفسي أولى أوليائه ، وأن يحفظ الله نظام هذه الأمور التي وُكِّدَتْ دعائهما ، ورفعت معاملهما^(١) ، وكُتِبَ حسدتها ، وقُمِعَ عَدَدَتها ، ويكون ما خلص له عند مولينا راسخاً على

(١) في الأصل : معاملها .

الدهور ، وثابتاً على اختلاف الأمور ، لا ترتقى همه الأيام إلى فسخه وتحويله ، ولا تقوى مُنة الزمان على حله وتبديله ، وأن يعلم — في مصارف الأقاليم — أنى ما توسطت أمراً إلا حفظت شرائطه وحرصتها ، ورفعت مبادئها وأسسها ، لا سيما إذا كان موليانا — كبت الله حسدتهما — لا ينقضان ما أبنيه ، ولا يقفان ما أمضيه .

وكان فلان — على ما أقدر بل أتيقن ، وأحسب بل أتحقق — يُحَلِّنى محل من يرجع إليه ، ويعوّل على ماله ، ويعلم أنه لا يريد بما ينقض ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، إلا ما هو أرضى لذات البين ، وأحمد على مرّ الجديدين ، وزادنى ارتياحاً لما ورد منك أن هذه الأيام التى غبت فيها شُحنت صدورُها وأعجازُها ، وبُكرُها وأصالُها ، بكتب مولانا تتضمن من ذكر فلان ما فسح لى فى مذاهب الجدل ، كما حقق سوابق الأمل ، وأنكر — حرس الله ملكه — ما أقدم عليه ، وتقدم [به] ^(١) المشكو إليه ، إنكاراً كاللنكر ، واستبطاء كاللتمتر .

لا جرم أنى أصدرت كتابك على جهته ، وكتاب فلان كهئته ، بعد تقديمي مخاطبات ، وإسلافي مقدمات ، اقتضاها ما كان المنابدون ^(٢) يرجفون به ، ويوجفون فيه ، من أضاليل شهدت ببطلانها ، وأباطيل نصصت على بهتانها . وتوقى قرب عود كما يُغنى عن الإطالة فلا يقعن تأخر دون التعجل ، ولا توقف دون التسرع .

٥ — وله فى تحقيق الأمل وأمن المحذور

كتابى ، ومولانا سابغ السلامة والسعادة ، ونعم الله لديه مضمونة العادة والزيادة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فأنسنى الله بما أحسن من تأديتك ، وأجل من صحابتك ، وسألته أن يَكُنْفَكَ بالخيرات دانياً ونازحاً ، وصادراً ووارداً ، وعرفت ما ورد عليه من الأمير ثباتاً على وثيق العقد ، وإخلاصاً فى حفظ العهد ، وكانت السعادة المقسومة لأيامه بذلك واعدة ، وعليه معاهدة ، والثقة من مولينا — أدام الله علاهما — تامة ، لا يتغير عليها غيب ، ولا يتمشى إليها ريب ، ولكنى بما أدين له من طاعته ، وأنصبّ إليه من مشايعته ، وأفرضه على نفسى من

(١) زيادة للسياق .

(٢) فى الأصل : المنابد بالإنفراد .

المشورة بما هو إلى صعود جدّه أقرب وأدنى ، وبسعود نجمه أحكم وأقضى ، أحب أن تكون الأحوال واضحة الصفحة ، رابحة الصفقة ، محروسة عن عوارض الشبهة ، محفوظة عن عوائق المرية ، لا سيما إذ كانت المثونة في ذلك خفيفة لا تُجهد حالا ، ولا توقع اختلالا ، وكانت الجنبه التي وصل الله السبب بها أعلى جنبات العالم ، وأجملها للسلطان الشامخ والعز الراهن والملك الشامل . وكنت مع هذا المتطوق للوساطة ، والمعتنق للسفارة ، والناظر بين الموالاة والكفالة ، ولا غرض أرميه ، ولا مغزى أنتحيه ، إلا أن يحرس الله نعمه عند من عمّر صدرى بمحبة أيامه ، ويظهر منحه لمن وقف فكرى على مصلحة أمواله وبلدانه ، والله يشفع هذه الشوافع بعين حَوّطه ، ويدّ صَوْنه . ولولا تقريبيك الأمد في العود لكنت أبسط الخطاب وأفرش الكلام ، ولكنى أجد الشفاه أعذب منهلا ، وأقرب متناولا .

وقد أضدّرت كتابك إلى الحضرة العالية ، لأدفع في صدر الأكاذيب المتوالية ، وحداني على ذلك أن مخاطبات مولانا تابعت على أيدي رسل متقاطرين ، وفيوج^(١) متظاهرين ، متضمنة من ذكر الأمير ما يشهد الله أنه رفع ناظرى ، وجمع خاطرى ، إذ دلّ من الاهتمام على ما لا يصدر إلا عن ذلك الكرم الفسيح ، والمجد الصريح ، ولا يُستحقّ إلا في هذا الجنب ، الواسع الرحاب ، الشريف النصاب ، وتَنوُّول من كان شكى من اللوم بأحدّه غرار ، بل من الذم بأشده إنكارا . وأما اعتداد مولانا بما يخصه^(٢) من ود الأمير مولاى فما أَرْضى عبارتى للإخبار عنه وإن لم تكن قاصرة لبلوغه^(٣) النهاية التى لا تُدرك ، واستيلائه على الأمد الذى لا يلاحق ، ولولا إن ذِكرَ الوصل بين العطاء تنزه عن الابتذال للوصف ، لاجتهدت في قصد الشرح والكشف . وأنا أرجو أن تُغنى بقرب الإياب ، عن استعجال الجواب ، فقد أوحشت ببعذك ، وإن آنتست بحسن سعيك . وأنا أتوقع أخبارك ، وأوطارك ، إن شاء الله .

٦ - وله تودد واعتذار من اطراح الحشمة

كتابى — أطل الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ولله ذى المنّ والإحسان عند الملك السيد ، والأمير المؤيد ، مع مؤتَنَف الأيام ، ومتصرّف الزمان ، منأُح مُتصلة الورود ، جامعة

(٣) فى الأصل : بلوغ .

(١) جمع فيج بمعنى فوج .

(٢) فى الأصل : يخص .

أحكام السعود ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ولولا علم الأمير بأن مولاته دينٌ أكمل به فرائض ووظائف ، ودرس أشحن به مصارف ومواقف ، وأن التحدث بنعم الله في حراسة أيامه ، ونفاضة أعوامه ، شعارٌ لا أُخلّ بلوازمه بادئاً وعائداً ، ومنارٌ لا أُضلّ عن معالجه جاداً وجاهداً ، لاقتضتني أيادي الأمير عندي بالإفصاح عما يحته صدرى ، ويُكنه سرى ، وتتناصف فيه شرائع لسانى ، وودائع جنانى ، وظواهر أخبارى وبواطن استشعارى . والله يديم له ما قسم من مواهب أصبح ظلها على الناس ظليلاً ، وفضلها للخاص والعام جزيلاً ، فلم يتفرد بها حتى أفاضها مرتجلاً ومحتفلاً ، وبذلها ملتزماً ومتفلاً ، والله يشكر للشاكرين ويزيدهم دهر الداهرين .

ورأى الأمير أن يُصدر إلى حضرة مولانا أحد أنشاء خدمته ، وأغذياه نعمته ، ليؤدى فصولاً يحملها ، ويعود من سائر الأنباء بما يوفر المسرة ويكملها ، فصدر فلان ورسم أصحابه ما تقبض خفة قدره عن إجراء ذكره ، وإن كان المراد فيه تصوير الاسترسال فرصة توجد ، ونهضة تعتمد . وإعلم مولانا الأمير بأنى آخذ نفسى للأمير مأخذ المقيمين بحضرته ، المنفردين^(١) بخدمته ، ما رسم لى أن أكتب ، معرباً عن الغرض فيما أُصدر ، ليتجه العذر إن استُنزل .

٧ — وله فى استعطاف وتودد

وصل كتاب الأمير محمد عبده ؛ على كريم عادته عنده ، لما خدم فيه من أمر الخطابة ، حتى جرى على الطريقة الواجبة ، فليس عبده بذلك شرفاً لانطمع الأيام فى خلعه ، وأدّرع مجداً لا يتطلع الزمان إلى نزعهِ . وواعث الأمر على ما يوافق محب الأمير ، أكثر من أن يُحتاج معها إلى اجتهاد سفير ، وجد نائب ومشير ، إذ هو — أعز الله نصره — يُستفصّر فى مسرته ما يعظم عن درك ايمان ويكثر عن حد البيان . يوفىنى الله للخدمة التى فى حجرها رُبيت ، وبلبانها غُذيت .

٨ — وله فى شكر وملاطفة

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — ومولانا سامى الراية مظفرها ، وفى السعادة موفرها ومولانا المؤيد معمور ساحة العز ، محروس عرصة الملك ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

(١) فى الأصل : المنفرد .

ووصل كتاب الأمير على عادته المظهرة كل وقت فضلا جديدا لم يشهد ، ومنا عظيما لم يُعهد ، وإحسانا وسيعا لا يضبط قُطراه ، وامتنانا رحيبا لا ينقطع عصراه ، وأنبا من استقامة أمور حضرته ، واستيفائها لشروط محبته ؛ عما إذا قارن النعم العظام أوفى ^(١) عليها وزاد ، واستغرق طاقة الشكر أو كاد ، وسألت الله — سؤال مَنْ قَوْلُهُ كسيرة صدره ، وسيان لسانا سرّه وجهره — إطالة بقاء الأمير في عزٍّ مستجد لا يُخلق ، وأمل مُدرك لا يُخفق ، وابتناء للمكارم يستوقف الضائر على محبة أيامه ، ويستخلص السرائر لاستدامة زمانه .

وعرفت ما اعترمه ^(٢) الأمير من تعهد سيدي أبي فلان برسول يؤدي إليه شريف ما يحمله ، ويظاهر عليه ما يتعهد به جميل خطابه ويتخوّله ، وأنه حين ذكر خبر انكفائه عن وجهته ، رأى العدول إلى أفراد المجّز بمخاطبته ، شيمة منه — أدام الله تأييده — عظيمة في إسباغ البر على من قرب بحضرة مولانا موقعه ، وعظم في ظله الكريم مشرعه ، وقد وصل الكتاب إليه ، فأكبر مَطلعه عليه ، وشكر جميل التعهد شكرا لم يدخره مضاعفة وزيادة ، ولم يَسأمه بدءا وإعادة ، وصارت هذه اليد مما يكثر اعتداد الملك بها إذا رقي خبرها ، كما اعتدّ بها مولانا الأمير المؤيد لما أنهى موردها ومصدرها ، إذ ^(٣) كان فلان مرموقا بالدولة — ثبتها الله — لقرّبه وزلّته ، وحظه وحظوته ، فإن رأى الأمير أن يخاطبني أمرا وناهيا ، لأجيب مؤتمرا ومنتهيا ، فعل إن شاء الله .

٩ — وله تودد وشكر واستعطاف واعتداد

كتابي ومولانا الأمير المؤيد فيما يواصل الله إلى عراض غزه ، من مزيد إحسانه وفضله ، ويحرس من حمى أيامه وكنف ملكه ، على أحمد ما تسموله الآمال ، وأسعد ما يساعد عليه الإقبال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدي موصّل المسارّ ومسنيها ، ومتحمّل المبارّ ومُهنّيا ، فتعرفت البركة به مطويا ومنشورا ، واستملت الغبطة عنه فصولا وسطورا ، وفككته فبشر من انتظام الأمور بحضرة الأمير بما أجد النعمة فيه تنظم الشاهد والغائب ، وتخص الأبعد

(١) في الأصل : إذا .

(٢) في الأصل : وأوفى وأسقطنا الواو

(٣) في الأصل : اعترفه

خصوصها الأقارب ، إذ كان الله قد جعل محامد أيامه شائعة لا تنفرد بطرف دون طرف ، ولا تحد بكنف دون كنف ، والله يديمها محفوظة عن هم الزمان أن تنالها ، وآمال الحداث أن تتصدي لها .

وعرفت من خبر سيدي في عافية يسبح الله ثوبها عليه ويضيفه ، ونعمة يسوغ شربها له ويضيفه ، ما لا تعدوني ثمرته ، ولا تخطوني نتيجه ، بحكم الأحوال التي جمعنا الله عليها ، وأجري بأسباب مودتنا إليها ، فإني إذا وقفت خنصري لأثنيه على أكرم عهد أحرزته ، منذ صحبت الزمان وسبرت الأنام ، كان عهد الذي أستوزع الله شكر الموهوب منه ، وأستصرف عيون السكّال ولحاظ التمام عنه ، والله يواصل له ما أعطى وخول ، ويملي أهل وده الجمال بفضله وقد فعل .

والذي وصف سيدي من الأسباب المنعقدة بين مولانا ومولاي أبهر ضياء ، وأرفع سماء وأشرف مناظر ، وأفسح مبادئ ومحاضر ، من أن يأتي عليه الذكر ، وإن اشتغلت به الأيدي الكاتبة ، والألسن القائلة ، واشتركت فيه القلوب الحافظة ، والآذان الواعية . وأما الاسترسال في اللطاف ، المتوسطة حالتى الإخلال والإسراف ، فهو الذي يشرق له أفق المشاركة ، ويعمر به طريق الثقة الصادقة ، وللأمير من الابتداء بهذا البر والعود فيه ، والافتتاح له والرجوع إليه ، ما لا يجارى إلى أمده ، ولا ينازع في قصبه ، كما استولى من كل فضيلة على سبقها ، وأخذ فيها بأزمة حقها .

وما رأى — وفق الله آراءه وأطال بقاءه — تجديده الآن منه قد عرضه فلان أجل عرض ، وأخذ من اعتداد مولانا بأوفر حظ ، وراه نتيجة ودر يقتضى بالجليل وصالا ، ويستدعى الحسنى منه حالا فخالا . وتصرفت في القول من الجنبتين كفاء تحقق بهذه الحضرة البهية ، وتخصى بتلك السدّة الزكية ، فإني وإن كنت بعيد الدار عن الأمير فالإخلاص البالغ يدنني من رائه ، ويقربني من ولائه .

ولما تيسر عود فلان خاطبت سيدي على يده شاكرًا كتابه الواصل وبره المتضاعف ، وقبل ذلك بما يمهده بحضرة الأمير من موارد قولى وفعل ، ويصوره من خلوص نيتى وعقدى .

١٠ — وله تأنيس بجميل الرعاية وبعث على الزيادة فيما يكسب حمدا

كتاني ومولانا الأمير موفور أسباب العز والتمكين ، محفوف بالسلطان الراهن والنصر المبين ، وأنا سالم بصعود حكمته ، وسعود خدمته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك على حين تطلعت وتشتفت ، وارتقبت وتوكتفت ، أنسا بخطابك ، وثقة بودادك ، ومراعاة للحال معك^(١) ، وإيجابا صادقا لك ، وقبل ذلك ، لما كنت أعرفه من جميل رأى مولانا فيك ، ومحافظته على سوابك ودواعيك ، وملاحظته لجارى أمورك ، ومصارف شئونك ، بعين كرمه ، التي لا ترقد عن خدمه .

وقد كان العذر فى تأخير الكتب عن الديوان المعمور ، وإبطاء الرسل على الباب المسعود ، واضحاً لا يغير صورتك ، ولا يبدل منزلتك ، وقد عرضت ما ورد منك فصادف من تقبل مولانا وإصفائه ، ما أوجب حسن عنايته ورأيه ، وصدق — حرس الله عزه — قولك ، وتمثل — أعز الله نصره — أمرك ، ورسم الكتاب إلى حضرة الملك بالشكر لما أظلك من إنعامه ، وقسم لك من شريف اهتمامه ، وذلك مستشير من مزيد الرعاية ما يستهل إلى المطالب ، ويؤمن من أسباب المحاذر ، وسأعرض على فلان ما ينبى عنه الديوان من معاملتك ، وما كان الأمر جاريا عليه من موافقتك .

ويجب الآن أن تعمر ما أسسته من تحصيل القربة ، واستمداد الزلفة ، بالكتب فإنها تمهد من موقعك بالحضرة ما يجذب بضبعك ، ويختصر الطريق إلى مآرب نفسك ، وتصادف لدى من المعونة والعناية الموفورة ما تستوجه بفضلك وأصلك ، ومحامد أمرك ومكارم نجرِكَ .

الباب السادس

فى إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة
وتهجين العقوق بين ذوى الأرحام وما يشا كل ذلك

١ - كتاب فى مشايعة وإطلاب وشفاعة

كتابى - أطال الله بقاء السلار^(١) - ومنأخ الله عند الملك السيد ، والأمير المؤيد ، متضمنة من وفور النجح ، وفوز القُدح ، وتظاهر القدرة والإمكان ، وتضاعف القوة والإقرا ن ، ما يشرح صدور الأولياء ، ويجمع أحكام السراء ، وما أخدمها فيه جارٍ أحمد محاربه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
ووصل كتاب السلار ، فصادف لدى المنة التى لا أخلو من لبسها ، ولا أنفك من اجتناء غرسها ، وتعرفت من سم الله لديه ما أجده يمم طبقات الفضل ، ويرفع درجات المجد ، والله تعالى يواصل المواهب إليه واصحة الوجوه ، ويورعه من شكرها ما يضطلع بالوجوب ، إبه يفعل ما يشاء .

وعرفت ما ذكره السلار فى معنى فلان ، وعرضته ، وكشفت عن الغرض وأوصحته ، فقال الأمير : إن هذا الحديث لو لم يكن متصلا بابن يجب كفه عن هجنة العقوق ووصمته ، ودفعه عما يحاوله بفضل غرته ، بل كان مع أجل منارِع للسلار ومراجم ، ومضاد فى ناحيته ومزاحم ، لما وجد عندنا وعند من تعلق بجلبنا إلا الإبعاد والإسلام ، والانتقام والاصطلام ، إذ لا رى نعمته - فيما يجب من غض الأطماع عنها ، وقبض الأبواع دونها - إلا الخالص نعمنا ، وخاص المالك المتوسطة له ولنا .

وقد رسم - أدام الله ملكه - لى ، فأمرت كلا من فلان وفلان زجر من يتصرف

اراهيم ، وقد مرّ ذكرهما فى ص ١٦ .

(١) سلار معناها سردار أى قائد . وهو لقب لأمرأ أذربيجان ، ولعله المرزبان ، أو أبه

في جملهم ، ويعتصم بسببهم ، عن معاونة المسف إلى العقوق ، إن التوى به الطريق ، وانزوى عنه التوفيق ، بل أسروا بأن يكونوا له حربا ، ومع مدافعيه من أصحاب السلار إلبا . والسلار يرى في إعادة فلان رأيا ، فقد طال الأمد ، وكثر الوعد والتردد ، والإيجاب إذا تمدى زمانه ، وتراخت أيامه ، نضب ماؤه ، واقتضب رؤاؤه .

٢ — وله في الدعاء إلى الطاعة والسكون

إلى كتاب أمان وما بسط من الأمانة

كتابي ومولانا معمر الساحة بالعرز والملك ، وأنا في ظله سالم النفس ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وقد أنفذت إلى حضرته نسخة اليمين التي حلفت بها في تسليم القلعة والضيعة معها إذا أومنت ، وأقطعت ما رمت ، فحمدت الله تعالى على أن هداك وأرشدك ، وسألته أن يوفقك ويسدّدك ، فإني أعلم أن الضرورة دعتك إلى ما ركبت ، وأوقعتك فيما فعلته ، وصورت ذلك في المجلس الشريف حتى ننجزت لك أمان مولانا بكريم صفحه ، نختوما بعالي ختمه ، ووقعت فيه بخطي عن نافذ أمره ، وضمنته كذا إلى ذكر الإقطاع ، ومزيد الاصطناع .

وعرفت أنك تؤثر التسلم ممن يصدر عن الحضرة البهية فتسكن إلى مكانه ، وتركن إلى كلامه ، واخترت فلانا إذ كان مع موقعه من رأى مولانا وإيجابه ، وتقدمه في أكابر حاشيته وحجابه ، يختص بمجئتي كل الاختصاص ، ويحل عندى محل ذوى الإيثار والإيناس ، فأضع لكلامه الذى تحمله ، واغتم الحظ في وقته لتحصله .

وياك والمدافعة والمراجعة فإنهما يهدمان ما قد بينته لك ، ويثلمان ما مهدته عنك ، واعلم أنك إذا فعلت ما رسمته تقدمت بكذا ، وما بعد هذا أمد يُنزعُ إليه ، أو يُعَوَّق الأمر عليه . وفلان يؤدي إليك ، ما تحقّقه هذه المواعيد لديك . وأسأل الله — تعالى — لك العصمة من الخلل والزلل ، والتعرض لما لا طاقة به ولا قبل .

٣ — وله في إبناس نافر وإحماد ساع

كتابي ومولانا عزيز النصر والأولياء ، منصور الراية واللواء ، وأنا بدولته سابغ النعمة ، والحمد لله وليّ المنّة .

ووصلت كتبك فأحطت علما بما شرحتة ، وعرضت في المجلس العالي ما أوضحتة ، وكشفت عما أتيته جدّا واجتهاداً ، واستغرافاً للطاعة واستنفاداً ، وسألت الله تعالى أن يُحضرك من التأييد والتسديد ما تسلك به أحمد الطرق وأسعد السبل بمنّه . وقد أحمد مولانا خدمتك إلى حيث انتهيت ، واستصوب كثيرا مما أنهيت ، فأما اضطراب الرجل بعد أن حلف واستجاب ، والتمس الاستقالة واستجار ، فليس إلا لتخوفه منك ، وتحرزه عنك .

ورأى مولانا إخراج فلان وأصحابه كتب الأمان والوعد بالإقطاع وإمضاء ما يوجب للرجل باتفاق واجتماع ، ومشافهته بما يذكره فيستمع له ويعمل به ؛ لأن ذلك الإنسان إذا أبصر رشده ، وعرف قصده ، فقد صلحت حاله واستقلت ، وثبتت قدمه واستقرت ، وإن كان منه بعد ما بذل إصراراً — ولن يكون — فلا انتقام قريب ، والاصطلام محيب .

وسنبليح بإذن الله تعالى ما يتأدب به كل جامع^(١) في عنانه ، وطامح إلى ما ليس من شأنه ، وأنت تقدم العمل بما رسم ليلتقي فلان وفلان مع الرجل فيؤمن ، ويَجْمَلُ وعده ويَحْسُنُ ، ويُلتزم له الوفاء ويُضْمَنُ ، وينزل عن القلعة ، ويُفْرِجُ عن الضيعة ، ويرتب فيها من الخواص المقيمين هناك من يَسْكُنُ إليه — إن شاء الله — القوم ولا ينفرون عنه ، إلى أن يرى مولانا على رأيه فيه إن شاء الله .

٤ — وله

كتابي — أطل الله بقاء السلار — ومولانا على أحسن ما عود الله خدّمه عليه ، علوّ شأن وسعادة أيام ونفاذ أمر فيما قرب وبعد ، ومضاء حكم على ما غاب وشهد ، وذلك بتفضل الله ومنّه ، ونظره وفضله ، ثم بدولة مولانا الملك ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

(١) في الأصل : جامع .

ووصل كتاب السلار مفتتحاً بما عهده من جميل يُجَزَل منه حظي ، ويُستفد له شكرى ، ويُستوقف عليه إخلاصى وحمدى ، فسألت الله أن يديم له المنح واضحة الوجوه والسبل ، ويظهر عليه النعم متراخية الزمان والأمد ، ولا يُعْدمنى التحمل لأَياديهِ ، والتجمل بما يُوليه ، وهو — تعالى — ولى الإجابة .

وعرفت ما قاله السلار بذكر فلان فيما كان عقده له وعهده إليه ، ورسمه به وأنتم فيه عليه ، وتبدرت مَسَاقَ الحديث إلى حيث وصف : أن أ كابر الولد يستزيدون إلى ما كانوا رضوا بقدره ، ويستضيفون إلى ما كانوا استجابوا إلى أخذه ، ويحاولون أن تُبتدأ قِسْمَةٌ ، ويُؤفَّوا إلى تلك السهمات سُهِمةً ، وتصورت ما اتصل به من حديث حللنا^(١) فيما كان وهب منها ، وحظر الآن من ارتجاعه عن اليد المتصرفه فيها ، للعلة التى ذكرها ، والصورة التى شرحها . وأنهيت الجميع فى المجلس العالى فأصغى له مولانا إصغاءه إلى مثله ، فيما يرد من خطاب السلار ومهمه ، وقال فى جوابه : إن هذا الأمر لسنا نريد فيه إلا ما هو لذلك البيت أحفظ ، ولشملة أجمع ، ومن أسباب الخلاف فيه أبعد ، ولليوم والفد أحوط ، ثم لا نرضى بأن نقول فيه إلا ما نرضاه من مصارف آرائنا إذا أمضيها ، وعزائمنا إذا أجريناها ، فغاية النصح أن يرضى المرء لأهل وده ، ما يرضاه ويحتببه لنفسه .

وهذا الذى عقده السلار ليس ييسير ، فيُطْلَق القول بنقضه ، وما أقسم عليه ليس بخفيف فتستجاز الرخصة فى نكته ، بل العهود توقع على وجه الزمان ، والقسم فيها يوضع للتأييد على الأيام ، فخلَّها وهى ، والرجوع فيها وهن . ذلك لو كانت المدة متبادية ، والمهلة متراخية ، فكيف والعهد طرى ، والتاريخ فتى ، والذكر قد اضطرب ، والخبر قد شرق وغرب ، وعندنا أن السعى فى إبطال ما أمضى وفسخ ما أحكم هو الذى يغمر تلك الصدور بالسخائم ، ويشق فى القلوب نيران الضغائن ، فلا بدع للخلاف بابا إلا فتحه ، ولا للنزاع زندا إلا قدحه . والسلار بعد ذلك أولى باختياره ، وأحرى بإيثاره ، وأخلق بتدبير بلاده ، وأحق بهذيب أولاده ، فما عندنا أن أحدا منهم يشجع — إذا جُزم عليه الأمر ، وسأوى السر الجهر — بمخالفة حكمه ، والاتواء على رسمه ، وقد اعتدنا بأن واضعنا ما فى صدره ، وأطلعنا على ما فى نفسه ، توفيةً لحقوق المساهمة ، وفروض المودة القائمة .

(١) فى الأصل هكذا وربما كانت اسم موضع أو بلد .

وقد أدت — أدام الله عز السلار — ما استملت عن لفظ مولانا ، وهو عندى وجه
الرأى الذى لا خفاء به ، والسلار أعلم منى بالصواب فى مثله ، أجرى الله أموره ، وفق^(١)
اختياره وأنفذ فيها أقداره بإيثاره ، إنه فعال لما يشاء .

٥ — ولـه

كتابى — أطال الله بقاء الشريفين سيدى وكبرى — عن سلامة مولانا الأمير
مؤيد^(٢) الدولة ، وانتظام أمور سلطانه ، وعافيتى بدولته وعلو شأنه ، والحمد لله رب العالمين ،
وصلاته على خيرته محمد وعترته .

وقد علم الشريفان أن الصلاح تجتمع أطرافه ، وتُحرسُ أكنافه ، بأطراح الظفائن^(٣) ،
ونسوية الظواهر والبواطن ، والأخذ بالخلق السمح ، وترك المشاحة والشح ، وأن المعارة
تورث التباعد ، وتزيل التعاون والترافد . والأشراف العلوية بقزوين بينهم وبين سائر
الطوائف شحنة لا تكاد تسقط جمراتها ، ولا تنجلي غمراتها ، وقد كتبت فى ذلك كتابا
أرجوه يجمع على الألفة ، ويحرس من الفرقة ، وينظم على ترك المنازعة ، والجنوح
إلى الموادة ، فإن المهادنة تجمل بين الملتين ، فكيف بين النحلتين ، والله نسال توفيقاً
لأنفسنا ولهم .

وإذا عرفت لما يجرى من ذلك تأويلا ، وإن كان ضعيفا ، فليت شعرى لم بين
آل أبى طالب — أيدهم الله — تمار وتباغض ، وتناء وترافض ، وشر قد تعدى إلى إراقة
الدم ، وقطع العصم ، ونسيان الدم ، وبيت الرسالة يجمعهم ، وظل النبوة يكتنفهم ، ورحم
الوصية تؤلفهم ، وهل ذلك إلا من حباثل الشيطان ومكائده ، ونزغات ومراصده ، وقد
اعتمدت الشريفين لأمرين عظيمين : أولها وأولاهما إزالة هذا التنازع والتقاطع بين بنى الم
حتى يكونوا متوازيين متعادلين ، إخواناً متقابلين ، وإن احتاج بعض إلى احتمال ضيم
لبعض ، والتزام هزيمة وغض ، فالدين يقتضى ذلك اقتضاء لا رخصة فى تركه ، ولا تأويل
فى حله ، ولا عذر فى هجره .

(٣) هكذا فى الأصل بإبدال الضاد ظاء .

(١) فى الأصل : ووفق .

(٢) فى الأصل : المؤيد .

وأنا أتوقع ما يكون من هؤلاء الأشراف — أيدهم الله — في الاستجابة لما رسمت ،
والتزام ما ألزمت ، ومن الشريفين — أيدهما الله — في إصلاح ذات البين والصبر على إيقاع
الاتفاق ، ورفع الافتراق ، واستعادة الائتلاف ، وإمالة الاختلاف ، إن شاء الله تعالى .

٦ — واه

إن الله — سبحانه — حين استكنى مولانا من أمر بلاده ما استكنى ، واسترعاه من
حال عبادته ما استرعى ، وأتاه السياسة التي يُضْرَبُ بها المثل ، وَيَعْتَدِلُ بها السهل والجبل ،
وحى أيامه من الفساد ، بقدر ما شحنها به من السداد ، أَلْهَمَهُ أن يتصفح مصارف الرعية
ومذاهبها ، ويستشف مواقفها وضرائبها ، ليجزى المحسنين إحسانا عَمِيًّا ، والمسيئين ^(١) إساءة
وتقويما ، فيكون الخير دَوْلَةً بين الأَكْبَر والأصَاغَر ، وفرصة بين الوارد والصادر ، والعدلُ
شاملاً لمن لزم الطريقة المثلَى ، وأقام على الحجة الوسطى ، والعقاب حالاً بمن زاع عن سواء
السبيل ، وراغ عن ضياء الدليل ، والله يحفظ على الرعايا ظله ، ولا يُعْذِرُها فضله وعدله .

وهذه مقدمة اقتضاها ، وأوجب الإطالة في معناها ، ما قد شجر بين أهل قزوين
— أحسن الله كَلَامَهُم — من خصام تنفق أسواقه ولا تكسُد ، وتهب رياحه ولا تركُد ،
ونزاع تتصل مواده فلا تنقطع ، وتطبق غمامته فلا تنقشع ، فهم دائباً بين تبايُنٍ وجدال ، وتباغِدٍ
وقتل ، ونهاجِرٍ وتقاطع ، وتظالمٍ وتنازُع ، وما جعل الله في التدابر صلاحا ، ولا أرى في ترك
التوازر نجاحا . وقد زاد جُهَالَهُم إغراء ، وأغمارهم إغواء ، أن هذه الفَوَايِد قد طال أمدُها ،
واتصلت مُدَدُها ، وتراخى زمانها ، وانبسط عنانها ، فهم يقدرُونَ أن الاحتمال والإهمال ،
والتغافل والإغفال ، سيستمر على طريق قد ألقوه ، ومجاز قد عرفوه ، ولا يدرون أن لكل
جُلٍ كتابا ، كما أن لكل ذنب عقابا ، وأن مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — لا يُضْطَلَى
نار إنكاره ، إذا أقام المَعْدِرَةَ بإعذاره ، ولا يُوقَفُ لِحِرَاقته ، إذا وقى الإِذَارَ أوفر أقسامه .
من قواعد الفساد أن هناك زعماء للعوام ، يحسبون محالهم تحفَظُ بنصرة السفهاء إياهم ، وركوبهم
لصعبِ الذلول في هوائهم ، فهم يحامون عليهم ويدافعون ، ويدودون دونهم ويمانعون ،
نيل الرعية مَمْنُونٌ بما يجري إليه هؤلاء المتهوكون ، والفساق المتهتكون .

ولقد ورد الباب المعمور من الأشراف العلوية — أدام الله عزهم — من حكي العظام التي تُسْتَفْطَعُ أخبارها ، ويُفَرَضُ إنكارها ، لولا ما أوجبه الدين من التبيين قبل الإقدام ، والتثبت قبل الانتقام ، حتى قالوا إنهم يُمْنَعُونَ عن التسوق والتكسب ، وَيَتَعَمَّدُونَ بالتتابع والتطلب ، وَيُخَوِّجُونَ إلى حراسة أملاكهم عن الغارة ، ومنازلهم عن الإبرة ، وما ظننت ذلك يقع في فهم وفكر ، فضلا عن أن يُشَكِّى عن مرأى عين ومسمع أذن ، مع أنى قد تحوَّلت هؤلاء الواردين — أيدهم الله — بالموعظة والتبصرة ، وأطلت عليهم بالتعريف والتذكرة ، وعرفتهم مايلزمهم من حراسة شرف المناصب ، بشرف الأعمال والمذاهب ، وحماية كرم المناصب ، بالثبات على القول الثابت .

وسيلك ، يا أخى — أطل الله بقاءك — أن تَعَدَّ مجعاً تحضره الوجوه والأعيان والأمثال ، والصدور والأفاضل ، دون الأذئاب الذين لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يَعُون ، وتقرئهم كتابى ، فإن الله يعلم أن بغيتى صلاح عامتهم ، وحصول الخير لجماعتهم ، واتفاق كلمتهم ، وارتفاع الشر من جملتهم ، لا أن طائفة تُلْزَمَ العدول عما اختارته من مذهب وعقيدة ، واجتنبته من نحلة ضالة أو رشيدة . فالخلاف متقادم بين الجماعة ، لا يرتفع إلى قيام الساعة ، وإنما يأمر السلطان بأن يلزم كلُّ ما تَحَيَّرَ من دون مشاركة ، وينفرد بما آثره من غير مضارة ، فمن انقاد لحكمه ، ووقف عند رسمه ، كان قد حمى روحه وماله ، ومهجته وحاله ، ومن أضرم للفتنة ناراً ، ورفع لها منارا ، كان قد أباح من نفسه المحظور ، ومن ملكه المحرم المحجور ، ولحقه من النكير ما يتركه سُمْعَةً رادعة ، ومُثَلَّةً وازعة .

وقوام ما بعثت عليه ، ودعوت الكافة إليه ، أن ينفى كلُّ قومٍ من في جملتهم من خارب وداعر ، وناعق فى الفتنة وناعر ، وأن لا يَقرَّوا التَّسَمِينَ بالعبارة ، والمتوسمين بالشطارة ، بل يقبل كل قوم على أمورهم ومكاسبهم ، وشئونهم ومطالبهم ، شاكرين لله تعالى على كلمة الإيمان ، وعدل السلطان ، وخصب الزمان ، مستعيزين به من الأفعال التى تغير ما بهم من نعمة ، وتُحِلِّ ما يُخْشَى من نقمة .

وهؤلاء الأشراف — أيدهم الله — فليُعرَف لهم الالتئام إلى من هدى الله به الأمة ، وكشف الظلمة ، وأنار الدين ، وأبار المشركين ، وهدى إلى صراط مستقيم ، وكان رءوفا

بالمؤمنين ، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ، وكما يلزم ذلك لهم فليُبْعَثُوا على ما يلزمهم
إكبارا لمشيخة العلماء وأعيان الفقهاء — أعزهم الله — ورققا بسائر الناس ، وتنزها عن
المعار والأدناس .

ثم إن نفعت هذه الفصول في أهل تلك البلدة ونجعت ، وكفّت وكفّت فالحير أردنا ،
والصلاح قصدنا ، وإن عاد عائد إلى ما أنكر ، وأقدم على ما حُظِر ، فأنو — أيدك الله —
حاله ، ليناله ^(١) في جسده وذات يده ما يُزِيل عنه نزوات البطر ، وغفلات الأشر ، وأنى
ذلك ! فمن تمدّى طوره ، وتخطّى قدره ، فلا يُنْقَبِضْ بعد توقيفه ، عن ثقيفه ، وبعد الإنذار
إليه ، عن الإنكار عليه ، وامدّدْ على العلوّة ظلام من الإغراز والإكرام ، يؤمنهم معارّ الجهال
والطغام ، إن شاء الله .

٧ — وله

كتابي — أطل الله بقاءكم — ومولانا الأمير فيما يظاهر الله من غره ، ويُعلى من رايته
وأمره ، على أسرّ الأحوال إلى خدّمه ، وأنا معافى بدولته ، مكنوف بنعمته ، والحمد لله
حمد الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكنّت أقدر — أعزكم الله — أن كتبكم تتابع إلى حضرتي فانقطعت ، وأحسب
أن رسلكم تترادف فتأخرت ، وزادت معاذيركم ضيقا لما انصرفتم عن مشايعتكم ^(٢) ، فلم
تقدموا أنباءكم إلى ، ولم تقرّروا صورة مرجعكم لدى .

وقد رسم مولانا أن ترّدوا الباب المعمور لتجدّد مناظراتكم ، وتقرّر معاملاتكم ،
وتُمضَى إقطاعاتكم وخيفاراتكم ، ويتوسط أبو عيسى أحمد بن إبراهيم أمور رهائنكم ، وتجروا
في مشايعته على ما عهد إليكم ، ورسم لكم . والخيرة لكم — أعزكم الله — في التعجل ،
وترك التمهّل ، وإغذاذ السير والإعراض عن التوقف ، ففي الإبطاء ، ما يعرّض للأئمة
والاستبطاء . وليس يَحْتَلُّ عليكم ، ما سبق من إحسان الأمير المؤيد إليكم ، إذ وطأكم بساط
خدمته ، وكنفكم بجناح نعمته ، ووسمكم بيسم الاصطناع ، ومهد لكم وطاء التكرمة والإقطاع ،

(٢) في الأصل : مشايعتكم .

(١) في الأصل : وليناله .

ولولا هنات ، وزلات وعثرات ، لما لحقكم فضل استقصاء في ارتهان من ارتهن ، وامتهان من امتهن .

وهذا أوان التلافي لفرطاتكم ، والتدارك لغلطائكم ، لتعود صوركم كأجل ما عهدت ، ومنازلكم كأقرب ما نُعوّدت ، فقابلوا مارسم بالمسارعة ، وحسن الاقياد والمتابعة ، ولا تجعلوا كتابي هذا عُرْضةً لجواب تتكلفونه ، واعتذار تزعرفونه ، وإياكم وسلوك طرق التحكم التي لا تحمد مصائرهما ، ولا تستعذب مواردها ، فإن الساطان إذا استعطف كان إسعافه أقرب ، وإنعامه أحق . وإن ذهب ذاهب منكم عن الطريق الذي نهجته ، وأخل بالذهب الذي أوصخته ، فإلى نفسه قد أساء ، وعليها جى ما شاء ، وكان بها مُعرّضا ، وللنكير متعرّضا ، ولسوالف حُرْماته مُضيعا ، ولدم رهيته مُشيطا .

وأنا أرجو أن يحضركم من التوفيق ما يصلح فاسدكم ، ويؤلف شاردكم ، ويجدد ذرائعكم ، ويكثر شوافعكم ، فتدبروا — أعزكم الله — ما أوردته من الخطاب وأصدرته ، وأبدأته من القول وأعدته ، فإني لم آلكم بصحا ولا نصيرا ، ولم أدخر عنكم نسيها وتذكيرا ، بل دعوكم إلى ما عليكم نظهر عائدته ، ولكم تحصل فائدته ، ورحوت معه أن تكون الصنيعة لديكم زائكة ، والمم عليكم وافية ، فلا تجاؤن عن هذا الخطاب بأن القلوب تنافرت ، والنفوس انزعجت ، لا اعتقال من اعتقل ، فإن ذلك ما استُجيز ولا فُعل ، إلا بعد جرائر وجرائم ، وكبائر وعظائم ، وبعد أن ردّعا فلم تُردّعا ، ومنعنا فلم تمتنعوا .

ولو لم يكن في استخدامكم رغبة لما احتيط عليكم ، ولا استوثق منكم ، ولتركتكم سُدى تتفرّقون كيف شئتم ، وتترقون كيف أحببتم ، ولكن مولانا أدّبكم إيتصفيكم ، وهذبكم ليُدنيكم ويخصكم . وعلم — كست الله أعداءه — أن الذي أسلم أموركم للخلل ، وأفقدكم الصواب في القون والعمل كان لتحرب أهوائكم ، وتشتت آرائكم ، وأنفة كل واحد من الاقياد لصاحبه ، وذهابه نفسه عن وطء عقبه ، فتحرّى — أدام الله أيامه — جمع كلمتكم على من تقدّمت له الرياسة فيكم مكتسبة ومستورثة والإمارة بينكم متقدمة ومستحدثة .

وكل ذلك مما يقتضى صفاء نياكم وعقائدكم ، واستواء غائبكم وشاهدكم ، وأن تعرفوا حق النعمة فيه بتجنب جعودها ، والقيام بوظائفها وشروطها . وقد تحمّل فلان في المجلس

العالى ما يؤديه على جهته ، ويحكيه لكلٍ على صورته . والله وليّ التسديد ، وعليه التعويل ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

٨ - وله

وصل كتاب السلار قد أعارني فيه من أوصافه الجميلة ، ما تجاوز أحكام النعم الجسيمة ، إلى ما يريب اللبيب من لبه ، ويفطّي عليه مصارف فعله ، و^(١) كساني من التقريظ ما لا أعرف به نفسي ، وإن أملت استحقاقه بما نبّه عليه من أمرى .

والسلار ينظر إلى أحوالى بعين الود ، وطالما قد حسّنت القبيح ، وكثرت القليل ، وعظمت اليسير ، وإن كانت لى محاسن فهي معدودة فى قطرات بحره ، ومكرّمات فخره ، إذ كنت من تلاد بيته ونعمته ، وفى عداد المحصولين برأيه وبركته . وأعود لحديث فلان وما قاله السلار فيه واصفاً مصارف الأيام ، ومواقف الاهتمام ، ومجارى العزم ، ومسالك الرأى والفهم ، وما رآه فى بابه ، وارتضاه له من أسبابه ، فسألت الله للسلار طول المدة ، وتراخى المهلة ، وثبات الوطأة ، وحراسة المهجة ، ما كان للفلك مجرى ، وللنجم مسرى . وصادفتُ ما أنكر فيه ، مضاهياً عزائمته التى يكفها التوفيق من جوانبها ، ويلتحف التسديد على أمحائها ومذاهبها .

وعرضت الكتاب فى المجلس العالى فقال مولانا : إن فلانا كان خاطبنا السلار بذكره ، وخطب ما خطب فى أمره ، وبعدُ فهو نجيب بيته ، ووسيط أهله ، وغصن من شجرته يُرجى ثمره ، ويؤمل تكثيره ، وطاعة السلار علينا بالأبوة ، والاصطناع إليه فريضة لا تهمل ، ولازم لا يُضاع ، ونحن نحب له ما أشير إليه ، ونشير بمثله عليه . وقد كاتبناه وحضضناه على ما فيه حظّه من حضور السلار متصرفاً على حكمه ، وممثلاً لرسمه ، وروسلاً على لسان فلان ما يزيد فى انشراح صدره ، وإمضاء عزمه . وأقول مع هذا عن نفسى : قد علم السلار أن فلانا وإن كان نسبته إليه أدنى ، وهو بتدبيره أحق وأولى ، فهو لمولانا ولد قد اصطفاه ، وعضد قد ارتضاه ، فالعيون تطمح إلى ما يوليه السلار عند هذه الحال ، وما كان منه إليه فهو بعين مولينا وأذن ، لا سيما إذا كان بعد مشورة من عنده وإذن .

(١) فى الأصل : أو .

٩ - وله

وصل كتابك تذكر موردك على سيدى ملقى من الإكرام بتلقية ، ومن الإيثار بتحفيه ،
ما خصنا منه ولزمتنا حمده ، وتصف ما صادفته عليه اهتزازاً لما أدبته ، وارتياحاً لما أنهيته ،
وعلمنا بأن الذى كرّر على سمعه ، واعترض بينه وبين حزمه ، من اختلاف أعداء لنا ، وله ،
طالما اعترض الشجى فى حلوقهم ، وتردد القذى فى عيونهم ، وظنوا أن الذى يسمعون فيه يروح
عن قلوبهم ، ويفسح فى آمالهم وظنونهم ، ولم يدروا أن وراء ذلك من تكفل الله ما يعيد
أمانهم على أدرأجها خاسرة ، وأيديهم دون امتدادها قاصرة . ونمئنا ما كان منه استقراراً
فى مركزه العمور بالرشد ، وتصرفاً على أحكام رأيه الصدق ، وعزمه الثبت . وإفصاحاً
بالتزام أحكام الصفاء ، وخلوص العهد والوفاء ، وقد علم الله أن الذى كان يسوء مما جرى
ويثقل ، ويخرج ، ويزعج ، ويكدر صفوة النعمة فى الموهوب منه إذ كان قسيم المهجة ،
والشريك قبل النعمة ، فى العمر والمدة ، تقدير أعداء الدولة أن الذى ابتدأه إلى تمام ،
وما أنشأه إلى نظام .

فالحمد لله الذى أرى القريب والبعيد والدانى والسحيق أن على ألفتنا عيناً منه كالئة ،
ويدا من رعايته واقية ، فإذا عنت شائبة لم تلبث أن تقشع سحائبها عن إضاءة معاضد وتآزر ،
وإشراق ترافد وتظاهر ، ثم الحمد لله الذى أسعدنا جميعاً من طاعة مولانا بما يحفظ على الأعمار
امتدادها ، وعلى الأيدي اشتدادها ، وعلى الدعوة تحصنها ، وعلى الدولة تمكنها ، وإياه نسال
أن يطيل بقاء مولاي كما لطف ، لإزالة الشبهة عن نفسه ، ونسخ الشك باليقين عن صدره ،
وقفنا الله تعالى لإيفائه حقوق المشاركة ، وفروض الخالصة ، وأرانا فيه غاية محابه ومحابناله ،
وأنا له فى مصالحه مراده وآماله ، فرأيتك — أدام الله عزك — فى التسرع إلى حضرتنا ،
والعلم بحسن موقع سفارتك من محمدتنا ، إذ كنت المتبرك بقيامه ، المسكون إلى منابه ،
موفقاً إن شاء الله .

١٠ - وله

السلار أقوى عزيمة ، وأصح بصيرة ، وأحسن بالأيام معرفة ، وأتم بالزمان خبرة ، من أن يرضى لأفعاله بالتناقض ، ولخلاله بالتدافع ، ولعقوده بالتهافت ، ولشروطه بالتفاوت ، وحين عاد فلان وفلان فأدّيا ما هو الجليل المقدّر من مثله ، والرأى المقرر في نتائج فضله ، حمدت الله كثيراً ، وشكرت له طويلاً ، ووجدت إلى الخدمة في الجهتين طريقاً فسيحاً ، ومجالاً رحيباً ، وقلت الآن حين أُجَلّي عن عقيدتي ، وأفصح عن طويّتي ، فلم يلبث الكلام بين السمع والقلب إلا أقلّ من رجوع الطرف ، حتى أتت الأخبار بما شرع فيه أصحابه من بناء حصن بقرب من رَنخان^(١) كان الكف عنه واقعاً ، وتوخّى مرضاة الأمير السعيد — قدس الله روحه — بالإمساك دونه سابقاً ، فوجد مولانا هذا الثُّنُعَ منافياً للرسائل المتحمّلة ، متجافياً عن الشرائط الملترمة ، فإن الحصن وإن بناه السلار في ناحيته ، ورفع في مملكته ، فثله إذا أسس محاداً لهذه النواحي موحش ، والاشتغال به بعد الإعراض عنه في سالف الأيام محرج .

والسلار يطبع الرأى الثاقب ، لا الهوى الغالب ، والصواب الأصيل ، لا الخطأ الدخيل ، ويحرس الحال بين مولينا وبينه عما يريب السامع ، وبنطق الحاسد ، ويوقع الثُّنُاف من الجنبتين ، ويقدر في صلاح ذات البين ، فقدر هذا الحصن معروف ، وخطر الجدوى فيه معلوم ، وورن الصرر في إعفاء رسمه مصبوط ، وقد بادرت بخطاىي إلى حضرته ليصبيخ لمودّعه ، ويحكم إجلاته في تبعه ، فإن وجدني صدعت بالمصح أصغى له إصغاء قائل ، وإن اعترضه الشك أعرض عنه إعراض دافع ، وقد أوحش هذا الفعل كل الإحتاش ، ليس للحصن ومقداره ، ولكن لتصيير أول الصنيع دليل أعتاه . وما أطيل علماً بأن الإيجاز يكفي مع تمثله كل أمر على وجهه ، وسرّه مجزّاته واستدراكه لغوره ، فإن رأى — أدام الله عزه — أن تخيبي جواب من يحرس مخاطمته عن المعارضة ، وناصحته عن المناقضة ، ويغاب مودّات العظاء على بناء المعاول ، فإنها الحصن في العاقل والآجل ، فعل إن شاء الله .

الباب السابع

في المدح والتعظيم

١ -- كتاب إطراء وتعظيم وإظهار عناية

جنابُ السّـلار مولاي الجنابُ المورودُ المهورُ ، ولقاؤه الطائرُ الميمونُ المسعودُ ، فعَيْنَا كل بعيد عنه تحسدان ناظرَي كل قريب منه ، ولا غرو فاللوا حظ تأنس بالروض مَوْلِيَا^(١) والزهر جَنِيَا ، والذهب مسبوکا ، والوشى محبوبکا ، فكيف أنسها إذا نظرت إلى حدائق مجدِ دَثر ، وأنواع عِزِّ غمَر ، وحظيت بربيع كرم جَم ، وشرف ضخم ، حيث البيت رفيع ، والجناب منيع ، والفضل وسيع ، والشِّيم حَبَر ، والألفاظ درر ، والليل سَحَر ، فلقد افتتحت كتابي مع الشريف وأنا أغبطه ، وإن كنت أغبط له ، وأنا فِسه ، وإن كانت نفسى نفسه ، لما يأمله من مشافهة المحاسن بارزة ومكنونة ، ومشاهدة الحامد راهنة ومضمونة .

وحين راسلنى السّـلار بإصداره إلى حضرته تمنيت لو كنت المستدعى ، وآثرت أن أكون المستدنى ، فروية أفراد المجد والفضل فرص العمر ، ونهز الدهر ، والأيام شِجَاح كعادتها فى التّـنكـد ، وشيمتها فى التّعقد ، فأما الشريف فقد جمع شرف منصب عِـمِـم ، إلى شرف خلق عَظِـم ، يستمد المودّات إلى نفسه ، ويستجِرُ النّيات إلى حبه ، ويسلم على السّـبـر ، سلامة الإبريز على السبـك . ثم حاله عندى حال تفتقر الأخوة إليها ، وتُعَدُّ الرّحم الماسّة علّـاوة عليها ، فإني خبرته على تصرف الأوقات فكان النقيّ الجيب ، البرىء من الريب والعيب ، يتناسب أصله وفرعه ، ويتناصف نجره وطبعه . وخدمته للسّـلار قديمة ، وموهبة الله برأيه جسيمة ، إلا أنى أحب أن يكون لمصدره عنى ، وموقعه منى ، مكان أخصّ مماسلف ، وأعزّ مما سبق ، ليس لأن على الأول مستزاداً ، ولكن قد استحسنوا الفضل معهوداً ومستفاداً . وإذا يسّر الله له من السعادة فى لقائه ومشهده ما قدره ،

(١) المولى : الذى أصابه الولى وهو المطر الثاني .

وقضى من تجديد العهد بيباه ومجلسه وطوره ، فالإذن له في الاجتماع معي على بث فضائل السالار ، إحدى مننه ، بل واحدة مننه ، وأمره ونهيه متوقعان لاعدمتهما وجعل إحاده فيهما .

٢ --- وله تقریظ وتشكر

مكاتبة الشريف - أطال الله بقاءه - من فرص الأمان وغررها وحجولها ، فالنفوس الشريفة تنافس فيها ، وتشاح عليها ، وتُسبِح إليها ، إذ كانت مودنه تصدر عن عرصه المجد والكرم الدُّر ، وحومة الفضل والشرف القمر ، ولا غرو فالعرق بين الرسالة والإمامة ، والدينُ دينُ العدل والاستقامة ، والخلقُ سنج سهل ، والعادةُ برّة وبذل ، والأدبُ فائض فسيح ، والعقدُ ثبات صحيح ، والعهدُ قويٌّ لا يُشَلَم ، سوى لا يُكَلَم .

وعرض على فاضل^(١) القصّة فصلا من كتاب الشريف إليه قد أودعه ما أطابه من ذكرى ، وأطاله سيدي ، فلم أستبدعه من ذلك الخيم الكريم ، والخلق العظيم ، وأين أبلغ إذا اجتهدت واحتفلت ، واحتشدت واستقلت ، مما يلزمني للسادة من هذه العترة التي ألبسها الله العز تفضيلا ، وردّاها الكمال نقديما . وأذهب عنها الرجس وطهرها تطهيرا . واتفق أن قرأت نعمة الكتاب ارنياحا لمساقط لفظه ، واهتزازا لآثار يده ، فعمرت بالحديث الذي كان كتابي بعد ذكره ، وما شكاه الشريف أبو الحسن من صنوه ، وآثره من ترنب موثوق به ، مسكون إلى دينه وسنّره ، وسألته عما تنبّه خطابي فشكر اهتمام الشريف بما أراده ، وأن وقف الأمر لتمثيل الرأي فيمن ارتاده ، ونشر الشريف أبو طالب مثل ذلك نشرأ حسن مسمعه وموقعه ، وأضاء مطلقه ومجمعه .

وقد قدمت في كتابي^(٢) الأول من وصف الشريف أبي الحسن ما الله العليم بأنّي لم أستقص معه حقّه ، ولم أستوف حظه ، إذ كان ممن زان الله به شجرة الوحي والتنزيل ، وعترة الرسول ، والوصي والبتول ، صلى الله عليهم أجمعين ، وإن رغمت معاطس الناصبين . وهذا الشريف أبو طالب يُرى به علمه وراء سنّه ، وقد زاده الله فضلا إلى فضله ، وجعل

(١) لعله عبد الحبار بن أحمد الذي مضى ذكره (٢) في الأصل : كتاب .

حلية بين أهله ، وما اقتضت الحاجة أن أبسط هذا البسط ، وأقصد هذا القصد ، لاسيما مع أشغالي التي أحاسب نفسي معها على اللفظ أقتضيه ، والسطر أكتبه ، ولكنني أجد في الإفصاح عن محاسن سادتي روحا في نفسي فيستحضر الهزة وينرد الغلة ، ويجلو الصدى ويقوى المنة . وإذا سمحت الأيام منهم بمن يعمر بيته معرفة بالله وتفقهها في دين الله فذاك الطيب أصله وفرعه ، والزكي بذره وزرعه ، يختص بي اختصاص العضو بالجلته ، والبعض بالجلته . وقد نصَّ الشريف لذلك المسمى وهؤلاء الأصحاب على من تقدمت خبرته لأمره ومعرفته بسره . والشريف قد ابتدأ المنة فليتم ، وقد أسرج في العارفة فليجلم ، فلو كان الكلام في قضاء الجانبين ^(١) ، والصلاة في ^(٢) الحرمين ، لكفى ما أصدرته من خطاب ، وخطبته من إيجاب ، وكتاب الشريف متطعم بخبره ووطره ، واهتمامه في هذا الأمر ونظره إن شاء الله .

٣ - وله في الإحماد والتأنيس والبسط من الأمل

كتابي ومواهب الله تعالى عند مولانا الأمير المؤيد فيما يُمنى الله من حكمه . ويسعد من نجمه ، ويُنفذ من أمره ، ويُعز من نصره ، ويرفع من لوائه ، ويظهر من بسطته وعلائه ، على ما يقتضيه تصرف الأقدار على اختياره ، واستجابتها لإرادته وإيثاره ، وأنا سالم في ظله الظليل ، ورأيه الجميل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكتب فلان يخبر بما كان منك حضوراً عنده ، والتقاء معه ، وإخباراً عن الحال التي أزلت عن المحجة القاصدة ، والمعاذير التي ألجأت إلى الاختبارات الفاسدة ، وأنت قد تبينت ما هو أحمد حاضراً ومغيّباً ، وتحققت ما هو أسعد بدءاً ومعقباً ، وألزمت نفسك من فروض الخدمة أضيقيها ، واعتلقت من حبال الطاعة أوثقها ، حتى تقابل إعلانك وإسراك ، وتناصف كتمانك وإظهارك ، وعلمت كيف الطريقة المثلى ، وأين العروة الوثقى . وشهد بما شاهدك عليه صفاء نية ومعتقد ، واعتصامك بولاء مستخلص ووفاء

معتمد ، وبسط القول في ذلك بسطاً سألني معه أن أكون بحضرة مولانا كفيلاً بما بذلته وزعيماً بما ضمنته ، وأنفذَ ماحلفتَ عليه منتهياً إلى أقصى آماذ التوكيد ، وسارعت إليه في ضمان الرشاد والتوفيق ، فحمدت الله تعالى على أن أحضرك من العزائم أرضاًها ، ومن الآراء أقواها ، وعدل بك عما لا تُحمد دلائله ، ولا تؤمن غوائله ، ولا تُرجى محابه ، ولا تسلم مغابته .

وقد علم الله أني لم أزل لحقك موجياً ، وفي اصطناعك مرغياً ، ولتنبهك على حظك مؤملاً ، ولتبينك موقع رشدك متمثلاً ، ولن جاورك من العمال فأساء عشتك ، وقبح مجاورتك ، ذاماً لأئماً ، ولتوبيخه وتهجينه مكرراً مداوماً ، وقد عفا الله عما سلف ، وجلَّ صفحُ الأمير المؤيد ما فرط . وأوردت في مجلسه الشريف عنك ما وثق كل التوثقة بك علماً بأن امرأاً أنزله هذه المنزلة من قيامي ، وأرتبه هذه المرتبة من اهتامي ، كيف يقابل بالجد في تحقيق ما أورده ، وكيف يعاجل بالاجتهاد في نصديق ما أضمنه .

وقد جمع مولانا لك بين التجاوز عما سبق حتى سقطت المحاسبة عليه ، والمراقبة عنه ، وبين إحسان يبلغ المراد ، ويعجل الإسماع ، وتقدير يزيد في الخطر والرتبة ، وينظم بسط الجاه إلى تقوية المنة ، وستخطب السنة الأيام بما تلبسه من ريش الحظوة ، فتأسف على ما فات من أوقاتك ، وتراخي من أمد سماعاتك ، وكل الذي عقده فلان معك مُنمضى على التأيد ، مُجرى على التخليد ، لا يتعقبه نسخ ، ولا يتنبهه فسخ ، وأنا بالجميع متكفل ، والحصول وحصول أوفر منه متنجز ، والله المشيئة .

وعليك أن تظهر من إخلاصك ، ما يبعث على اختصاصك ، وتبدي من ولائك ، ما يحث على اجتنائك ، فان يمضي إلا يسير من الزمان حتى يُحمد الله تعالى على المناجح التي تصالحك ، والخيرات التي تغاديك وتراوحك ، وملاك ذلك أن تحرس طاعتك عن التلون ، وعقيدتك عن التنقل ، ليعرف ثباتك على ما تعتقده ، واستمرارك على ما تصدره وتورده ، وتأتي في زمرة الأصحاب ، والتشدد على أهل العيث والفساد ، ما يطيب خبره ، ويحسن أثره ، وتتظاهر أنباؤه ، وتنضح مذاهبه وأنحائه ، وتأنس بالخدمة والطاعة أنس الأصيل فيها لا الدخيل ، فيسمع صاحبك - إذا ورد الباب بمشيئة الله - ماتوقن معه أن

الثقة إليك توجهت ، والظننة عنك قد صرفت ، وفلان يزيدك في هذه الأبواب بصيرة ، ولا يدخر عنك في النصائح ذخيرة ، وأنا أنتظر ما تنهيه حالا خلا ، وترد به كتبك تواليا واتصالا ، مع ذكر أخبارك ، وعارض أوطارك ، إن شاء الله .

٤ — وله تشكر وتركية وإحماد

كتابي عن سلامة قد هنا الإنعام فيها وسوغه ، وظاهر الإحسان بها وأسبغه ، ما يتابع الله لمولانا من السعادات التي فانت الأعداد وسبقها ، ووصلت المواد ونسقتها ، ومن أقربها عهدا صرفه — أدام الله علوه — للأعنة إلى جوار الخلافة ، ومثابة الكافة ، بعد أن تهذبت في أحوال الديارات والجزائر عراضها ورباعها وأطرافها وقلاعها ، ومحييت آثار الخالفين المشبورين ، ورب من استكفى من الأولياء المنصورين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ولئن كان السلار موقفا في أحواله وآرائه ، مسدداً في أعماله وأنحائه ، واضعا أموره مواضع الصواب والرشاد ، مورداً عزائمه مشاريع الاستقلال والسداد ، إن الذي أتاه في أمر الولد الأثير فلان حين استكفاه واستعمده ، واسترعاه وقلده ، وقدمه على أكابر الولد مائلا عن المحابة إلى الاختيار الصحيح ، وجانحا بالمألة إلى الرأي الصريح ، هذا إلى ما أسنى له من أعطيته^(١) ، وتغمده به من أحبيته ، كذلك من محاسن شيمه ، ومعطف كرمه ، على ما يتقدم السنة التقريظ ، ويُعدُّ الواسطة بين الإفراط والتفريط .

ومن اشبهت عليه صورة ما أراده ولم يعرف فيه نيته واعتقاده ، فالحال لدى واضحة السنة مشرقة السحنة ، لا تستبهم عند التدبر ، ولا تستعجم على التحقق والتصور ، وذلك أنه مع قضائه في فلان حق الولادة والنجابة ، وذمام الأصالة والإصابة ، أجرى بما أتى ، إلى الأسر إلى ، والآثر لدى ، واختص من ولده من كان سببه بحضرتي أقوى ، ومكانه من عنايتي أقرب وأدنى ، فالنية متمثلة ، والمنة متقبلة ، والمبرة معظمة ، والمقابلة ملتزمة .

وكنت أحسب كتاب السلار ، بما عقده من هذه الحال ، أول طالع ، فلما أبطا عن

(١) في الأصل : عطيته .

حينه ، وأخطأ الظن بعد يقينه ، أحسنت التأويل له وقلت ، إنه لما رأى ما جدد مبرةً إلى حضرتي أداها ، وحسنى بعنايتي أهداها ، كره الكتاب بما يجري مجرى الاعتداد ، الذي يُصان عنه خلوص الاعتقاد .

٥ — وله في البر والإحسان

كتابى وأمور الحضرة فيما يحرس الله من عِراض ماله ، وينفذه من أمره وعزمه ، ويمضى على الأرض وبنيتها من حكمه ، جاريةً أسعد المجارى وأفضلها ، ومستمدة أشرف النعم وأجزلها ، وأنا سالم بدولته — ثبتها الله — ورأيه — أعلاه الله — والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فكان ما تصفحته من فصوله صادرا عن العقل الرصين وتوفيق الله اللطيف ، وتلك عادته — عز اسمه — فيمن أخلص للدولة القاهرة نيته ، وعقد بمولاتها عقيدته ، وسرّى الله بخبرك في السلامة ، وجرّى الأمور لك على منهاج الاستقامة ، وهو — تعالى — يوكد ما منحك وقسم لك ، ويحرس ما أعطاك وخوّلك ، ولم تُضف من وصف طاعتك لمولينا — أدام الله علاهما — إلا بما شهد القلب لصحته ، ودل على وضوح صفحته ، إذ كانت هذه الطاعة تيسّر لمن كتب في السعداء ، وأوتى فضل الله في استمداد النعماء ، فلا يثابر عليها مثابر إلا قرت عيناه وانبسطت يميناه ، وبلغ مراده وصافح مبتغاه .

وقد أوردتُ ما أنهيته — في المجلس العالى — مورده ، وأوقعته من الإحسان الشريف موقعه ، ومولانا واقف عليك من محمّده وارتضائه ، وعنايته وجميل رائه ، ما تصغر أعراض الدنيا في جنبه ، وتنال منى النفوس ومطالب القلوب منه ، وقد أدّى رسولاك ما تحمله ، وأعيد إليهما جواباً ما أورداه ، فكن — أيدك الله — منشرح الصدر ، قوى الأزر ، بسيط الأمل ، فسيح الرجاء في مسلك الوطر ، فإن هذه الرعاية الكريمة ستسفر لك عما يغبطه الولي المصادق ، ويشاحك فيه الأخ الموافق ، واهتمامى بذلك متكفل ، والموعود به متنجز عشيئة الله ، وإذا عاد الجواب عما كتبتُ به [إلى ^(١)] الحضرة العالية أذاك كتابى على شرح تعتمده ، ومثال تقصده بعون الله .

(١) زيادة يقتضيه السياق .

٦ — وله في التآنيـس وبسط الأمانة

كتابي — أطل الله بقاء الإستيـذار — ومولانا فيما يرفع الله من كلماته ، وينصر من راياته على أسعد ما عوده الله في مجارى الأمور ومصارفها ، ومشاهد القدرة ومواقفها ، وأنا سالم في ظله ، والحمد لله ، وصلاته على النبي محمد وآله .

ووصل كتاب الإستيـذار ، فاشتد سكوني ، وتضاعف — بما عرفت من ترادف النعم عليه — سروري ، وسألت الله أن يجعل منأخه عنده حاضرة لا تغيب ، وراهنة لا تعزب وتستجيب ، إن الله تعالى فعال لما يريد .

وعرفت ما وصفه الإستيـذار من تصرفه منذ كان على طاعة الدولة القاهرة يسوى فيها بين سره وإعلانه ، وبشار عليها مثابة ليليه وأيامه ، وذلك — والله الحمد — مشهود منه ، لا يحوج إلى إقامة شهادة ، وموعد لا يضطر إلى استزادة ، ومولانا محمد لمذاهبه ، راضٍ عن شاهده وغائبه ، ناوٍ فيه ما ينويه — حرس الله ملكه — في أخص المعتزّين إلى رائه ، والمعتزّين بولائه .

وقد حضر فلان المجلس فأدّى المشافهات ، وحكى وجوه المهمات ، وسمع في الجواب ، ما أصدره لسان الصواب ، ثم حضرني فجوابته ما يؤديه ، ويعرف الإستيـذار مقصدي ومعتقدى فيه ، بإذن الله ، فإن رأى أن يواصلنى مواصلة الواثق ، ويسترسل فى المهمات والعوارض ، فعل إن شاء الله .

٧ — وله فى إعظام النعمة فيما يكسب من الإحـاد

ويوفق فيه من لزوم الطاعة

كتابي — أطل الله بقاء مولانا الملك — والأمير مكثوف بنعمته ، وأنا مسعود بخدمته والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووقف خادم مولانا على ما أهل له من المجلس العالى خطابا ألبس به إحـاداً عما أداه وأنهاه فلان ، وفقنا الله معاً للخدمة المفروضة وشكر النعمة الموفورة ، وعبد مولانا وابن عبده ، إذا ورد عليه ما يفوت مرمى أمله وظنه لم يكمل لجواب ، ولم يشجع لخطاب ، فيجعل الدعاء جُنَّته ، ويَجْمَع عليه سره وعلا نيته .

والله يطيل بقاء مولانا مصرفاً للأيام والزمان والأقدار والأمصار ، فلا يزال خدمه في ارتفاع نواظر ، وكُفَّار نعمه بين مهالك ومحاذر . والمهمات التي رسم مخاطبة خادم مولانا فيها يوكل بها همته ، وبصره وسمعه ، ويستنزل توفيق الله في أداء لوازمها ، وسلوك مناهجها ، وينهي ما يتجدد في كل أمر على سنة أمثاله بمشيئة الله .

٨ - وله إيجاب وإيناس ورفع وتنويه

كتابي ومولانا سابغ ملابس البسطة ، متظاهر الملك والقدرة ، وأنا سالم بدولته البهية^(١) وكلمته العالية ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .
ووصل كتابك سارّ المطلع والموقع ، بارّ المورد والمودع ، فكان ما ضمّنته من خبرك في سلامة - يسوغك الله موادّها - ونعم - يثمر لك أعدادها - زائداً في الارتياح لتدبره ، وانشرح الصدر لمصدره ، والله يوالى إليك منائح آتية من وراء الآمال ، مواتية لأسباب الإقبال .

وقد عرض كتابك في المجلس وصادف من إيجاب مولانا [ما^(٢)] قد بشرتك بوصفه ، وشحنت سابق كتابي بذكره ، وإنه - حرس الله أيامه ونصر أعلامه لنا ولك أدام الله عزك - وفاك^(٣) ما يُوفى على أصفى مباغيك ودواعيك ، إذ كان مبنّى سياسته الكريمة ، على إعزاز ذوى البيوتات القديمة ، وأنت - أيدك الله - في واسطة فضل لا تخفى مذاهبه ، ولا تغمض معاقده ومناصبه ، وعندى من تمهيد هذه الحال عند كل ذكر تقتضيه ، وأمر يسوغ الشروع^(٤) فيه ، ما تطالبنى به محاسنك ومناسبك ، ومحامدك وضرائبك ، وسيعين الله بدولة مولانا على ما في النفس قضاء للوازمك التي تحض المروءة عليها ، وتهيب الحرمة إليها .

وفلان يعرفك مارسمت إخراجك من معاملتك ، فتعلم أنى احتطت لك احتياط الصديق ووضعت النظر والتسويغ وضع ذوى الاهتمام الصريح . وحذفت ما كانت العميدية والقيمة ألزمت^(٥) من صروف وطالبت به من قروف . وأما المكاتبة عن الديوان المعمور فقد تقدمت بزيادتك فيها والتبليغ بها إلى رتبة لا أعرف أحداً يكتأبُ بمثلها ، ولا كوتب منذ استقر

(٤) في الأصل : المزع
(٥) في الأصل : وألزمته .

(١) في الأصل : إليه .
(٢) زيادة للسياق .
(٣) في الأصل : وفيك .

مولانا على سرير ملكه بالرى إلا بما هو دونها ، وعنايته — حرس الله ملكه — تضاعف لك على الأيام إكراما إلى إكرام ، وتصل إنعاما بإنعام .

٩ — والـه

وصل كتاب مولانا بذكر الحلف الذى رسم مولانا عقده عند وروده البصرة بين سعد وربيعة ، أخذاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأوس والخزرج حين وافى المدينة ، وقد تحققت حروبهم أعدادهم ، وضاعفت أحقادهم ، واستفزت أحلامهم ، وبرت أجسامهم ، وفرقت أهواءهم ، وأراقت دماءهم ، وتحوّنت أحوالهم ، وانتسفت أمواهم ، فجمعهم على السلم مع الإسلام ، وألف الله بين قلوبهم بيمان الإيمان .

وقد كان هذا النزاع — أطال الله بقاء مولاي — والنزال ، والعراك والقتال ، تالى ما حكيت فى إحنٍ تثار ، وعقول تستطار ، وأملاكٍ تنتهب ، ودماء تهدر ، وضغائن لا تتخلق حتى تستجدّ ، ولا تنحسم حتى تستمدّ ، قد شابت عليها مفارق الزمان ونواصى الأيام ، واندرج فى مصارتها ومعارها من لم يكن يصرب فى الحيين بعرق ، ولا عدّ منهما^(١) فى شعب ، سوى خطّة جلبها الاشتراك فى الخطّة ، ودائرة ولدها تجاور الدار والحلّة ، فذكرت هم الحروب المتطاولة كحرب ابني^(٢) وائل وقد دامت ثمانين ، وحرب ابني قبيلة^(٣) ، وقد بقيت مائة وعشرين ، وكتب الله لمولانا من جمال هذه الألفة وفخرها ، وثوابها وأجرها ، ما يوازن الجبال ، ويعاد الرمال ، فكم خائف أمين ، وفضل رهن ، ودم حقن ، وحمى حرس ، وصلاح عرس ، وسداد أسس ، ونشر ضم ، وشعث لمّ ، وخير أتمّ ، وسيف أغمد ، وضالّ أرشد ، وهدى مهد ، لا رال العالم فى ظل سلطانه ، وفضل زمانه .

وأما الكتاب الذى أنشأه مولاي فى هذا الأمر فمقيلة الدهر ، ويثيمة الفضل ، وزبدة الأحقاب ، وفصل الخطاب ، أقول ذلك متحققاً لا متجاوزاً ، ومتثبتاً لا مترخّصاً ، قول من أتقن شروط الأخلاف ، بين الأسلاف والأخلاف ، فدرى كيف كان حلف المطيّبين^(٤)

(١) حلف كانت فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام وكان النبي وأبو بكر من المطيّبين ويقال لهنّ خمس قبائل من قريش .

(١) فى الأصل : منها .

(٢) حرب بكر وتقلب .

(٣) حرب الأوس والخزرج .

وحلف الفضول^(١)، وحلف الأحابيش^(٢)، وحلف الأحلاف^(٣)، وروى ما أنشئ بين المضرية والربيعة، وبينهما وبين اليمنية، ومع ذلك فما قرأت أكل شروطاً، ولا أتقن أصولاً، ولا أكثر عيوناً، ولا أمتن فصولاً، ولا أقرب ألفاظاً، ولا أبعد أغراضاً، مما أنشأه سيدي، فمن يَعْلَمَنِي قلت بما عرفت، وشهدت بما علمت، وإلا فليدع تنمية النفس الباطل، وليرتع مع النعام الهامل، فلا يَقْدُرْ مولاي ما اتجه من نتائج البلاغة، وثمار البراعة، فإني عارف بما يناله وسعهما ويزخر به بحرهما، وإنما هو إقبال مولاي — كبت الله أعداءه، وأدام سلطانه وعلاءه — ينفث في جنانه، ويلقى على يده ولسانه، ولكن الشأن في طبع يَقْبَلُ الإقبال، وخاطر يحتمل الاستقلال.

وليس من فرض ذلك الكتاب أن يختصر على هذا القدر في الوصف، ولا يوفي بقدر الطاقة بعض الحق، ولكن وصوله وافق علة قد شكوت — إلى سيدي — أمرها، وإن كان — كما وصل — مُدِيلاً بالشفاء منها. ومن هذا الذي لا يشفيه ذَوْبُ العلوم وصَوْبُ العقول — حرس الله مولاي — للعبارة عن تلك المكارم والمعالى، بتلك الألفاظ والمعالى، وأنا أعتذر إلى مولاي من صدر الكتاب بغير خطي وتحلل الخلل لفظي، فإن الضعف قبض يدي عن التحرير وخاطري عن التجويد، لا عدمته مفيداً ومقيلاً، وآخذاً بالسبق فعلاً وقبلاً.

١٠ — وله ثناء وتقریظ وإطراء وتمعظیم

وصل كتاب مولاي، فبشرتني عادة بره بما يتلقاني من المسار عند فضته، فصدق ظني بفكه إياه عن محاسن لا تقتصر على جلاء الطرف، حتى تشفعه بجلاء الفهم، وتمتع السمع، إمتاعها للقلب.

لا جرم أني أجدد التباهي بما حاز الله لسيدي من فضائل هجنت من قبله، وأتعبت من بعده، وإن كان لا هُجْنَةٌ على من تخلف عن جرّيه، ولا مطمع لتالٍ في بلوغ هديه،

(١) حلف كانت بين هاشم وزهرة وتيم من قريش على دفع الظلم.
(٢) هم أحابيش قريش تحالفوا أنهم يد على غيرهم.
(٣) كان عمر من الأحلاف وهم ست بطون من قريش: عبد الدار وجمح ومخزوم وبنو عدي وكعب وسهم تحالفوا على ألا يتخاذلوا.

أدام الله له ما حباه ، وأوزعه شكر ما أولاه ، فإن الشكر إن كان فرضاً حتماً ، ولزاماً جزماً ، عند نعمٍ توفر حالاً ، وتكثر مالا ، فإنه أوجب في مواهب فضل تزيد في قيمة المرء ، وتملكه زمام السبق .

وتمثلت ما أجاب به مولاي في معنى الرّوم ، ولا ارتياب عند من صحبته مُسْكَةٌ عقل ، أو نصح له لسان حزم ، في أن همة مولانا لا ترقد عن هذا الداء العيأ حتى تحسسه ، ولا تهجع عن هذا الشتات المسرف حتى تنظمه ، فقد بلغ سيل الدين رباه ، واستشرى الكفر ونال مناه ، ولم يكن الله وإن أمهل ليهمل . وما تعرف الألباب ولا أربابها لله سيقاً لا ينبو عن ضريبته ، وللإسلام ليشاً لا يكذب عن فريسته ، غير مولانا — أدام الله علاه — فليرهف مولاي خاطره لإنشاء الفتوح شرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً ، لاسيما وقد بشرت القصيدة نسيجة وحدها ، وقرينة دهرها ، وكريمة لداتها ، وعقيلة أخواتها ، بما أرانى القوة في أزر الإيمان وساعده ، والضعف في أدانى الكفر وأباعده ، والله يسهل لمولانا المطالب ، ويحصن بدعوته المشارق والمغارب ، ويحرز هذه الفضيلة خصوصاً لأيامه ، حتى يلم شعث الإسلام بمكانه ، فما وراءها حسنة تقاس إليها ، فضلاً عن أن تفضل عليها .

وأعود لذكر القصيدة ، أما تعجب سيدى من تزايد هذا الشعر ، وإثقاله عواتق الوصف ، وارتفاعه عن أبواع الفضل ، وجمعه بين شرف المصدر ، وسهولة المآخذ ، وعلو المطلع ، ولطف الموقع ، وبعد المقاصد ، وقرب الموارد ، فقد جلبت من الدعاء ، مثل الذى أوجبت من الثناء ، ومستصير الدنيا دار ندوتها ومنبر خطبتها ، فلا نعمة على المسلمين أعظم من تقوية المُنن بها ، إلى أن ينجز مولانا وعده فيها .

وسائر من عوّل مولاي على قيامه واهتمامه ، وانتصاره وانتقامه فجوابى فيه أن حرارة الأكباد تبرد بالشراب ، دون لمعان السراب ، جعل الله العالم وقاية ركاب مولانا ، وعمرّ غزه عمر النور والدهور ، إنه فعال لما يشاء .

وعبدُ مولاي — أدام الله عزه — المنحازُ إلى ظله ، المرتَهَنُ بفضله ، أبو محمد صاحبي
مستَضِحِبُ القصيدة التي خدمت معالي مولانا بها ، وعوّلت على تشجيع مولاي ونشيده
لها . هذا ولولا كرم مولانا — حرس الله سلطانه — لما شجّعنا على إيراد هذه البضائع
المرجاة أسواق مجده ، وإن كان لا تثريب على مستنْفِدِ وسعه ، وباذل جهده ، فإن رأى
سیدی أن یجیب بما یمهد أسباب تطوله ، ویصرّفتنی فی محابّه علی ما أعتد بتحمّله ، فعل
إن شاء الله .

الباب الثامن

فى الذم والتهجين

١ - كتاب فى تقبيح آثار غامط نعمة والاعتذار مما ناله من نقمة

وصل كتاب السلار بذكر فلان أحسن الله توفيقه ، فتمثلت ما ذكره ، وتبينت ما صوره ، وقوله المسموع الذى لا يراد ، وكلامه المقبول الذى لا يضاد ، ولكنه بعقله وفضله يعرف ما يجب على المأمور للآمر ، ويلزم المسوس للسائس ، ويتحقق أن الأمير السعيد - رضوان الله عليه - إنما أقر فلانا - تولى الله إصلاحه - وقده ، وبسطه وأكرمه ، ومنحه وأولاه ، وقلده وولاه ، استخلاصاً لنيته وعقده ، واستصفاء لطاعته فى يومه وغده .

وإني حين أفضت الأمور فى ظل مولانا إلى تدبيرى ، ووقفت الأعمال على تقديرى ، جريت على تلك السنة إقراراً له على عمله ، وتحقيقاً لظنه وأمله ، بل زدته إكراماً فى الخطاب ، وأقساماً من الإيجاب ، لموقعه من سيدى ، فما أفرق بين أقاربه وأقاربنى ، ومناسبه ومناسبى ، وكان هو مستمرا على طريقة لاشك فى أن سيدى قد تصورها وأنكرها ، وعلمها وذمها ، فجعلت أغضى عليها ، ولا أخليه من التنبيه فيها ، وصارت كتبه تنفذ إلى جنبات كان ينقبض من قبل عنها ، وبدأ يستمد المعونة والمغوث منها ، وأمرته غير مرة بالحضور ليزداد تأنساً بالخدمة ، وأزیده من موارد النعمة ، فجرى على شاكلة واحدة إخلالا بالخروج ، وتصرفاً مع كواذب الظنون ، فلم أضايقه فى اختياره ، ولم أسد عليه طريق إيثاره ، واستدت على الرعية وطأته ، واشتدت فى نفوسها وأموالها شوكته ، وكانت الاستغاثة منهم متصل ولا تخف ، والعادة منه تدوم ولا تكف ، فلا أبلغ فى التكيل والتغيير المبلغ الذى يلزم تأميلا لارتداعه ، وكراهة لتقصير باعه ، إلى أن دعت الضرورة القوم إلى ممانعته ومدافعته ، فحسبته لا يستنصر إلا بجندى ، ولا يلتمس العُدوى إلا من حضرتى ، وانتظرت لأرده قوى اليد ، ماضى الحد ، فعدل إلى نواح مختلفة ، وورد مشارع مفترقة ، وأنا فى كل ذلك أكره فيه

ما يختار لنفسه ، وأعلم أنه مأخوذ عن طريق حزمه ، وأن سيدى غير مُخَيَّد لما بدا من فعله ، إذ النعم لا تقابل بالشروء على موابها ، والغموط لمستدعيها ، ولم يجز ترك العمل شاغراً ، فأخرجت فلانا ضابطاً وناظراً .

وكان فلان — أحسن الله رُجْعاه ، ووفقه لما يرضاه — بذل من نفسه تسليم القلعة ، إذ التحصن بذلك البلد — مع انصرافه وانحرافه — لم يَسْغَ ، ثم تلَوْن جارياً على طريق الممانعة ، ومخاطباً أصحابه بالمنازلة والمقارعة ، ووقع من فلان ضرب من التسرع — حَفَره له القوم — بابتداء المنازعة ، وتخطبها إلى المنازلة ، وقد علمت أن سيدى يؤثر مصالح الدولة على كل قريب وقُرْبَى ، ولا يحتفل في مصرتها ذا رحم بعيدة أو دنيا ، أمتع الله بحيانه واتصال مدنه .

٢ - - ولله

كتابى — أطال الله لقاء السلار — وبم الله — تعالى — عند مولانا تجمع سمو المكان ، إلى علو الشأن ، وثبات الأركان ، إلى القدرة والإمكان ، وما أخدم فيه بحضرته أجلاًها الله ، وفي ممالكه ، حرسها الله ، جار على السداد ، مطرد أحسن اطراد ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكان كتاب السلار ورد على عادته في رَـيْ يصل أوله بآخره ، ويجمع باده إلى حاضره ، فبشر من اجتماع السلامة والسعادة لديه ، بما سألت الله إيمانه له وإفاضته عليه ، وتطوقت منه كما اعتنقت شكره ، وسألت الله أن يجعلني بفرضه من الناهضين ، وبحق فضله من العارفين ، وعرفت ما خاطب به السلار أبا الحسن متعرفاً خبره ، ومستعلماً فيما باشره أثره ، ووقع ذلك بحضرة مولانا أحسن موقع مثله ، وعده في المشكور والمنشور من بر السلار ونتائج وده ، وتلك الأمور التامت أحسن الثام ، وجرت على أسدّ نظام .

هذا وكان هذا المولى تلك البقعة محظوظاً من العناية والقربة ، ومستوعى تدير هاتيك النعمة ، ومقدراً فيه أنه يشكر بلساني الطاعة والخدمة ، وأخذ يتلَوْن فيمهل ، ويتبدّل فيحتمل ، ويكتب أطرافاً لم يسوغ له الانقطاع إليها ، فيزجر ، ثم يُنظر ، ويحدّر ثم يؤخر ، رجاء أن الله من ربه ، ويستيقظ من سِنْتَه ، وكان أشد ما يُنكر منه ، وأقبح

ما يذكر عنه ، البلوغ إلى أخذ الأموال المحجورة ، والولوج في الدماء المحظورة . وكانت المواعظ تصدر إليه فلا تعمل في صدره ، والأمثال تقلب على عينه فلا تؤثر في قلبه ، إلى أن خلعت تلك الرعية اضطراباً فلم يكن له غناء دافع ، ولا وفاء ممانع ، وحسبناه يرد الحضرة البهية فيداوى كلمه ، ويسد ثلمه ، إلى أن أخذ [إخذ^(١)] ه مرة نحو بقاع الجبل ففنى عنها ، وعدل إلى جرجان فأبعد منها ، وامتد إلى حدود خراسان فلم يسكنها ، وظن قلاعه بناحية الدامغان تحمى أصحابه عن الدمع والإبعاد ، والقصد والإقصاد ، فما كان إلا ريثماً أضتبوا على الغنى ، واقتدوا بصاحبهم في البغى ، حتى تبرأ منهم حصنهم ، واشتمل عليهم وهنهم ، وقد كان الأحب إلى مولانا أن لا تتكدر عند ذلك الرجل الصنيعة ، ولا ترُتجع لقلة أمانته الوديعه ، لحق أبيه وذويه ، وقبل ذلك لا اتصاله بفلان نسباً ، وإن باين رأيه طريقاً ومذهباً .

وهذه — أدام الله عز السلار — الدولة التي حكم الله لها بالاستظهار والاستيلاء ، وأوطأها متن الاستقلال والاستعلاء ، فمن شايها ربح متجره ، وصفا مورده ومصدره ، وكان بين عيش رغد ، وطالع سعد ، ومن ولاها ظهره أظلمت عليه مذهبها ، وخسرت بضائعه ومكاسبه ، وأصبح على جدٍ عاثر ، وأمسى بشمل متناثر . والذي وكد الله بين مولينا الملك السيد والأمير المؤيد وبين السلار من حال رفعت كلفة التميز ، وأماطت حشمة التحيز ، يقتضيني بحق السفارة ، وخدمة الوزارة ، أن أهدي إلى سمعه من أنباء جيوشها المنصورة ، وألويتها المنشورة ، ما أتقنه يرتاح له أصدق ارتياح ، وينشرح صدره به أتم انشراح ، والله يصل هذه الوصل بالثبات ، ويكنفها بخلوص النيات ، ويزيد الأعداء سقوطاً على الأفواه والشفاه ، والمناخر والجباه .

٣ — وله

وصل كتابك بذكر ما سهلته سعادة الدولة العالية ويمنها ، ولطف عادة الله عندها وحسنها ، حتى استجاب المخالفون الخاطبون من نواحي كذا لما رُسِم ، ووقفوا عند ما مُثِّل

(١) زيادة يقتضيه السياق .

وَحُتِّمَ ، فسرني الله تعالى بذلك سرورا ينتجه ما يواليه عند أولياء النعم من إظهار وتمكين ، واستيلاء على أمد الماضين والغازين^(١) ، وسألته أن يديم لموليينا من العز أثبتة قواعد ، وأرفعه مصاعد ، وأعلاه سماكا ، وأجزاه أفلاكا ، إن الله يفعل ما يريد

وأنهيت ما وفقت له قرعاً للأمر من بابه ، وتوثيقاً لدواعيه وأسبابه ، حتى أسمح المراد فيه ولم يجمع ، واستمر المرام فيه ولم ينجح ، واستوفى سعيك من الإجماد ، ما يفوت غايات الطلب والارتياح . وفلان أبى إلا خذلاناً تعثر في أذياله ، وتمرغ في أحواله . وقد ساءني ماجرى لا لقدره ، بل للجرأة فيما يذيع من ذكره ، وسيعرف مغبة ما أتاه ، ويحتني ثمرة ما جناه ، وتسلمه يده بحيث لا تستقر قدماه ، ولله المشيئة والأمر ، ولأولياء الدولة العلو والقهر ، فمن زاع عن^(٢) سراط الدولة المستقيم صلي بعبادها الأليم . هذه سكرات ولها إسحاء ، وغمرات بعدها انجلاء ، والموفق من لم يُقدِّم على ما تسوء مصائره ، ولم يرِدْ على ما تستوخم مصادره .

٤ - وله

كتابي وورد من فلان ما أنبأ بأن فلانا حين صار إلى شاطئ البحر فاستوقفه مشتمل الذعر . استولى من ندهم فلان على موضع كذا ، فلم يجد الخائف وراءه مرجعا ، ولا أمامه مشرعا ، وأنه على جملته في الحيرة والدمار ، والخذار من سواد الليل وبياض النهار ، وأن أكثر من قدرهم أنصاره خذلوه ، وقلبوا له الجنّ وأسلموه ، وقد ترصّدت فرق آخر لتفريق شمله ، وتقطيع حبله ، وهذه عادة عند من جحد إحسان مولانا وإنعامه ، ثم لم يقبل إقالته وقد أعطاه أمانه ، وستنجلي الحال إن شاء الله عن انتهاء أمره وتناهي عمره . إنَّ غمط النعمة عقال يمنم ، وعثارٌ يصرع . وقد أنفذت الكتب إلى المجلس العالي ، وأنا راجٍ أن أشفعها بكتاب في ترك فلان آية من آيات الله عبرة لمن اعتبر ، ومثلة لمن ازدجر .

٥ - وله

كتابي والأمور بحمد الله ومنته ، وما قسم للدولة القاهرة من فضله ونعمته ، جارية على ما يزيد الأولياء قوة مناكب ، والأعداء ضعف جوانب ، والله الشكر ، وصلاته على نبيه محمد وآله أجمعين .

(٢) في الأصل : من ، وسراط لغة في صراط

(١) في الأصل : هكذا : العارن

ووصل كتابك فأنست لما أتيت ، وأحدث ما أنهيت . أما فلان فقد كُفيت شغل الصدر^(١) به ، وتوزع الخاطر بسببه ، لأن الرجل قد علم بمكان فلان من الخصوص بالدولة ، وأنه رب ذلك البيت وتلك النعمة . وحديث كذا قد عجبت من فكرك فيه وذكرك له : ومن دون ليلي ذو بحارٍ ومنور^(٢) : والذي يجب أن يشتغل به فلان حديث فلان حتى يذيقه من وبال فعله أمرٌ مذاق . وملاك ذلك أن يُعان فلان معوبة يؤمنه انتهاز فرصة من ناحيته ، أو نفوذ حيلة في مساءته^(٣) ، ثم التجرد لما يحصّ جناح فلان ويبريه ، ويُنسكي ضرباً من النكاية فيه ، فليس يكفي أن يكون التأثير أجمع قولاً لا فعلاً ، ووعداً لا نجراً .

والذي يُحتاج فيه إلى قيامك واهتمامك أن تراعيني بأخبار فلان في مقارَ قدمه وإن كانت دَحْضَ منزلة ، ومصارف عزمه وإن كانت بين خلّة وذِلّة ، فإن مولانا خاطبني اليوم بفصل مفرد ، وقال : أو عز إلى فلان ليراعى بأخباره غَضّة ، ويجعل إعلامك أحواله نوبة ، فأما اجتماعه مع من اجتمع معه فكما يقال : مثقل استعان بذقنه ، وعَبْدٌ صَرِيحُهُ أَمّةٌ^(٤) وإن سفت به الريح في أثناء الأمواج إلى مكان سحيق قرب طائر بجناحه ، إلى موضع اجتياحه .

٦ - والـه

وصل كتابك وعرفت ما أنهيته واقتصصته ، وأبديته ونخصته ، وليس على عناية مولانا بك مستزاد ، ولا وراء إيجابى لك مراد ، ولكن الأمور المنوطة بك منتشرة ، والأسباب الموكولة إليك مضطربة ، وأيدى الأكراد بالغيث والفساد منبسطة ، وهيبتك عن قلوبهم ونفوسهم مرتفعة ، وذلك يثلم جاهك وينتقصه ، فيكدر عليك الأنعام وينقصه ، وليس يمكن ألا أصرّح بقصورك ، ولا أخبر عن معجزك وحُشورك ، وكيف جرت الحال فسبيلك أن تزداد اجتهداً وجدّاً ، وتستنفذ الطاقة حتى لا تبقى وسعاً ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتلطف لحسم أدوائه ، قبل أن يضجر السلطان — أطال الله بقاءه — ويقول :

(١) في الأصل : القدر

(٢) في الأصل : مساءه

(٣) يضرب مثلاً للضعيف يستصرخ بمثله

(٤) ذو بحارٍ ومنور جيلان في ظهر حرّة بنى سليم . والشطر من شعر لبشر بن أبي خازم .

اصطنعناه ، ورفعناه ، وأعطيناه ، فلما تركناه وأمره ضاعت المهمات على يديه ، كضياح إحساننا لديه .

وأنا مجتهد مع الأشغال القاطعة ، والمهمات المانعة ، في إمدادك بمن تطول بهم يدك ، وينبسط معهم أمرك ، ولكن بعد ألا يطول مكثهم ، ولا يتراخى لبثهم ، ويكون سبيلهم سبيل النجدة التي لا تصل حتى تفصل ، أسراً وَحِيّاً ، ولا تنتظر أمداً قَصِيّاً . وهذا يا أبا عيسى خمار سكر كنت أحذر منه ، وأدفع بجهدى عنه أيام القبض على هؤلاء الأوغاد ، الذين ارتضعوا دَرَّ الفساد ، فغرَّتْكَ الغوارِ حتى توصلت إلى اسنقاذهم ، وحلَّ عقالمهم .

لاجرم أنى ألقىت حبل الأمر على غاربه ، وعلمت أن مشاركة نظم عليك من مغاربه ، وكيف جرت الصورة فليس بجميل أن تستسلم للعجز ، وتنضو ملبس السكافى الشهم ، فابن بابويه وابن عنتره قد أجريا بنواحي أصفهان إلى منكرات ، وقطعا^(١) الطرق دفعات ، ولا بأس فسوف يُرى بإذن الله ومشيتته كيف تَرَوَى السيوف العطاش ، من دماء أولئك الأوباش ، وكيف يتركون طُعْمَةً للسباع ، وأُكْلَةً للضباع . وقد تكون للباطل جولة ، وللفساد مُهْلَةٌ ، ثم يأتى من الانتقام ، والاصطلام ، ما يُسْقِطُ الهام على الأقدام ، وما يُعْجزُكَ في هذين الغارة على أحيائهم ، وسبى أولادهم ونسائهم .

على أن مولانا موعز في إنهاض سبعائة رجل من الأتراك والعرب إلى أصفهان لحوط أطرافها ، وصون أكنافها ، فقد طال عهد أكرادهم ، بعادتنا في صلبهم ، وتنكيلنا بهم . وأنا أتوقع تأثيرك في هذه الطوائف مُسْقِطاً للرقبة ، ومصرفاً لهم على أحكام الرهبة ، ولا تفكرنَّ في ابن عكبر فإنه سيشتغل بنفسه ، ويسقط ليديه وفمه ، والسلام .

٧ - ولله

قد عرف مولاي أمر عكبر بن إبراهيم في تمرده منذ حلت تماءه ، وسوء معتقده منذ فارقت حواضنه ، وأنه كان لا يقصّر عن الإفساد ما أطاق ، ولا يكف عن الإضرار ما استطاع ، فمضى لَزَّ من جنبه كتب يظهر طاعةً منبئةً القرائن ، ويبدى موالةً مذمومةً

(١) في الأصل : فطعوا

الدقائق ، ويوم أنه وارد الحضرة ، أجلها الله ، ومختلط بخدما ، أيدهم الله ، فإذا أرخى من خناقه عاد لرأيه الذى فيه أوضع ، وعليه وضع ، ورجع لمذهبه الذى به غذى ، وعليه أنشئ ، حتى إذا جرد مولانا غزمه لإبادة هؤلاء المفسدين أبيّةً للكل ، وحميّةً للدين ، قدر عكبر أن أباطيله تروج بحضرته ، ومخاريقه تنفق في جنبته ، فواصل تلك الكتب الطويلة الألفاظ القصيرة الأغراض ، مع رسل لا يتحملون إلا إفسكا ، ولا يتأبطون إلا شرا ، فلم يدع مولانا مع علمه بقصده وغزمه أن قبّل كتابه ، واستمع كلامه ، وصرف أعنة خيوله المنصورة عن طلبه ، ووقف لُجْمَ جيوشه المظفّرة عن الإيقاع به .

فلما وجد إلى المدافعة سبيلا ، وصادف إلى المراوغة طريقاً ، مضى على غرته ، واستمرّ على شرته ، وعلمت الخسروية والجرجانية ، أنه متعثّر في ذبول الخذلان فقارقه ، واعتصموا بحبل الطاعة ولزموه ، ودبر أمرهم بما أئمر أمنّ السبل واتصال الرُفْق . وعامرة المزارع والديساكر ، وزوال الرقبة عن الوارد والصادر . فكررّ عكبر راجعاً عن مضايقه ، فرسم مولانا تلقيه عنى بكتاب يقطع طمعه عن ورود هذه الحضرة ، ويحذره من دخول الأعمال المدبّرة من هذه الجنبه ، وانتشر ذلك في أصحابه ، فتخلف عنه ^(١) أكثرهم ، وتقاعد به معظمهم ، وبادروا إلى الطاعة ، ضارعين في التماس الإقالة .

ورأى الرجل أن الطرق عليه مظلمة ، والمنافذ دونه مهمة ، فخرج إلى الحضرة البهية ، نقوده الضرورة التي وصفقتها ، وتحديد الصورة التي كشفقتها . وهؤلاء الأكراد الذين ضمّهم إحسان مولانا وأمانه ، وشمّلمهم فضله وإنعامه ، كان من أول ما شرط لهم وعقد ، وألقى إليهم وعهد ، أن لا يجرى لعكبر وإخوته عليهم رياسة ، ولا تملكهم منه قيادة ، ومولانا محيط بأن ركن الدولة يعرف الرجل وخبثه ، وإفكه ونسكته ، وأنه لا يؤثّر له لزعامه ، ولا يُحظيه باستنامة ، إلا أنه أشفق من أن يوحى بكتاب يتضمن هذا الذكر ، ولم يكن عن قوة غزم ، ولم يصدر عن أمرٍ جزم . وهؤلاء الشهبان وحشّ في صورة الإنس ، فلم يؤثّر متى طرقهم هذا النبا أن يتأخروا عائدين في جهاتهم ، مرتدّين في عمائتهم ، ويصير ماقد أنشئ من التدبير حتى انضمّ النشّر وانسدّ الخلل ، بقرّض الانتقاض وبسنن الانتكاث ، وما مراد

عكبر إلا هذا ، فإن القوم لو راجعوا غوايتهم لنفقت سوق عكبر بعد ما كسدت ، ولهبت ريحه بعد ما ركدت . ومولاي يتدبر ما أوردته ، ويقف على كتابي إلى أبي إسحق الكاتب أعزّه الله فقد بسطته ، وينوب عن مولانا — أدام الله أيامه — بحضرة مولانا الأمير حتى يورد جميعه مورده ، ويتبدى القول فيه ويردده ، ففي ذلك التقرب إلى الله ، تعالى ، ثم إلى أولياء النعم ، وكل طائفة من طوائف الأمم .

٨ - وله

وصل كتابك ، أيها الحاكم ! — أطال الله بقاءك — وعرفت ما أنهيته ، وتمثلت [ما^(١)] تشكيتك ، وقد خاطبت أبا فلان في بابك ، بما يؤدى إلى محابك ، وقد بلغتني هنات فلان ، ولا يزال يتردد في مخازيه ، ويتعثر في مساويه ، إلى أن أوغر^(٢) في تناول السحت الذى جمعه وأطغاه ، والحطام الذى نظمه وأغواه ، وأيم الله لئن أشكاك من بعد لأتركه عظةً وازعة ، وعبرة رادعة ، فتقدم بعرض هذا الفصل عليه ، ليكون جارياً محرى الإنذار إليه ، والذين يرشون نبلة ، ويُفوّقون جهله قد أخذت عليهم هذه الرقعة بحجة الإمهال ، وكرهت فيهم^(٣) خطة الاستعجال ، فإن عادوا رأوا كيف يكون التقويم والثقيف والإنكار والتأديب . وقد بلغتني أن فلاناً اعترض بعض ما حكمت به ، وزعمه مخالفاً لقول الأمة بأسره ، وأبو على ممن إذا أحسن لم يحسب له ، وإذا أساء لم يحاسب عليه ، وهو — فى مذهب نفسه — ضعيف الحفظ ، فكيف فى علم أصحابنا ، وهو أوسع من البحر ! ، وقد ناله من الإنكار ، ما ألجأه إلى خطة الاعتذار ، وكان سبيلك أن تزجره زجراً يمنع من التطويل ، والقال والقليل ، فإنك بحمد الله ومثته ، الموثوق بدينه وعلمه ، ومعرفته وفهمه ، وموقعك لدى أخص موقع ، ومشرعك عندى أعذب مشرع ، وكانب بأخبارك وذكر أوطارك ، إن شاء الله .

٩ - وله ذم وتهجين

اختلف — أطال الله بقاء مولاي — أهل الدين فى خبر الواحد هل يوجب العمل

(٣) فى الأصل : فيه

(١) ريدة يقتضيه السياق

(٢) لعلها أوغرني

بغالب الظن ، وقد صار مولاي يقول في خبر الفاسق بإيجاب العلم ، فلست أدري ما هذا الرأي الذي حسن خرق الإجماع لديه ، وحبب ترك الاتفاق إليه . وبعد فعهدي به وطود يذبل وأنف مُعْتَقٍ ، لا يطوران^(١) بمقارنة حلمه ، ولا يُقَدِّمان على مسابقتها في اجتماع لبه ، فكيف استخفَّه^(٢) ما لا يرفع السمع أستاره لوعيه ، ولا يكشف القلب غطاءه لحفظه ، وقد ألفت منه رجوعاً إلى رأيي فيما يشاهد ، واستمداداً لمشورتي فيما يعاين ، فكيف استبد دوني بأسر يغيب عنه وأحضره ، وآثر غزلي عن مهمّ ينأى دونه وأقربه .

وقد كان هذا الأهوج فلان الذي فقد الحياء صغيراً ، فلم يحظَ به كبيراً ، منذ استبدل أبو محمد — أدام الله عزه — يطلق فيه من القول ما لا يتسع صدر البحر لاجتماعه ، ولا يثبت قلب الصخر على سماعه ، فيتجاوز ويتجاوز ، ويسامح ويترخّص ، ولا يراه [إلا^(٣)] كلباً . نبج فلا يعرّج عليه ، ولا يلتفت إليه . ثم لا أمسك عن تقويمه إلا استحقاراً ، ولا أنصت عن تأديبه إلا استصغاراً ، حتى صار الإبقاء إغراء ، والإغضاء إغواء ، فجلس — وحياة مولاي التي أعدها غموساً — في صحن دار مولانا فتكلم فيه بما يوجب الحد ، ويقتضي الجلد ، ولم يكن ذلك منه مساترة ومصاداة ، بل وقع مجاهرة ومباداة ، إلى أن اشتراك الخاص والعام في معرفته ، ووقف الملك والسوقة على جلسته ، وحملته القحّة بعد ذلك على معارضة أبي محمد — أدام الله عزه — حتى إذا مسه بطرف من تأنيبه صرّح في وجهه ، بما كان يورده وراء ظهره ، ففقهه تقنيّاً ضعيفاً بحسب عجزه وضعف قلبه ويده ، وبلغ ذلك الساقط إلى نسوان جمعهن حتى حضرن واستغثن ، وما ترك طريقاً للتشنيع^(٤) إلا سلكه ، ولا باباً للتقبيح إلا قرعه بل ولجه .

وقد كان خبر ما تلفّظ به ترقى إلى مولانا وامتنع ، ورسم معاقبته لولا أن أبا محمد انقبض ، ولم يعبه ما أتاه ، ولا أقنعه ما جنّاه ، حتى أخرج البرد تهوى نحو جرجان ، كأنها قد أتت تخبر بشر بن مروان بقتل مصعب ، ونشط مولاي لتلك الأساطير الطوال والطوامير العراض ، ولم يقل ما حمى^(٥) دمه : لآل إسحق بن بندار بأصفهان : فلان قدس الله روحه

(١) لا يطوران : لا يحومان حوله ولا يدنوان منه

(٤) في الأصل : للتشيع

(٢) في الأصل : استخفه

(٥) هكذا في الأصل . ولعلها : لاسمى ذمّه

(٣) زيادة يقتضيها السياق

فلم لا أتوقف ، ريثما أتعرف ، وأحلم ، قدر ما أعلم .

ولو جرى هناك ما يُستَغْظَم هذا الاستعظام ، ويَسْتَوْجِب هذا الملام ، لكان ذلك الصديق الصدوق ينكر أو يخبر ، ويؤدّب أو يُغَيِّر . لا جرم أن هذا الوقاح أخذ الكتابين بيده يطوف بهما على كل باد وحاضر ، وحاف وناعل ، ومستغش وحاسر ، حتى ترك أبا محمد مضغة ، وألبسه في الخدمة الشريفة هجئة ، وكاد يُدرِّع جأهه وَضْمَةً ، ويوسع بناءه ثُلْمَةً ، وبلغنى ذلك وهو لا يقلع عن الإذاعة ، والنشر والإشاعة ، فبعثت من تناول الكتابين منه وإن كان على ما بلغنى فرق من نسخهما^(١) ما صحيفه المتلمس أقل منه ضررا ، وكتاب قریش في مباينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحسن منه أثرا ، والله المستعان .

وأنا أكتب — يعلم الله — ويدي تتعثر غيظا مما ورد ، وحنقا مما اتفق ، ولأن مولاي تبلغ به سلامة الطبع وسلامة الخلق إلى أن يُتَلَاَعَب بحلمه ، ويُتَعَبَّث بصفحه ، أيقدر مولاي أن هذا اللعين استبقى موضعا للتظلم لم يطأه بأعقاب عترته ، وغادر مكانا للتألم لم يعمره بأشخاص أسرته ، وأنه لم ينظم نسوة يتضاغين^(٢) بباب الميدان العالى ، فلو لم أستكف سطوة مولانا عن هذه الشجرة الملعونة في القرآن لكانت تجتث من أصولها ، وتقتلع بعروقها . وكنت على ترك المكاتبة استيحاشا إلى أن يحضنى مولاي عليها لما أنكره من أنباء الكتابين الواردين . وما^(٣) عرف مولاي جلية الحال ، ولا اطلع على صدق المقال ، ولا غرو فإن ذا الحلم قرعت له العصا ، وقمعت له الحصا .

وأقول أخرى : إن مولانا قطعنى بقدر ما وصل ذلك الحر النفيس ، وأوحشنى بحسب ما آنس ذلك الأخ العزيز ! ، نعم ورأيت مولاي يشهد له في فصل من كتابه بالفضل ، وأظنه لم يكتب بذلك حتى استغفر الله سبعين مرة ، ثم لم يجد مغفرة يرجي نفعها ، ويحسن وقعها ، ومن الكبائر أن أبا محمد يقطع مكاتبته لهذا الزور الذى قام مقام رأى العين ، وعاد عثمان فيه ذا الشهادتين . لست أرؤى من التقرير ، ولكنى أمسك ونيران قلبى تقور ، وأرض صدرى تمور . وأنتظر كتاب مولاي أبى محمد بما يمسح وجه الظلم بيد العدل ، وإلى بألف^(٤) طومار من التنصل ، إن كان سمعى ينفث للعذر ، والسلام .

(٣) فى الأصل : لما
(٤) فى الأصل هكذا : وإلى نالف

(١) فى الأصل : نسخها
(٢) فى الأصل : يتضاغين

١٠ - وله في تهجين غاش لولّى النعمة وذم طريقته

. كتابي - أطل الله بقاء سيدنا - ونم الله لمولانا الأمير المؤيد متضاعفة ، ودواعى التوفيق والتأييد إليه مترادفة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .
وعاد الجواب عما طالعت به حضرة سيدنا - أحضرها الله المناجح - ففقد لى أنواعا من التشريف لا تكمل الهمم لاقتراحها ، ولا تقوى المنن على التماسها ، وسألت الله الكريم أن يجعلنى لأنم مولانا من الشاكرين ، ويمد ظله علينا كافةً خدومه المغمورين بأياديهِ ومِنَنِهِ ، والمستظهرين على الدهر بحسن رأيه وعزرائته ، وكرم إيجابه وشرف رعايته ، إنه إذا شاء فعل .
وعُرض ما لم يجز الإعراض عن إنهائه ، وهو أن إبراهيم بن القاسم كان ، كما عرف سيدنا ، يلبس هذه المدد طريقته ، ويغشى بأنواع الحيل صورته ، ويتصرف على أصناف من الخيانة صارت السبب فى ضياع الأموال ، وتبدل الأعمال ، وتجزئ الناس كافة عن التنصّح ، بما انفق له من فضل رتبة ، وتحسم الأطماع جميعا عن التقرب بما اتجه له من مزية القرية ، وتقسم ما استُرعيه بين تضييع اقتضاه عجزه ونقصه ، وتغميض أوجبه ارتشاؤه وغشه .

وقد كنت ألقيت إلى سيدنا الأستاذ اطلاع مولانا الأمير على بعض ما أناه بامتداد الأيام ، وجناه بمساعدة الزمان . هذا إلى ما كان يشير به من أسباب حدثت المغاب والمصائر عن مغزاه منها ، ويبحث عليه من أحوال أخبرت^(١) النتائج والعواقب عن مرماه فيها ، فلما بسطنى مولانا لمشاركة هذه الأمور بحميل هدايته ، ونشطنى لمطالعة هذه المهمات بموفور عنايته ، لم أدع أن أزلت الشبهة على هذه الأوقات فى احتياله واختيانه ، ودفعت المرية فى اقتطاعه واحتجانه ، وكشفت عن حقائق ارتفاقه عن الحقوق المنتهية ، وارتشائه عن الأموال المقتسمة ، وأبنت عن أخذه من بيت المال أكثر ما وصلت إليه يده ، ومن مستضعفى الرعية ما أوهما أنه يوفره ، مقبجا للأحدوثة عن ولى نعمته ، وواقفا فى مهبط سخط الله ونقمته .

وقد كان هذا أجمع يُتجاوز عنه ، ويُغضى عن سالف ما بدر منه ، ويُقتصر على قبض يده عن التبسط ، وغض منزله عن التسلط ، حتى أحب أن ينتعش من عثرته بأيمان

يُجَدِّدُهَا ، وَيَرُمُّ مِنْ رَتَبَتِهِ بِأَقْسَامٍ يُؤَكِّدُهَا ، فُخِلف بِحَيَاةِ مُولَانَا — أَطَالَهَا اللهُ — عَلَى أَشْيَاءَ
لَمْ يَتَجَاوَزْ يَوْمَهُ حَتَّى أَقْرَأَ فِيهَا بِحَنَنِهِ ، وَلَمْ يَتَخَطَّ نَهَارُهُ حَتَّى أَفْصَحَ بِكَذِبِهِ وَبَهْتِهِ ، فَوُجِدَ
الْإِغْضَاءُ عَنْ هَذَا عَجْزًا لَوْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ السَّابِقَةُ حَسَنَاتٍ مَقْبُولَةٍ ، وَجَرَأَتْهُ السَّالِفَةُ مَسَاعِيَ
مَشْكُورَةٍ ، فَكَيْفَ وَهُوَ رَهِينُ جَرَائِرِ تَحَرُّجِهَا الصَّدُورَ ، وَغَرِيقِ كِبَائِرِ تَضْيِيقِ عَنْهَا الْحُلُومَ .
لَا جَرَمَ أَنَّهُ أَذِيقَ وَبَالَ تَلْبِيسِهِ بِالصَّرْفِ عَمَّا كَانَ يَلَابِسُهُ ، وَقَلَّدَ طُوقَ الْخَزْيِ بِالْإِبْعَادِ
عَمَّا كَانَ يَتَقَلَّدُهُ ، وَحُلَّ إِقْطَاعُهُ جَزَاءً لِمَا يَقْتَضِيهِ . فَأَمَّا الْحَنَثُ فِي الْيَمِينِ فَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا أَنَّ يَمِينَهُ
لَوْ أُخِذَتْ فِي مَقَابَلَتِهِ ، لَمَا تُعَدِّي أَيْسَرَ الْوَاجِبِ فِي مَعَامِلَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ مُولَانَا لَمْ يَفَارِقْ كَرِيمَ
طَبَعِهِ ، وَلَمْ يَحُلَّ كِبَرُ الْخِيَانَةِ حَبْوَةَ حِلْمِهِ ، وَرَسَمَ أَنَّ يُقْتَصَرَ مِنْ مِرَاقِبَتِهِ عَلَى طَرْدِهِ وَرَدِهِ
إِلَى قِيَمَةِ مِثْلِهِ ، وَتَرَكَ مَطَالِبَتَهُ بِعَظِيمٍ مَا ضَمَّ عَلَيْهِ يَدَهُ ، وَمَلَأَ مِنْهُ حِصْنَهُ ، وَذَكَرَتْ جَمَلَةُ
الْحَدِيثِ عَلَى رِسْمِي فِي الْخِدْمَةِ ، أَنَّهُضْنِي اللهُ بِحَقُوقِهَا ، وَوَقَفْنِي لَشُرُوطِهَا ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

الباب التاسع

في التهاني والأجوبة عنها وما يجري مجراها

١ - كتاب في تهنئة بولادة وزيادة رتبة

كتابي — أطال الله بقاءك — عن سلامة . قد وصل الله أسبابها بالنعم رانها ومؤنتها ، ووكد أطنابها بعزة البسطة وشرفها ، والحد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك مفتتحاً بما عود الله العزيز أمره ، العلى ذكره ، من اعتزى إلينا برأيه ورويته ، وعول علينا في سر أمره وعلايته ، وكان على الإخلاص لنا مثابراً مواظباً ، وفي التحقق بنا ثابتاً راتباً ، من تيسير المحاب وتسهيلها ، وتقريب الآمال وتعجيلها ، ليتناول أمانيه بطراوتها وطلاوتها ، ويحتنى ثمار زكائها وحلاوتها ، لا يعتاص عليه بعيد ، ولا يتوعر دونه شديد ، وبوصف ما كان من السلار إليك حين راعى مع حق النجاة التي أفردك الله بمزيتها ، والكفاية التي توحدك الله بحليتها ، حلولاك لدينا محل أعز الأولاد ، وآثر الأعضاء والأنجاد ، فألقى إليك بعهد ، ووصل ضمانه بعقده ، واسترعاك معقب أمره ، وأوطأ عقبك كافة أهله ، ومكثك في حاضر الوقت وعاجله ، الأمر من عدة قلاع ، شفعها بعدة من الضياع . إلى ضروب من التكرمة صارت السنة نيتك فيك واعتقاده ، واعتضاده بك واعتداده .

وشرح فلان الصورة وفتقها ، واخص القصة وحققها ، فحمدنا الله كثيراً على ما عودناه في المؤثرين لدينا ، والأقر بين إلينا ، تمكيناً وتمهيداً ، وتقديماً وتأيداً ، لتسابق المناح إليهم متصلة الورود ، وتتظاهر المناجح عليهم مرتفعة الجدود ، واعتدنا للسلار بما اعتمد فيه توخى مسرتنا والزيادة في دواعي الثقة بحضرتنا ، وذلك هو المأمول من مثله ، في وفور فضله ، وعرفانه بالدهر وحكمه ، وعلمه بالتقرب أين مفضاه وممره ، وبجالة ومستقره .

وسرنا له فيما دبر به أمره ، وحفظ^(١) فيه نيته ، أن عزل الهوى عن زمامه ، وعدل

(١) في الأصل : وحفظه

عن الرأى وأحكامه ، فولى من كان أشد أزرًا ، وأثبت حِجْرًا ، وأطيب خَبْرًا ، وأكثّر نفرا ، وهو منتمٍ من صلة السبب بنا إلى ظل لا انحسار لمداه ، وحبل لا انحلال لقواه .
وسألنا الله له إطالة العمر وتأخير الأمد ، وإدامة السلامة وتبليغ الأمل ، وارتحنّا لما ألقيت إليك مقاليدَه استيجاباً واستحقاقاً ، لا إيجاباً وانفاقاً ، فإنك بحمد الله ومنه النجيبُ الذى لا يفصح قادحه ، واللييب الذى لا يمسك مادحه ، قد اكتنفتك بواعث الاستقلال ، وشملك الغناء فى كل حال ، أنال الله فيك المراد ، وحرس عليك إحسانه المعتاد ، وضاعفه بعد ذلك وزاد .

ويجب أن يتلقى ما كان من السلار بحقه من التقبل والإكبار ، وحسن القبول والانتثار ، فقد قضى الحق وبالغ ، وتناهى فى الجميل وسارع ، واستعمل ما يستعمله الجامع علماً بالأيام وخبراً بالنقض والإبرام ، وإتقاناً لأسباب السياسة ، وكالاً فى السبَر للعامة والخاصة ، وقد كاتبناه نشكر له ما قدمه ، ولنلزم له المنّة فيما تجشمه ، ونعلمه أن الذى أتاه زيادةٌ فى التمازج ، ومادة للتصافى والتواشج .

٢ — وله تهنئة بجعل ولد ولىَّ عهد

كتابى — أطال الله بقاء السلار — وأمور ممالك مولينا الملك السيد والأمير المؤيد فى الاستقامة والاطراد ، كفاء ما عودها الله من الإنجاح والإسعاد ، وأنا فى ظلّهما حامد لله رب العالمين ، وراغب إليه فى الصلاة على النبي محمد وآله أجمعين .
ولولا أن صفوة الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — وخيرة الله من الخلفاء الراشدين أفضيا بالعهود إلى ذوى الاستقلال ، ورأياه من أصالة الرأى وآلة السكال ، وصار ذلك دولة فى دول العرب والعجم ، وسائر الملوك والأمم ، حتى عُدَّ المغفل له ^(٢) مضيعاً عزيمه ، والمقدّم له مطيعاً حزمه ، لما كتبت مهنتاً بما رآه السلار من إلباس فلان جمال العهد والتفويض ، مشفوعاً بإحسانه السائغ المستفيض ، مع ثقتى بأن الله يحفظ الجلال بمكان السلار أبداً ، ويصل فى البقاء بعد أمدٍ أمدًا ، ولكن أسأل الله أن يديم أيامه عامراً مكانه بنفسه ، ومصرفاً أمره بيده ، ورافعاً وُلْدَه بامتداد من عمره ، وبالغاً فيهم ما يحاول بمرأى طرفه ، ويجعل

ما عقده أيمن معقود ، ومن اعتمده أنصح مفوض إليه استحقاقاً . وحصل من اعتداد مولانا عما أتاه ما لا يقارع على وقور أقسامه ، ولا يزاحم على مشاريعه وجمامه .

٣ — وله تهنئة بولاية عهد

كتابى ، أطال الله بقاء السلار ، ومولانا سابغ ملابس العز والاستظهار ، مسعود بمواتاة الأيام والأقدار ، وأنا سالم فى ظله الظليل ، وبرأيه الجميل ، والحمد لله وحده .
ووصل كتاب سيدى مخبراً بما أتاه السلار فى معناه ، وتوخاه من وفاق مولانا وتحرّاه ، حتى جعله ولياً أمره وعهده ، ومرجوّ يومه وعده ، وأفضى إليه بسدّ خصاصه ، وأوطأ أغزته أثره زيادة فى اختصاصه ، غير ذاهب عن الجليّة إشاراً للأقرب نسباً ، بل ماضياً مع الصواب أين صادف مطلباً ، فسرّنى الله بهذه المنح المترادفة ، والمِنن المتناصفة ^(١) ، وسألت الله إطالة بقاء موليينا لنبلغ فى ظلالهما الآمال ، ونكتسب بعزمها الجلال والجمال ، وشكرت له أن أحضر السلار من العزائم أثبتها قواعد ، وأوكدها معاهد ، ومن الآراء أرفعها مراقب ، وأحمدها عواقب ، وحمدته — تعالى جده — أن سنّى ^(٢) لسيدى ما أحبه ، وأسنى حظّه فيما آثره وطلبه ، وأعلم من خبر عن قرب ، أو نظر عن بعد ، أن فضيلة الولاية ، طبقت مفصل الكفاية ، وولاية العهد حصلت للمستقلّ الفرد ، وحماه عن أن يكون الهوى رائداً فى اصطفاؤه ، وقائداً إلى استرعائه .

وقد أنهيت إلى المجلس العالى ماورد ، فاهتز مولانا لسماعه ، واستشرح فلانا حقيقة أحواله وأوضاعه ، واعتد للسلار اعتداداً طال عنانه ، وحسن ارتهانه ، وسكن إلى ما أوتى سيدى من الأمر الذى كان متربّصاً به حتى استقر قراره الاستحقاق ^(٣) ، واستمر بأحسن اطراد وأجمل مساق ، فخر الله لسيدى فيما لا بسه وتطوّقه ، وبلغه فى كل حال أمله وحققه ، وأعانه من طاعة مولانا على ما هو ملاك النعم وقوامها ، وميساك الرتب ونظامها ، ووقفه لمقابلة اعتماد السلار إياه ، بقضاء الفرض فيما استكفاه وولاه ، إنه يفعل ما يريد .
وسيدى يجعل عماد ما أوتيه ، والعتاد فيما أوليه ، الانقطاع إلى الله تعالى فى سر أمره

(١) فى الأصل : التنا . ثم واءها بياض قليل .

(٣) فى الأصل : لاستحقاق .

(٢) سنّى سهل وفى الأصل : يسنى .

وجهره ، و بطن أمره وظهره ، و ينوى الخير ، فإنها نية تحفظ الرغائب عن الشرور ، وتحرس المواهب عن الندود ، و يخاطبني بخبره و دطره ، إن شاء الله .

ع — وله تهنئة بمتجدد نعمة وعلو رتبة

أما قبل أطلال الله بقاء سيدى ، فالحمد لله مولى النعم ، ومُسندى المنح ، منه ابتداء الإحسان ، وإليه مرجع الشكر آخر الزمان ، وصلى الله على النبي محمد وآله الأخيار .
وأما بعد فهنا الله سيدى الموهبة التى ساقها إليه ، ومدّ رواقها عليه ، إذ^(١) كانت من عقائل المواهب ، مسفرة عن خصائص المراتب ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد صدرت عن مالك الأرض ، وولى البسط والقبض ، ومصرف الثقلين ، ومدبر الخافقين ، مولانا الملك السيد ، مكنوفة بكرم رائه ، وشرف اختصاصه واحتبائه ، وخطبتها عناية مولانا الأمير المؤيد ، وحلت من سيدى محل الإيجاب ، والاستيجاب ، والاستحقاق ، دون الاتفاق ، فعرفه الله ميامن أغزر شريعة بأشرف ذريعة ، وأبرع فضيله حصّلها بأرفع وسيلة ، كما عرفنى فيه ما لم أزل أوثره وأرتجيه ، وأعده به وأمنيه ، فحقق الله ما قدرته ، وصدق طيرى الذى زجرته .
وأناى كتاب مولانا دالاً على أنواع التكرمة التى أهل سيدى لها ، وأصناف الأثرة التى اختصه بها ، فقوى أملى وامتدّ ، واستحصف أزرى واشتد ، ودعوت له ثم لمولانا الأمير بثبات الوطأة ، ودوام القدرة ، وانصال الساطان والبسطة ، لنبلغ المنازل السامية باستيطان طاعتها وخدمتها ، وشكر فضلها ونعمتها ، لما به تُستدام النعم دون الشرور ، وتُحفظ المن عن مشارع الكنود ، والله يسمع ويحيب .

كتبت هذه الأحرف من بوزنجرد^(٢) ، وإذا يسر الله وصولى إلى الحضرة العالية بمنه ، ومثولى فى المجلس بإذنه ، قمت عن سيدى بحق الشكر ، وخاطبته بمزيد تخلص وشرح ، وأقول قولاً مجملاً ، ليقابل سيدى هذه الرعاية بما يُرغب فى تشييدها بأشباهها ، وتشجيعها بأمثالها ، فقد علم أنى لم أُجلّ له قط عن صورة إلا أرتّه الصواب ولم أُجلّ قلمى إليه بمشورة إلا لقمته الرشاد والله حسبي وصلواته على محمد وآله .

٥ — وله جواب تهنئة بمزيد رتبة

كتابي ، ونعم الله متظاهرة ، في الدولة القاهرة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك يبسم عن ثغر الإخلاص الصادق ، ويصل طاريء الحق الواجب براهن الذمّام السابق ، قد وصفت فيه مورد البشرى عليك ، وعظم النعمى بها لديك ، فيما جدّده لى مولانا تشریفاً لم تخاطبه طوابع الآمال والطّلبات ، ولم تخطبه نوازع الهمم والرغبات ، بل تطوعت به سماء المجد ، وجادت له أنواء الملك ، فتضمن من الخلع أسناها ، ومن السيوف أمضاها ، ومن الأفراس أجراها ، ومن المراكب أبهاها ، ومن الإقطاعات أوفرها وأنامها ، ثم لم يقنع بأن جاد أرضى ، ونور روضى ، حتى تتبع كل وارد فى جملتى ، وناهض الخدمتى ، فطبقه بغيث خضه بسقيه^(١) ، وفضل توحد سناؤه وسناه .

وهذه المواهب والرغائب ، وإن علت بها المنازل والمراتب ، وتجددت معها المفاخر والمناقب ، وكان فيها العز الراهن الراتب ، فإن الملك السيد أتبعها بعارفة فغم الخافقين عرفها ، وأفهم المشرقين وصفها ، وتوسّحت جباه التاريخ بغيرها ، وافتتحت صفحات السير بخبرها ، إذ ركب — أدام الله سلطانه — إلى نفسه ، غلواً فى السكرم ، وإسداء لقاصية النعم ، وتوخيّاً لوفاق مولانا فى خادمه ، وربيب مكارمه ، فكان يوماً غبطت سماؤه أرضه ، ونجومه تربه ، ووقع الإجماع ، بحيث ارتفع النزاع ، على أن هذه السكرمة لم تُقسم لأحد قبلى ، فيجاربنى فى رهانها ، ويحاذبنى على عنانها .

والحمد لله مسنى المنن ومتيحها ، ومجزل الفواضل ومبيحها ، حدّاً يوفق لشكر نظره الجليل ، وإنعامه بما يوفى على التأمل ، وإياه أسأل أن يصلى على النبي محمد وآله ، ويطيل بقاء مولانا ملك الملوك ما رُويت أخبار مساعيه ، وتليت آثار معاليه ، مشبوح الباع بتصريف أزمنة^(٢) الزمان ، يدين له الثقلان ، ويتصرّف — كهّمه — الملوان ، ويديم أيام مولانا الأمير المؤيد ، ورايته تفرع الرايات ، وولايته تسع الولايات ، نافذ الأوامر ، ضاحك

(١) فى الأصل : سقيه

(٢) فى الأصل : أزمنة

المآثر ، مخدوماً بأيدي الأقدار ، مبلّغاً في أوليائه وأعدائه قاصية الإيثار ، ومعونتي على أن أكون لهما خادماً تزكو لديه الصنعة ، وتحرس عنده الوديعة ، وتعتمد منه النصيحة ، وتشهد لديه النية الصريحة ، والله سميع مجيب .

وأنت — أيدك الله — مستغن عن أن تصف حالك في قوة أملك ، وشدة جذلك ، إذ كنت أعرف ذلك منك بالاختبار ، قبل الإخبار ، وبالمشاهدة قبل شهادة البيان ، لاعدمتك ، وأعان الله على المنوى فيك .

٦ — والـه

كتابي وأروقة العز علينا ممدودة ، وأفنية الملك لدينا ممهودة ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

ووصل كتابك مخبراً بانكفائك عن وجهتك ، متعرّفاً المناجح في عزمتك ، ملقياً الحباب في نهضتك ، ربيع السعي في مسيرك وأوبتك ، فآنسنا الله بما ألبسك من أثواب الجلال وأفاض عليك من مدارع الإقبال ، حتى عرف البعيد عرفان القريب ، وأيقن الغريب إيقان النسيب ، أن الدولة القاهرة حين عُددت ابنها وفتاها ، وصنوها وأخاها ، منحتك من السعادة ما يفوت الآمال أن تخطبه ، والظنون أن ترومه وتقضيه ، وتلك حالها وحالك ما أردت ، وأين توجهت وقصدت .

فالحمد لله وليّ الحمد ومستحقه ، وقاسم الفضل لمن فضل من خلقه ، وزاد الله أيام مولانا الملك امتداداً ، وأركان عزته اشتداداً ، وقوّانا على طاعته التي من استشعرها امتطى النجم تمثيلاً ، وأوسع الدهر تذليلاً ، وأوزعنا الله أن نشكر ماعودّناه في أنفسنا إبراءزند ، واعتلاء جند ، واتصال سعد بسعد ، ثم في الخُلصين لنا والأخصّين بنا ، تمكناً من الرغائب ، وتدرّجاً في المراتب ، وافتراء لحاسن الزمان ، واتساعاً في المكان والإمكان ، وزادنا ابتهاجاً بما أوتيته وأنتيته وانتهيت إليه وأنهيته ، فأكمل به فلان سيدي رِفْدَه ، وأنجز معه وَعْدَه ، وتجاوز به الاقتصاد إلى الإكثار ، وجمع فيه الإيثار إلى الاستبصار^(١) ، حين

(١) في الأصل : تراك الاستبصار

اختصك بالقلمة التي كان قدّمها على قلاعه ومعاقله ، وجعلها أخصّ رباعه ومنازله ، مبالغاً في التنويه ، ومتحرّياً من الجليل ما لا ينازع فيه ، ومثلهُ آتٍ من المآثر ما يطيب شكره ، ويطيّر ذكّره ، ويحصل به من إجماع مولانا ما تنافسُ عليه القلوب والنفوس ، ويشترك في استمداده الرئيس والمرءوس ، ومن اعتدادنا ما لا تميل قواعده ، ولا تحول معاهده ، فهنّاك الله ما أُطْرِفت ، وعرفك بركة ما استأنفت ، ومنحك أضعاف ما استزدت واستضفت ، ونحن نتوقع ما يرد منك بتخليص الصورة وإيضاحها ، وإنهاء جليتها والكشف عن أوضاعها ، مع أخبارك وأوطارك ، إن شاء الله .

٧ — وله تهنئة بمتجدد الوزارة

كتابي — أطال الله بقاء الشريف سيدي ومولاي — والأمور بمضاء ^(١) رأي مولانا وعلو رايته ، ونفوذ حكم مولانا الأمير المؤيد وعلو حكيمته ، على ما عودها الله الكريم نجماً صاعداً ، وعزاً زائداً ، وسلطاناً متيناً ، وفضلاً مبيناً ، وما فوضاه إلى منابى ، وناطاه باستخدامى ، جارٍ بعون الله تعالى على ما النجح فيه مضمون ، والخلل عليه مأمون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدي مهنّئاً بالنعم التي ألبسني الله — تعالى — أجدها ، ومنحني أجلاً ، فيما أهلني له مولانا من إكرام اقترن طارثه براهنه ، وناشئه بقاطنه ، وإنعام هو ، وإن كانت شعابه تسيل إلى منذ صحبت الزمان ، وتقرّ عندي منذ عرفت الأيام ، فإنّ موافيه أوفى ^(٢) على ماضيه ، وحاضره أرمى ^(٣) على منقضيه .

وشرفني به مولانا من اختصار طرق الآمال إلى ، وجمع شعب الأعمال في يدي ، إلى ضروب من الإحسان ، إن استنجدت عليها الوصف تقاعدي ، وإن استمددت لها بالشرح لم يهتزلى ، وعرفت ما أنبأ عنه الشريف من طاعته سلطان الغبطة ، وبذنه الإمكان في إكبار المنحة ، وتصرف فيه من الأدعية التي موافقها مأخوذة ، ومواقيتها معلومة ، وصحفها منشورة ، وكتبها مرقومة ، فهي بالإجابة متقبّلة ، وبالسعادة متكفّلة .

(٣) أرمى : أربى

(١) في الأصل : بمصار ابى هكنا

(٢) في الأصل : أفى

وفهمت الجميع ، وأما تفضل الله على فقد جاوز حدود النعم المعبودة ، والقسم المشهودة ،
التي تضمن آيات عز^(١) وسعادة جد ، ومساعدة قدر ، فإنه — وله المنة — شفع كل منحة
سوَّغها ، بمحنة ردّي^(٢) المنابذين فيها ، وكل رتبة فتح لى بابها ، بنكبة مكن منهم أنيابها ،
فقلت^(٣) بحوله وقوته ما ابتغيت ، وقد بُغِيَ على وما بَغَيْتُ ، وبقي أن أؤدى فرائض هذا
الطول العظيم والمنّ الجسيم .

وأما إفضال مولانا الملك السيد فهو الذى لو استعرت له كواهل الأطواد ، ومتون السبع
الشداد ، لما أقلتة عظمًا ، ولرأته^(٤) أُمّا ، ولو كان البحر مدادًا ، والشجر أقلامًا حدادًا ، لما
طمعت فى الإخبار عن قدره ، والإفصاح عن علو أمره ، ولكنى أَكَلُ إلى ما يرويه
الركب ، وينطق به الشرق والغرب .

وأما ماجدده مولانا لخادمه وغذّي مكارمه من التشريف الذى لو ضربت به الأمثال
لقلت جاز الجوزاء سمًا ، وعزل السماء الأعزل سمكا ، فإن لم يكن ذلك فقد أتى بما أناف
على الحساب والمحسبة ، والمنح الراهنة والمكتسبة ، وجاد^(٥) من المواهب بما لا يطول به باع
الدهر ولا يتسع له صدر البحر .

والله تعالى يضامى عليهما ملابس التمكن ، ويحرس سلطانهما على الدنيا والدين ،
لندوم الحَوْزَة محفوظة فى أيامهما ، والبيضة محروسة فى ظلال أعلامهما ، إنه فعال لما يريد .
والشريف مستغن بما جمعنا الله عليه من حال لولا أنه من مضر فى سويداء قلبها ،
ومن هاشم فى سواد طرفها ، ومن الرسالة فى مهبط وحيها ، ومن الإمامة فى موقف عزها ،
لقلت هى القربى والرحم الدنيا ، فلا غرو أن أكون عند النعمة أسوَّغها ، والدرجة أبلغها
ناظرًا فى عطفي مسرة واعتباط ، وعامرًا طرفي بهجة ونشاط . وهذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم سبق فرسه فجتا ونعر ، وهذا جعفر بن أبى طالب أثنى عليه فنجل . بلغ الله
الشريف فى نفسه وأحبته ، نهاية مراده ومحبته ، ولا أعدمنى وده^(٦) الذى لو مُثِّل شخصًا
لأوطأه الوفاء خده وجبهته ، ولو أصبح الزمان أدهما لكان قرحته ، لا بل والله غرته ،

(٤) فى الأصل : ولا رأته .

(٥) فى الأصل : وجدت

(٦) فى الأصل : اده

(١) فى الأصل : وعز

(٢) فى الأصل : ردّي

(٣) فى الأصل هكذا : قلت

ولكن على الشريف ، بعد هذا تكليف منى وتوظيف ، وهو أن يُنهِض لى لسانه وقلمه ، ويتعب بنانه وفمه ، شكرا للأمير الجليل صاحب الجيش مولاي ومن أنا عبده ، عن أياديه التى هى مشارق الجدة ، وأثمان الكرم المحض ، ولقد ملأنى منها آثفاً ، بعد الذى أولانى سالفاً ، ما يُخَصِّى رمل عاج قبله ، ولا يستطيع غير الحفظة حفظه ، وهذه جملة تغنى من ألقى السمع ، وأخلى لها الذرع :

وقد يُدرك الموحى لبانة نفسه وذو القول لم يدرك من الأمر طائلا
الأشغال — أيد الله الشريف — على مزدحمة كالعادة فى با كورة الأعمال ، وكرهت
تأخير الجواب طلباً للجمام ، وانتظاراً لخلو الفكر وتوقعا لاجتماع القريجة فأملت إملاء
من يسابق لسانه قلم كاتبه ، ويستمرسل فيلقى الكلام على عواهنه ، علماً بأن الشريف
إن رأى جميلاً أراه ، وإن شاهد تقصيراً وراه .

٨ — ولله

كتابى — أطال الله بقاء الأمير مولاي — ومولانا بما يكفنه من تفضل الله وإحسانه
وبركة الملك السيد وسعادة أيامه معافى موفور ، والله محمود مشكور ، وصلاته على خيرته
محمد وعترته ، وقد جمع الله للأمير صاحب الجيش من علو الخطر ، وحسن الأثر ، وارتفاع
المكان ، وانقياد الزمان ، والرأى المستنبط دفائن القلوب ، والعلم المستخرج ودائع الغيوب ،
والفضائل التى لو قسمت على البرية ماضيها وغايرها ، وبرها وفاجرها ، لو سعت جماعتهم ،
وكفت كافتهم ، ما يكبر معه محله عن التهانى بما يتجدد لديه من النعم ولو كانت القطر
عدداً ، وأعجزت الألسنة وصفاً ، وتخطت الشكر سبقاً ، وأعبت الأيدي حسناً ؛ إلا أن
للأولياء الخالصين والأوداء المحتصين أن ينبشوا عن كبارهم لما يصاعف الله الكريم من
بسط يده وإسعاد جدده ، والزيادة فى ارتفاع قدره ، وانبساط قدرته وأمره .

وعرفت خبر الوصلة التى لا مرمى يطلب وراءها للجلال ، ولا نعمة تقف إزاءها فى
الجمال ، ولا شمل أشرف منها ^(١) اجتماعاً ، ولا مزية أتم منها ^(٢) ارتفاعاً ، فبينما أنا فى توفية
هذه الحال حظها من الاستبشار بها ، والتبشير بكرم منصبها ، إذ عرفت خبر البلد الذى أحسن

(٢) فى الأصل : منه

(١) فى الأصل : فيها

الله إلى أهله ، وعطف عليهم بفضله ، إذ أضيف إلى ما يلاحظه الأمير بعين إِيالته ، وينفى خله بفضله أصالته ، فلزمتني فروض شكر أسأل الله المعونة على أدائها ، والتوفيق لتحمل أعبائها ، ومن سرّ — أدام الله علو الأمير — في هذه الحال لنعم مستفادة ، ورُتب مزادة فسرورى لما أعلمه — أدام الله عزه — يكتسبه في كل عمل يدبره ، وأمر يقرره ، من أحدىة جميلة ، ومثوبة جزيلة ، ويؤثره من إحياء عدل وإماتة ظلم ، ونشر نصفة وطى غشم ، ورفق بضعيف ، وإغاثة للهيف ، وعمارة لسبل الخيرات ، وإيضاح لطرق المبرات ، فبارك الله للأمير في الأمر الذى عقده ، وأحمده إياه وأسعده ، وجعله موصولا من زكاء الولد ، ونماء العدد ، واتصال الحبل ، وتكثير النسل ، وعرفّه ، من يُمن ما بشره ، بتدبير الخير والخيرة ، والبركات الحاضرة والمنتظرة ، وجعل المناجح إليه أرسالا ، لاتملّ تواليا واتصالا ، وعين كلاءة الله ترعاها وتراعيها ، ويد حراسته تحفظها وتقيها ، إنه فعال لما يشاء ، فإن رأى أن يُصرّفنى على أمره ونهيه فعل إن شاء الله .

٩ — وله تهنئة بالوزارة إلى أبى الفتح بن أبى الفضل بن العميد

أنا أهنىء — أطل الله بقاء مولاي — الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها ، وبلوغها في ظله إرادتها ، وانحيازها إلى جنبته واضحة المجد والفخر ، وتوشحها من كفايته بغرة سائلة على وجه الدهر ، وأشكر له — أدام الله نعمته — حنوّه عليها ، وعطفه عنان الفكر إليها ، حتى قرت لديه قرارها ، وأثقت بيديه نارها ، بعد أن هفا قلبها إشفاقاً من استشراف أناسِ النقص لها ، وخرج صدرها من تحدث أحلاس الجمل بها .

ولا غرو فهي وليدة داره ، قد آلت لاتخطّ خطته ، وعاهدت لا برحت عرصته ، فالحمد لله الذى أقرّ عين الفضل ووطأ بها دار المجد وترك الحساد يتعثرون في ذبول الخيبة ، ويتسقطون في فصول الحسرة ، حمداً يديم أيام الأمير السيد ويطيل بقاءه ، ويحرس عزه وينصر لواءه ، فلقد شرح صدور الحاسن ، وشدّ ظهور الحامد ، بتفويض الصدر إلى من وليه بحقين : قديم وحديث ، وأوليه بفضلين : مكتسب وموروث ، لأن مولاي وإن كان بكفايته ، مستغنياً عن التعويل على أوليته ، فليس الاعتزاء إلى العميد — قدس الله روحه — ييسر فيُخفّر أمره ، ولا الانتماء إلى الأستاذ الرئيس — برّد الله ضريحه — بقليل

فيترك ذكره . هيات ! إن الرياسة خيِّمتَ ثمَّ متشبَّهةً بأعطافهم ، متنقلة في أكنافهم ،
حتى استكمل مولاي جلالها ، ووفَّاءها حظها وجمالها :

فلم تكُ تصلحُ إلا له ولم يكُ يصلحُ إلا لها

وفقه الله لطاعته التي هي أسعد متجر ، وأعظم مفخر ، ثم لطاعة ولي نعمته ، فهي حتم
لا يُرفع مكتوبه ، وفرض لا يُنسخ وجوبه ، ولقاء في نفسه الكريمة نجراً وطبعاً ، الشريفة
أصلاً وفرعاً ، أفضل سعادة قسمت لوالى عمل ، وأحضر بركة أسهمت لمسامى أمل ، بمنه .
أنا مستغن — أطال الله بقاء مولاي الأمير — عن أن أصف ما خصني من بهجة
هذه المنحة ، وخلص إليّ من جدّة هذه النعمة ، فإني والوزارة في خدمة الأستاذ الرئيس
أخوان ، وردناها^(١) جميعاً ، وورّثناها مولاي معاً ، غير أني قد جلوت من الشكر لله
ما رجوت أن يحميني مواقف الجحود ، ويؤذن مولاي بعوارف المزيد ، وصدّقت نذوراً
أسلفتها منذ مدة ، وأنجزت شروطاً قدمتها منذ برهة ، وآخر دعوای أن الحمد لله رب العالمين .

١٠ - وله تهنئة بمولود

من المواهب التي يجب على إشاعة ذكرها ، والإطناب في شكرها ، وارتياح نفوس
أولى الأخطار لها ، وانشرح صدور ذوى الأقدار بها ، موهبة كثرت محاسن الأرض ،
ووفّرت أعداد أبناء المجد ، وأطاعت مزيداً في نجوم السرور كالموهبة عندك يا مولاي ! —
أدام الله عزك — في الفارس الذي بسط البشر على وجوه الزمان ، وأرى الطلاقة في مطلع
الأيام ، وضاعف المسرة في قلوب الأودّاء ، وأهدى السكند لنفوس الأعداء . وإلى الله —
عز وجل — أرغب في تعريفكم معاشر سادتي وآبائه ، أعظم السعادات في طلوعه ونمائه ،
فإنكم أهل بيت تقوى بهم منن المكارم ، ويشتد فيهم أزر المحامد ، وتقر لهم أعين المحاسن ،
ومن هذا الذي لا يمتلى بهجة ولا تقصّ أعضاؤه غبطة ، وقد طلع في أفق الحرية أسعد
نجم ، ونجم في حدائق المروءة أزكى غصن . وأقول الحمد لله ، كلمة رضى الله تعالى بها من
خلقه على عظيم منّة ، وجسيم إحسانه وطوّله ، وأتبعها بالشكر لله استدامة للطيف صنعه ،

(١) في الأصل : وردناها .

واستزادةً من كريم فضله ، وأسأله — بعد الصلاة على النبي محمد وآله — أن يعمرك يا مولاي ! حتى ترى هذا الهلال قرأً باهرًا ، وبدراً زاهراً ، تكثر به عدة حَفَدَتِكَ ، وتعمم به غُصَّةُ حَسَدَتِكَ ، ثم تُهَنِّئاً في أسباطه بعد أولاده ، وتكفل الجميع على مرادك ومراده ، من حيث لا تهتدى النوائب إلى عراضكم ، ولا تطمع الحوادث في انتقاصكم ، والمسئول ، أكرم مأمول .

أنا أشكو — يا مولاي ! — تأخر المبشّر عنى مع المشاركة التى وكد الله أسبابها ، والمشابكة التى مهد أنسابها ، وقد كان يجوز أن يُحَسِّنَ الظن بمساهمتى ، ويُجَمِّلَ التقدير فى مخالصتى ، ولا أَحِلُّ بِمَنْزِلَةِ الْأَبَاعِدِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ ، وَأَقَابِلَ عَمَّا عِنْدِي مِنْ صِفَاءِ الْعَقِيدَةِ وَالسَّرِيرَةِ . وأعتذر من تأخرى للملازمتى المدينة ، على خدمة الحضرة الجليلة ، وأسأل تعريفى إسم الفتى — أيدى الله — وكنيته ، فقرة الفضل لا ينجى اسمها ، وقرحة الجذ لا يطوى ذكرها ، ولو ترك غفلاً لوسمته المفاخر ، وسَمَّتْهُ المناقب ، وقيل : هو الشعرى العبور والنجم الثاقب .

١١ — وله إلى أبى الفرج الحنات

وصل كتابك ياسيدى وولدى ! — أطال الله بقاءك — فأهدى مسرة طال بها العهد واشتد قبلها العتب ، وفككته عن التهنئة بهذه النعمة التى جلّت عن النعم ، ووسعت بفضلها كافة الأمم ، فلا فتح يُقَرَّنُ إليها مذ عرفت فتوح الأمصار ، ولا بشرى تقاس بها منذ رويت السير والأخبار ، منّا من الله أصفاه لمولانا الأمير المؤيد ، مؤيد الدولة — أغر الله نصره وأدام ملكه -- حتى أعلن كلمته ورفع حَكَمَتَهُ ، وأعلى يده وجنده ، وجمع أسباب السعادات عنده ، وعرف القريب والبعيد ، والضال والرشيد ، أنه راع دولته ^(١) ما اتصلت الأيام والليالى متوالية ، وحافظ رايته ما اعتقبت الظلم والأنوار متنافية ، والله منجز ميعاده ، ومسترع من يرتضيه عباده وبلاده .

وأما اعتباطك بما جدد الله من فضله ، ومنحنى من طوّله ، فجار مجرى المشاهد الذى

لا يقام عليه شهادة ، ولا يلتبس فيه أمانة ، إذ كنت آخذ بنصيبك في أبناء الدولة ، ثم مكانك مكان أخص الأولاد وأعز الإخوة ، بلى تعجبت من فصاحتك كما أعجبت ببلاغتك وتخیل إلى أن روح عبد الحميد انتقلت إليك ، وقرينة ذى الرياستين ^(١) خلعت عليك ، وخاطر الحسن بن سهل أعيد فيك ، وبديهة إسماعيل بن صبيح ^(٢) حُصِّلَتْ لك . وأرجو أن تكون قد اكتسبت من الفضل بعدنا ما أوجب هذه البراعة العجيبة والصناعة ، أو شاهدت ليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، فسألت أن يجعلك الله إمام الكتابة ، وزمام الخطابة ، فصعد الدعاء إلى الله سريعاً ، ونزات ^(٣) الإجابة تحمل من الله فضلاً وسيعاً ، فإن يكن ما أوُمل كما أوُمل ، فالحمد لله مؤتي الفضل من يشاء من عباده ! وإن يكن سقياك من غير غمامك ، وجِلاذك بغير حسامك ، فلا بأس قد يجيد الفارس الطعن برمح مستعار ، ولو شئت لقلت من ألقى النسخة إليك ، وأملأها على يديك ، فتعلم أن بجرجان قوماً يعرفون عيب أصبهان ، وهذا مزح ولكنه صدق ، وانبساط ولكن تأويله حق ، كفاني الله بُعْدك ، وأراني وجهك ، وسلم عليك وسلمك ، وأبقاك ما أحببت وأغنمك ، وحسبنا الله نعم الوكيل .

ليحيى البرمكي ثم الرشيد ثم ابنه الأمين
(٣) في الأصل : نزع

(١) هو الفضل بن سهل وزير المأمون وكان به
(٢) من جلة كتاب العصر العباسي ، كذا

الباب العاشر

فى التعازى

١ - كتاب تعزىة

سىدى يعرف من شروط الزمان وعاداته ، وشئون الدهر وتاراته ، ويخبر من شىمة الأيام فى تبعد القريبين ، وتفريق ذات البين ، ما يملك معه حلمه ، ويراجع له حزمه ، متى أتت الليالى بما تعاقبت القرون على مثله ، وأعيت الحيل دون دفعه . ولولا أن الحال الناظمة لنا تتصل باللحمة ، وترفع حجاب الحشمة ، لأوجب أدب التوقير فى بعض ما يقتضى تسلىة ، ويستدعى تعزىة ، فضل الانقباض عن الذكر ، والتعويل على مودع الصدر ، ولكن تجاوز المودة الصادقة ، إلى الأسباب المتلاحقة ، يجرى مجرى النفس الواحدة ، فى المسرة إذا اتفقت ، والمساءة إذا طرقت .

و بلغنى من خبر المفقوده السعيدة ، أحسن الله منقلبها ، ورفع مع الصالحات رتبها^(١) ، فكان جزعى عليها جزع المرء على كريم الأمهات ، وعقائل العمات ، وشاركت سىدى فى الوحشة مشاركة من لا يتميز فى منحه ومحنه ، ولم أطل فى الإبانة عن صورتى علما بما يتمثله منى قبل التمثيل ، ويتيقنه عندى أمام التطويل ، فلاضماثر السنة ناطقة ، وعبارة سابقة وسىدى أصدق رأياً ، وأثبت قلباً ، وأحضر عزماً ، وأجمع لباً ، من أن يكفَّ عن الجزع بلطيف التذكير ، ويصدّ عن القلق بحسن التبصير ، فأطال الله مدته ، وحفظ مهجته ، وحرّم على الحوادث أعزّته ، وجعل ماعرض خاتمة الرزايا قبله ، وبلغه فى دينه ودنياه أمله

وكان فى الحق إذ تعذرت حال المشافهة ألا أقصر فى التعزىة على المكاتبة ، حتى أصدر أوجه كتابى ، وأنبئة أصحابى ، ولكنى عرفت ما فى التخفيف فأثرته ، واقتصرت على هذا الخطاب فأصدرته . وسىدى يعرفنى ماأناه الله من التوفيق الكريم ، فى جميل العزاء وحميد التسليم ، لأنصبه حيال طرفى ، وأجعله مثال فعلى .

٢ — ولله

أنت — يا شيخى — أثبت عقلا ودينًا ، وأحضر فضلا ويقينًا ، من أن تتصدى لما يولى الله من نعمة إلا تصدى الشاكر ، وتتلقى ما يُبلى الله من محنة إلا تلقى الصابر . ذلك هو الهدى الصالح ، والمتجر الرابع ، وعنده تحصل مرضاة الله فتكثر الحسنات ، وتتبع إرادة الله فتكفر السيئات .

وعرفت ما أزعجك ، أيدك الله ، من الفجيعة فى قرين الخير — جعل الله المنقول إليه خيراً له من المنقول عنه — فسأنى ذلك لا تسخطا لقدرك الله وهو عدل ، ولا تكرها لقضاء الله وهو فصل ، بل لما علمته يصل إليكم ، أيد الله الجماعة ، من جزع لا تخلو منه قلوب البشر عند طروق الثوب .

وشاهدت من انزعاج فلان مازاد فى الوجوم زيادةً قُربه إلى ، وتقدمه أهل الخصوص لدى ، ولك^(١) فى بقاءه مع إيفائه على أ كفاؤه ماسدٌ ثلم الرزية ، وأغنى عن إطالة التعزية ، وقد أطلت عند ركوبى إليه وعظه ، وأذكرته فى التسليم لله حظه ، جبر الله مصابكم وقد فعل ، وألهمكم التسليم لما حكم به فعدل .

٣ — والله

كتابى ، والأمور بالحضرة العالية ، وهذه الحضرة البهية ، مستقرة على ما عود الله فيها وأسعد من مجاريها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
وتهيبُ الأَكابر — أدام الله تأييد الأمير — فرض وكيد ، وحتم على من ألقى السمع وهو شهيد ، ومن قضاية الانقباض عن الإكثار ، عند حوادث الأقدار ، إجلالا ، والاقتصار على الدعاء بكرةً وأصالا ، لتحصل مزية التقرب ، ولا تُغفل قضية التهيب .

ولما عرّض بحضرته — أجلها الله — ما أوجب التسلية عن السعيدة رحمها الله ، فرغت من المطالعة بالتعزية إلى مواصلة الأدعية ، فأطال الله بقاء الأمير مسرورا غير مهموم ، وموفورا غير مثلوم ، وكتب له عن أجر ما قدره وأجراه ، واقتضاه وقضاه ، أفضل ما كتبه

(١) فى الأصل : وذلك .

لمن سلم له تعالى أمره وحكمه ، ولم يتسخط قدّره وحتمه ، وورّثه الله عمر من قدمه ، وغفر لمن اختار له جواره واستقدمه ، وما أذكّر ما مسنى في هذه الحال ، ذهاباً مع فريضة الإكبار والإجلال .

٤ - وله

ورد كتاب مولاي بذكر مضى فلان ، فوجدت نفسى كالمصاب بنجيب من أبنائه ، أو عزيز من أعضائه ، وورد على قلبى ما غشاه كرباً يتعذر دواؤه ، ويتعسر جلاؤه ، فما أدري بعد هذا ما أكتب وما أقول ، وكيف يُدَمُّ هذا الزمان الخوون ، ولكنى أنشد : (ما أعلم الدهر بمن أحب) : وأردّد :

هذا الزمانُ يسوءنى نجما بكل خليل
فكانه يمضى إلى ما ساءنى بدليل

والله أسأل أن يطهرنا للقائه ، فكلّ — لا بد — وارد هذا الحوض ، وإن مدّ في أجله وأخّر في مهله ، ونعوذ بالله من طول الآمال وقصر الآجال ، وشرور النفوس وسيات الأعمال ، ورحم الله فلانا فلقد كان قليل النظير في أشكاله ، بل عديم المثل في أمثاله . وسأكتب إلى فلان معزيا ، وإن لم أجده أولى منى بالفجعة ، فإخاء المودة الخالصة فوق الرحم الماسة .

٥ - وله

كتابى — يا أخى ! — وأنا لا أعلم أعزّيك أم نفسى ، فليس المصاب عندك بأعظم منه عندى ، لأن فلانا وإن كان أخاك ميلاداً ، فقد كان أخى إخلاصاً ووداداً ، وإن فجعت به وفقدت كبيراً يُعوّز البدل منه ، فقد رزئتُه فعدمت أثيراً يُعوّز العوض عنه .
وقد مضى لى أقارب ، ضمتهم إلى المناسب ، فلا أذكر نجية بهم أخذت مأخذ هذه من صدرى ، وأثرت تأثيرها فى صبرى ، وما أرضى خاطرى — مع استيلاء القلق واستعلاء الجزع — لإطالة الكتاب ، والإبانة عن قدر الاكتئاب ، فرحم الله فلانا رَحْمَتَهُ أوليائه ، وأجزل فى أكرم داريه جزاءه ، وعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل تطهيرنا لما نترقبه ، فهذه آجال — لا بد — متناهية ، وإنما هى آماد دانية ، وأخّر متراخية .

ومخاطبتى لك تنظمك وسائر الإخوة والولد ، والله يجبر كسرکم ، ويوفر أجرکم ، ويلهمکم فضل التسليم ، ويحرسکم عن الإصرار والتصميم ، وأنا لکم ولفلان^(١) ، رحمه الله وأعزکم ، كما تأملون ، وأزید مما تحاولون ، بل يتضاعف اشتاى واهتماى بفقد من فقدتم ، وتجدون شفقتى وإيثارى أين أردتم . وفلان ينوب عنى فى صغير مهمکم وكبيره ، وقليل أمرکم وكثيره ، فعرفونى ما يهدى الله إليکم من رُوح تسليته وحسن الانقياد بمشيئته ، إن شاء الله .

٦ — ول —

قاضى القضاة الأجل — أطال الله بقاءه وأحسن عزاءه — يعرف من وجوه حكم الله فى عباده ، ونفوذ مشيئته فى أنواع مراده ما يدعوه إلى التسليم إذا أتته نائبة تزعج فكره ، ويحدوه على الصبر الجميل إذا اعترته حادثة تخرج صدره ، ويحرسه عن التناهى فى الجزع إلى ما يحظره الدين ولا يسوغه ، وينازع القليل البصيرة فيبلغه .

وإن امرأً علم أن الإحياء والإماتة يجريان بأمر من لا يتهم عدله ، ولا يصدر إلا عن الحكمة فعله ، خلّيق بأن يقدّم الصبر والاسترجاع ، ويؤخر التفجع والالتياح ، فكلنا عوارى بعرض الاقتضاء ، وأغراض لأسهم القضاء ، والله يوفقنا للقائه ، ويجعلنا من الصابرين لبلائه ، إنه رؤوف بعباده لطيف .

وبلغنى نفوذ قضاء الله فى الخال — رحمه الله — فشاركت أقضى القضاة فيما مسّ قلبه ، وساهمت فيما تحيّف صبره ، وتصورت استيحاشه — كان — منه فازددت استيحاشاً لانتهاه أحله ، وانقضاء مهله . على أن أيام العمر ، وساعات الدهر ، كمراحل معدودة ، إلى وجهة مقصودة ، فلا بد مع سلوكها من انقضائها ، وبلوغ الغاية عند انتهائها ، والله يغفر للعتوّى ويرحمه ، ويحرس قاضى القضاة ولا يثلمه ، ويصونه فى نفسه وسائر أعزته وأهله بلطفه ، وعطفه .

وقاضى القضاة — أدام الله تأييده — يمدنى بذكر ما يستحضره من عزيمة ، تغلّ غرب المصيبة ، وتقوى نفس ابن الخال — أعزّه الله ورحم أباه — بنصبه منصبه وإجرائه مجراه ، ليتدارك ما ضعف من مُنته^(٢) ، ويتماسك ما خار^(٣) من قوته ، إن شاء الله .

(٣) فى الأصل : خامر

(١) فى الأصل هكذا : ولسان .

(٢) فى الأصل : منيته

٧ - وله

للفجائع ، يا شيخى — أطال الله بقاءك — اختلافُ مواقع ، والمصائبُ تباينُ مراتب ،
ومن أشدها لذعا ، وأعظمها وقماً ، فجئمة أخرجت صدور قوم مؤمنين ، ومصيبة خصت العلم
والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبى عثمان — رحمه الله وأكرم ماواه ومثواه — فقد
كان للإسلام جمالاً ممتداً ، وللدين ركناً مشتداً ، وللعلم شهاباً لا يخبو ، وللأدب سهماً لا ينبو ،
يذنبُ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه فى الله لومة لأثم . عاش عظيم الخطر ، ومات جميل
الأثر . التقوى شعاره ، واليقين دثاره ، وحجج الله مفرَّعه ، وآيات الله مَرَجِعه ، فياله مصابا
ما أعظمه على الموحدين ، وأمره إلى الملحدين ، أذكركنا فقد الإئمة الأبرار ، وأعلام الأمة
الأخيار ، ونقول — كما أدبنا الذكركر الحكيم — إنا لله وإنا إليه راجعون . ونسأل الله العدل
فى قضائه ، الرحيم بأوليائه ، أن يتغمد الماضى بغفرانه ، ويُفسيح له فى رضوانه ، ويجزل حظَّه
من حسناته ، ويرفع درجاته فى جناته ، فلقد كانت واسع الخطيرة ، نقيّ السريرة ، قوى
البصيرة ، لا تتغير به فى خشية الله عادة ، ولا تملكه فى مخافة الله هوادة ، ولولا أن الموت
طريق يسلكه البرىء والسقيم ، ومشرع يردّه البرّ والأثم ، لما انشرح بالعزاء صدر ،
ولا نُحبّ مع البلاء صبر ، غير أنها سنة الله فى أنبيائه — صلوات الله عليهم — وأوليائه ،
يُقيمهم ما كان البقاء أعمر لمكانهم ، ويتوفاهم إذا كانت الوفاة أصلح لأديانهم ، وإن نشمت
ملحد فى كلمة الله ، ومعترض لنقمة الله ، فتلك عادة من خيم على قلبه وسمعه ، فى الشماتة بالمؤمنين
وما يحل بهم .

كتب بعض الثنوية إلى موافق له فى ضلالته ، مطابق له على جهالته : كتابى وقد
وهى عمود الإسلام ، وانقضت دولة الكلام ، وشاخ أبو الهذيل ومات النظام ، فأبى الله
إلا أن جعل من أخلافهم من صدع بالحق ، وذبح عن حوزة الصدق ، فاعلم يا أخى — أدام
الله عزك — أن أبا عثمان ، رحمة الله عليه ، وإن كان لك أبا ، فقد كان لى عمّاً حديباً ،
وأخا فى دين الله منتجباً ، ما وزنت به أحداً قط إلا رجح ، ولا أنهضته لمسعاة فضل إلا أنجح ،
وقضى نحبّه ، لما أنزل الله أمره ، فسنى من ألم المصيبة ما أجرى الدمع ، وشغل الذرع ، وأنفذ

ذخيرة التماسك ، وكاد يغرى بقبح التهالك ، لولا التأسي المكتوب ، والتعزى المفروض ،
والتسلى المحتوم ، فإن كنت فقدت منه — قدس الله روحه — شخصه ، فما فقدت مع اهتمامي
إشفاقه وبره ، وحنوه وفضله ، وستجد ، إن شاء الله ، عندي من الإكرام لك والرفع منك ،
والبسط من جاهك ، ما يُخوِّج كثيراً من الناس إليك حاجتهم إلى الشيخ ، رحمه الله ، قبلك .
وقد خاطبت في حاضر الوقت مولاي أبا العباس ، أدام الله تأييده ، في ذلك بما يصير
عنوان رأيي فيك ، ورعايتي لدواعيك ، وإن كان هو — أدام الله عزه — بفضل
وعقله ، من الاهتمام بالدين وأهله ، على حال تغنى عن البحث ، وتجزىء دون الحث ،
فادّرع — أيدك الله — التسليم لما قضى الله وأمضى ، وتلقّ حكمه بحسن الصبر والرضا ،
فلولا استئثار الوفاة بالآباء ، لما علت درجات الأبناء . وعرفني ما تُوفّق له ، ثم كاتبني في
حاجاتك خصوصاً ، وحاجات كل متوسل بك ومتقرب إليك عموماً ، فسيأتيك من الجواب
والإيجاب ما يزيد على العادة المألوفة ، والخليقة المشهودة أيام أبيك ، أحسن الله خلافته فيك ،
إن شاء الله .

٨ - وله

هو الدهر — يا شيخى وكبرى ! — فلا تعجب من طوارقه ، ولا تنكر هجوم بوائقه ،
عطاؤه في ضمان الارتجاع ، وجباؤه في قران الانتزاع ، بينا يمنح المرء حتى يسلب ، وبينما يعطى
حتى يحرب . والليبب يستشعر الفجعة ، حين يولى الوديعة ، ويتمثل الفقدان ، ساعة يصفاح
الوجدان ، علماً بأن الله تعالى جعل الدار دار امتحان لا دار مقام . وبلغنى من مضى الفتى —
قدس الله روحه وبرّد ضريحه — على حين أملت له لأحوال ، ورجوته لكفاية واستقلال ،
ما أجرى الدمع ، وأعظم الفجع .

ولم أدر أأتصور^(١) حاله ؛ وقد اختُصِرَ شبابه ، وتقطعت أسبابه ، ولم تُغنِ عنه طراوته ،
في العيون وحلاوته ، وعزّه على العشيرة ، وكثرة الحامين له دون العظيمة ، فلا يملك عن
روحه دفعاً ، ولا يستطيع للحتم ردّاً بنفسه ولا بذويه ، أم حالك وقد أخذَ عن عينك قرتها ،

(١) في الأصل : أنصور بهمة واحدة .

وعن نفسك ثمرتها ، وعن دنياك حسناتها ، وعن منك غايتها ، فلا القلق ينفع ، ولا الحيلة تدفع ، ولا الفدية تُقبل ، ولا البلية تُتمهل ، وكل ذلك يزيد المؤمنين إيماناً ، والموقنين إيقاناً ، فَيَعْلَمُ أن الأمر كله لمن يَغلب ؛ ولا يُغلب ، وكيفما شاء يفعل ويقلب ، إلا أن الأرضى خليقة ، والأهدى طريقة ، من علم أن اللطيف الرؤوف لا يعطى إلا إذا كان العطاء أربح ، ولا يأخذ إلا إذا كان الأخذ أصلح ، وابنك وإن كان طهراً ، فقد عاد أجراً ، وإن كان فحراً ، فقد رجع ذخراً ، فأحسن العزاء وأجل الرُّجْمَى ، فما عند الله خير وأبقى .

وأعلم أن الناس قبلك فجعوا فجزعوا ، ودُّهُوا فدلَّهُوا ، ثم لم يردَّ التسلب من مات ، ولم يَرْجع التهلك كلَّ من فات ، فعادوا إلى التسليم ، وفوضوا إلى القادر الحكيم ، وإن المرء ليقدم السلوة فيجبر مصابه ، كما يؤخرها فيحبط ثوابه . أخذ الله بك إلى ما هو أولى بسنك ودينك ، وحسن عقيدتك ويقينك . أُحِبَّ أن تعرفني خبرك في التفويض إلى الله ، فإن الرزء ما كان أقطع ، كان العوض أوسع ، وأنت وإن احتجت إلى الأولاد فحاجتك العظمى إلى حسن المعاد ، والله أسأل لك ولنفسى التوفيق والتسديد ، إنه فعال لما يريد .

٩ — و —

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ، وكذا — أطل الله بقاء مولاي — فلتتقطع على أبى القاسم ، برّد الله مضجعه ، الأ كبادُ والقلوب ، وتنساقط الأعضاء والنفوس ، وعند هذا الرزء فليحسن اطراح الصبر ، وليقبح التمسك بأسباب الحزم ، فوالله على أن بقينا بعد مارزئنا حتى ننشأ كى القلق ، ووا أسفاه على أن حيننا بعد ما ذهبنا حتى نتواصف الجزع ، وليت المنايا قدمت منا من آخرت ، قبل أن أقدمت على من تخيرت ، ويا حزنه على أن لا نملك الأعمار فنتبرأ منها إذ أنى ما لا يطاق ، ولا نخير فى الآجال فنتفصى عنها إذ دها ما لا يستطاع ، وليت الخطوب إذ أقبلت جاءت بما كانت الأفهام تجوزّه ، والصروف إذ تمكنت هجمت بما كانت الأفكار تحطّره ، بل جرى المقدار على ما لم يقدر ، وتجراً الزمان على ما لم يتخيل ، فما أقبح العيش من بعده ، وما أنكد العمر مع فقدّه ، أظلم

ما أشاهده وقد سخنت العيون ، أم حقٌّ ما أرى وقد طرقت المنون ؟ فيا لها نجمة بأكرم مقبوض ما أنكأها في الصدر ، ورزيلة بأنفس مفقود ما أقصمها للظهر .

كتبت — أطال الله بقاء مولاي — وحالى حال من كانت له بالأمس يد عالية فسلبها ، ونفس سامية فحُرِّبها ، فهل في الخلق أخسر صفقة ممن دفن يده بيده ، وأهدى نفسه للملحده ، وهل في الخلق أعظم كربة ممن رأى سيده يجود بروحه ، وولده يقضى حتف أنفه ، ورام أن تُقبل فدية من قبله ، فدفع القضاء في صدره ، وتركه مفرداً بيته ، فلا عزاء مريح ، ولا فناء سريح .

وأدع وصف ما لقيت وألقى ، وأعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وأقول : ياسوء صباح أتى مولاي فيه الخبر فرأى الرجاء وقد انقطع ، وأصمّ الناعى وقد أسمع ، ليت شعرى ماذا يصنع ! وإلام يفزع ، وأى تجلد يجد ، وعلى أى سلوان يعتمد ؛ وكيف يستقر على الأرض وفلذته في بطنها ، ويراجع الأيام ومهجته في كفها .

قد قلت يسيراً ، وأخرت كثيراً ، ولا بد من الرجوع إلى الله عز اسمه ، ولا مهرب من الأخذ بأدب الله ، تعالى ذكره ، وسيكثر في مجلسه عدد المعزّين ، وتطول بحضرته خُطب المسلمين ، لكنى أقتصر على فصل أحسبه أوقع ما يذكر ، وأظنه أنجع ما يورد : مولاي يتدين^(١) بتعديل ربه ، ويعرف موقع اللطف في صنعه ، ولا يشك في اقتران الصلاح بفعله . وترك^(٢) التسليم اعتراض على حكمه ، وارتباب بعدله ، وقد نزه الله قدره عن أن يقول مالكة : دبرت فتسخط ما قضيت ، وحكمت فتكره ما أمضيت ، حاش لله ! فما مولاي ممن يدع تذكر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا وعليه من سادتي أبى الحسن وإخوته نعم تستحفظ بحسن التماسك ، ومنح تستبقي بترك التهالك ، والله يغفر لتلك النفس الزكية مغفرة تحتفُّ بالروح والسلام ، وتفسح له في دار المقام ، ويعظم لمولاي من الذخر ، وجزيل المثوبة والأجر ، بعدد محاسن من فقد ، ومحامد من عدم ، ويبقيه موفوراً في أعزته ، محوطاً في نعمته ، لاتهم النوائب ، بعد ما اجتاحت ، بفنائه ، ولا تتعرف المصائب ، بعد ما أتت ، إلى أفيائه ، آمين ، اللهم اسمع واستجب .

(١) في الأصل هكذا : مدبل .

(٢) في الأصل : ترك بدون واو .

٦٠— وله إلى أبي القاسم على بن أحمد الحرأويني^(١) يعزیه بابنه

إذا شاركك ياسیدی — أطال الله لقاءك — فی الرزبة ، فكيف أخاطبك بالنعزية ،
إلا على رسم من الناس معهود ، وطريق فی التخاطب مهود ، وأنت وإن لحقك على ذلك
الفتى — رحمه الله — وجد الأباء وما ينالهم فی فقد الأبناء ، فقد كنت أقسم له إشفاق
الأولاد ، وألصقه بالنفس إصاق الأكباد . لا جرم أنه بذه قلبی من خبر نعيمه ماملأ
الصدر ناراً ، وأنفق الصبر إسرافاً ، لولا فكري فی أن الله تعالى وإن امتحن بالبلية ، فقد
أحسن فی البقية ، حراسة لك فی مهجته ، وسائر أعزتك ، مد الله فی عمرک وأعمارهم ، ونقل
النوائب عن جوارک وجوارهم ، والدنيا مصحوبة على شرط العطاء والارتجاع ، والهباء
والانتزاع ، وليس الجزع برادر من خيم عمره ، ولا القلق بمفيد من تنامي أمره ، فاستغش
نوب الصبر فإنه أستر ، واستجزل حظ الأجر فإنه أوفر ، وسلم لأمر الله فإنه فضل ، وارض
بحكمه فإنه عدل ، وطالعني بما توفق لك ، لأوافق رأيك فيه ، فإني إلى حيز الناسي أحوج ،
وإن كنت بالبعث على التسلي أنطق ، والسلام .

وله أبيات

يا أصهانُ سقيتِ الغيثَ عن كُثْبِ	فأنتِ مجمعُ أوطارى وأوطانى
والله والله ما أنسيتُ بركِ بى	ولو تمكَّنت من أقصى خراسانِ
يا حبذا أرضها ، والشملُ مجتمِعُ	والدهرُ ما خلتى فى حزبِ إخوانى
ذكرت ديمرتَ ^(٢) إذ طاب الغناء بها	يا بُمدَ ديمرتَ من أبوابِ جرجانِ

١١ — وله تعزية فى أبى محمد يحيى بن محمد بن زيادة العلوى

كتبت ويا ليتنى ما كتبت فإني ناعٍ الفضل من أقطاره ، وداعٍ^(٣) المجد إلى شق ثوبه
وصداره ، ونخبز بأن شمس الشرف كاسفة ، وأرض السكرم راجفة ، والمحاسن منقضية ،
والمناقب مودية ، والمآثر مودعة ، وبقايا النبوة مرتفعة ، وآمال الأمامة منقطعة ، وأن العترة

(٣) فى الأصل : وداع .

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) ديمرت : من نواحى أصهان .

تندب وارث شرفها ، وتبكي حافظ كنفها ، والمروءة قد تضيّف نهارها للغروب ، وآذنت شمسها بالوجوب ، والدين منخزل واجم ، وللتقوى دمعان : هام وساجم ، والسباحة تشكو إلى السباحة بثّها وحزنها ، وتصف كيف أوهت الفجیعة أزرها ومنتها ، والأدب منزو إلى جانب مهجور ، ومعصمٌ بدمعه^(١) مستسلمٌ مقهور^(٢) ، والحلم قائلٌ : لا طود بعد الذى ترزعزع ، ولا ركن بعد الذى تضعضع ، فأما قرى الأضياف فقد شمت به البخل واستولى على طرفه الذل ، وجلّ الكسوف جوانب هالته ، ونادى الشحُّ فوق دارته ، فلا نار ترفع للضيغان ، ولا أجفان تقع على الجفان ، ولا هُدأة للركب ولا حُدأة ، ولا نصفاً ولا طهاة . وأما الجاه وبذله لمرمل^(٣) واقف حتى يهبّ عليه نسيم الثروة ، وعائذ حتى يُكفى مساس الخلّة ، وحائر حتى يأمن استمرار النكبة ، ولهان حتى ترزّخَ عنه عُشواء الحيرة ، فهيات هيات ! مرّة والله صاحبه ، وقام ناديه ، واضطربت أسبابه ، وقيل ذهب فكيف كان ذهابه . وأما الرأى يُعْمَلُ جليله ودقيقه ، ويستطاع تصميمه وتحقيقه ، حتى يُكاد العدو وهو غارٌّ غافل ، ويَقْتَلِ الحسود وهو قارٌّ^(٤) ذاهل ، فأمرٌ حمّ حامه ، وانقضت أيامه ، وسُلم عليه وأُسلم ليديه .

فإن يقل متبرّمٌ بما قلت ، أو متضجر وقد أطلت : من المندوبُ لنعرفه ، ومن المفقودُ لنعلمه ، ومن الذى هذه أوصافه ، فقد تراخى تبينه ، وتمادى تعينه ، أقلُّ حاشاه أن يعرف باسمه ونعوته دون جلّاه ، أو يسميه غير مكارمه وعُلاه ، نم سأكنيه ونم المُكَنَّى ، وأسميه ونم المسمّى : ذلك الشريف السيد بالإطلاق ، العفيف بالاتفاق ، الكريم بالإجماع والإصفاق ، السجّيح الأعراق ، شريف خراسان ومنظور العراق ، أبو محمد يحيى بن محمد العلوى — قدس الله روحه — وقد فعل ، ولقّاه ماقدّم وعمل ، عاش^(٥) بين دين يحميه ، وخير ينميه ، وعلم يَقْتَنِيهِ ، ومجد يَبْتَنِيهِ ، وإحسان يوليه . ساعاته برٌّ ، ونظرته بشر ، وداره ندوة العلم والبذل ، واستقراره على قمة العلياء والفخر ، كأن الشعْرَى علقت بين عينيه تلعب للمنجد والغائر ، وتهدى ساريا إلى سائر .

(٤) فى الأصل : مار

(٥) فى الأصل : وعاش بزيادة واو .

(١) فى الأصل : بدمه

(٢) فى الأصل : معمور .

(٣) فى الأصل : للمرمل

ألا فليكنه الشبان والشيب ، والبعيد والقريب ، والقاطن والغريب ، والعالم والأديب
والسائل والمعتاف ، ومن ضمّه الأوساط والأطراف ، بلى ^(١) فليكنه المعروف والمحصّب ومنّى
والمشعر والبيت العتيق المعظم ، والركن والحطيم وزمزم ، أليس بالأمس اجتمع وفدُ الله في
حرمة ومهبط وخيه وأوّل رسله ، ومقام خليله ، ومضجع ذبيحه ، ومولد حبيبه صلى الله
عليه وعلى إبراهيم وعلى آلهما أجمعين ، فلما درى يمان ومُغرق وتهام ، وفصيح وأعجم ومبين ،
أن هذا الشريف محاضر الموسم تطابقوا على أن يصلى بهم إماما ، ويتخذ من مقام إبراهيم
مقاماً ، فأقام عدة صلوات رفعها الملائكة البررة ، والأرواح السّفّرة ، إلى حيث البيت
المعمور ، واللوح المحفوظ ، ذخيرة إلى يوم نشر الصحف ، وتطايير الكتب ، يوم العرض ،
ويوم ردّ القرض ، فإذا تصعّح أبوه رسول الله صلى الله عليه وعلى ذريته الهادية ، وعترته
الزّاكية ، وجوه نبيه وأقربيه ، كان هذا الآن — إن شاء الله — من النجباء السعداء ،
نم وفي جملة الشهداء ، والأثر المقبول شهيد ، بأن المقبوض غريباً شهيد .

لم أفتح كنانى وأنا واثق بأن لسانى ينطق بـحيث ينطلق ، وأن بنائى بحيث يسترسل
مع حالى فى الوجوم الذى رأى بَرَى الأَخِلَّة ، وقصّنى نقص الأَهْلَة ، وتركنى حَرَضاً ،
وأوسعنى مرضاً ، وعادرنى والخيالُ أ كَشَفُ منى جَنَّة ، والطيفُ أوفرُ منى قوّة ، ولكن
فضائل المفقود — رحمه الله — تمثلت لعينى فاستعبرت من غمرها ، واغترفت من بحرها ،
واستقت من سيلها ، واهتدت بقمر ليلها ، وهى التى لو تعاطت الخرسُ الخبرَ عنها لعادوا
بالسنة طوال حداد ، وعوارض صلاب شداد ، يَسِمُونَ جباه المنابر ، وَيَشْحَنُونَ صدور
المحاضر ، وإعما أردت — وقد اقتضبت الخطاب — أن أقيم للشريف رسماً فى التسلية ،
وحكماً فى التعزية ، وأين السلوانُ منى أو منه ، يابُئِدَ ما بيننا وبين الصبر ، وقد رُمينا بواحدة
الفجائع ، وواسطة المصائب ، وفادحة الفوادح ، وقادحة القوادح .

ولولا أن حالى فيما نالنى هَضٌّ وهاض ، وأطال الانخزال والانخفاض ، ولم يرض بأن
فضّ الأعضاء ، حتى أفاض الدماء ، ونتائجهُ أمراضٌ تركت جسمى لحما على وضْم ؛ وأَعْلَلْتُ
أَسْلَمْنى عَلاَ منها إلى سهل ، وأنا منذ مضى ذلك الطود الأشم ، ومال ذلك الجبل الأصم ،

(١) فى الأصل : وعلى أن يبك .

وَقَدْ^(١)، كاد الدهر يحني على عواده، ويحني ثمره اليأس فيه، لولا أن الله تعالى من بلطفه من لطائفه، وجعل هبة الروح عارفة من عوارفه، لاحتجت في الإبانة عن صورتى إلى قول لا يلتقى طرفاه أو يلتقى الجبلان، ويفترق الملوان. ولعل سامعاً ما أقول لم تصور له شيعتى، ولم تتمثل له في نفسه همتى، يظننى كمن سبق^(٢) أو لحق من أبناء الكتابة، وآباء الخطابة أحق الأمر جذباً بضبع البلاغة، ورفعاً من طرف الفصاحة، وقد زهني الله تعالى عن هذا الظن، فإني — منذ كنت — أستهين بشرار الدهر حتى أراه مسكيناً، ويرانى مستكيناً، وأعدده ضعيف الكيد، ويعتدنى قوى الأيد، لا تطمع مساره منى في اهتزاز، ولا مضاره في استفرار، إلا أن هذه النازلة خصوصاً ثبتت لى، فطامنت من طاحى ماشاءت، وأجاءتنى إلى أضيق المنافذ وقد جاءت.

وكان الداعى الأقوى إلى مأمئيت به منه بسم الأرقم، وجرعت فيه طم العلم، أن الشريف — أكرم الله مثواه — لما قضى حجه الذى تجشم له أصعب الطرق، وركب إليه أبعد السبل، والتزم عنه أثقل الكلف، وجدد به أشرف القرب، واستوجب عنه أقرب الزلف، عدل إلى قبل^(٣) وطنه ووطره، وولده وبلده، وطلع — رضى الله عنه — كطلعة الرضوان وترعة^(٤) الجنان، وقد زادت معاليه فصفا على طول العمر، صفاء التبر على مثبت الجمر، وشهدته فرايته قد أخذ من وقار النبوة بقدر إرثه، وازداد تواضعا أفاضته سماوة غزه، وعادت صحيفته بيضاء نقية كصدره، ولذلنا العيش وطاب، وولى رقيب النعم وغاب، ونحن لا نعلم ما الذى تجنّه ضمائر الغيب، والذى خبأته المقادير لأبى خبيب.

فبينما نحن فى أنسٍ ونعيم، وخير ناضر مقيم، نُصبح على مذاكرة بأصناف العلوم، ونمسي على جدال بين خصوم ليسوا بخصوم، إذ مرض — قدس الله روحه — فلحقنا روعة، وملكتنا لوعة، ثم أبل — رحمه الله — فانشرح الصدر، وركب فشمّل السرور، ونذرت على صحته النذور، ثم أبى الزمان إلا نكدًا، وأن يترك شمل الفتى طرائق قَدَدًا، ونكس فنكست الرؤوس، وزهقت النفوس، وأشعرت الصدور مخافة،

(٣) فى الأصل : ما قبل .

(٤) التروة : الروضة فى مكان مرتفع .

(١) فى الأصل : وفند .

(٢) فى الأصل : سبقه .

وملئت القلوب كآبة ، ونحن مع ذلك على طمع ، ينهض على ظلّع ، فلما كُتبت له سعادة المحتضر ، وانتهى به العمر إلى الأجل المنتظر ، نعمة السماء صائحة ، والأرض نائحة ، ولحقت الناس دهشة عمياء ، وغشيتهم خُطّة صماء ، وانقبضت للهجات عن القول ولم يرشخوص^(١) قوم تشخص إلى قوم .

ثم انبعثت الأحزان والهموم ، وانطلقت الألسن والعيون فلا تسمع إلا أنه أورنة ، وإلا نشيجاً أو زفرة ، ولا ترى إلا صارخاً أو صارخة ، وشادخاً بالدم في وجهه أو شادخة ، كأننا نرى رسول الله قد احتضر ثم قبض ، وأمير المؤمنين عليه السلام قد طُعن ثم احتمل ؛ أو كأننا بالطّف^(٢) نشاهد تلك الأجسام العظيمة كيف تذال وتبتذل ، وتلك الدماء الكريمة كيف تراق ، فالدينا دماء ، والخضراء غبراء ، والأصابع تشير إلى علماً بأننى أعظم الحاضرين اكتئاباً ، وأكثرهم مصاباً ، وأقلهم اضطراباً ، وأشدّهم جزعاً مثاراً ، أو صبراً مطاراً ، وقد زمت نفسى زمّ السكينة ، لو لم تنطق الدموع بلسان النجعة .

وحضرنا المعزّى ، فإذا اليوم يوم [أيوم] ، وذلك الشقّ شقّ مظلم ، ولم أذكر كيف السبيل وقد علت الأزمات^(٣) على الأبواب ، وامتنع جانب التسليم والاحتساب ، ففرغت إلى كتاب الله عند اشتداد الفزع وامتداد الجزع ، وأمرت القراءة بتناوب التلاوة ، فهذا الناس إعظاماً لكلام رب العالمين ، يسمعون له منصتين إلى أن قيل : قد جهّز ذلك الشخص الزكى ، والسيد النبوى . وأقبل به وقد ركب الأعناق ، بعد العتاق ، وعلا الأحياد ، بعد الجياد ، وفاح فتيت المسك من مآثره ، كما كان يفوح من مجامره ، وقام الناس له كقيامهم — كان — إليه ، واصطفوا للصلاة عليه^(٤) اصطفاهم للسلام عليه ، وصلى الله عليه برحمته ، وملائكته بأذنه ومشيتته ، والخلائق أفواجا بعد أفواج ، وبحوراً ترمى بالأمواج ، ولا موج إلا حلبُ العيون والأحداق ، ودمع كالدّم المهرق ، فلم يمر سريره بأرض إلا ودّت لو حطّ عندها ، وأودع نبيها ، لتسمو على جاراتها ، وتعد ثانية طيبة في طيب التربة^(٥) ، وثالثة الغريين^(٦) ،

(٤) أصل الجملة : واصطفوا للصلاة اصطفاهم للصلاة عليه وحذفنا اصطفاهم للصلاة ليستقيم السياق . (٥) في الأصل : الترب . (٦) الغريان : بناءان بظاهر الكوفة قرب قبر على .

(١) الشخص جمع شخص وهنا معناه سواد العين . (٢) الطّف : المكان الذى قتل فيه الحسين بقرب الكوفة . (٣) في الأصل هكذا : الارباب بدون نقط .

والحائزة علماً أخواتها في شرف الرتبة ، فحسبنا البلاد تتجاذب وتنتضل ، وتتفاير وتقتتل ، وأبى الله إلا أن يكون ثوابه حيث اختار له بل اختار لجأوريه وزائريه ، ويُسعد به وارديه وصادريه ؛ فهناك ينزل الرضوان ، وتَمَّ تهبط الجنان .

لقد فارق والله أحياء نيسابور رجل فيه يقال : فذُّ فرد ، وأسد وَّزد ، وشهاب لامع ، وصباح ساطع ، وماء [و^(١)] رواء ، وكرم ماشئت وحياء ، ووصل أمواتها قادمٌ تقدُّمه حسناته ، وتحفُّه قرباته ، وتصلى عليه صلاته وصلاته ، وتزكيه صادقة زكواته وصدقاته ، ويشفع له جدُّه في الدين واجتهاده ، ويخصِّم عنه حجَّه في الله وجهاده . نعم أطال الله بقاء سيدي لو أن الكلام سهلت حزنه ، ولانت متونه ، وطاعت عيونه ، ودانت أبكاره وغُونه ، ثم عُمرت عُمرَ العصور ، وعمر النسور ، أمدُّ بخاطر لا يُنزَف ، وطبع لا يُنَزَح ، ثم شغلت عمرى بالثناء على من رزئناه ، شرف الله مأواه ، لكنت بعد الإكثار والإطالة ، وخوف السامة والملافة ، قاصر السعى قصير باع القول ، قصاراي أن ألوذ بذمة الصمت ، وألبس ثوبين : من إقصار وعجز .

وإنما أنفت بنفثة المصدور ، وألقى بئى على حواشى الصدور ، وبالله العياذ من استقراء الحزن حتى لا أجِر ، واستعلاء القلق حتى لا صَبِر ، إن ذلك من مواقف الجهال الذين تستهويهم يدُ الغرور ، والكفار الذين يياسون من أصحاب القبور ، فرجوعا إلى الله رجوعا ، ورِضىً بحكم الله وخضوعا .

والحمد لله الذى لما عمّر الشريفَ أبا محمد صلوات الله عليه عمّره عزيزا ، وفطره عظيما ، وجعله بنفسه وجنسه شريفا كريما ، أعماله بيض ، وإفضاله مستفيض ، وذكره سائر ، والثناء به طائر ، وحين قبضه قبضه سعيدا ، وتوفاه حميدا ، وختم له بحال يُغَبِّطُ عليها للدار الباقية ، وإن لم يُغَبِّطُ بها في هذه الفانية . ثم الحمد لله على أن سدَّ خصاصةً من الشريف بمن مكانه محتشاً ، ومقامه مقدّم ، وخلقه وفضله مرموق ، وأدبه مشهور ، وسبقه معهود ، يروى المكارم مرفوعة العاد ، موصولة الإسناد بالإسناد ، قد ورث الشرف جامعا عن جامع ، وشهد له نداه الصوامع .

فإن تلك أيدينا بالأمس أمسكت على القلوب خوف انصداعها وانزعاجها ، لقد مسحت اليوم على الصدور عند اشراحها وانفراجها ، ولئن سخنت عيون حين حدث الحادث ، لقد قرّت عيون حين انتصب الوارث ، وتلك الرياسة منتقلة إليه . وحاصلة بيديه ، يتوارثها عصن عن شجر ، وهلال عن قر ، ونحن معاشر إخوان الماضي وكافة شيعته — أكرمهم الله — أئذ وراءه طوال ، بل جبال إذا أريدت الجبال ، تُشجّله البصائر ، وبُتَدَل فيه الذخائر ، ويدعوني الإشفاق — مع ذلك — إلى أن أقول : حتم على سيدى أن يلبس مفرضا لهذا الأمر يستقلّ معه بهرائضه ، ويصطلع بوظائفه ، ويثار على لوازمه ، ويقسم الشهوات على شرائطه ، فلقد كان حتى اليوم انا وهو الآن أب أوجد . وفي صعداء الحد مسلك وعبر ، ومذهب حرّ .

ولن يفرع الذروة إلا بتقوى وحلم لا يميل إلى جانب الخرق ، ولا ترتقى إليه همه الدل ، ونذل لا يدوب صاحبه مع التنذير ، ولا يجمد مع التقدير ، ومنافسة في اقتناء المودات حتى يعطى من فوقه حظّ التوقير ، ويسمح لمن كان مثله بفصل التقديم ، ويجذب عن يدايه إلى رسة النظر ، ويكون للماقين أنا يدافع عنهم مدافعتهم عن بلاده ، وماصل مناضلته عن أولاده ، فيزور مهم الصحيح ، ويعود المريض ، ويغيث المنكوب ، ويعين المحرو ، ويشفع في المحرم ، ويسأل في المذنب ، ويتحمل مصرّة القوم ، ويراه الغم كل الغم ، طاهر الأنواب ، سهل الحجاب ، مؤدّب الأصحاب ، يستحفظ رأى سلطانه ، بغاية إمكانه ، ثم لا يدع بينه وبين أقاربه ، والمساوين له في مناسبه ، ترّة ولا ذخلًا ، ولا يسيء فيهم قولًا ولا فعلا ، ويسعّر الدين يهذّحون بالميمّة أن أسواقهم باثرة ، وعليهم الدائرة . والعلماء يسعون العلماء ، فهم الأركان والأعيان ، والإخوان والأعوان ، والمشايخ والصدور ، وإليهم توول الأمور ، فليعظمهم كُمة الإعطاء ، وايبكر صغيرهم فوق أكار الزمان ، فإن فقيه العرب على ابن أبى طالب - - رضى الله عنه - - فصل أ كفاءه بالعلم فصار أحم شانا ، وأعز سلطانا ، وأعظم نورا ، وأهر شمسًا ونمرا ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

ولست أريد بهذا القول طائفة دون أخرى تقابلها ، ولا فرقة سوى فرقة تماثلها ، بل أرى العلم أين حلّ . أعلى نسب ، وأقوى سبب ، والأمة وإن اختلفت مداها ، بين محق

ومبطل ، ومسهل ومحزن ، ومخطئ ومصيب ، وأصم عن الحق أو مجيب ، فحرمة المعرفة لا نضاع ، وسوأم الدراية لا تراع .

وكان سبيل كتابي أن يرد على سيدى الشريف خامس وفاة الفقيد رحمه الله ، لولا أن المرض أخذ بالجوانح ، وثقل على الجوارح ، والآن حين استقلت وأبليت ، فكتبت لا بل عجزت وأملت ، فليقبل العذر كما عرفه ، وليقبل على ما يحوط دينه وشرفه . ومع كل الذى تصرف فيه فإن الأسف على من فقدناه إزاء ناظرى ، وشغل خاطرى ، لم أرض عن اللبالي ، وقد سخطها المعالي :

فما جانب الدنيا بسهل ولا الضحى بطلق ولا ماء الحياة ببارد

الباب الحادى عشر

فى الاخوانيات والملاطفات والمداعبات

١ - كتاب شوق واستزادة وبرٍّ وتوجُّع لعارض علة

أنا إذا وجدت لمكتبة الشريف بخطى فراغا ، وإلى مطاولته بما فى نفسى مساغا ، أسغت غصة ، وانتهرت فرصة ، وإذا حجزت العلائق ، ومنعت العوائق ، لم أعدم حجة ، ولا يعدمنى رخصة ، وأنا والله من الشوق إليه بما أُكبره عن كشفه ، ويدفع أدب الوقار عن وصفه ، إذ هو فى قبيل ما يسمى كلفا ، وطريق ما يدعى شغفا . هذا وفرط الغرام بقرب مولاي ولوع بالفضل ، فلا تبرأ منه ، ولَهَجَ بالجد فلا تنزّه عنه ، والله عواطف وعوارف ، ومواهب ولطائف ، تعين الشمل على اجتماعه ، وتُدِيل القلب من نزاعه .

ووصل كتاب الشريف مع فلان فحسبته سافر إلى قَريب العهد ، بينانه وبيانه ، وفقر يده ولسانه ، واهتزرت لنشره ، وارتحت لفضّه ، وتهبّأت لاجتماع وزّده ، والارتواء من شربه ، فلما ألفتته بغير خطه عرائى فتور مسرف ، وكسل مجحف ، فعدلت إلى التذكرة ، إذ كانت بين مساقط أقلامه ، وتساقط الدر من كلامه ، وبردت غليلا ، وجلت ناظر اكليلا ، واستعديتها على الشوق ، فلولا أنها حاجت مزيد تذكر ، وأثارت قديم تحسر ، لكان ما أهدت من غبطة ، وأدت من بهجة ، حقيقاً بأن يذكر ، وخليقاً بأن يشكر .

وقد تقدمت فى الأبواب أجمع بما يجمع المراد ، ويصدق الارتياذ ، وفلان يفصل ما أجلت ، ويلخص ما أبهمت ، بعون الله . ومولانا الأمير لمولاي محمد ولمنزلة مُكبر ، وعلى قديم تحقّقه محافظ ، ولما عاد بسداد أمره مؤثر متخيّر ، مدّ^(١) الله أستار ظله ، على أتباع فصله ، بمنّه .

(١) فى الأصل : ومد .

عند انتهائي إلى هذا الفصل عرض فلان كتابا إليه من مولاي صَدَرَ عن عارض تألم،
فطواني على جزع وتحرق ، إذ لا فرق — يشهد الله — عندى بين سقمه وسقمى ، وما
يُقَسَّم بجسمه وجسمى ، وإنى لأستنزل العافية على أن تكون له مشروطة ، وأستمد السلامة
على أن تدوم به منوطة ، والله يبلغنى فيه وفى نفسى خير المطالب ، ويكفينى وإياه كدر
المشارب ، واعتراض الشوائب .

وأعود لنسق الجواب : إن الذى يصفه مولاي عن الأمير إجلالا لقدره ، وإشبالا على
أمره ، وإجزالا لحظه ، لرافعٍ طرفى ، وفائت شكرى ووصفى . ذلك دليل ثبات الدولة ،
وتزايد النعمة ، وتضاعف البسطة ، ونيل البقية ، والله يُوفِّق مولاي لما يوافق هذه الحال
التماسا للقربة ، واختصاصا بالطاعة والخدمة . ومتى لم أعاتب سيدي على ما يضيّق به
صدرى ، خشيت أن تبقى غُبرة فى نفسى . وقد حَمَلَتْ فلاناً إليه ، ما يورده ، وإن كان
فجاً عليه ، فليتصور مولاي إخوانه بحيث تقديم الله وتفضيله ، أو من حيث تقريب السلطان
وتأهيله . وأنا أقطع الكلام فإنى أخشى اللوم يلج بى ، ويستفز قلدى ، وأسأل مولاي
أن يخاطبني بخبره ، فهو أخصُّ ما أترقب ، ويباسطنى فى وطره ، فهو أسرُّ ما أقدم ،
إن شاء الله .

٢ - كتاب تأنُس ومداعبة

أنا أُلطف — ياشيخى ! — الكاغد فى مكاتبتك ، بحسب ما أوجب من لطف
منزلتك ، وأعتذر إليك ، من تأخر الأجوبة عنك ، عما أعتدُّ لك بانصال الابتداءات منك ،
فإنى إذا قرأت من خطك حرفا وجدت على قلبى خِفّاً ، وإذا تأملت من كلامك لفظا ،
ازددت من أنسى حظا . ودليل الشوق إليك ما تجده من نفسك ، وتستميله عن صدرك ،
وكلا ! فإن الذى عندى أحرّ وقعا ، وأحدّ لذعا ، وقد زاد فيه ما استشعرته من ترفيهك عن
السفر ، وتوفيرك على الوطر^(١) .

وأجزيك الخير فإبك تُطِنُّ بكتبتك لهب البعد وترشّ على نار الحنين ماء الوصل ، فلا
تشبه بمن يوصلُ فيقطع ، ويُسأل فيمنع ، ويُقبل عليه فيعْرِض ، ويُبسَط إليه فينقبض ،

(١) فى الأصل : الوطن

وَيَلان له فيشتد ، وَيُعْتَد به فلا يَفْتَد ، وَمَنْ التيه^(١) ثوبه ورداؤه ، والنجمُ أرضه وحذاؤه ومن الخضراء له عُرْشَت ، والغبراء باسمه فرشت ، ويظن الشمس أخف سرجه ضياء ، والأنام عبيدا والليالي إماء ، ومن ينظر في عطفه ، ويرمق العالم بمؤخر طَرْفه . فإن تسأل عنه لم أشجع لذكركه ، مع ماقلت في فخامة أمره ، لكنني أثق بالسميع العليم ، وأستعِذ به من الشيطان الرجيم ، فأقول : هو أبو سعيد ، وليس بالمهلب ، ومحمد وليس بابن الحنفية ، وابن المرزبان بن الفرخان ، اسمان لم يشهدا بيعة الرضوان . وحقك إن كنت قرأت له كتابا منذ مدة قد تجاوزت عِدَد النساء وبلغت حولا كاملا أو كادت ، ولا أدري لم اعترض اسمه في كتابي إليك حتى أضعت من بياضه^(٢) ماتراه ، ومن كلامي ماتقراه .

٣ — والله تودد وتشكر

كتابي — أطال الله بقاء سيدي — ومولانا فسيحُ مجال العزم ، رفيعُ مناط الملك ، وأنا بدولته وعزُّ خدمته سالم ، والحمد لله رب العالمين .

ووصل كتاب سيدي مبشرا بما كان الأمد واقفاً عليه لا يتعداه ، والرجاء منصبا إليه لا يتخطاه ، ونوازع النفس تنهض له خاطبة ، وبواعث القلب تلهج به طالبة ، من قر به الذي يجمع أسباب المحاب موقاة ، وينظم أشقات المسرة مهداة ، فيعلم الله ما استسلفت من البهجة التي لم تدع مني جارحة إلا طبقتها ، واستأنفت من الغبطة التي لم تترك مني جانحة إلا ملكتها ، فالفيتني كمن حُكِّم في أوطاره فتحكَّم ، وأسرجَ في آرائه وألجم ، وأزاحت الأيام علته كيف أراد ، وارتاحت له الليالي بما شاء وارتاد ، فقد كنت من بُعد سيدي في وحشة تدع حظوظ النفس منحوسة ، وغمة تترجع حقوق الأنس منقوسة ، وكيف لا أتشوف سيدي بعيدا ، ولا أتناول به الأمانى قريبا ، وقد أتانى الله من وده ، وكريم عهده ، ما تحار فيه النواظر ، وتُعقد عليه الخناصر ، فغيبى محروس بحضوره عن الألسنة الجارحة ، والعيون الطامحة ، وذكرى محفوظ بمنابه الكريم ، وقيامه الجليل . ولولا أن الإكثار يزرى على الإخلاص ، وينتقص جدّة الاختصاص^(٣) ، لأطعت ما يعليه ويطالبني

(٣) في الأصل : للاختصاص .

(١) في الأصل هكذا : السه بدون نقط .

(٢) في الأصل : بياض .

به فكرى ، اعتقاداً لم يهجنه التصنع ، واعتماداً لم يعترضه التعمد ، والله يديم النعمة لديه كما أدامها لإخوانه به ، ويهنيه ما قسم له كما هنأهم العارفة عنده ، بمنه .

وقد أكثر الناس فى وصف ما يهيج الشوق إذا أخذت الدار تتقارب ، والمحال تتجاور ، وصحائف البعد تُدرج ، وملابس القرب تُنشر . وما أوضح براهين ذلك ، فإنى مستقيها من صدرى ، ومستملها من قلبى ، لاستبعادى الشقة ، هذه المدة ، وتقديرى بأن اليوم الواحد أمدّ من الحول الكامل ، والعام المتواصل . والله يقرب لنا البعيد ، ويلقينا الفأل السعيد ، ويكمل الرغائب بمشاهدته ، ويُسبغ المواهب بمشافهته ، إن الله يفعل ما يريد .

ومما أشرب به سيدى اهتزاز مولانا لمورده ، وارتياحه لمقدمه ، فإنه منذ أول ماوردت الكتب نبأً توجهه إلى هذه الحضرة ، يقول فى هذا الباب أقوالاً تخلد الشرف وتؤبده ، وتذكر المجد وتمهده . زاد الله مولاي عنده قربة ، وضاعف كل يوم له رتبة ، فإن رأى أن يجعل كتابه مقدمة النعمة فى وصوله ، وتعريف خبره عنوان المنحة فى وروده ، ويدكر لى أخباره ، ويكلفنى أوطاره ، فعل إن شاء الله .

٤ — والـه

كتابى — أطال الله بقاء سيدى — ومولانا سابغ السعادة ، متناول بيد القدرة مبالغ الإرادة ، والحمد لله .

فأما أنا فإن حُميات اختلفت بى ، وأعلالا تصدّت لى ، وكنت منها فى أحوال تخوّنت القوة ، بقدر ما تحيقت به الصحة ، وقد تفضل الله الكريم بالإقالة ، وأعادنى إلى جميل العادة ، ولم يبق إلا الضعف الذى يزول على الأيام ، والله ولى التطوّل به والإحسان .

ولولا هذا العارض لقد كنت تلقيت سيدى بعدة كتب على أيدى الرسل استعجالاً لموهبة فى مشاهدته ، وإكباراً للمنحة فى مكائرتة وتعرفاً لخبره ورأيه ، ووقت وروده ، وصله الله بأسباب سرّائه . وبالأمس تهباً لى الركوب إلى سيدى ذا كراً للصورة ، وراغباً إليه فى إعلامى حال سلامته ، واطراد أموره على إثارة ومحبته ، وإن جاز أن يعرفنى الوقت الذى يكون انفصاله على طالع البركة منّ به ، فمولانا يهتم بذلك ، ويرسم مراعاته ، ولذلك

أمر ، أعلى الله أمره ، بإصدار هذه المخاطبة مع أحد التّراسين .

وتشوفى لغاية المحبة ، ونهاية البغية ، وبلوغ المراد والطلبة ، بقاء سيدى ، يحدونى على الاهتمام ، ويهزنى للاستعلام ، ولا أحتاج إلى تعريفه زيادة تُتراعى بتزايد الدار قربا ، فإنه يستملى من كرم عهده فى ذلك ما تجده شاهداً عدلا ، فإن رأى أن يخاطبنى بما التطلّع له شديد ، والطف إليه حديد ، ويدكر لى من مهمّه ما يبعث عليه خلوص من وده ، فعل إن شاء الله .

٥ - وله

ذكر فلان أنه يخرج على طريق المفازة إلى حضرتى ، مجدداً العهد بخدمتى ، وذلك صواب ، ولكن بعد أن يكون معه دليل ، قد استاف أخلاق الطرق ، ولقب بدعيميص الرمل^(١) ، وضرب فى عامر^(٢) بن فُهَيْرَة بعرق ، وأجال مع عبد الله^(٣) بن أريقط قدحا ، وبارى الشنفرى^(٤) ، وبات بمومة وأمسى بغيرها ، وكانت خوولته لتأبط^(٥) شراً ، وعمومته فى عمرو بن براق^(٦) ، ورضاعه فى سليك^(٧) المقانِب . ووصفه العرب أنه كالكُذُر يرد الشارع ، وأنه أهدى من النجم ، وأنه لا يضل حتى يضل النجم ، وقالوا فيه الخريت^(٨) ، وسموه بالأخذ المِصْلَات^(٩) ، أو خير من ذلك جمال من أُرْدِسْتان^(١٠) يجمع على علمه بالطريق ليركبه على بصيرة ويقين .

وسيدى يجهزه فقد علم أنه جهيزة ، ويعينه على الظعن فقد علم أنه ظعينة ، ويذكر قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رفقا بالقوارير ، ويقول لأبى الفتح : هذه ثم ظهور

الجاهلية وعدائها .

(٦) عمرو بن براق مثل صاحبيه .

(٧) سليك المقانِب هو سليك بن الساكة وهو

مثل سابقه .

(٨) الدليل الهادى .

(٩) الأخذ : القاطع : المصلات : الماضى

فى الأمور .

(١٠) أُرْدِسْتان : مدينة بين فاشان وأصبهان .

(١) دعيميص الرمل : اسم رجل كان داهيا يضرب به المثل ، يقال هو دعيميص هذا الأمر أى عالم به .

(٢) مولى لأبى بكر الصديق قتل فى يوم بئر معونة .

(٣) دليل النّبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة إلى المدينة .

(٤) شاعر جاهلى يضرب به المثل فى العدو فهو أحد العدائين .

(٥) تأبط شرا مثل الشنفرى من صعاليك

الحفر ، وليوصه ليستظهر على الفلاة ، بناقة كالعلّاة ، وبالزاد ، والمزاد ، كما وصفت . أنفذ من عبد الجبار^(١) بن يزيد وخالد بن دثار^(٢) وأصيف بن فلان ، ولا أدري ما أبوه ، ولكنه الذى كَلَّ على المهرب من سجن الحجاج ، والله يؤيده ويهديه .

٦ - وله

وصل كتابك أيها الشريف — أطل الله بقاءك — ولكن بعد ماذا ، بعد أن كددتك بالعتب الوجيع ، وقرّعتك بعصا التقرّيع :

وكان الأكف قد عَصَرَتْهُ بعد كدٍّ من ماء وجه البخيل

وما كذا كان الظنُّ بك ، وخلقك الخلقُ الرحب ، وأنت الحلال الحلو والبارد العذب ، وقد ينسى المرء أبعد خليليه داراً وحلّة ، وإن كان أصدقهم عهداً وحلّة ، غير أنى لم أحبك ترضى بالرتبة الدنيا فى كرم العهد وترعى روضة الهوى بى فى صحة العقد ، فلأتُ يدى ثقة ورجاء ، حتى أعدتها على صفرأ خلا .

وبعد ذلك فليت شوقى إليك على قدر حظى منك ، كلا ! بل أنت خدينُ فكرى وسميره ، وأمين قلبى وأميره ، تصرفه^(٣) كيف أحببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الأفعال بالأسماء^(٤) ، فإذا استنزلتك عن كتاب تصدره ، أنفقتَ بالمعروف ، وجُدت بالنزr المشفوه^(٥) ، حتى كأن بياض قرطاسك من شيبة الحمد ، وسواد أنفاسك من سواد الناظر والقلب . فلا تفعل ، جعلت فداك ! ، فبغير هذا نزلت السور ، وتليت النذر ، وتكررت العبر ، وتربعت ربيعة وتمصّرت مُضَر ، وآخر دعواى أن كيف شئت فكن ، وقل : إذا عزّ أخوك فهن . سقى الله عهدك غيثاً كفرارة فضلك ، وسلامة طبعك ، وصفاء ودك ، ولا عاشت المحاسن من بعدك .

المكتبة التيمورية الورقة ٢٩ من المجلد الثانى عشر .

(٣) فى الأصل : وتصرفه بزيادة واو .

(٤) فى الأصل : الأسماء بالأفعال .

(٥) المشفوه : القليل .

(١) لعله أخو الوليد بن يزيد : انظر الأغانى ط . دار الكتب ٥٠/٧ ، إذ طلب الوليد إلى

لأحدى المفيئات أن تغنيه صوتا وطلب عبد الجبار منها صوتا آخر فاستجابت له وتركت أخاه وطلبته .

(٢) انظر ترجمته فى تاريخ ابن عساكر ، نسخة

٧ - ولله

كتابى — أطال الله بقاء صاحب الجيش — ونعم الله عندى بدولة الملك السيد متوالية ، ومواد الخير نامية ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتاب صاحب الجيش ورد مع فلان جامعاً من الفوائد أشدها للشكر استحقاقاً ، وأتمها للحمد استغراقاً ، وتعرفت من إحسان الله فيما وفره من سلامته وهنأه من كرامته ، أنفسَ موهوب ومطلوب ، وأحمدَ مرقوب ومخطوب ، وأدى فلان ما تحمّل من مشافهة صادرة عن مطلع الود الجلىّ ، ومستودع العهد الوفىّ ، صاحب الجيش ، أحسبه إياه متجاوزاً حد الإلطف ، إلى طرف من أطراف الإسراف .

وصاحب الجيش بما عوّد من كرم نفسه ومحامد فعله ، وإيفاء يومه على أمسه ، وعدّته بالمزيد فى غده ، لا يستكثر منه البلوغ إلى أبعد آماذ المبار وأرفعها وأوقعها بحسن الاختيار وأبدعها ، فقد أفرده الله من خلال الفضل بما أمّن فيه شركة أولى المجاورات ، وسهّمة ذوى المساهمات . والإقصار عن التناهى فى مقابله ، إلى التباهى بما فضل الله من شاكلته ، أسدّ منهاجا ومذهباً ، وأسعد منالا ومطلباً ، والله لا يُخلى من التجلّج بمكانه ، ويحفظ التكرّبه على إخوانه .

ولو كانت الكتب والرسل كفاء مودّع الصدور ، وموقع الود الموفور ، لصدرت تباعاً ، ونفذت سرعاً ، لا قصور فى الإدمان دونها ، إلا أن الثقة بالتصافى المتزايد ، والتناجى بخلوص السرائر والمقائد ، يفسح فى طرق العذر ، إذا وقع تعويل على المشاركة المحضة ، والاستئانة الفضة ، وما تجشّم صاحب الجيش إنقاذه من تُخفّة كبرها قدراً ، وصغرها ذكراً ، وكثرتها إصداراً ، وقللها إخباراً ، فقد زاد فى حسن موقعها فتّحها للأنس باباً ينضاف إلى أبواب المباشطة التامة ، والاسترسال فى الأوطار الخاصة والعامة ، وإن كنت — يعلم الله — بما لديه ، أوثق منى بما تنضم اليد عليه ، علماً بأنه — أدام الله عزه — لا يفرق بين النعم التى سوغنى الله صفوها ، والمنح التى أسبغ عليه عفوها ، أدام الله الموهبة بمواصله أيامه ، وحرس ما أودعه من غرر إنعامه . وقد أتت المشافهات على جواب الرسالة الواردة ، وفلان يؤذيها بإذن الله على السُنّة الجارية ، إذ كان صحيح الأداء ، حميد الاستيفاء .

٨ - ولـه

وصل كتابك الموثوق بشبوت عهده على تلؤن الحالات ، المسكون إلى رسوخ وده
على تباين الأوقات ، وكان موقعه بحضرتي موقع آنس مايتوقع ، ومطلعه على مجلسي مطلع
أسرّ مايتطلع ، وتحمل من خبرك في السلامة ماأعده أخص غنيمة ، وأعز منحة كريمة ،
فقد كنت ، يشهد الله ، عند اختلاف تلك الأحوال بأغمار مالوا على النباهة للخمول ،
وأذئاب خافوا على الروس والصدور ، أشفق عليك من بدرات الجهلة ، وبدّهات العجزة ،
وأراعي خبرك مراعاة المرء لأمسّ ذوى رحمه غيراً على تمييزك وبراعتك ، وتبريزك على أهل
صناعتك ، ووقوع التسليم لك ممن شاهدتهم يومئذ والعراق مفتصة بالأفاضل ، مختصة بوجوه
العمال والمشايخ ، فلما أطلع الله رايات الحق ، ورفع غايات الفضل ، بماذلل لمولانا من مقادة البلاد ،
وأحيا بأيامه من مصالح العباد ، أيقنت أن زندك في الزنود الوارية ، وسعدك مع السعود الجارية
وترقت كتابك ياسيدى فكان بغية الطالب ، ومنية الراغب ، وتصرفت فيه في
وصف عقيدتك وأنا بها عليم ، وبخلوصها زعيم ، ثم في اعتذار قد كفاك الله أمره ، ووضع
عنك إضره ، إذ كانت تلك العوائق توجب الانقباض عن المواصله ، والتعويل على الضمائر
المتقابلة ، وأريد الآن — سيدى — أن تكاتبنى مكاتبه الصديق المتحقق ، والأخ المتخصص ،
وتبشرنى بما يتجدد لديك ، فإن فواضل الملك غمام يدرّ على الأيام ، والتنصّح في يسير خدمته
يرقى إلى كثيرها ، والتقرب في صغير طاعته يرفع إلى كبيرها ، والله يؤتيك ماتؤثر وأوترفيك
بمنه . ومن أوضح ما تدلنى به على مودتك أن تسترسل إلى فى مهماتك ، وتحسر ذراع
الانقباض فى حاجاتك

٩ - ولـه مداعبة وعناية

أبو الفرج عبّاد بن المطهر — أعزه الله — يزعم أن الشيخ الأمير رضى الله عنه سمّاه
عبادا والناس يروون :

لستان ما بين اليزيديين فى الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم
وفيه من لا يعلم أنه لربيعه الرقى ، ولا أن اليزيديين يزيد بن حاتم المهلبى وهو المدوح ،

وزيد بن أسيد وهو المذموم ، وكما لا يدري أن الشعر بلغ أبا الشمقمق فقال ، وفضل عليهما
يزيد بن مزيد الشيباني :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى إذا عدّ في الناس المكارم والمجد
يزيد بن شيبان أكرم منها وإن غضبت قيس بن عيلان والأزد
وقد قال الآخر :

يزيد الخير ابن يزيد قومي سميتك لا يزيد كما تزيد
ويذكرني مولاي أنشد كثيراً لأبي الهول الحميري في الفضل بن العباس والبرمكي :

فضلان ضمهما اسم وشئت الأخبار

كما سمعني أنشد لبشار :

رأيت الشهيدين استوى الجود فيهما على بعد ذا من ذاك في حكم حاكم
سهيل بن عثمان يهود بماله كما جاد بالفعلاء سهل بن سالم
ومن المتبدل في هذا :

شتان بين محمد ومحمد حتى أمات وميت أحياني

والحمدان محمد بن منصور بن زياد ومحمد بن يحيى بن خالد .

ولا أحسب عباداً هذا يعدّ ما قلته تفضيلاً لعباد بن العباس عليه ، وإضافة له إليه ،
ولا أن يقول كما قال يونس بن حبيب : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وذلك كما قال صديق
مولاي القريب ، وابن عمته النسيب ، الفرزدق بن غالب ، وقد قيل له انزل على أبي قطن
قبضة ، فحسبه ابن مخارق الهلالي ، فإذا هو آخر لا يحضرني نسبه ، وذم قراه وجواره ، فقال :

سرت ما سرت من ليها ، ثم وافقت أبا قطن ليس الذي لمخارق
وقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى كثيراً ولكن لا تلاقى الخلائق

فأما التفضيل الذي أوامت إليه ، فقد أعجبني منه أن الخطيئة قال :

فلما أن مدحت القوم قلتم هجوت وهل يحل لي الهجاء
فلم أستم لكم حسداً ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء

حتى زعم بعضهم عن الزبيري أن هذا الوجه له من قوله :

دعِ المكارمَ لا ترحل ليُغَيِّتها واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

وعلى ذكر هذا البيت فلا أدري لم ترك ما قيل قبله ، فقد سبق الأعشى بقوله :

فدعنا وقوماً إن همُ عمدوا لنا أبا ثابتٍ واجلسْ فإنك طاعمٌ

لست أدري — أيد الله مولاي — ما هذا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور

الناس ، وإما حضر هذا الفتى ، وله حق الغربة ، وأعظم به حقاً ، ثم حق الأدب وأكرم به فخراً ، وقد خدمى طفلاً ، والآن كهلاً ، وهاجر إلى ، فتظاهرت حرماته لدى ، وهذه التسمية أيضاً لها ذمامٌ يرعى ، وذمار لا يُنسى ؛ وسألني أن أخطب مولاي في بابه ، وأُسيمه في مرعى جنبه ، وصور لى الأنس بمطاوله مولاي ، وحسبتي أناجيه عن قرب ، كما أنا مكابه عن بعد ، فليجّ الطمع والقلم ، وحضرت هذه الأبيات والعبر ، ومولاي ولّى مايوليّه ، ويختصه بالجميل فيه ، فقد كان أبو عيسى النوشجان بن عبد المسيح أنشد والدى :

وإن ائتلاف النفس أدنى قرابة لمن يدعى القربى إذا كان ظالماً

١٠ — وله إلى الخطيبين

[كتاب^(١)] شيخى أبى حفص وولدى أبى مسلم كتاب شيخ الفضل شاب الظرف ، وخطاب شاب السنّ شيخ العقل ، آنس أصدق الإيناس ، واختص أبلغ الاختصاص ، فلا عدمتهما معا ، ولا عدما البر جميعا . فأما شكرك لسيدى أوى العباس — أدام الله تأييده — فكلفة قد حط الله عنك وزرها ، ووضع دونك إصرها ، إذ كنت شيخ الدار والأهل ، ولّى بمنزلة الأخ وله بمنزلة الم ، فكيف يُدّخر عنك البر والبشر ، وكيف يجب عليك الثناء والنشر ، بل أنا مستبطنٌ له — أدام الله تأييده — أولك ، فما أقل ما أسمع باجتماعه معك ، وإن يك ذاك بقلة استدعاء منه فقد أضاع حظاً ، وإن كان لسوء استجابة منك فقد أضمت حقاً ، فمن كان منكماً^(٢) مقصراً فليُقتب والسلام .

وأما البشرى فقد وصلت منك إلى معمور القلب بالود ، فلا بد أن يكون مشروح الصدر بالأنس ، وختمت على موفور الحظ من خلوص العقدة ، فكيف لا يكون

(١) زيادة يقتضيهما السياق

(٢) فى الأصل : منكّم .

وافى القسط من عموم البهجة ، فتعال أيها الشيخ نشتغل بالحمد لله ، وننقطع إلى الشكر لله ،
فما أحسن ما صنع ، وما أعظم ما دفع ، وما أجزل ما منح ، وما أوسع ما فتح ، اللهم فوق
لما يوافق رضاك ، واجعلنا ممن يرجوك ويخشاك ، إنك سميع الدعاء ، فعال لما تشاء .
علقت هذا الجواب ليحرّر ، ثم رأيت إنفاذه بخطي على اضطرابه ، آنس لك ، وأبرّ بك ،
إن شاء الله .

الباب الثاني عشر

في التشكر وما يشاكله

١ - كتاب شكر وإنباء بمتجدد النعمة في مؤتلف تبجيل

ومزيد ترتيب

كتابي — أطل الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ومولانا الملك السيد مصرّف أعنة الأيام ، معدّل أقسام الزمان ، مكنوفٌ من الله الكريم بإنفاذ الأمر ، وإعزاز النصر ، وتيسير المطالب ، في أرجاء المشرق والمغرب ، والحمد لله وصلواته على النبي وآله .
ووصل كتاب الأمير قد ابتدأني به كما ابتدأ بالقرّ من منّهِ ، والزُّهر من منّهِ ، واستغرق الشكر ببيض نِعَمِهِ ، وجرى في استنفاد الحمد على خصائص شيمه ، فازدادت أياديه شمولاً ووفوراً ، وعوائد طوّله بُدُوّاً وظهوراً ، وأنبأ الخطاب من أحوال حضرته منبع الفضائل ومعدنها ، ومرتع المحامد وموطنها^(١) ، عما بمثله يرتفع ناظر المخلص له بموالاته لا يستحلّها فتور ، ولا يعترضها تقصير ولا قصور ، وسألت الله تعالى أن يعتمدّه ، من سابغ المزيد في كل حال مرقوبة ، ومزية مطلوبة ، ومنقبة محبوبة ، بما يصدّق الرجاء ويحقّقه ، ويُشفعه ، من بعد ، ما يفوته ويسبقه ، إن الله سميع مجيب .

وكنت ذكرت للأمير خبري في المسير إلى الحضرة العالية ، لتجديد العهد بالخدمة السامية ، ووردت من تفضل الملك السيد وإكرامه ، وبسطه وإنعامه ، وتقريبه وإيناسه ، ورفعته واختصاصه — بعد أن أهلني للاستقبال والتلقي ، وشرّفني بالسؤال والتحفّي — على ما حصل الإجماع ، ورُفِعَ النزاع ، في أنه لم يحظ بمثله أحدمن واردى هذه السدّة الكريمة ، وقاطني جوانبها العظيمة^(٢) ، مع أنها كعبة الآمال ، ومحط الرحال ، ومقصد غلب الرجال ، وأعيان ذوى الجلال والكمال .

عضد الدولة عن مؤيد الدولة وعن نفسه ، فنلقاه
عضد الدولة على بعد من البلد ، وبالح في إكرامه .

(١) في الأصل : موطنها .
(٢) لعله يشير هنا إلى وروده عام ٣٧٠هـ إلى خدمة

هذا وأنا من أنشاء الخدمة ، وأغذية النعمة ، ومن لو اقتصر به على الإيماء إذا حضر ،
والثول من بُعد إذا وصل ، لكان له في ذلك الشرف الصميم ، والمجد البالغ العميم ، لكن
أريحية الملك ، وهزة المجد ، قسمتا لي ما يُعَدَّ منقبةَ العمر ، وواسطة الدهر . ولولا علمي بأن
الأمير يتطلع صورتي تطلعاً يَقْتَضِيهِ علمه بموالاتي ومماحضتي ، لما أطلت فيما خصني ذكره ،
ومسني أمره . على أني قد اقتصدت واقتصرت ، ثقةً بأن الذي أوليته أعظم خطراً ، من
أن يخفى نبا وخبراً ، فأطال الله بقاء مولانا الملك لإنهاض المنن ، وعقد المنن ، ورفع الخدم ،
والجذب بأنواع الهمم ، وأدام أيام الأمير مؤيد الدولة ، لنصافح الميامن بفضلته وفي ظله ،
ونستخلص المناهج باعتلاق حبله .

والأمير الجليل --- بحق اعتدادي رأيه ووده ، واعتقادي بلوغ الحجاب به وعنده --- أولى
من تجشم الشكر عنى فإني عاجز عن الواجب ، قاصر القوة عن أداء اللازم . وكنتي تتصل ---
ولله المشيئة --- إلى الأمير من الحضرة العالية مدة لبثي ، ثم من حضرة مؤيد الدولة عند
عودي ، أنهى فيها ما يتجدد ، وأنهى إلى أمر يرسم في الجواب ويرد . فأما كتاب الأمير
إلى مولانا ، فقد كان أوصله الجُمَز في اجتياز ، واستغرق أوفى السهام من اعتداده ، وحل في
التقبل ، وشكر التفضل ، أخص مواقع أمثاله ، وهو يستصحب الجواب في انصرافه ، بإذن
الله عز وجل .

٢ -- وله تشكر وإظهار اعتداد

كتابي --- أطال الله بقاء السلار --- ومولانا فيما يَحْكُمُ الله له به من الاستظهار ، وعلو المنار ،
ومساعدة الأقضية والأقدار ، على ما يسرُّ الله به أولياء الدعوة المسموعة ، وأبناء الدولة
المتبوعة ، والحمد لله حق الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله الطاهرين .
ووصل كتاب السلار فتظامن له شكرى ضئيل الشخص ، راضياً بخطة الضعف ،
وقد كنت أدعى ، ويدعى لي ، مطاولة الأفعال وإن بهرت حسناً ، وقهرت فضلاً ، بلسانٍ
ينتصف قولاً ، ويستعلى شكراً ، حتى زحني من مكارم السلار ما يحصر عنه المبين ،
ويصعبه العمى وبس القرين ، لكنني إذ فكرت في أن انبساط يده بالحامد ، ورحب بلده
بالمآثر ، منقبة تجال فيها مهامي ، ويُفَاض عليها بقداحي ، لم أخش وصمة العاجز ، ولم أخف

هُجْنَةُ القاصر ، فلتابع من جمال المتبوع حظوظ يُجَادُ بها روضه ، وحقوق تضحك عنها أرضه . فأما الذى قاله السلار واصفاً اعتقاده بالخلوص لموليتنا فَبَرْدُ اليقين ، مغنٍ فيه عن الوصف المبين ، لولا أن السلار يضيف شرف الفعل إلى كرم القول ، ليأخذ بحاشيتي الفضل ، ويتناول يمينه راية السبق . ومولانا معتدٌ بذلك اعتداداً إنْ قُدِّرَ أن الخبر يضطلع بتمثيله ، والنظر يتسع لإقامة دليله ، فهيئات ! وعلى الضمائر من الضمائر شواهد ، براهينها أنطق ، وأسبق ، والرجوع إليها أحزم ، وألزم .

وأما الاسترسال الذى قد عمر السلار طريقه بمبارٍ وافية القدر ، موفية على القطر ، فعمان شرف لا يجاذب عليه ، ورهان فضل لا يسابق إليه ، وموقعٌ ما يتجشمه بحضرة مولانا موقعٌ ما إذا تأمله تقبَّله ، وإذا نشر بره تشكره . والله يحرس هذه الحال ، فما أنضر عودها ، وأثبت عمودها ، وأحسن مطلعها ومبداها ، وأشبه مراحها بمغداها ! . والشبلان قد اشتد الإعجاب بهما إلى التعجب منهما ، وحقا أقول : إن الأسد لا تذلل إلا لأشد منها قوة ، وأحضر منها نجدة ، وإن من يأمر الليوث فتطيع وتسمع ، ويطلق الأسود فتصيد وترجع ، لقوى أيده ، حَقٌّ كيده ، أمتع الله السلار مولاي بما أتاه من أباك الفاضل وعونها ، وأفراد المادح وعيونها .

٣ - وله تشكر واعتداد

كتابى ، أطال الله بقاء سيدى ، ومولانا فيما يسدد الله من رائه ، ويرفع من لوائه ، على ما يُعْلَى نواظر أوليائه ، ويوهى قواعد أعدائه ، والحمد لله وصلواته على محمد وآله .

ووصل كتاب سيدى فلكنى به ملكاً مجدداً ، واسترقتنى معه استرقاقاً مخلداً ، لما ظاهره فيه من أيديه التى تنقل عواتق الأطواد ، وكواهل السبع الشداد ، ولو كنت نهضت بفرض إحسانه فيما أسلف ، لرجوت أن أنهض بعض النهوض بحق ما استأنف ، ولكن لى فى ماضى تفضله ، ما يصدئنى عن لوازم مستقبله . لا زالت يده العليا ، ومِنَّة الطولى ، ولا انفك الشكرُ فى إसार إنعامه ، والحمدُ فى ذمام إكرامه ، لا ينالان من ذرى مكارمه ذروة ، ولا يحلان من عرى فواضله عروة .

فأما الذى اعتمد به سيدى حضرة مولانا من الألفاظ التى ابتسمت عن حسن التوصل ، وتزهت عن قبح العمل ، فقد صادف من تقبله الكريم ، واعتداده العظيم ، مالا ينال بإهداء الأمصار إليه ، وافتتاحها له وبين يديه ، وعدّ انبساط سيدى من أقوى دلائل المودة الخالصة من الشوائب ، المشفوعة بالصفاء الدائب .

والرسول يذكر ما وعاه ، من المجلس أعلاه الله ، وفكرُ سيدى فى أن أسهم لى من هذا التمهيد ، وقُسم لى من هذا التفضل ، مستعظمٌ مستكبرٌ ، تكاد الأمانى تقعد عن اقتباسه ، والآمال تصغر عن التماسه ، إلا إذا تصوّر سعة صدره بالمنامح وقد ضاق البحر بالإضافة إليه ، وطول يده بالمكارم لا زالت راهنة لديه ، والله يعينى على الدعاء ، فإنه أقرب مأخذاً ومتناولاً ، وأحضر نفعاً وطائلاً .

٤ - وله تشكر واعتداد

كتابى عن سلامة إحسان الله بها مقرون ، والمزيد فيها عن فضله مضمون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكان كتابك وصل حسن الموقع لطيفه ، وأتبعته تصنيفاً رائع المودع شريفه ، فأنست بمخاطبتك ، واعتددت بتحفتك ، وقد زاد برك حتى كاد يجهد الاعتداد ، ويسبق الأعداد ، والفاضل تنازعه نفسه إلى أقاصى المحاسن ، والتناهى فى درج الحمد ، والله يزيدك من فضله بمنّه وطوله .

ومما يحتاج فيه إلى اعتذار ، واسع الأقطار ، تأخر الجواب عن الكتاب إلى الآن ، وما كان ذلك إهمالاً وإغفالا ، ولكن أشغالا عرضت وأعلالا ، ومن اتسع صدره بالبر ، لم يضق عن قبول العذر ، وأنت تديم إيناسى بمخاطبتك ، مشفوعة بنتائج فضلك ، وثمرات علمك وفهمك ، فإني أرتاح لسماع كلامك ، أنساً بأن علوم الطبيعة ، لم تُخلّ عندك بحقوق الشريعة ، كفعل قوم حرموا مزية السداد ، وضرب على بصائرهم بالأسداد .

٥ - واه

كتابى ، أطال الله بقاء مولاي الأمير ، ونم الله عند مولينا الملك السيد والأمير المؤيد على ما يؤثره الأمير مولاي بحكم المشاركة التي رفع الله بنيانها ، وشيد أركانها ، فله الحمد رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير بعد أن أخطأني مدة ، وتخطأني برهة ، وما أقول ذلك استزادة لكرمه ، واستبطاء لشيمه ، فقد أسلفني من طوّله ما أعجزني شكره ، كما أعوزني حصره ، غير أن العادة عند السادة مطلوبة ، والزيادة من السعادة مخطوبة ، ولو قد فسخ — أدام الله نعماءه — في المكاتب والمناوبة ، والمراسلة والمواظبة ، لاستمددت التطول بفضل الإكثار ، ولو كذت الإذكار ببعض الادكار ، ولكنني أقف حيث أمره ورسمه ، وأقتصر على ما يقصرني عليه حكمه ، فإذا صرّفتني على ما أنا نازع إليه من مهماته تصرّفت ، وإذا صرّفتني إلى جانب التوقف خدمت بالنية وخفّفت .

فأما نعمته علىّ في آنف مارسم إلقاءه إليّ ، فنعمة سامية المطلب ، سائغة المشرب ، إذ رأى إشراكي في المشورة ، بعد إعلامي جليّة الصورة ، وقد أغنى الله الأمير بعزمه الذي خصته المناجح المنتظمة ، وارتهنته الميامن المزدهجة ، عن تجاوز فآئحة الاستخارة ، إلى واسطة الاستشارة ، إلا أنه يزيد بسط أهل ثقته ومشايعته ، بما يؤهلهم له من مشاورته . وقد استمعت من فلان ما أدّاه ، وشكرت شرف لفظه وكرم معناه ، وخدمت طاعة الأمير مولاي بقدر ما اتسع له علمي ، واضطلع به فهمي ، والسلام .

٦ - وله جواب تشكر عن متجدد رتبة بمستخلص ومتحمّل نعمة

كتابى ، أطال الله بقاء الأمير مولانا^(١) فيما يرفع الله من قواعد ملكه ، ويظاھر من نفاذ أمره على ما يفوت أقصى النعم ، ويجوز مرعى الهمم ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

(١) يظهر من سياق هذه الرسالة أنه يريد بمولاه هنا ركن الدولة .

ووصل كتاب الأمير على عادته في تأهيل عبده ، لجزيل رِفْدِهِ ، والرفع من قدره وهمنه ، بتصرفه على عوارض خدمته ، منبثاً عن استبشاره لما أنعم به موليانا^(١) على خادمهما أبي العباس^(٢) أحمد بن إبراهيم ، إيعازاً إلى الكفاة ، من عطاء الدولة القاهرة ، وكبراء الكتاب والحاشية ، في استقباله معظمين لمورده ، ومراعين في التخفف لموقعه ، إلى مارآه مولانا — لا زال على الآراء ، مصرّفاً أعنة القضاء — من تجليل مقدمه شرف تلقّيه ، وإلباس مدخله كرم تحفيّه ، ومثله لى الأمير من إنهاء مكان ذلك من نفسه ، لا زالت محروسة في ظل الملك والقدرة ، إذ كانت بركة حضرته سبب هذا الجلال وهذه القربة ، فلم أدر بأى مواهب الأمير عندي أثنى وأمدح ، ولا عن أيها أعرب وأفصح ، بأبعثاده إياى لممه ، أم بما قسم لخادمه ، أبي العباس أحمد من كريم همه ، أم بخطابه هذا الذى قت بفرضه ، وخدمته فى حسن عرضه . وقد قلت فى ذلك ما حسن إصفاء مولانا له ، وصادف اهتزازة وتقبّله ، وقال ، حرس الله ملكه ، إن أبا العباس ، أيده الله ، وإن كان تليد خدمتنا ، ووليد نعمتنا ، ومن خُلِدَتْ له فى صحف رعايتنا التى لا تجارى إلى أمدها ، ولا يفتر يومها عن الإشارة إلى غدها ، فإن الذى رسمناه به من ذلك المقام لمقتضى له من فضل التقريب ، وقاض من مزيد الترتيب ، بما يوجب على الأيام ، قاصية الإنعام ، والغاية المتناهية فى الإكرام .

وخادم الأمير مولاي أبو العباس ، لا زال فى كنف استخدام ، وشرف ذمامه ، منذ ورد ، فأورد فى المجلس العالى من وصف خصائص نعم الله التى سَوَّغها الأمير مولاي فاحتل رُبَاها ، واختط ذراها ، من رأى جميع ، وصدر وسيع ، ومعرفة بالإيراد والإصدار ، وعلم بالمراتب والأقدار ، واشتغال بنحصال ، هن درج الكمال ، من حَزَامَة ثنى السياسة بها صادقة ، وفروسة كانت الفراسة بها سابقة ، وآداب نفس تحلّيا النحائر الكريمة ، وتستوفيا الغرائز العظيمة ، إلى آداب مكتسبة ، هى تكلّة للألباب ، وتبصرة الملوك والأرباب ، وتنتشر عن الأميرين ما يقتديان فيه بمولاي طلباً لآماد الاستقلال ، واستكمالاً

عباد فى الوزارة ، وقد خدم فى دواوين البويهيين حتى وصل إلى هذه الرتبة .

(١) فى الأصل : مولانا ، ولعله يقصد عضد الدولة ومؤيد الدولة .

(٢) هو أبو العباس الضبي ، خليفة صاحب بن

لحظوظ النجاة والإقبال . وأنا أحمد الله على مايسّره ، وأشكر له على ما قدره ، وأسأله أن يرى مولانا ، أغر الله رايته ، في الأمير مولاى والأميرين ما تخطبه همته الواطئة أخادع النجم ، السامية عن منازع الدهر ، وكنفه ، حرس الله ملكه ، عليهم ممتدّ ، وأزرهم بجميل رأيه مشدد ، فإن رأى أن يُصرّف عبده من أمره ونهيه ، على ما يقف عنده ، فعل ، إن شاء الله .

٧ — وله تشكر وتودد

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — وأحوالُ حضرة مولانا الملك منتظمة انتظام نعم الله عنده ، ومواقعُ آرائه مسعودة كما أسعد الله جدّه ، ومواهبُ الله لمولانا الأمير المؤيد متضمنة من العز أمنعه ، ومن الخير أوسعها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير فى تأهيل عبده ، لجزيل رِفْدِهِ ، والرفع من قدره وهمته ، بتصرفه على عوارض خدمته ، فلأثنى من منائح ما يرجع العدُّ دون تقصيه^(١) وأحصائه ، وأولانى من فواضله ما يقصّر الحق قبل حقه وقضائه ، وبشر من استجابة أمور حضرته ، لقضايا إرادته ، بما أنجز وعد الله تعالى فى إدامة سعادته وزيادته ، ورغبت بأحب الوسائل لديه ، فى إطالة بقاء الأمير لمكارم يُشيدّها ويعمرّها ، وعوارف يحدّدها ويُمهّدها ، وسألت لنفسى التوفيق فى فروض موالاته ومشايعته ، لأبشرها باستنفاد الطاقة ، واستغراق الوسع ، وتجريد النية ، وإخلاء الذرع ، والمسئول قريب مجيب .

وانتهيت إلى الفصل بذكر فلان فى مورده ومنصرفه ، وما قصده الأمير فى إنفاذه ، وأنهاه فى عوده إلى مركزه ، واستكثره — أدام الله عزه — من الإكرام الموجب له فى وصوله ، وعند رجوعه . والأمير بما آتاه الله من الطبائع المتناهية فى الكرم والسجاجة ، والأخلاق المستوفية للعظم والسماحة ، يعمد لكبير ما يوليه فيُصغره ، وصغير ما يُتَوَخَّى رضاه فيه فيُكبره ،

(١) فى الأصل : تقضيه .

فَعِلَ مَنْ يَمْلِكُ الْقُلُوبَ بِفَضْلِهِ ، وَيَعْمُرُ الصُّدُورَ بِوَدِّهِ ، وَيَسْتَوْقِفُ الْأَلْسِنَةَ عَلَى شُكْرِهِ ، وَيَشْغُلُ الْأَقْوَالَ بِحَمْدِهِ .

وقد عرض ما ورد ، ووجدت مولانا يستغنى من استيفائه ، للبر المسرف في أثنائه ، قال :
 إن ذلك الغلام صدر ، والاستقصار لما أتى في بابه يوجب تذكماً ، ويقتضى تندماً ، لولا أن
 التعويل واقع على ارتفاع العمل عند المشاركة السابقة ، وإطراح التصنع مع الخالصة الصادقة .
 وأما الذى خصنى به الأمير من نتائج الفضل ، في هذا الفصل ، فنظوم إلى أياديه التى
 توفرت علىّ حتى غمرت ، وتوالت إلىّ حتى عالت ، فأنا رفيق شكرها ، ورهين منها ، أثنى
 عليها ما التأم ^(١) الأمل ، وأشكر عنها ما أخر الأجل ، غير شاكّ في أنى لا أبلغ الأمد المقصود ،
 ولا أطبق ^(٢) الغرض المطلوب ، ولكن لكل عامل قدر اجتهاده ، ومزية غزمه واعتقاده ،
 حرس الله على الدنيا نضرتها وجدتها ، وعلى الخلائق عدتها وعمدتها ، بإطالة بقاء الأمير وإدامة
 نصره ، ومواصلة أيامه وإنفاذ أمره .

٨ - ولىه

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — غرة شهر رمضان ، جعل الله أيامه غُرّاً ، وأعوامه
 زهراً ، وأوقاته أسعاداً وساعاته أعياداً ، وآتاه في هذا الشهر الكريم موده ومآتاه ،
 أفضل ما قسم فيه لمن تقبل أعماله ، فبلغه آماله ، فأصلح به وعلى يديه ، فحرس الله منامحه
 ومناجحه لديه . وأبناء الحضرة العالية واردة بما يظاھر الله للملك من نعم تحرس حريم الخلافة ،
 وتعود بفضلها على الكافة ، ومولانا الأمير بين تفضل من الله يديمه ، وحق من مصالح الدين
 والدنيا يقيمه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير قد ابتدأنى فيه من سابغ آلائه ، وفائض بره واقتضائه ^(٣) ، بما لو وقفه
 مقسوماً بين أم لوسعهم فضله ، وأثقلهم حمله ، وألجأهم إلى الإقرار بالعجز عن بلوغ قدره ،
 والاضطلاع لشكره ، عند ترافد قوامه وقدرهم ، واجتماع أولهم مع آخرهم ، فابتدأت بالحمد لله

(٣) في الأصل : واقتضائه .

(١) في الأصل هكذا : مالم .

(٢) أطبق : أصيب .

عُدَّة الشاكرين وعمدتهم ، ومفرغهم في رخائهم وشدتهم ، وسألته أن يطيل بقاء الأمير الجليل كما جعله للإسلام عماداً ، وللثغور سيداً ، وللملك يداً باسطة قابضة ، ولالدين عيناً حارسة حافظة ، ليتِمَّ الدهور وأمره ممتلئ ، ورسمه متقبَّل ، وغره مؤثِّل

ولما استتمت قراءة ما شرفني بإصداره ، ووقفني على شكر إفضاله به وإيثاره ، أدَّى إلى فلان ما تحمل عن الأمير من رسالته التي ملكني بها ملكاً مجدداً ، واسترقني معها استرقاقاً مؤبداً ، فخرت بين مفاخر تفرع النجم ، وفواضل تكثر القطر ، ولم أدر أتمكن من رأيه الشريف أسامى وأفاخر ، أم بموضعي من إشفاه الكريم أباهي وأكاثر ، أم أشتغل بما ألهني له من أوصاف هي مستقاة من سعادة ملاحظته ، ومستملاة من زيادة محافظته ، وإذا كان الله تعالى قد نصب الأمير^(١) علماً حق ، وجعله لسان صدق ، وألبسه الحمد قشيباً لا يُنهج ، وآتاه الكمال وافيّاً لا يحدج ، فلا عجب أن أفاض عليّ بجزاهتمامه ، وساق إلى سحب إنعامه ، كما أودع ، تعالى ، قلبي من الإخلاص لأيامه ، بقدر ما بسط من لسان في الثناء على زمانه . هذا واعترافي بالعجز عن فرضه ، وانصرافي إلى التسليم لطوله ومنته ، يُعربان عني ببيان يقول متى سكت ، وينوب متى أمسكت ؛ وقد حضر فلان مجلس مولانا ، فصادف مأوصله ، ثم ما تحمله ، اعتداداً^(٢) اتسعت منافذه ومناجه ، وكثرت بواعثه وتناججه ، لزال هذا الحبل موصولاً ، وزاد الله النعمة فيه سُبوغاً وشمولاً ، وهو صادر في غد بإذن الله ، وسائر في كنف الكرامة بعون الله .

٩ — وله تشكر وتحدث بالنعمة

كتابي — أطال الله بقاء الأمير — ومواد البسطة والقدرة للملك السيد راهنة ، والدنيا لعالي رأيه دائنة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

• ووصل كتاب الأمير قد ألبس به عبده من حسن رائه ، بكرم ابتدائه ، ثوبا من العز لا يبليه الدهر ، ولا ينحسر عنه الفخر ، فكان المفرغ إلى الدعاء ، شيمةً مُخلص الصنائع والأولياء ؛ وقد قرعت باب السماء منه بما الله ولي استجابته ، والإجراء فيه على حسن عاداته ، وما أخر كتابي عن حضرة الأمير تقصير — بالله العياذ منه — في خدمته ، ولا ذهاب عما

(٢) في الأصل : اعتذارا .

(١) في الأصل : للأمير .

لى من الشرف بإجابته ، إلا أنى خدمته — أدام الله علاه — خدمتى لمولانا ، فكتبتى لا ترد مجلسه الشريف إلا إذا بُسِطَتْ لها ، وكانت أجوبة لمهمات أستخدم فيها ، وإذا قد رآنى سيدنا أهلا لأدعى الحائنين إلى التخصص ، وأبعدهما عن التقبض ، فسأكتب متشرفا وأنتظر الجمال بالجواب مستشرفا بإذن الله .

فأما إنعام مولانا على عبده ، وصنيع يده ، واستقباله بنفسه والدنيا تسير بسيره ، وخدود النجم مع سنابك خيله ، وتلقيه إياه بوزراء بابيه وأمرأه أجناده ، وعظماء قواده ، متصرفين مع الإعظام ، ومتحفين فى اللقاء والسلام ، ثم [ما^(١)] رتبته به فى دخولى إلى الدار المعمورة بالعز ، وحضورى المجلس المحفوف بالملك ، والتبليغ بى إلى رتبة لم يقسمها — حرس الله ملكه — لأحد ممن غشى بابيه المأمول من أطراف الأرض ، وأعيان الشرق والغرب ، واستجلاسى بحضرته التى يقف بها القمران ، على النواصى والهام ، إلى ضروب من الإنعام ، أستعظم — والله — وصفها ، وإن كانت الأخبار قد سارت على متون الرياح بها ، فهو ما لا يرحب به إلا صدر من عضد الله دينه بعزته^(٢) ، وجعله تاج ملته ، وحكم بأن يملك الأقاليم بلا استثناء ، وتخدمه ملوكها بتطامن واستخذاء .

ولولا أن سيدنا يأنس لعبده بمارفع من ضبَّعه ، وبسط من يده ، إذ كانت النعمة من عند مولانا صَدْرُها ، وبعناية الأمير المؤيد توفرها ، وبركة سيدنا تيسرها ، وعند أعرق الخدم فى الدولة القاهرة تقررها ، لكان فى الشرح إخلال بأدب الخدمة ، وإسراف مع مُفْتَقَد الحشمة ، والله يطيل بقاء مولانا مصرفا الدنيا بحذافيرها ، ومستعليا على تقريرها وتديرها ، ويواصل أيام الأمير المؤيد للملك وحراسته ، والزمان ومياسته ، ويدبم فى ظلهما لسيدنا المواهب المنسوقة ، والراتب الرموقة ، وبوفق عبدهم حفظ حمله بشكر يديمه ، وفرض للطاعة يقيمه ، إنه فعال لما يشاء .

١٠ — وله تشكر وإطراء

كتابتى — أطال الله بقاء مولاي صاحب الجيش — وما يمهّد الله لمولانا الملك السيد من

عضد الدولة له ، وقد مر ذكر ذلك فى ص ١٦٣

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) يشير فى هذه الرسالة إلى استقبال

مراتب العز والمجد ، وقواعد العلو والملك ، مهتًى ماقد أتانى الله من منحه ، وملانى من نعمه ،
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش قد أجرى فيه من البر إلى ما يقصر الوصف عن تقصّيه ،
ويتقاعد الشكر عن المفروض فيه ، وأنبا خطابه من خبر سلامته عما أجده من أخص مواهب
الله وأكرمها ، وأجل رغائبه وأعظمها ، لا زالت يد الله حامية عراضه وجنباته ، وعين الله
كاللثة أقطاره وجهاته ، إن الله تعالى كريم .

ووجدت صاحب الجيش قد كتب من تقرّظ فلان وإحماده ، وحسن تحفّفه ببابه ،
وبين يدي ركا به ، ما أطاع فيه شرف الشيم ، وأرسل به عنان الإحسان والكرم ، وكل
غاية يبلغها خادم ، وإن اكتنفه السداد ، ولم يقعد به جد واجتهاد ، تصغر عن أن يعيرها
صاحب الجيش فكره ، فضلا عن أن يتجشم لها ذكره ، ولكنه — أدام الله عزه —
لا يقنع في مآثره ، ترفع لم تحرم بها عمادها ، وتعلّى لم تخادم لها نجاحها ، إلا بإيالاته منها أكثر مما يغلو
فيه التماسه وتمنيه ، ويرقى إليه اقتراحه وترجيه . وحالة أخرى أن صاحب الجيش يرمق جميع
ما يصدر ومن يصدر عن حضرتي بعين مودة قد وفر الله على موادّها وقواها ، وأحصد
لى مرأثرها وعُرّاها ، فهي إن رأت يسيرا أكثرته ، وإن شاهدت دميما سترته ، والله يديم لى
ما سوّ غنى من حسن عهده الذى تزيده الأيام خلوص عقائد ، وصفاء موارد .

وكان كتاب فلان ورد بما ألبسه صاحب الجيش من أثواب التقريب والإكرام ، ثم
التحويل والإنعام ، وشرح ضروبا من ذلك أجد تكريرها ذهابا مع التصنيع ، وقد أغنى الله
عن تعاطيه ، وقضى بترك الإفاضة فيه . ومن استبدعت مكارمه ، واستغربت محامده ،
فصاحب الجيش مألوف المحامد ، معهود المناقب ، لتظاهرها وتواليها ، مَعَوْدُ النفوس اتصال
عجازها بهواديه ، لازال كذلك .

الباب الثالث عشر

في الاستزادة والتقرير وما يجري مجرى ذلك

١ - كتاب تقرير وإنذار

كتابي ومولانا متظاهرا أسباب السعادة والسلطان ، وعلو الشأن وسمو المكان ، وأنا مدولته سالم ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتابك ورد مع صاحبك فعرفت ما أوردت ، وتمثلت ما سردت ، وأنهيت من عَرْضِهِ إلى المجلس — حرسه الله — ما ظننته يعود بصلاح حالك ، ويُفْسِح بعض الطرق إلى آمالك ، ولكمك شديد التسرع إلى مالا تؤمن عائلته ، وكثير التقدم إلى مالا تحمد خاتمته ، ولا بد من أن أصدقك ، ثم أقضى -- من بعد -- حقك ، وأعرفك موضع ذلك ، ثم أتدى^(١) لتقريب أملك . قد علمت أنك قدمت قديما — في مبدأ ورودنا ، وبعد ذلك — هنات ، واعتذرت في حالات ، ولو أوجت دواعي التوفيق ، واجتمع مع الصواب في طريق ، لعمرت مكالك بالحضرة التي منها اصطناعك ، وغنها إقطاعك ، وفيها سعد أبوك ، رحمه الله ، ثم قدمت أنت ، أيدك الله ، وحين باعدت عُذَّت على وجه لم يخف منه ما حسنته عندنا مستورا ، ولم ينكتكم دوننا ما ظننته عنا مكتوما ، وقد جرى بموضع كذا ما جرى مرارا ، وقدمت على غير ذلك تحكما بالحلم واعتارا ، ونقدمت إلى غيرها فأظُرت ، والآن فلا إنظار بعد الإنذار ، ولا اعتذار مع الإعذار .

وقد رسم مولاي بعد الصجر بما أنهى من سوء معاملتك في تلك الضياع والبقاع التي لم ترسم بها . ولم يُجْعَل لك يد في توسطها ، إخراج فلان إليك ، وتحميله ما يورده صريحا عليك ، فإن تكن من أناء الخدمة الذين يعرفون لوازمها ، وقيمون فرائضها ، نالك من الإحسان ما السعادة بمثله جارية ، في كل نفى الطوية ، سليم النية ، ولحقك على الأيام ، من مزيد الإنعام ، ما يشرح الصدر ، ويرفع القدر . وإن قدرت أن المقارة تقع على ما أنت

(١) في الأصل : ابتدأت .

بسبيله ، فما أبعد من تقدير ، وأضلّه من تدبير ، وأنت حينئذ الجانى على نفسه ، الحيل لصورته وحقه ، فقرر مع فلان ما قد اعتمد لتقريره ، فقد أوعز وأذن لى فى جميعه ، واعمل بالأمثلة التى رسمت ، وابن على الأمور التى قدرت ، وكاتبنى بما يعين على صورتك ، فإن الرغبة فى اصطناعك بعثت على الإنباه لما رقدت ، والإذكار لما غفلت ، والله ولى التوفيق ، وصلى الله على النبى محمد وآله أجمعين .

٢ — وله فى تحذير العامة من الخوض فى الأراجيف

إن الله تعالى مع عظيم حكمته ، وفسيح رحمته ، واستغناؤه عن الأمم ماضيها وبقاياها ، واستعلائه على الخلائق طائعا وعاصيا ، جعل لمواهبه فروضا من الشكر ، من أقامها وعظم مشعرها ومقامها ، ارتبطها عليه ، وثبتها^(١) لديه ؛ ومن أساء جوارها راكبا هواه ، وأخفى منارها ناكبا عن منحاه ، ارتجفها منه ، وانتزعها عنه ، وتركه مُثَلَّةً للناظرين ، وعبرة للغابرين ؛ بذلك جرت سنته فى الأولين ، وتقدمت معذرتة إلى الآخرين ، ولنا فى الأخذ بأدب الله عذر لا يعتلّ ، وجَدَدٌ لا يختلّ ، وقوة لا تميل ، وأسوة لا تستميل ، والله الكافل لنا بأسدّ الضرائب وأحدها ، والمسّهّل لأرشد المذاهب وأسعدها ، له المنة ، وبه الحول والقوة .

وإذا تصفح أهل أصبهان ما فاض عليهم من بركات أيامنا ، وانصب إليهم من ثمرات إنعامنا ، وكثر من خيراتهم فى ظل سلطاننا ، وتوفر من سعاداتهم فى كنف إحساننا ، حتى عاد الرمل غنيا مستظهرا ، والمُقْوَى موسراً مكثراً ، والمستتر المُخْفَى لشخصه مباهيا بحاله ، والمنقبض المكاتم لنفسه مساميا بماله ، ومن كانت السلامة معظم مناه ، والأمن غاية ما يسمو إليه مداه ، تشير إليه الأصابع وتنعطف عليه ، وتَفَقَّأً أفناء الناس أفنية الخصب والدعة ، بعد البؤس والمترّبة^(٢) ، وتفسحوا فى ضروب اللذات ، بعد التشحط فى حصول الأقوات^(٣) ، هذا إلى ما تعمدنا به صنفا صنفا من فضل امتد باعه ، ونظر اتسعت رباعه ، وتسويغ كبر قدره ، وتخويل فِرْض شكره — علموا ، إن لم تكن البصائر مستعجمة ، والأبصار مظلمة ، والأفهام كليلة ، والألباب عليلة ، أن أحدا من الولاة عليهم فى قديم الدهر

(٣) فى الأصل : الأوقات .

(١) فى الأصل : وثبطها .

(٢) فى الأصل : السربة .

وحديثه ، وتلبد الزمان وطريقه ، لم ينحلهم يسيرا من عظيم ما أسبغناه ، ولم يخل لهم عن قليل من كثير ما سَوَّغناه ، ولم تخف مؤن خلفائه وخدمه ، ووطأة أوليائه وحشمه ، الخفة التي نصبناها ورتبناها قبلة ، فيمن يصرفهم عنا ويدبرهم ، ويوردهم عنا ويصدرهم ، وزاهم — أحسن الله هدام — يتحككون بما يعيد بوارق الإحسان صواعق الانتقام ، وقوة البصيرة في الإنعام ، صدق غزيرة في الاصطلام ، وبالله العياذ من أن تخف الأحلام ، ويؤخذ بالنواصي والأقدام .

وعرضت — أدام الله عزك — كتب حُكي فيها إيضاح^(١) جمهور الرعية لديكم ، في أراجيف لا يشجع صدر الزمان ، بتفضل الله ، على تصديقها ، ولا تُقدّم أفكار الأيام ، بإسعاد الله جدنا ، على تحقيقها ، من غير عذر بعث ذلك وأوجبه ، ولا داعٍ طرّق إليه وسببه ، غير سوء البطر والأشر ، وقلة التمييز والنظر ، والتمرس بالنقم السود ، والتعرض للحتف المرصود ، وأن يختلف بعض فيصدق آخرون ، ويأفك زيد فيتبعه زيدون ، ويتلوهم الجميع في إشاعة الحديث غير باحثين عن منبعه ، ولا فاحصين عن مطلقه ، فلم ندر علام^(٢) أمورهم ، وبماذا تقابل جمهورهم ، والعراض — والله الحمد — ساكنة ، والنواحي آمنة ، والميامن راهنة ، والولاية دانية . ألم يعلموا أن الله العلى شأنه ، القوى سلطانه^(٣) ، النافذ حكمه ، الماضى حتمه ، الذى يورث من يشاء ما يشاء ، قد ذل لمولانا ولنا فى إذراء^(٤) سلطانه ، وبعلاء شأنه ، الأرض تهائمها ونجودها ، وحدورها وصعودها ، وسهاها ووعرها ، وبرها وبحرها ، وعراقها وشاماتها ، وأطرافها وعرصاتها ، وسهولها^(٥) وجبالها ، وموسوماتها وأغفالها ، وضرب على كل منحرف عن دعوتنا ، ومنصرف عن طاعتنا ، بالهلك والقلة ، والحين والذلة ، فمن مُعَجِّل إلى سواء الجحيم ، ومن مقيم على العذاب الأليم ، وذلك حين علم علام الغيوب أن سياستنا أرفق ، وحضارنا أسبق ، وباعنا أوسع ، وخيرنا أجمع ، والحق على أيدينا أعز نفيرا ، وأحوط منبرا وسريرا ، وأرحب نطاقا ومجالا ، وأكرم أنصارا ورجالا ، وذلك بفضل الذى يؤتبه من يريد ، وهو الحكيم المجيد ، فآية فسحة لإرجاف ملاقيح الفتن ، ومفاتيح الظلم ، وقد أيد

(١) فى الأصل : إيضاح .

(٢) هكذا فى الأصل ، ويتضح معنى العبارة .

(٣) فى الأصل : لإعلاء ، من الذروة .

(٤) فى الأصل : وسولها .

(٥) فى الأصل : وسولها .

بإضافة كلمة ندبر أو نحوها

الله ونصر، ومهد وأقدر، ورفع الشعار وأعلن، وفتح الأمصار ومكن، فلاعدو يخطر بباله غير الاستخذاء، ويعتلج في صدره سوى الارعواء .

ولولا أن الله ألبسنا الحلم والرحمة، ما نفعا ولم يُغريا، ونجما ولم يغويا، لكان فيما أضبت عليه القوم من هذه الأراجيف، ما يُرجف عليهم ديارهم، ويضعق قلوبهم، ويذهق أبصارهم ويعقبهم من الإنكار، ما أقله يُسعر جمرات التقويم ويلهبها، ويؤرث نيران الثقيف ويثقبها، أو مادري الأغفال الجهال أن اسراً من أطراف الملك لو استزله الشيطان، فالتوى في الطاعة، وانزوى عن الجماعة، لذرت الرياح واختطفته، ومحفته الخفاة ونسفته، فلم نحتج بعون الله إلى تجشم حربه، ولم نحتسكه بغير أعوانه وحزبه، بل كانت الأقدار كافية في القضاء عليه، وسوق الفناء إليه . وهذه معذرة قد قدمت، ونذراً قد أبرمت، فمن عاد فيما أنكر، وفاه بما حظر، فعليه وزر ما يناله . وإنم ما يغتاله، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال . فرأيك في إشاعة هذا الإنذار، ليصير مأدبة للكافر، وحافظاً عادتنا في المرحمة والرافة، قبل أن تضطر فريضة السياسة إلى ما يصلاها العامة مع الخاصة -- موقفاً .

٣ — وله في زجر السفهاء من العوام وإنذارهم بمد تعدد النعم عليهم

أنت، أدام الله عزك، تعلم أن إحسان السلطان، إذا امتدت ظلاله، وشاع اتصاله، وكثرت أعداده . وتوالت أمداده، فصادف نفوساً شاكرة، وألسنة ناشرة، وقلوباً عارفة بحق الإنعام . وصدوراً منشحة بفرض الإكرام، نعى على الأيام وتظاهر، وتوالى على الزمان ونناصر، وإذا أغرى بالاجترأ على ما يُحظر، والإقدام على ما يُنكر، وصار داعية الجحود، ومؤذناً بسوء الغموط، لم يلبث أن يُرتجع، ولم يمكث أن يُنتزع، وصار عارية استردت حين قلقت في ممر الخيانة، لا عارفة خلدت وأنست في مقر الصيانة .

ولئن كانت نعم مولانا على الرعايا مبسوطة لا تُقبض، وفائضة لا تُحبس، وسابغة لا تُقصر، ومبرمة لا تُنقص، إن الذي قسم منها لأهل قم^(١)، لأفسح مذاهب ومشارع، وأوسع مشارب ومناوح، وأمنع جوانب ومسارح، فقد جمع لهم بين الإنصاف الموفور، والنظر

(١) مدينة فارسية كبيرة بين أصبهان وطهران، إلى الجنوب على طريق أصبهان .

المبذول ، وأُفغيت فيهم أقوال المتنصحين ، وترك تتبع ما يرفع عليهم من الاستدراك العظيم ، ثم أريحوا من كان يطمع في أملاكهم ، ويحرص على احتناكهم ، ويتبسط عليهم صارفاً ومصروفاً ، ويستنزهم عن معاشهم والياً ومعزولاً ، ورُدَّ النظر في أمرهم إليك مع ظلفك عن الطَّعم التي كانت تُسِف وجوه الضمناء والعمال ، وأكابر المتولين لتيك الأعمال . وسمحتُ لك في البعد عن حضرتي رفقاء بهم ، ونظراً لهم ، فهل من حق هذه المواهب البيض ، وهذا الإحسان المستفيض ، بلوغ الجرأة بأراذل المحترفة وأذئاب السَّفلة ، إلى أن يرِد فلاب الحاحب البلد مجتازاً ، وقد ضَمَّ إليه أكابر القواد ووجوه الغلمان والخواص ، فَيَتَوَثَّب على غلمانه ، ويُقدِّم على أصحابه ، ولا يُقنَّع بذلك حتى يكون منهم اجتماع وتناصر ، واتفاق وتنافر ، وإجراء إلى ما يقيح ذكره ، ويعظم نشره .

ولولا أني رغبت إلى مولانا في إقالتهم هذه الدفعة ، لتقوم الحجة بالردع ، ويُفِرط الإنذار بالزجر ، لخرج فيهم من نافذ الأمر ما يقيم الليل ، ويُعرِّف الصراط المستقيم ، ويُنسى التفاوض الذي قد صار شعار كثير من أهل تلك الديار . غير أني جعلت الوسيلة في استعطاف رأي مولانا — لا زال عالياً — ما رَهَن من مواصلة لديهم ، وسبق من منائحهم إليهم ، وشفعت في أن تُحمى تلك المن عن كدر يعترض صفوها ، وتنغيص يجهد عفوها ، فأجراني — حرس الله أيامه — على عادة الإيجاب ، بعد إلحاحي في المسألة والارتعاب ؛ إذ كان مولانا — حفظ الله على الدنيا ظله ، وهناً أهلها عدله — كما ينظر ويحسن ، ويُفضل ويُنعم ، فكذلك يوقِف ويثَقِّف ، ويعاقب ويهذب ، أخذاً بأدب الله تعالى في الحالين : إنعاماً وانتقاماً ، وإفضالاً واصطلاماً .

وبذلك البلد — والله الحمد — من سادتي الأشراف ومشايخي من أهل العلم والتناهي^(١) من قد صانه الله عن هذه المداخل الذميمة ، والمواقف المليمة ، وإنما العتب عليهم إذ لم يأخذوا على أيدي السفهاء ، ولم يزجروا ما يبيهم من الأدنياء ، ولم تَحُلْ — أدام الله عزك — من عتب واستزادة ، حين لم توغر في تقويم الجناة ، وعرضهم على النقمات ، نهياً لأمثالهم ، عن التشبه بأفعالهم ، وقد اعتذرت عنك بما كاد ينقبض ، حتى تأتيت لبسطه ، واعتنيت

بالكشف عن وجهه ، فأعرض كتابي على الجماعة ، ليقنّبه راقدها ، ويتقوّم مائدها ، ويفرّق ذاهلها ، ويتنفّث مائلها ، فلئن بدرت من بعد جنابة ، لتَفْحُشَنَّ النكابة ، ولئن اقترفت جريمة ، لتَضُدَّرَنَّ العظيمة ، والله وليّ التوفيق والتسديد ، إنه خير مبدئٍ ومعيد .

٤ - وله في إنذار وتحذير من حل وثاق مأسورين

من أهل العبث والفساد

كتابي ونعم الله عند مولانا مشفوعة بتظاهر العز والعلو ، ورفع الولي وكبّت العدو ، وأنا في ظله الظليل ، ورأيه الجليل ، مكنوف بالعافية ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وصلت لك كتب ووقفت على مودّعها ، وعرضت ماوجب عرضه في المجلس العالي منها ، وكان من أحسنها موقعاً ، وأحدها مطالعاً ، وأطيبها حبراً ، وأجلها أثرأ ، قبضك على هؤلاء النفوس الذين ارتضعوا درّ الفساد ، وكانوا السبب في جرأة سائر الأكراد . ورسمت في كل وقت لفلان مكاتبتك بما تعلم أنه صادر عن لفظي ، ونافذ عن اهتمام صادق مني ، واحتيج الآن إلى مكاتبتك في باب هو من مراعاة مولانا ببال ، ومن ملاحظته ببيان ، وقد وكّد - أعز الله نصره - على القول في مكاتبتك مطيلاً ، وعظمتك كثيراً ، وأن أتبع الأمر وعيداً ، والنهي تحذيراً .

هؤلاء القوم ، الذين قبضت عليهم ، باعتقالهم قل الفساد بعد كثرتهم ، وخف الشر بعد شدته ، بدخلت قلوب أمثالهم هيبة ضمّت أطرافهم ، وحسنت أطعامهم ، وقد حظر مولانا عليك الفكر في إطلاقهم ، وحل وثاقهم ، والاشتغال بأخذ الرهائن - وإن كانت أرواحهم - منهم ، فإنك إن فعلت ذلك ، فقد قت - والعياذ بالله - مقام من عرفه وليّ نعمته ، ومالك مهجته ، ما يؤثره ، فعدل إلى إثارة نفسه ، وأخلّ بما نفذ من عالى أمره .

وأقول مع هذا : متى أفرجت عن واحد من هذه الجماعة فقد أوحشتني ، وتذممت إلى وقابلت ظني فيك بما لا تستحقه عنايتي عليك ، وأنا عالم أن هذا الخطاب أو بعضه لو كان في معنى أولئك لما أخرت الارتسام ، ولا أجّلت الامتثال ، فليأتني منك في جواب هذا الكتاب ما أعرضه في المجلس مصادفا للإجماع الكثير ، والموضع اللطيف . وفلان لا بأس

إن ورد الحضرة البهية ليؤدى عنك فى وروده ، وإليك فى رجوعه ، فهاهنا مهماتٌ شرحها لك يشرح صدرك ، ويبسط أملك . وهذا فصل يشرحه فلان ، فراعنى بكتبك وأخبارك إن شاء الله .

٥ - والـه

كتابى - أيها الحكيم سيدى ! - كتاب عاتب عليك ، شاك منك إليك ، فإنك ضعيف العقيدة والعقده ، قصير المدة فى حفظ المودة ، قليل الفكر فى حالتى صلتك وهجرانك ، خفيف الذكر لطبقتى أكابرك وإخوانك ، إذا زجيت بالسكسل يومك ، لم^(١) تعرّج على من يطيل لومك ، وإذا^(٢) أدرجت بالملل وقتك ، لم تلتفت إلى ما يطيل مقتك .

ولولا شغلى الذى قد أجارك من عتب لا السيف يبلغ حدّه ، ولا السنان يسدّ مسدّه ، لو هبت لك ساعة من نهارى ، فتعلم كيف أقصّ بسوء عهدك ، وأترك سيرتك عظة من بعدك ، ولكن ما أفل ووقى منهوب بأيدي الأعمال ، وزمانى مأخوذ بين الحل والترحال ، أتستجيز أن يتألم مولانا - أدام الله ملكه ، وقدم العالم قبله فديةً له - فتطوى عنى خبره حتى أتبلّد فى أمرى ، وأتبرّم بعمرى ، وأكاد أخالف معتقدى ، وأجنى على نفسى بيدي ، ثم يئنّ الله تعالى بعافيته ، أدامها الله ما عُرِف الدوام ، وتعاقبت الليالى والأيام ، فلا تكون آخر الخبرين إذا لم تكن أول المبشرين .

إنك لجامسى الطبع ، قاسى القلب ، دميم المسعاة ، قليل المراعاة ، فبالله لقد مضت بي فى تلك الأيام ساعات كانت الأمنية فيها طروق المنية ، لثلا يقرع سمعى أن الشكاة انتهت بولى نعمتى ، ومالك مهجتى ، إلى ذلك الحد ، وجسمه ، وقاه الله بى ثم بالناس جميعاً ، دُفِع إلى ذلك الأمد المشتد ، والحمد لله الذى كشف البلوى ، وأسبغ النعمى .

فأما حديث أبى العباس فكيف ألومك عليه ، وأشكوك فيه ، إذ كنت قد استجزت التقصير فى الأهم من خبر مولانا - أطال الله بقاءه ، وجعل كافتنا وقاه - وهل يلام تارك الفرض على تأخير النفل ، والمأطل بالحق على التضجيع فى الفضل ، وأنا أوئل أن يكون انتقاله عن الهوى الجانى على نفسه ، سبباً لصحته وانحسار السقم بإذن الله .

(٢) فى الاصل : فإذا .

(١) فى الأصل : علم .

لعلك تحسبى يا أبا الحسن قلت فاشتفيت ، وأطلت فاكثفت ، كلا ! فقد حملتني من
جفائك كلاً لم أحسنه ، وقسمت لى من ضعف وفائك حظاً لم أرتقه ، والظن يخطئ مرة
ويصيب ، والتوفيق يحضر ويغيب ، وسنلتنى فأقول وتسمع ، وأصول العتب فتشجع ،
أو أحرى على رسمى فى احتمالك ، وأعمل حلمى فى مقابلة إهمالك ؛ إن شاء الله .

٦ -- والـه

قد نجم -- أطال الله لقاء سيدى -- ناصها -- من الإرجاف مالا سب يقتضيه ،
ولا عرض يستوجهه واستدعيه ، إلا كفران المعمة . والتمرس بعدوان الدولة ، وبالله العناذ
من الأحد بالسمع والأبصار ، من سوء المصائر والأفكار .

وقد كان الإبدار سقى فى بعض السنين -- حسامه يمه القوم من سنتهم ، وأحدهم
عن دميم سنتهم ، وبلغنى الآن ما إن لم يتلاف أشعقت على أسمع الجهل من عذوة
تركهم بالعدوة القصوى ، ومعرضهم للتى هى أشع وأحزى وأطاعت سمدى على ما أنهى
وخكى ، ليكون من وراء التدارك لما خي ورأى ، فقد تخلص العوام فى الإرجاف إذا
وقع نكر فى طرف من الأطراف ، فأما إذا كان النصر -- نفصل الله -- عزيزاً ميباً ،
والحسل حصيفاً متيناً ، والملك باسطاً ذراعيه يميناً وشمالاً ، صارماً رواقيه ^(١) سهولاً
وجبالاً ، فما الفكر فى توليد الأناطيل إلا التحكك بالثوب السود ، والتحقق بسوء
الغموط والجحود .

ومولاي ينكر ما أسكرته -- يم ويخص ، ويثلم ويمس ، فإن يكن فى القول مقنع ،
وفى العتب مردع ، وإلا فليوعز بإذكاء العيون ونصب الآذان ، على من يعوه بينبات
الجهل ، ويستوخم جوار الإحسان ، فإذا ظفر بالواحد منهم أنهكه عقوبة ، وحمل للسياط فى
ظهره مشارع مورودة ، كيلا يفشو التشر ، فيصلى بنار الغواة البراء الدين طريقهم الاستقامة ،
وبقيتهم السلامة ، إذ كان غير محتمل أن تكون الرى ^(٢) ، وهى دار المملكة ، ومقر الدعوة ،

وأطلها معروفة اليوم على ممر من طهران ،

(١) فى الأصل : واقية .

والنسة إليها رارى .

(٢) مدينة كان لها شأن فى العصور الإسلامية ،

ومجمع الراعى والرعية ، لا تسمع فيها كلمة عوراء ، ولا تخط على السنة عوامها عشواء . وأهل أصبهان وهم فى حَجْرَة من الأرض تتناوب عليهم شمس الإنبام وفر العدل ، ثم يلفظ أحدهم بالعظيمة فيما لا يعلم ، ويهزم عما يسلم صاحبه فلا تسلم . حملنا الله ممن لا يحيل نوارق الخير نواتق بقلة شكره ، ولا يعيد عوارض الأمن صواعق تكمراته وكمره ، والسلام .

٧ -- وله إنكار على عامل ظهر منه تقصير.

قد علمتُ أنك قصرت فى عدة أبواب وأهملت وصيغت ، وإنى أول ورودك تلك الناحية عرفتك أن القوم يستلينون عركتك ، وسيلك أن تتشدد عليهم لثلاث تنوى الحقوق . فأعلمت حتى نجراً القوم ؛ وكان من بى فلان ما كان من كسر الحس ، وحرق الهبة ، وسمع السوق من الخلوس ، فرسم فى أمرهم مارسم ، واحتيج إلى غزل فلان ، وحس الجميع .

ولما ورد فلان اعتذر لك عما قصرت عن الاعتذار بمثله ، واستعاد لك من الإيجاب ما تمد أن نجاب إليه ، فرفع طرفك ، ولاف أمرك ، وقدم على كل أمر رفع حساك ، ليعرف موضع قدمك ، وثق كيف جرت الحال ، بأن عناتى بصدى بك ، ورعايتى لا انحرف عنك . وإنى أوجب بموقعك من فلان ، من حقك ما يقوم بإزاء تقصيراتك ، إذا لافيت وتداركت ، واستدركت ما أصعبت

٨ - وله إنكار وتقريع

كتانى وإن كنت أعلم أن الكتاب صانع مع انصراف التوفيق عك ، ومصاحبة الخذلان لك ، واستمرار العجز لك ، وظهور القصور والمهانة فيك ، إذ وليت لك الناحية هذه المدة القصيرة ، فصار كلاهما أسوداً عادية ، استلانة لجاسك ، وعلماً بتحريك فى مداهلك . من مو لاحق السقاط الأوعاد ؟ حتى اشجعوا لما فعلوا ، ويقدموا على ما أتوا ، ويستحيشوا بالعامية فى حكومة بينهم وبين القاضى وسرة يكسرون الحس ، وهو حبس السلطان ، وتاره بجوحون القاضى إلى معارقة البلد ، ثم لا يقنهم هذا التسلط والتبسط حتى يتلقوا أنا الحيش — أيدى الله -- مستغيثين متظلمين ، موغرين إلى أهل البلد بإغلاق الدكاكين

ولو كنتَ ذا رُوح أو نفس أو مُنَّة ، لما جسر هؤلاء على أن يحكموا بهذا ، ولو رأوه في منامهم ، لأصبحوا وقد زهقت أرواحهم وجلا . والله يعلم أنك كنت كاتب القبض لأبي فلان متخلفاً ، فكيف إذا أخذت تسوس ؟ فإن كفايتك ظهرت في كل باب ، ودليل ذلك ما أحوجت إليه في هذا الحمل^(١) الذي أصدرته ، من استدانة واستعانة واستسلاف ، لا بارك الله في عجزه الرجال .

وأعجب ماسراً بي أنك لم تحاطب حضرتي حتى الآن بحرف واحد ، وقد كاتبته منذ شهر ، ورسمت في هذا الباب رسوما ، فلا والله إن أجبت بلفظ وقد كنت أحسب للقاضي أبي الحسن ذنباً ، فصح عندي بما أتاه بنو لاحق ثانياً ، أن الجريرة كلها لاصقة بهم ، والفتنة نائرة عنهم ، وقد كتبت إلى أبي الجيش أساتكين بما تقف عليه ، وترسمه ، فأقبض على معاش بني لاحق أجمع ، من ضياعهم ومستغلاتهم ، ودبرها مع خاص السلطان ، وأشخصهم إلى أصبهان ، كما رسم لأبي الجيش ؛ ومن تعصّب لهم ، أو ثار في الفتنة معهم ، فذلّ أبا الجيش عليه ، ليصرف هذه الطائفة بين التجريد للسياط ، والتغريم في المال^(٢) ، وإن كان من العامة من ينطق بعد ورود الأمر الجزم فليضلب على باب البلد ، والسلام .

٩ - وله

قد علمت — أدام الله عزك — أن السياسة تُحرم أحكامها ، عن جرأة الخاصة وإقدامها ، فكيف عن تبسّط أصاغر الرعية وعوامها ، وأن من لم يشقه الزجر بالموعظة ، نُبّه بالمعوبة الموقظة ، ومن لم يقوّمه القول الرادع ، أفيض عليه العقاب اللامع ، وكنا نحسبك تعرف سیرتنا فيمن أثار للفتنة ناراً ، ورفع للشر مناراً . هذا في الأمصار الممصرة ، والبلدان المكورة ، فكيف في أصغر بلد ، وأقل عدد .

وعرض قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، أدام الله تأييده ، كتاب خليفته أبي طاهر الفقيه بناحيته على الحكم^(٣) ، أسعده الله ، بذكر عظيم ما اجتراً قوم من الرعايا عليه ، وأجروا بسوء اختيارهم إليه . وإن المعروفين بابن حماد وابن علوية أخلاً

(٣) يريد خليفته على الحكم .

(١) الحمل : مال السلطان .

(٢) في الأصل : الحال .

بالبلد زائدين في هَيْج الأوغاد ، ومفترين بما سبق لهما في سالف الآماد . وورد لك كتاب بهذا الذكر ، دل على سوء التأتى لما وجب ؛ وقلة التهذى لما لزم ؛ وسائر ممالكنا شرقاً وغرباً أفسح بقاعاً ، وأوسع رقاعاً ، وأكثر أصنافاً ، وأشد خلافاً ، ولا اعتراض لذى مذهب على صاحبه ، بل كل فرقة تجتمع إلى زعمائها ، وتذهب إلى مذاهبها وآرائها ، فلا تشجع واحدة على منع الأخرى ، وإكراهها على القول بما تهوى . وكان سبيلك أن تعتمد إلى عشرة من هؤلاء الشُّمَّاط ، فتمشق في ظهورهم بالسياط ، وتنفيهم عن البلد نفيلاً لأوب معه ، ولا رجوع بعده . وأما هذان اللذان أخلاً ، فقد كان الوجه أن تتبعهما بمن يخرجهما إلى الحضرة ، مستوثقاً منهما ليدوقا وبال الفتنة ، ويعرفا مغبة سوء الدخلة ، وتقبض على دورهما ، وتحلّ مثل ذلك بأشياعهما وأوباشهما .

ولولا أننا نرى البُقياً أولى ما نفعت ، والرحمة أخرى^(١) ما نجحت ، لسكتبنا في أمر هؤلاء بما يجعلهم آية لكل جاهل بأمره ، معتد لطوره ، ألا تعلم هذه الطائفة أن الحاكم إذا صدر من حضرتنا فيده أعلى من كل يد ، وطاعته فرض على أهل البلد ، وأن المعارض له قد أباح من نفسه المخطور ، وجلب عليها التبار والثبور . ثم هذه المذاهب لا إيجاب فيها ، من شاء اختار منها ما شاء ، سر ذلك صاحبه أم ساء ، والاختلاف فيها موروث على الأيام ، منقول على وجه الزمان . وهذه تذكرة وتبصرة ، وحجة ومعدرة ، فليقابل الجناة بما توجهه السياسة ، ثم من عادلاً أنكرنا ، وأقدم على ما حظرنا ، فانظر كيف تزلزل روحه في جسمه ، وأرضه من تحتته . وليكن أبو طاهر — أسعده الله — وسائر ذوى المجلس على جهاتهم قبل هذه الفتنة ؛ وليرد كتابك بارتسامك لهذه الجملة ، إن شاء الله تعالى .

١٠ — وله إلى أبي عيسى^(٢) الكردي

كتابى — أطال الله بقاءك — ومولانا ، أدام الله أيامه ، وهنأه إعزازة وإنعامه ، كما تخطبه همته العالية ، وتوجهه كلمته السامية ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وهذا الكتاب أنشأته في أمر اختصَّ بعناية مولانا ومراعاته ، وعدَّته في خاصِّ مهماته ، فتدبره شديداً ، وتبصره مبدئاً ومعيداً ، واصبر على ما يشغل حمله ، ويخشن مسه ، فإنه مؤدِّ إلى صلاحك ، ومفضٍ إلى انتظام أحوالك ، فلا خير في مستلذ أعقب مكروهاً ، كما لا ضير في متكرِّه جلب محبوباً .

أنت — أيدك الله — تعلم أن الأمر الذي أرادك له مولانا بديناً ، وبذاته من نفسك مبدئاً ، حماية السبل ، وحراسة الطرق ، وحياطة الأطراف ، وتطهير الأطرار^(١) ، لثلايشغل سائر عساكر السلطان عما هو أخصَّ بخدمتهم ، وأولى بكدهم وملازمهم . والأمر في جميع ذلك جارٍ على خلاف ما أُصل ، وغير ماقلدِّ وأُمل ، فإن حاجتنا تشتد إلى إمدادك برجال ، تلزمنَّا على إنهاضهم أموال بعد أموال ، وقد فعلنا هذا سنة بعد أخرى ، وثانية عقب أولى ، ثم الحال لا يخرج بالكيف ، فإن المسالك آمنة ، والمدارج هادية ، وأنواع العيث مقبوضة ، ومواد الفساد مرفوعة ، مادمت بالبعد ، فما هو إلا أن تدنو أحنائك وأحوييتك^(٢) حتى ينجم الشر ، طائر الشرر ، متصل الضرر ، فتخاف المذاهب ، وتراع المسارب ، ويُقطع على الرُفق ، وتحتنك أبناء الطرق ، وتبسط اليد على الضياع بالإجحاف ، وعلى الأكرَّة بالاعتساف ، وتسلب^(٣) المزارع ، وتخرَّب المصانع ، والسلطان لا يهزبك على أن يدرَّ إنعامه ، ويستمر إكرامه ، ويتزايد اصطناعه ، ويتصل نظره وإقطاعه ، وثمره انتفاعه بخدمتك ، واستظهاره بمناصحتك ، أن يحتاج طول المصيف إلى الذب عنك بخواص غلمانه ، وخلص أجناده ، فإذا دفع في نحور الباغين لك السوء ، كَرَّ أصحابك على الرساتيق بالإفساد ، وعلى القرى بالخراب ، وعلى الطرق بالإخافة ، وعلى الأموال بالإحاطة .

وهذه الكتب قد رآلت من قم بأن الناحية التي وردتموها قد انتسفت ، وأن ارتفاعاتها قد أبطلت ، والأيدى على مزارعها قد بسطت ، وتعدى الشر والضر إلى الطرق بين قم والحضرة الجليلة ، فما سمع فيها بقطع منذ تراخت ديارك ، وبعُد أصحابك ، فلما انكفأت عاد الشر جذعاً ، والقطع مُقتبلاً . وهاهنا عذرٌ يتعلقون به كان يتلبس وقتاً ، ويتموه دهرأ ، وقد صار الآن بإخلاقه لا تخفى صورته ، ولا تفيض صفحته ، فإنكم تحيلون على

لأصحابه وتابعيه .

(٣) في الأصل : تسكن .

(١) الأطرار : الأطراف .

(٢) الأحناء جمع حنو وهو الضلع ، والأحوية

جمع حوية ، وهي ما تحوى من الأمعاء . استعارها

البرزيكان^(١) ، فمن ليت شعري يسمع هذا ويصغى إليه ، أو يعبا به أو يعول عليه ، بعد ما عُرِفَ في عام بعد عام كيف الطريقة ، وما الشاكلة والجديلة ، وليت شعري أن لا يرد البرزيكان مع بعادك ، وإنما يشارفون أوان اقترابك !

ورسم مولانا أن أخاطبك خطابا أستوفيه وأستقصيه ، وألقى الهوادة فيه ، لتروى في نفسك ، وتستحضر جوامع لبك ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتعجل إلى معالجة دائه ، قبل أن يستفحل فيفضل ، ويكثر فيغمر ، وتكف أصحابك إن كانوا^(٢) غامسين أيديهم معك في الطاعة ، ومجتمعين على^(٣) فرض الجماعة ، وإن يكونوا عاصين ، وعنك متباينين ، ولما تأمرهم به مخالفين ، برأت نفسك من عيوبهم ، وأخلّيت صحيفتك من ذنوبهم ، وأعلمت ولي نعمتك ، أطل الله بقاءه ، الذين حوربوا ذهابا مع الضلال ، وتعرضاً للوبال ، فإنه — أدام الله علوه — إذا هم بهم لحظة أخذهم الفناء قبل آجالهم ، وأصنفت البقاع والبلاد على استئصالهم ، وأوعز في إحلال النقات بهم ، وإعداد الأمثال لهم ، بما تعود في نظرائهم ، وعهد في أكفائهم ، حين راغوا عن المحجة القويمية ، وزاغوا إلى الطريقة الذميمة ، وكتب عليهم القتل والإسار ، أو النفي والحصار .

ولو أطلعتني عليهم^(٤) لكان كثير ممن يشمخ عليك بأنفه مُقَيَّدًا ، واقيد^(٥) مخالفك من جسمه مصفدًا . وقد كفلت عنك في المجلس المعمور ، وقلت إنك تبذل غاية المجهود ، وتصرف القوم عن هذا المسلك المذموم ، وتقوم بحماية قم وآية ، وما ينشعب إليهما وعنهما من طريق ، فلا يُسمع بداعر ، ولا يُخبر عن مفسد ولا فاسد ، ولا أحسبك تدع ضماني مرهونا حتى ترجمه بالاجتهاد مفكوكا . وأنا أتوقع الجواب ، فلا تعوّل على خطاب خال تسطره ، وكلام عار نُصِّدْره ، واقرن المقال بالفعال ، وقابل الأمر بالامثال ، إن شاء الله عز وجل .

(١) في الأصل : عليه .

(٢) قيد من جسمه : أخذ القود من جسمه ،

وفي الأصل : بقيد .

(١) البرزيكان : جماعة من الأكراد ، انظر

ابن الأثير طبع أوربا ١٨/٥١٨ .

(٢) في الأصل : كان .

(٣) في الأصل : عن .

الباب الرابع عشر

فى التنصل والاسترضاء وما يشاكل ذلك

١ - كتاب استعطاف وتشكر واسترضاء وتنصل

قد عُرض ماورد منك فى المجلس العالى ، فأيسر مولانا لما نشرته عن الأمير جملا ومصيلا ، وابتداء وترديداً ، أنساً لا يُضَم قطراه ، ولا يُذرك مداه ، وسره — أدام الله له المسار — ، وأحمده العواقب والمغاب — ما أبنت عنه من تمثل الحال فى الاعتقاد والاعتداد ، وصحة النية والوداد ، فذلك ما كان إرخاء السجوف دونه قد شغل القلوب ، وأخرج الصدور . وأما الذى تصرف فيه الأمير من تلك الأقوال الكريمة ، والمحاطبات الشريفة ، فهو وإن جاوز الاقتصاد إلى أبعاد غاية ، وأبلغ نهاية ، فى السرف ، ففیر مستبدع مع كرم النَجْر ، وشرف الطبع ، ومساعدة الإقبال ، ومقارنة التوفيق فى كل حال . والله يحمى هذه الوشائج عن لواحق الأيام ، وعوارض الأزمان ، ويجعل من تَثَقُل عليه ، ولا تُحَبِّب إليه ، نَهَب الصروف المتقسمة ، والخطوب المتوزعة ، بمنه .

وارنفع طرفى ، واستند أزرى لما ذكرت أنك أنهيته مجلياً عن عَنْدى ، ومودع صدرى ، وأنت تعلم بطول الصحبة لى ، وفضل الأنس عندى ، أنه لأحد من قريب وغريب ، كانت تلك العوارض على قلبه أشد ، وعلى نفسه أشق ، منى ؛ وأن صورتي كانت ، لما بعد نصورها ، وتراخى تقرّرها ، صورة المأخوذ عن نفسه ، المهرق بينه وبين قلبه ؛ وأن همى أجمعه ، وقصدى كله ، وشغلى معظمه ، بما زاد الأعداء قَدَى وعَوَراً ؛ وأنى أوتر فى خدمة الأمير ما أوتره فى خدمة مولانا ، ولكنى الرجل الذى يؤمن كيف يؤتى من اختلاف الحساد ، واختراع ذوى الإفساد ، وإن كان الله قد عود أن يكشف مكرهم ، ويحقيق بهم خَترهم ، ويظهر لمولينا أنى الأنصح جنيّاً ، الأحمَد غيياً .

وفلان قد عرفت ما حكيته عنه ، وقررت ما وصفته منه ، فجزاه مولانا الخير عن حق أداه ، وصدق أنها ، وصلاح ابتغاه ، وخير اعتمده ونواه . فأما اعتدادى بما خصنى به ذكرًا ،

وقولا صدقا ، فعلى حسب ارياحي^(١) متى تمثل اعتقادى على حقه ، وارياعى متى حُرّف عن وجهه .

٢ - وله فى إبطال متوهم الظن والإبانه عن السكون

إلى وكيد الوفاء والعقد

نَحْيَلُ الأمير مى اريابا بعصم عهده ، وفى التقدير عدل وطم . وظنّ نى امتراء بكرم وعده ، ومعص الظن إنهم ، ولو حال القمر عن مسراه ، وحرار الفلك فى محراه ، لما جوّت على ندله بخلا ، ولا تمثلت من عقده حلا ، إذ الأمير أفسح فى الحزم مدهما ، وأعلى فى العز مرققا ، من أن يُمرَّ أساب العصل ثم ينقصها ، ويمد أطناب البر ثم يقرصها ، كلا ! ومن جعل المحاسن محبوسة على محده ، والمحامد منقوصة حتى كُماها بيده ، ولكنى أعظم ما وهب الله منه ، فأخل رأيه على هجبة التكدير^(٢) ، وأعار على وفائه من جرأة المقادير ، وولوغ الشفيق سوء الظن داء قديم - ومعاذ الله - بل دواء كريم .

فأما المهم الذى أثار مولاي إليه ، واستحلف مباي عليه ، فإنى فيه عند حكمه ، وعبد رسمه ، ولو قدّرت ثم سخرت المحوم ، مهدنا سعودها إليه ، ومُفَرِّجاً محوسها عن يميل عليه ، لظننتى - نَعْدُ - قريبَ المطلب ، قصيرِ الباع والمنك ، فليسلم مولاي بمكاتبتى أمرا وهيباً ، يحمّدى جدّاً وسعياً ، إن شاء الله

٣ - وله تنصّل واعتذار وتشكر

كتانى - أطال الله بقاء الملك - عن سعادة مولانا الأمير المؤيد وانتظام أمور ملكه ، وانقياد مادنا ونأى لأمره ، وعافيتى فى كنف عزه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبی محمد وآله أجمعين

ووصل كتاب الملك قد مصل باتدانه ، رائداً فما أشكر من جميل رائه ، حمدت الله على ما رهن محضرته ، من خصائص نعمته ، ورعت إليه فى إطالة مدته ، لمكرمة يستأنفها ،

بعد أخرى يُسَلِّفها ، ومنقبة يستقبلها ، بعد مآثرة يحصلها ، والله سميع حبيب .

ولو أدبت الفرض غير معوّل على ما يعرفه الملك من عقيدتي في مشايعته ، ونبتي في متابعته ، لكانت كتبي تتصل إلى بابهِ ، ورسلي تحطّ بجنابه ، على اتصال الأوقات ، وتعاقب الساعات ، إلا أني كما أتخوّف الإخلال ، أتجنب الإملال ، وكما أشفق من التقصير والإقصار ، أتوقى مواقف الإِسْأَم والإِضْجار ، وعلى اختلاف الصورتين ، فإني أعتد ما فطرت عليه من موالاة ذلك البيت ، لا زال معمورا ، وبالمناجح مكنوفا .

وقد اعتد مولانا الملك بورود رسوله ، وما أوصل من خطابه ، وكان يجب أن يزيد في انبساطه واسترساله ، إذ كان — أدام الله عزه — في منأح الله قسيما ، وفي عوائد الله شريكا .

٤ — وله جواب شكوى واستجفاء وتأنيس بمكاتبة وإجلال

كتابي — أطال الله بقاء الشيخ -- عن سلامة ، قد أحسن الله الإمتاع بها ، وأجمل الدفاع عنها ، ووصل سوابغ النعم بها ، وأجزل حظ السعادة فيها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الشيخ فسرّني سلامته ، هنّاه الله إياها ، وأدام له أوفاهها^(١) ، بعد أن جمع إلى بعد الدار ترك المواصلّة ، وأحوجّ إلى الاستبطاء والمعاتنة . فأما الأمر الذي حكاه وشكاه فقد طال منه تعجبي ، وكاد إنكارى يسابق تنكرى ، لولا أن الخبر طوى عني ، ولم يُنْشَر لي ، وما حسبت الخفّة تستفزّ ذا سِنَّ وترشّم بالعلم لمثل ما وصفه الشيخ عن تسرّع ، ولا أن حق الهيبة يُنسى حتى يقع هجوم من هجم ، وقد كان يجب أن يردّع هذا الإنسان عن فعله أموراً : منها الاجتماع في دار الإمارة وعندها يمتدّ ظل من الانقباض لا يتحول عنه أهل العقول إلا بالتحول عن ذلك المكان . ومنها أن إطلاق اللسان بحيث يحضره قاضى القضاة ، أدام الله عزه ، بما يدخل لفظه التكذيب ، إخلالاً بقضية الوقار والتوقير . ومنها أن لكل أحد محلا في نفسه ومكانه ، وعندوا له وسلطانه ، وقد شاهد الخلق العظيم كيف رُتِبَ الشيخ عندى ، وموقعه من نفسى . وأقدر أن المنازل عند السلطان يُستدل عليها من

(١) في الأصل : وأوفاهها .

فعلى ، والمراتب تؤخذ أوزانها عن مجلسى ، ولا أبعد أن يكون السامع قدّر الشيخ معرّضاً به ، وتعريض مثله أشد إيلاماً من تصريح غيره ، فحمل نفسه على الخطر فى الانتصار ، وركب متن القدر فى الانتصاف ، كما يفعله من يسابق رأيه رويّته ، وبصره بصيرته .

والشيخ — أيدّه الله — شيخ أهل رأى بهذه السكورة ، ومن له لدى عظيم القدر والخطر ، وأنا على جملة التمتع على المحكى عنه سوء التلفظ ، ولولا أنى لم أعرف جلية الحال إلا من هذا الكتاب ، لما اقتصر على هذا القدر ، ولكن عودى يقرب ، بمشيئة الله ولى الأمر ، فتكون زيادتي بقدر تحقيق الحال ، لا لأن الشيخ مدفوع الخبر ، لكن حكم الله أولى عند النظر ، أو يوفق المسمى للاعتذار ، والحليم للاغتفار ، فلا ينقبض الشيخ مما اتفق ، فهو المحروس المسكان ، المخصوص بالتقديم والإعظام ، يتميز عندى عن كثير من الأكابر ، وخلق عظيم من الأمثال .

وهذا ينسخ جميع ما تكلم به مسرف على نفسه ، أو معند لظوره ، وليسرّ مع هذا بخبره ، وعارض وطره .

٥ - وله جواب تنفصل واعتذار من اجتياز هارب

والتخلية بينه وبين الحجاز

كتابى ، والأمور شرقاً وغرباً لموايينا : الملك السيد ، والأمير المؤيد ، منقادة ، والسعادة فى مصارف رايتهما وآرائهما معتادة ، وأنا بذلك موفور مسرور ، والحمد لله ولى النعم ، وسابغ المنن ، وصلى الله على النبي وآله وسلم .

ووصل كتاب سيدى فآنسنى الله بما سوعه من مواهبه ، وأحضره من صادق رأى وصائبه ، وعلمت ما اتفق فى مجاز الهارب وسلوكه مفاضة تلك المذاهب ، وأن الحال وافقت تفرق الخيل عن سيدى ، لانصرافه عن البيجار^(١) قريباً ، وإذنه لمن خدم فى تلك الوجوه طويلاً ، واستنفاده مع ذلك الطاقة ، فيما أظهر به الإخلاص والطاعة .

وأوردت الجميع بحضرة مولانا أحسن إيراد ، واستعضت من الاستزادة فضل اعتداد ، ومعلوم أن الوقت لو فسح فى استئابة العسكر ، لبلغ سيدى فى الحل ماسار به الركبان ، وطن

(١) لعلها تعريب بيكار ومعناها بالفارسية : الترع بالعمال .

بذكره البلدان . ومولانا من الثقة به على ما لا يتخلله امتراء ، ولا تعترضه شبهة يلتبس لها جلاء ، ومقامى فى حفظ الغيب ، وحراسة الاستنامة عن الريب ، المقام الذى يغنى — إن شاء الله — علمه ببيانته وبرهانه عن اقتصاص شرحه ، والإفصاح عن لسانه .

٦ — والـه

كتابى والأمير المؤيد مختص من نعم الله بأجمعها لأطراف السعادة وأوساطها ، وشرط الإرادة وأشراطها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي وآله أجمعين .
ووصل كتاب الأمير على عادة تشريفه لعبده ، وننويهه بذكره وقدره ، فتلقاه بالدعاء الذى هو جهد مثله ، والشكر الذى رضىه الله من خلقه ، على عظيم منته ، وانتهيت إلى ما حكى عن مواقفه كذا ، وعرضته بحضرة مولانا ، فضاق له صدرأ ، واشتغل فكريأ ، إذ^(١) لم يحسب أن مثله مما تسوّغ حكايته ، أو تصحّح روايته ، وهو رور مصنوع ، واختلاق موضوع ، وقد كانت الثقة مستحكمة بأن رياح المفسدين إلى ركود ، وجمراتهم إلى نخود ، وما حُسِب أن عواديتهم تُثمر ما سميع ، ونتج ما اخترع .

وقد قرأت ماصدر عن كذا من شرط ، ووعيت ما حكى من قول وعقد ، فلم ألحظ ولم أسمع مما ادّعى حرفا ، ولا عرفت من كلِّ بعضا ؛ ولم يكن بحضرة الأمير واصلا ، ولباه مكاتباً مراسلا ، فلا قبول بهذه الحضرة البهية له ولا إقبال عليه ، ولا فكريه ولا إصفاء إليه . وقد أنفذ فلان بغاية الاستبطاء والإنكار ، مع إحاطة العلم بما فى هذا الأمر من البهتان والبهت ، فقد حضر تلك الحجامع من كان يكتب بالإيماء واللمع ، والإيماء واللحظ ، فضلا عن مواقع الشرط ومساقط اللفظ .

والأمير يتحقق ما أنهاه عبده ، فهو — والله — القول الصحيح ، والحق الصريح ، وأنا أسأل الله أن ينزل حواضر نقماته ، على كل مستقل لهذه الألفة ، يُعمل لها المكاييد ، وينصب الراصد ، وإن كانوا سيردّون قريبا فى عشارهم ، ويُردّون بين سفارهم^(٢) وجفارهم ، ويحرس الله على موالينا أولياء النعم ، ترافد الأيدى واتفاق الكلم .

النصل ، والجفار جمع جفرة وهى الكنانة .

(١) فى الأصل : إذا .

(٢) الشفار جمع شفرة : حد السيف ، وجانب

٧ - وله تفصل واعتذار

كتابي - أطال الله بقاء صاحب الجيش - يوم كذا ، وسعادة أيام مولانا جامعة من النعم أحسنها^(١) ظهوراً ، وأحصنها وفوراً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش ، مفتتحاً من ذكر صنع الله الجميل إليه ، بما بدأنى قبل ارتهانه لديه ، إذ كنت أجد المنافع إذا خيئت بربعه ، مضافةً إلى ماسو غنى الله من فضله ، وقسم لي من منته . وعرفت ما وصف صاحب الجيش به الأحوال التي أثلها الله - تعالى - في الجنبتين ، ونظم بها ذات البين ، وهي مقدورة بقدرها ، ومكنوفة بالمصالح التي لا وفاء بنشرها ، ومتصورة في أرفع مراقبها ، وأعلى محالها^(٢) ومراتبها . ولولا أن الإسهاب فيما قد عُرِفَ مزيتها ، وتمثّلت جلّيته ، في رباط العمل ، وحصار التصنع ، وبمعزل عن فضيلة التحقق ، وجديلة التخصص ، لا تسع نطاق القول كفاء عقيدة النفس ، ووثيقة الصدر .

وصاحب الجيش مؤثر في كل أمر ماهو إلى جمال هذه الوُصَل أدعى ، ولحقوق فيها أرعى ، متعرّف البركة فيما يُصدر ويورد ، ويتبدى ويجدد ، والله لا يُخْلِي من خلوص مودته ، ويحسّن مآثر الأيام باطالة مدته . وعرفت ما قاله صاحب الجيش في معنى الضياع العتبية^(٣) بالرى ، معرفة تقدمها إشار الإيجاب على الرد ، وترجيح الإنجاز على الوعد ، ولو ورد من تلك الحضرة البهية في أضعافها ماورد ، لكان الإسعاف ملتزماً ، وتقريب المراد مقدماً . هذا إذا التمس لأفناء الأتباع ، ومغمور من الأشياء ، فكيف لمن يُكَبِّر قدره ويُفخِّم ، ويُجَلِّ محله ويُعَظِّم ، ويُرى توخى محابه ، وتحرّى إشاره في آرائه .

وسأذكر لصاحب الجيش ماعيناه برهانه ، ووضوحه بيانه : إن جميع هذه الأملاك والضياع ، صائر في أيدي الديلم بالإقطاع ، ولو أمكن حله في الوقت لما أرجى يوم إلى غد ، وقد صدق الاهتمام الآن بفكه ، وإعادته للواجب بحق ملكه . ورسمت أن يناظر الواحد بعد الآخر في قبول العوض ، والرضا بالبدل ، ليتسهّل في مدة سنة أو سنتين فضّ الجميع

(٣) العتبية : قليلة الخير .

(١) في الأصل : أحسن .

(٢) في الأصل : محلها .

من حيث لا تبحث نفوس الجند ، ويتيسر المرام بإذن الله عن قُرب . وقد مُحِّل فلان في جواب الرسالة مايؤديه ، ويقوم بحق التخليص فيه . ولولا أن صاحب الجيش عارف بأن الملتَمَس لم يقصد فيه المدافعة ، ولم تتوخَّ المراجعة ، وعالم بأخلاق الديلم ، وما يحتاج إليه مالكمهم من التأتي لحل أقطاعهم لانبسط القول في الاعتذار من هذه المهلة ، وإن كانت العِدَّة ، في ضمان الوفاء والثقة ، فإن رأى صاحب الجيش أن يتصور ذلك حق تصوره ، ويخاطبني بخبره ووطره ، فعل ، إن شاء الله .

٨ - واه

التجرّم - ياسيدى وخليلى - دأبُ من ضاق عطنه عن الأخلاق السمحة ، وتضائل ودّه عن الطباع العذبة ، فهو دائباً يخلق لإخوانه جريرةً يصلهم نار عَثَبِها ، ويولهم جانب عَذَلها ، والحُرُّ كل الحر من لحظ أحوالهم بعين تجمع إلى النصفة التسمح ، وإلى المَعْدلة الترخّص ، وإن شاهد جميلاً كثر قليله ، وإن صادف تقصيراً حَسَن قبيحه ، وقد نزّهك الله عن أن تكون مَعَنّاً وعِرِيضاً تنتهز الفرصة ، فما هذا التعدى الذى علقت أوثق أسبابه ، والتجنى الذى ولجت أضيق أبوابه ؟

وقد علم الناس كيف إيثارى إياك وإكبارى ، وعلمت كيف أباسطك فى خاصّ أحوالى وأسرارى ، حتى كأننا قضينا الشباب على تلاؤم ، وصاحنا الكهولة عن تنادم ، ومتى كان الإعراض الذى أشرت إليه ، والانقباض الذى نصصت عليه ؟ ومن هذا الواشى الذى يطمع فى إحالة حالك ، ولو قعد من الدهر على رَصَد ، ونفت من السَّحَر فى العُقَد ، فكيف حسبتنى ممن تستغزّه السعاة ، وتهزّه الوشاة ، إنك تستخف حلما ، لعل الأطواد الصمّ تشهد له بالرزانة ، والجبال الشمّ تبرأ إليه من الرصانة .

ولسلك ذى قلم جانب من البلاغة هو فيه أوسع عِناناً ، وأرحب جَناناً . وكنت فى العتب أفسح مجالا ، وأملاً سَجَلاً . وقد أردت أن أعاتبك عن عتبك فأطيل ، وأبدئ القول وأعيد ، وأذكر مافى هذا الباب من المذام تضادّ محاسنك ، وتحادّ مناقبك ، ثم كففت وصدفت ، واقتصرت وخففت ، نم وزعمت أنك قد أكرثت على فسئمت ، وأطلت

فتبرمت ، ولو شئت لقلت : إنك أردت تهجينى ، فبدأت بنفسك ، وتبخيلي فتعاملت على فعلك ، إذ قد علم الناس خلاف ماحكيت ، ودروا أنى بمنآة مما ادعيت ؛ أوجب لمن ضمه إلى السبب الضعيف ما يوجب للأخ المشابك فى الأرومة ، المشارك فى الخؤولة والعمومة .

وإنى لا ألومك على الانقباض لوما يرينى فعلك لوما ، ولَبَوْدَى لو كُفِّتْ مع كل صباح ، تنفّسَ ، حاجاتٍ تعادّ الرمل ، وتناسب القطر . فهذا هذا والقستان قد وقعَ فيهما بما رأيت ، وإن سألت فى الالتماس بأمرٍ من العلم ، وأضرّ من الأرقم . وكل ذلك تأتى به مقبول ، وعلى جانب الأنس محمول ، لاعدمتك .

٩ - وله

وصل كتابك ، وعرفت ما كتبت به فيما استقبحتّه ، وأثبت^(١) من استبطاء قلته ، وأنت تعلم أن ذلك ليس مما فعل على تمكين وإيثار ، ولا بُدَى فيه باستبداد واختيار ، ولكمك أشرت به ملحفًا ، وأبدأت وأعدت بذكره مستسغفا ، وزعمت أنه جميل ، وموقعه لطيف ، وإلا فمولانا إذ أوجب أن يُتَّعَدَ مثل فلان ، درى كيف يفرى القرى ، ويُجزل البر السنّى .

وقد أنهيت ماورد منك فعجب مولانا من أوله إلى آخره ، وموارده ومصادره ، وقال : فلان بدأ بالمشورة ، وحكم بمقتضى الصورة ، وهو الآن يقول ويطلق ، ويبدى ويعيد ، ولو خلت أولى سفاراتك عنا وسفاراتك مما ينتج موجدة ، ويصرف محمدة لجاز ، ، فقد كان فلان على كبره ، وخطر سنه وفضله ، وُبُعد مسافة الذين استنجدوا من عنده ، روسل دفعتين ، فما جرى بعض هذا التخليط والتبكيك ، والله الكافى والمعين .

١٠ - وله

قد صار مولاي يظن بى الظنون ، عادلاً عن علمه بباطنى وظاهرى ، ويطيع فى الرّيب^(٢) مع اختياره لشاهدى وغائبى ، وما كنت أحسبه — لو رآنى على حالٍ منافية

(٢) فى الأصل : الرّيب .

(١) فى الأصل : استبطاء .

لموالاته — لا يكذب حسه ، ولا يغالط نفسه ، رجوعاً إلى فطرة أمرى في مودته ، وبادئة حالى فى طاعته .

يظن مولاي — وبعض الظن إثم — أن كتابه يرد على فأغفل إجابته ، وأهل مخاطبته ، ثم لا يرضى ، وقد أطاع سلطان التهمة ، وكدّر صفاء الثقة ، حتى يفصح بذلك ويصرح ، ويعقد الخنصر عليه ويحقد ، ويقول : لعل فلانا يميل إلى أن أخفف عنه ولا أثقل ، وأغبّ مكابته ولا أدمن .

هذا وقد علم الله أنى لا أرى أعطافى مهتزة ، والدنيا فى عيني عضة ، وأيام الشباب طلبة إلا إذا طلعت كتبه واردة ، ونعمه بها متجددة ، لاسيما إذا نفتحت فيها زهرات خطه ، وأجنت بينها ثمرات لفظه . ولو كنت أعق من ضبّ لما تركت استمداد الفائدة من مخاطباته ، ولا سمحت بانقطاع العائدة فى محاوراته ، ولكن مولاي ربما انحطّ فى هوى التشكك ، وعلت عواديه على دواعى التحقق ، ووقع له أن الصديق ينزع مغرّضه بلا علة والولى يخنع ملبسه بلا شبهة ، ولو جاز على الحقائق الانقلاب لما اعترضت طاعنى لمولاي مزية ، ولا تبدّلت لمشايعتى إياه صورة .

ولوعلت أن كتابى تمتد إليه أيدي السبل ، وتحكم فيه هتات الطرق ، لحملته بنفسى ، وأوصلته بيدي ، ومتى قلت لمولاي : إني لم أخرج صدراً ، ولم أعدم صبراً ، عند كتابه الذى خاطب به سيدى أبا محمد ، بجرحنى وكأنه يداوينى ، ويكلمنى وكأنه يأسونى ، فقد كذبه عن نفسى وما صدقته ، وذلك لأننى إذا رددت طرفى وكررت لحظى كثيراً ، واستنهضت فكرى غائراً ومنجداً ، وصرفت خاطرى متهماً ومُشْتَبِهاً^(١) ، لم أرلى غير سيدى قبلة أقابلها بثقتى ، ووجهة أصرف إليها استنامتى ، وسنداً متى أردت كان ولياً وعضداً ، ومتى شئت كان أخاً حديباً . والشأن فى أن الكتاب مفتتح لمهمّ سلطانيّ أردت شغل الفصول به وقصرها على ذكره ، ثم أبى الصدر إلا نفثة ، والسقاء إلا رَشْحَة .

(١) فى الأصل : ومشاما .

الباب الخامس عشر

في الشفاعات

١

كتابي ، أيها القاضي ! — أطل الله بقاءك — أفردته بذكر أولاد أبي القاسم بن مقرن ، أيدهم الله ، وهم في القرب والقربة ، والحظ والحظوة ، أولادي ، وصنائعي وتلادي ، ومن حقهم أن أخذوا الحق عني ^(١) ، واستفادوا دلائله مني ، ومن اعتقد كاعتقادهم فليجتهد وليجاهد في الدين كاجتهادهم وجهادهم . ثم قد حصل لهم مع الدين الستر الثخين ، والعقل الرصين ، وجدد أبو العلاء ، أيده الله عهداً ، وتجشم عن نفسه وشقيقه مشقة وقصدا ، فصار الحق ضعفاً ، واستضاف مثلاً فمثلاً . وطرفاهم في العدالة والسداد مُعلَّمان معلومان ، ولولا أن تفضيل الخلف عن السلف ، قد كرهه كثير من أهل الفضل والشرف ، لذكر تفاوت ما بينهما ، وبين كثير ممن فرط لهما .

والأقدمان في السن أبو علي [وأبو العلاء ^(٢)] وسيتقدمان ، ما بينهما من الوفاق ، مستجدٌ إزار ، وإن كان أبو الحسين زيد الثالث يجمع من فضائل الدين والدنيا ما ينشد معه فيه وفيهما :

من تلق منهم نقل لا قيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى
هذا ما عرفت ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، فليكن إيجابك أيها القاضي — أيده الله — كفاء
إخباري عنهما ، فسيزيد الاختبار من لفظهما على ما قدمت به ، والسلام .

٢ — وله عناية بذوى ^(٣) الحرمات

وللوسائل اختلاف درجات ومنازل ، ومن أولاهم بتحقيق الخطوة ، وأجرهم بتقدم

(٣) في الأصل : لذوى

(١) في الأصل : مني

(٢) زيادة يقتضيها السياق في هذه الرسالة

الخطوة ، مَنْ ورد أعذب شريعة ، بأوكد ذريعة . وتحمل فلان كتاب فلان إلى حضرة مولانا وإلى ، بما أظهر مواته وحرماته لدى ، فلما خيّرته في نوازع الأمد ، ومضارب العمل ، كان أقصى مراده ، ومنتهى ارتياده ، أن مخاطب مولاي بذكره ، وأستكفي عنايته لاهتمام أمره .

هذا وله لديه ذمام البلدية ، إلى دواع يحكيها مَرَعِيَّة ، فليؤله مولاي من إقباله واشتماله ، ما يُظفره بأمانيه وآماله ، فلولاً رجاؤه الذي لم ينزع إلا إلى أرجائه ، ولم يحوم إلا على فنائه ، لكان فيما أورده منتجع بحضرتنا مَرِيع ، وظل من الإحسان ظليل . والله تعالى يحسن توفيق سيدي لما يطيّب ذكره ، ويُعرف بشره ، بمنه .

التوقيع فيه

إذا اجتمع إلى نباهة الوسيلة ، وجاهة الحرمات الوكيدة ، كان نيل الأرب فيه مستجيباً عن كُتب ، فليَرعَ مولاي لهذا الفتى حسنَ ارتياده والتماسه ، وإيهمَّ بتقديمه واختصاصه ، فقد رضى بعد تنجز الكتب من الحضرة بأن يكون ثمرة سَفَره ، وعائدة أمله ، ما خاطبت به سيدي في معناه ، وحقيق مثله بأن لا تخطئه مناه ، وسيدي — أدام الله عزه — مَلِيٍّ بخلافتي في قضاء حقه ، وإنصافه من دهره .

٣ — وله تقرّظ وعناية وإخبار عن شكر متحمّل نعمة

أنا أحمد الله الكريم إذ أطلق الألسنة بمناقب مولاي تابعة للإجماع ، آمنة من النزاع ، حتى البعيدُ الدار منه ينشر ما ينشره الداني الجوار .

وورد لأداء الفرض المكتوب من الحج فلان ، وهو من أعيان كتاب خراسان ، ومن أشاب نواصي الأيام في مهمات ذلك الديوان ، فرأيت منه محاسن دراية وصيانة ، وديانة ورزانة ، وأدى التفاوض إلى ذكر من يضمه العصر من أفراد الصناعة وآحادها ، وأركانها وأعمادها ، فأعلمته أن ذلك حضارٌ لسيدي سَبَقُه ، وفي يدي حقه ، ولقلى رقه ، وحسبتي مُقرباً عليه ، مُبدِعاً فيما أهدى إليه ، فإذا هو من رواة فضائل سيدي وحَمَلَة إحسانه ، والمنبئين

بمزية إيجابه وامتنانه ، وصار ما أخبر به وعبر عنه نسباً أذناه إلى ، وأعزّه على ، إذ الثناء بمباح سيدى دين أذب عن صحته ، وأوالى كلّ نجّل عن صفحته .
وقد عرفت سيدى بعض ذلك فى خاص كتبى إليه ، وأحببت أن يرد فلان بسائره عليه . ومولاي أهدى لإتمام منة تولى إنشاءها ، وأولى بإتباع الدلو رشاءها .

٤ — ولىه

جناب مولاي مثابة العلم ومحتمليه ، والفضل وأهليه ، فهم أين غابوا آبوا إليه ، وكيفما جولوا عولوا عليه . ومن اجتمع له إلى مزية درايته وأدبه أولية شرفه ونسبه ، اهدت محضرته يده إلى أمه فلم تضلّ ، واستقرت قدمه فى كنفه فلم تزلّ ، لازال ذاك كذلك .
وفلان فضيلته وسيلته ، وشاهده رائده ، فهو واحد بنى أبيه فى العلم ، وفرّد ذويه فى التحصيل والفهم ، حتى إذا قلت : لا أعرف فى الأشراف — أيدهم الله — بالعراق من يساويه فى المعرفة بل بدانيه ، قلت ما يلوح بيانه ، ويقوم برهانه . وليس ممن وقف لأحد من مقامسى الأعمال أيام الظلمة بيباب ، أوتعرف إليه بسبب من الأسباب ، بل اشتغل بتدريس أو دراسة ، وحجّ أوزيارة ، وانعقدت بينى وبينه أحوال ، لولا غرة الهاشمية لقلت : إنها تفوق اللحمة الواشجة ، والرحيم الدانية .

وكان خرج إلى طبرستان لمعيشة له بها من وقف فأقام برهة ، ثم آثر الأوبة ، وقد كان استسلف عناية من مولانا الأمير ناصبهان بحضوره مجالس النظر بمحضرتة ، وكلامه لمن شرّع فى مكالمته ، ورسم مخاطبة الحضرة بذكره ، والإنباء عن الرعاية الصادقة لحقه . وعولت به على مولاي كما أعول بنفسى ، وكشفت عن صفحة ما أعرف من فضله ، وصحيفة ما أحمّد من وده . وغرضه من بين أغراض بنى جنسه أن يكون ملحوظا فى وطنه من الكوفة بأغزاز وتمييز ، وإكرام وتقدير ، ليظهر عليه أثر تخصّصه بالعلم الذى أنقّب الله فى الدولة القاهرة ناره ، ورفع مناره ، فإن رأى مولاي أن يحتمل تطويل بتطوله ، ويسبغ عليه وعلى ثوب نفضله^(١) ، فعل ، إن شاء الله .

(١) فى الأصل : تطوله

٥ - ولله

كتابى وأمر حاضرة مولانا الأمير المؤيد مستقيمة ، ونعم الله علىّ فى خدمته الشريفة عظيمة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
وقد عود الله ، وعز اسمه ، أن تكون المصالح أين سهلت سبلها ، والمحاسن أى وضحت طرقها ، منسوبةً إلى أيام الملك السيد ، ليتصل الدعاء ما اتصل الليل والنهار ، ويدوم الثناء ما اختلف الظلم والأنوار ، والله يحرم دولته القاهرة من شوائب القدر ، ونوائب الغير ، ويكنفها بالبقاء ما بقيت الأمكنة ، ونطقت الألسنة .

وكان انفق على تجار أصبهان ، من القطع فى طريق خراسان ما انتشر خبره ، وساء على أكثرهم أثره ، وأنتمهم البشرى بأن القفص^(١) الذين باشروا ذلك^(٢) جُدّ من كرماني فى طلبهم ، وتيسر الاستيلاء عليهم والظفر بهم ، واقرنت النكايه فيهم ، بارتجاع ما فى أيديهم ، وتصرفوا من الدعاء لمولانا فيما الله ولىّ استماعه والإجابة إليه . وسألوا أن أخطب مولاي شاكرًا ، وراغبًا فى الإنعام بإعادة بضائعهم إليهم ، بل التصديق بها عليهم ، فإن ذلك من أقرب أبواب القرب ، وأدعاها إلى الثناء الحسن ، لا أن مولاي يحوج ملتئم الخير عنده إلى شافع ، ولكنهم عرفوا ما جعنا الله عليه من الود البالغ ، وعودنى منه فى كل أمر سائح ، فمالوا مع الاستظهار ، وملت مع الاسترسال ، فإن رأى مولاي أن يأتى فى ذلك ما تحدوه عليه تلك الشيم الطاهرة ، والمكارم الظاهرة ، ويخطبني بخبره وأمره ، فعل ، إن شاء الله .

٦ - ولله

لولا ما أخذته على نفسى ، وقدمت فيه نذرى ، أن لا أمنع علويًا عن مطلب يتسع له مالى ، أو يضطلع به جامى ، لكان ما التمه أبو عبد الله الحسين بن العباس الرندى ، أيدى الله ، من مخاطبة مولاي الشريف ، أطال الله بقاءه ، [حرّيًا^(٣)] أن أستدّم

(١) لما أصار القفص أمس الحالى

(٢) فى الأصل من ذلك

(٣) زيادة يقتضيها السياق

(١) القفص جماعة من الناس فى كرماني يزلون جبلا

بهذا الاسم ، وقد جاء ذكرهم فى شعر المتنبي يمدح

عضد الدولة فى أرجوزته اللامية إذ يقول :

فيه بالمنع ، وأدفع في صدر الإيجاب بيد العذر ، فمكاتبة من لا يكاتب غيرةً في العقل ، وتقيصة في القدر ، لا سيما ممن عسى أن يقبض بنانه مكاتباً ، بقدر ما يبسط راحته واهبا ، إلا إذا اتفقت مخاطبة مثله من الأعيان الأفراد ، والأركان الآحاد ، ولكن لا بأس ، فإنه إن استمر على الخلق الوعر ، جعلت كتابي هذا بيضة العُقر .

وبعد أو قبل فهذا الشريف حَسَنُ الهَدْيِ والستر ، جميل الطريقة والأمر ، منقطع إلى جانب العفاف والعلم ، وأراد المشهد^(١) — صلوات الله على ساكنه ، ورحمته على زائره — وسأل أن أحبه كتابي إلى الشريف سؤالا ، أفضى فيه الإلحاح ، إلى النجاح ، والإتحاف ، إلى الإسعاف . والشريف وليّ ما يوليه ، كما يستحقه بنفسه وسادتنا من أوليه ، إن شاء الله .

٧ — وله

قد علم سيدى أن اهتماى بما يخص أعماله ، ويُقَرَّبُ آماله ، لا يتميز عن اهتماى بأمسٍّ ما أراعيه ، وأعمل الفكر فيه ، فذلك أستجيز مخاطبته ، ومراسلته ، بما هو وإن ثقل بعض الثقل ، وزاد في طائفة من الشغل ، فهو أجل مرجوعاً ، وأحسن مسموعاً . ومن خاص ذلك أمرُ أبى القاسم فهو صنيعة ذلك البيت وتليده ، ورضيُّ ذلك الجنب وعقيدته . والعنار قد يعرض ثم لا يستمر ، والزلل قد يعنُّ ثم لا يستقر ، وكيف جرت حاله فقد فرغ إلى ظلى ، واعتصم بحبلى ، واعتمد كلامى ، واستظهر باهتماى .

وسيدى يغطى بهذه الذريعة على كل جريمة ، ويقدم هذه الوسيلة على كل عظمة ، ويكفِّم الفيظ فهو أشبه بفضل ، ويستعمل الحلم فهو أليق بخلق ، ويعيد أبا القاسم إلى كنف إيجابه ، ويحقق مسرح أمله ومسرى طلابه ، فقد أنهضت فلانا متحملاً في بابه ، مالا يُستكثر من سيدى بين شفاعتى وإيجابه ، فإن رأى أن يأتى في ذلك ما هو المهود من مذاهبه ، المأمول من ضرائبه ، ويخاطبني بخبره وأمره آنس ما أترقبه وأنتظره ، وأولى ما أقدمه كما يؤثره ، فعل ، إن شاء الله .

(١) المشهد : مشهد الإمام على الرضا في خراسان وهو الذى تسمى باسمه اليوم مدينة مشهد

٨ - وله

كتابي - أطال الله بقاء الأمير مولاي - ومولانا مؤيد الدولة ، أغر الله رايته ، ونصر كلمته ، ممدود أروقة الملك ، معمر أفنية العز ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

والأمير بما أوتي من مناقب جمعت محاسن الآراء والحكم ، وفضائل السيف والقلم ، يتصور الأمور بصورها ، ويتخيل عواقبها من غررها ، فيعلم أن مولانا يؤثر له ما هو في الصيت أحسن وأجمل ، وفي التدبير أقوم وأعدل ، وربما كان بعض ذلك مثقلا بعض الثقيل ، ولكنه أحزم عند التدبير والتحصيل .

وفلان الرجل نبهت تلك الدولة عليه ، وجذب ذلك البيت بيديه ، فكان ، ما أقام ، حميد الأسماء ، رضى الأنبياء ، ثم عرض ما قد يتفق مثله ، فإذا حسن نظر الله وصنعه ، أخذ بالفضل من أغر نصره ، وأنفذ أمره . ولولم يكن له بحضرة الأمير حق محفوظ ، ولا ذمام ملحوظ ، ولا سبقت خدمة تستعطف الحلم عليه ، وتستصرف الإغضاء إليه ، لكان التجاؤه إلى هذا الباب العظيم ، والظل الظليل ، يمهده له عند الأمير حالا مستقبلة ، ومنزلة مؤتلة ، ولجللت هذه الوسيلة مواقع الاحترام ، وأوردت مشارع الإنعام .

وقد أخرج مولانا فلانا بذكره ، وحمله رسائل في أمره ، والأمير يصفى لها إصغاء مثله ، ممن المحاسن في حصنه ، والحمد بين قوله وفعله ، ويراجع أكرم خواطره في معناه ، وأجل ما يستصيبه ويراه ، إن شاء الله

٩ - وله

وصل كتاب الشريف ، فكان هلال عام ، وزور إنعام ، وعهدى بمخاطباته تفوت القدر ، وتكاثر القطر . على أن الثقة بوجه تدفع في صدر العتب ، وتوجب حمل التقصير على كاهل العذر ، وإن كان الأسف على بعده سميرا لا يحمد ، وسميرا لا يحمد ، وقد يعتب الزمان ويرعوى الدهر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

وأما فلان فقد أنشئ له أمان ، لا يُحذَر معه الزمان ، وسيناله من عواطف الجميل ، وعوارف النظر الحميد ، ما يتجاوز أمله ، ويسبق ما طَلَبَ وطَلِبَ له ، وكيف يجوز أن يحظى بغير الإحسان والحسنى ، وقد خففته من الأمير ملاحظة أسكنته حرماً لا يُرَاع ، ونالته من فلان محافظة أوطنته كنفاً لا يضاع . والشريف شفيعه ، وهو المشفع الذى لا يُدْفَع ، والمتَّبِع الذى لا يُمنَع . إلا أن الشريف يأمره بسرعة الانصراف ففى إبطائه ، ما يبعث جرأة أ كفائه . وفلان نعم الوافد ، والرائد ، وألفيته حسن الفهم ، جيد الوعي لما بطرقه من العلم ، ولن يَرِدَ عن فلق الصبح ، إلا من اكتسب من ضياء الشمس . والشريف ولئى مخاطبتى بخبره ، ووطره ، إن شاء الله .

١٠ - وله

الدول — أطل الله بقاء الأمير --- منائح يداولها الله تعالى بين الناس ، إلا أن فى أربابها من يجمع به أمانة العام إلى سعادة الخاص ، وذلك بفضل يؤتونه من العلم والتميز ، يستحلى ثمراته أهل الشرف الأصيل والفهم الصحيح . وذلك مشهور يُرَافِدُ العيان فيه منقول الخبر ، ويعاضد المشاهدة عليه مأثور السير ، والأمير من الأفراد الآحاد ، الذين خلصت لهم الفضائل ، فسعد بهم الأفاضل .

والشريف الحسينى أبو الحسن على بن محمد ، أيداه الله ، ممن أشهد له شهادة قاطعة ، جامعة ، على تمنيه أيام الأمير حتى لولا طلوع شمسها لما عاود تلك النواحي ولا طرَقها ، ولا راجع داره بها ولا سكنها ، إلا أن الله حقق مناه ، وأراه قصارى ما كان مبتغاه ، فاعنم الخروج لأمر ثلاثة : أولها كرم الأمير ، فهو المفزع والمُنْتَجِعُ ، والربيع والمُرْتَبِعُ . وثانيها أنه يختص بى الاختصاص الذى لولا حلوله من بيت النبوة ذروة النسب ، ومن مقر الوصية يفاع الشرف ، : لقلت : إبه الولادة أو الصق ، والأخوة أو أقرب . وثالثها أن من ناهض أملاً ، وقدم فى الرجاء سلفاً ، بازعته نفسه إلى أن يشاهد موقع تأميله ، محفوقاً بإنجاز الله وتحقيقه ، فإن يكن الأمير مشفعاً لى كتابا ، وعاجلاً للإنجاز جواباً ، فهذا . والأمير مولاي يوليه ، ويولينى فيه ما أعدّه فى بيض أياده ، ويصرِّفنى على أمره ونهيه .

١١ — وله تنصح وتشفع

أطال الله بقاء مولانا الأمير ، سابغ العز ، ساطع مطالع الملك ، والحمد لله ، وصلواته على النبي وآله .

وقد تصور لاريب أن مولانا ، أعز الله كلمته ، يؤثر في الأمور التي تخص تلك الأعمال ماهو للأمير أوفق ، وبرضاه أوقع ، وإلى مباغيه أقرب ، ولذلك رسم لي أن أخطب بذكر فلان ، إذ ترك أمره سُدى مما لعل الرأي لايسوِّغه ، ومغادرة المتصلين به في جانب الخلاف مما الحزم لايرخصه . وإذا استخلص الجماعة لخدمته ، واستفادها إلى طاعته ، ووقفها لأمره ونهيه ، واستضاف مافي أيديها من المعامل إلى يده ، من دون أثقال تنجسم ، وأعباء تتكلف ، وأيام تتدافع ، وآجال تتطاول ، كان ذلك أولى فيما يتجلى لنا من الرأي وبين ، وإن جاز أن يكون هناك ما يغمض عنا ويغيب .

وكان فلان يلتبس في معنى فلان ضرر وبافيا سرف وشطط ، فدفع عنها ، ومنع بصريح القول منها ، وأعلم أن الكلام^(١) في بابه لا يقع بعد الأحوال التي وكَّد الله مبانيها ، وثبت رواسيها ، إلا من طريق الشفاعة له ، وبعد أن يُخَصَّص في موالاة الأمير نيته وعقده ، فلما تجلَّت له الصورة ، وتمثل قدر المعوبة ، وعلم كيف يجب أن يلتبس ، وأقلع عن أن يقترح^(٢) ويحتكم ، أمرني أن أخطب الأمير بأن فلانا وإن زلت به القدم ، فله في ذلك البيت الخدمة والرحم ، وهو الرجل الذي كان الماضي رفعه ، واصطنعه ، ونوّه به ، وبته عليه . وإنما تسلف الذم ، وتقدم العصم ، اتنفع عند زلة تنفق ، وتنقذ عند هفوة تتجه ، ولولا هذه الحال لما عُرف كيف تغلب الوسائل على الجرائر ، وتقدم الذرائع على الجرائم ، ولا أثرت قضايا الصفح ، ولا علمت مزايا العفو .

وقد أبى الله إلا سوق الأمر إلى من أوتيه بحق ، وأعطيه بفضل ، فمن فرض إحسان الله أن يُتعمد المسيء بالإقالة ، ويُتعمد جرمه بقبول الإنابة ، ويؤثر من كرم الظفر ما هو أليق بأداب المجد والشرف . وعسى أن يكون الصواب في أن يستعاد آمننا على نفسه والمتصلين

(٢) في الأصل : يعتج

(١) في الأصل : مافي

به ، ويُجَرَى في حسن النظر والطَّعْمَة على رسمه ، ويمكَّن من الانفراد بحضانة فلان ، ويُجَرَى ما يسمَّى له على يده ليوقِّ الأمر فرضَ التعبد ، ويبدل المهجة في ضروب التقرب ، ويقود الذين في حصنى كذا وكذا إلى تسليمهما ، والنزول عنهما .

وهذا أمرُ الأميرِ مولاي أعرف بمضاره ومنافعه ، ومصالحه ومفاسده ، فإن استوفقه أنعم بتعريفى إياه ، لأتوسطه وأتولاه ، فإنه يجمع قضاء ذمام من شبَّ في خدمة سلفه وشاب ، ودرج في تحمل البيجار^(١) لهم إلى أن شاخ ، وهو مع تظاهر الحرمة مستظهر بأصرة اللحمة ، واستصفاء بقية تلك القلاع مع عظم قدرها ، وغثامة ذكرها ، وإزالة شغل القلب بها ، إذ الأمر إذا أمكن قوده إلى المراد من طريق مُكشَّبة^(٢) ، ومنازل مُضحَّبة^(٣) ، فلا وجه لتحمل الكلف ، ومدافعة المدد ، وترك النظر في العواقب والعقب .

وهذه الأحوال إذا رآها الأمير مولاي وأمضاها جمع إلى ما اقتصصته الاستمداد من اعتداد مولانا ، فيمن استجار بالكرم الذي لا يضاع آمله ، والحرَم الذي لا يُرَاع نازله ، وقد خاطبت فلانا بما يذكره ، والأمير يتدبَّره ويدبَّره ، فإن رأى أن يتفضل ، ويتمثل ما قلته في ممرض ما يراد الحظ فيه لأعماله ، واجتماع كافتنا في صفقة اختياره ، ونظَّم السكلم من أهلها على طاعته ، والإصفاق على مناصحته ، فعل ، إن شاء الله وحده .

(٣) في الأصل : مصعب

(١) التبرع بالعمل
(٢) في الأصل : مكثب

الباب السادس عشر

فى توصية العمال بتجلب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة

١ - كتاب ضر ونفع

كتابى ، ونعمُ الله بالحضرة العالفة متوالفة ، والكلمة بحمد الله عالفة ، والحمد لله وصلواته على نبيه محمد وآله .

ورسم مولانا الملك أن يُعرَف انتقال معاملة (ماه الكوفة^(١)) إلى ديوان مؤيد الدولة ، وإنى استوهبتك لتباشر من مهمى ما أعتد له قيامك ، وأرضى فيه منابك ، وأُخرجت إلى بواقٍ من الديوان المعمور اعتدَّ بها على وكيل مولانا . ويجب أن تباشر العمل مباشرة مثلك ، وتقيم فيه غاية جدك ، وتستنفذ نهاية طوقك ووسعك ، وتجعل من أول كدحك وهمك أمر العمارات ، والزراعات ، فأيامها قد ضاقت أوفات أو كادت ، وترقه الأكرّة ليقبلوا على تمكين تلافى الحال به ، واستحفاظ ارتفاع سنة سبعين معه . وقد بلغنى أن عنتا يلحقهم ، ولا عذر الآن بعد نفوذ الخطاب العالى بانتقال المعاملة ، وتضمن العمل بالبقايا ما تضمن إيجادها للوكيل .

وهذه البقايا عليك حراستها وتحسينها ، وما احتجت من ذلك فيه إلى مزيد استثمار ، فإنه إلى الشيخ مولاي ، فإنه — أدام الله عزه — رَسَمَ تقرير هذه البقايا وجمعها للوكيل ، وناب فيها عن مولانا مناب المخلص الخالص . وأنا أنتظر ما تأتبه ، وتزكى شهادتى فيه ، فقد كتبت إلى حضرة مولانا بوصفك ، وذكرى سابق حقك ، وقلت : إنى أستوهبك لما عرفته من سدادك ، وحسن قيامك بما يُفَوَّض إلى منابك .

وفلان يزيدك توقيفا وتعريفا ، فقد فاوضته ما علمت أن الشفاء فيه أبلغ وأنجع . وأشع مع ذلك فى الرعية ، حرسها الله ، ماخرج به الأمر العالى ، أنفذه الله ، وعِذْهم عن كرم

(١) اسم آخر للدينور ومر سبب تسميتها بذلك فى ص ٦١ .

مولانا مؤيد الدولة بالإحسان والإينام ، والعدل والفضل ، وعنى بما يضاهاى هذه السيرة الشريفة ، وتقتضيه أمثلة الدولة السعيدة ، وابتلع في تألف الأكرة والمزارعين ، واستعادة الشاردين ، ما هو قوام الصلاح ، ونظام السداد ، وواتر كتبك إلى ، على نسق الأيام ، وقد أمرت أن يُنسخ لك — آخر كتابي — الفصل من الحساب المتسلم من الديوان المعمور ، بذكر البقايا المختصة بعملك ، لتعرف ما يلزمك في ذلك .

٢ — ولىه

ورد من مولاي أبى فلان بذكر عمال الأرصاد ما كان تطلعى وفقاً في سبله ، وفكرى موكلاته ، فلم يقنعى ما أتاه ، ولم يكفى ما كفاه . فإن ذلك الكويكب دامت أيامه في العمل ، وطالت به نوازع الأمل ، وغرّه ابن العاملة ، وأمن خشونة المقابلة ، واستعان بكل متبرم يمينه ، مخاطر بوتينه ، لا ينزع عن ذميمة سجيته . وسبيل سيدي أن يتجرد للجماعة بنفسه ، ويستكشف أحوالها بجدة ، ويسمح لخصومها في المقال ، ويضعى [إلى ^(١)] ما يرفع عليها من يمين وشمال ، ثم يجمع لجناتها بين التفرير ، والتنكيل والتقويم ، حتى يسمع الأبعاد عنهم تضاعفهم ، والسياط تمشق في ظهورهم ، وتخط على جنوبهم ، وترسب في مفاصلهم ، وتختضب بالعبيط من جوارحهم .

والرصد ليس بذى أصل ترد إليه رفوعه ، ولا ارتفاعه بما تنبّه عليه نقائصه وخصومه ^(٢) وإنما هو نفّسة أوقات ، وفرص لحات ، فإذا لم تكن على الأيدي أغلال مخافة ، وحدائد مهابة ، فالمال نهب ارتفاق ، وغرض إنفاق ، إذ هذه الطائفة عبید أيامها ، ومبذرة حطامها في وجوه آثامها ، وإن لم تراعى أحوالها طراد الساعات ، نظرن الارتفاع في أعقاب نجوم غائرات .

٣ — ولىه

كتابي ومولانا الأمير كما يؤثره علاء نجم ، ومضاء حكم ، وأنا سالم في ظل إنعامه ، وغانم بشرف استخدامه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله .

(٢) خصومها جمع خصم : وهو ما يخضم

(١) زيادة يقتضيه السياق

ووصل كتابك تذكر ما تيسر لك من نظم مال الخمل وإصداره ، والبلوغ في الاجتهاد إلى أبعد آماده ، وتوفرك على ترويج ما خصّ ومسّ من التسبيب ، وتشكو معاملة بنى حامد وما يتصرفون فيه من ذميم المذاهب ، وفهمته . وقد كان سيدى أبو العباس^(١) أنهى حسن تصرفك ، وحيد تحقّقك ، وفضل جدك ، وتصيير التقرب كل وكّدك ، فاستمد لك من الإجماع أوفر الحظوظ والأقسام ، ومن الرضا أكمل السهام والأقساط . وأنت — أيّدك الله — أوجه أمثالك محلا ، وأوجبهم حقاً ، وأكثرهم تحمداً ، وأشدهم بنى تحقّقاً ، وحرمانك تقتضى لك من الرعاية أمدها ظلا ، وأردّها فضلا . وإن وسائلك لتخاطبني دائماً مستمّدة إيجاباً ، ومستجدة إطلافاً ، فتصور هذه الحال مثابراً على عمارتها بالانكماش على ما عمر الناحية واستدرّ الأموال ، وبسط العدل في الرعايا ، وحسم أطماع المتصرفين .

وفلان قد كتبت بتقديم موافقته ، وإنفاذ ما يتقرر من محاسناته ، وعذر في التأخر عن أصبهان مقبول ، ولئلا ما اعتذرت به أغفيتك من ورود الحضرة العالية في عاجل الحال ، وإن كنت ساستقدمك للزيادة في الرفع منك ، والتنويه بك ، بمشيئة الله .

وفلان قد عرفت مكانه لدى ، وقرب محله إلى ، وإني أعدّه في مشايخ أهل ودّى ، وأقدّمه على أكثر من يتحقّق بنى ، وقد عادنا ، فاعرف له قدره ، وفخّم أمره ، وتوخّ محابه وتحرّ مساره ، وأجلّ منزلته عن أن تقع معارضة أو تحكّم فيما يقضى به ويراه ، وأجّر أمر مشاهرتة في الإطلاق والإسلاف على ما يقترح ، وكما يلتبس ، فإنك لا تسكاد تتحمّد إلى فيما يخصني بما هو أوقع من هذا وأحمد ، وعرفّه ما خاطبتك به ، بل اعرضه عليه بفصّه ، واعلم أنى لو على قدر الاهتمام أطلت الكتاب ، لنظمته قدر المسافة .

وأما فلان فداؤه معك داء الحاسد ، وما أبعد دواءه ، وأعمّر شفاؤه ، وسبيلك أن تستوفى الحق قبله من غير إعانات ولا إرهاب ، وتترك ما يفعله أصاغر الناس من استجازه الظلم للتشفي ، ففي العدل مقنع ، بل في أقل منه متسع ، وما أمكن أن تترك الضياع في يده ويد ولده ، فلا تقبض عليها ، ولكن بعد أن يصح الواجب عنها . ومولانا إنما يحظر في بابه الاعتداء ، فأما استيفاء حقوق بيت المال فلا عتب فيه عليك ، والتسوية فلا وجه للتنكّد دون إجرائه ، إن شاء الله .

(١) لعله أبو العباس الضبي .

٤ — وله إلى عامل ناحية

كتابي ومولانا الأمير المؤيد فيما يُفعل الله من جَدِّه ، ويرفع من يده ، على ما يؤثره ،
ونحمد الله عليه ونشكره ، وأنا معافٍ بدولته ، راغبٌ في الصلاة على النبي محمد وعِترته .

ووصل كتابك بذكر ورودك الناحية وما شاهدته من اضطراب أحوالها ، وتناهي
اختلالها ، وامتداد الأيدي والأطاع إلى ارتفاعها ، ووقوع التقصير في تنفيق غلاتها ، إلى
سائر ما لخصته ، وشرحته ، واقتصصته ، ووصلته بإنهاء الصورة ، وتقديم المشورة ، وفهمته .

وقد كان ذلك الرجل — عفا الله عنا وعنه — اعتلَّ ، في مبدأ وروده الناحية واختلَّ ،
ورب أمرٍ قَدَّرَه أحوطٌ وأعود ، لم يكن أوفق ولا أرقى . وإنما تظهر كفاءة الكفاة ،
وجزالة المال والولاية ، إذا أصلحوا الفاسد ، وثقفوا المائد ، وتلافوا الفارط ، وتداركوا
الفائت . ولهذا أزعجتك من يَزِدُ^(١) مع حاجتي إلى مقامك بها ، ولزومك لها ، غير أني
قدمت أخص الأمرين ، وأمسَّ المهمين ، وسبيلك أن تفرغ الطاقة ، مستنفداً لجذدك ،
ومستنزفاً لوسعك ، فقد مثلتُ بحضرة مولانا من أمر العمل ، ما تخلَّله من الخلل ، فليس
يلزمك عهدٌ ما لا تطيقه ، ولا يعود عليك دَرَكٌ ما لا تستطيعه .

والصواب أن تعتنق الأمر اعتناق من لا يُعوَّل فيه على الإحالة ، ولا يركن إلى الحجج
الشاذة ، ولا يقول : سأبأشر راضياً بعفوه ، وآخذاً لصفوه ، فما اتجه من أثر حسن كان جماله
لى ، وما دخل من وهنٍ وتقصير كان عاره على المتولى قبلى — فليس لهذا أُرِدْتُ ولا بهذه
الشرطة اعتمدت ، ولم أورد ذلك والظنَّة متوجهة إليك ، وحسنُ الظن منصرف عنك ،
بل لأن الهزَّ والتحريك ، ربما كانا^(٢) خيراً للمخاطب من المدح والتقريظ ، ولست أدع
بعث أكثر أصحاب التسيبيات ، على قبض صدرٍ من الغلات ، بعد أن لا يُتَجَاوز في السعر
القانون القائم ، فرَضَهُمْ على هذا قاصداً ما يستتب به الأمر ، ويحول معه الشغل ، ومن
كان من المتولين قد تحطى طريق الأمانة والصحة ، إلى الخيانة وسوء الثقة ، فلا تدع

(١) مدينة كبيرة في وسط إيران إلى الجنوب ،
(٢) في الأصل : كان .
وهي حاضرة ولاية يزد .

المبالغة في استكشاف أسرهِ ، حتى إذا وضح ما ظنَّ به بالفتِّ في الإنكار عليه ، والتنكيل به ، على قدر ذنبه ، ومقتضى جرمه ، وطالعتني بجلية فعله .

وجملة من القول : إن عصام بن أحمد إن كان قصُر أو قصُر فما سرق ولا تحيف ، ولا تولى زراعة ما استثمره عند هذا الدَّخْل . والبلد بارتفاعه ومتصرفيه موكلٌ إليك ، معول فيه عليك ، والقدرُ الذي يقع من التفاوت بين تقديم الكيول وتأخيرها ، وتنفيق الغلات وترتيبها معروفٌ . ولهذا الفضل الواحد وليت واستكفيت ، فأعطِ النصيحة حقها ، ووفّر عليها حظها ، وهب ليلك ونهارك ، واشغل أوقاتك وساعاتك بها ، وعرفني ما نأتية وقتنا وقتنا ، وتدبره أمرا أمرا . وقد كفاني ما أخبرتنى به في اختلال الأمور ، واضطراب الشئون ، فاجعل آف ما تخاطب به بذكر ما تستصلحه وتستدركه ، وتتلافاه وتنظمه ، إن شاء الله العزيز .

٥ - واليه

في نفسى أن أحاطبك منذ زمان بخطى ، فلم يتفق ذلك لتراكم على وشغلى ، فالصورة متغيرة عما عهدت ، والحال بخلاف ما شهدت ، لأن مولانا ألبسنى أثوابا من التشريف والاعتماد ، والإيثار والإحجاد ، زائدة على ما تطوقته عند حضورك من إكرامه ، وقسم لى من فوائد إنعامه ، فلا يكاد يتفق أمر ، أو يعرض نفع وضرر ، إلا آثر أن أباشره ^(١) بنفسى ، وأفضله في مجلسى ، والله يحفظ على ظله ، ويديم لى رأيه ، ويقينى بحقوق خدمته ، ويعيننى على شكر نعمته .

وقد أكثر السعاة بذكرك ، وأقاموا الأسواق فى أسرك ، وجرى فلان على عادته فى تشقيق الكتب ، وبث الفيوج والرسل ، ومتى رأى فخامة ألقاظهم وضخامة أدراجهم ^(٢) ، ربما قدر وراءها تحصيلها ، وظن بعدها خيرا كثيرا — وعرفوا ما أراه بك ، وأوجبه لك ، فخرجوا على جميع ما خاطبوا ، فى إخفاء مخاطباتهم عني ، وطبها دوني ، وطريقها ، كيف دارت ، على ، ومصبها ، أين جرت ، إلى ، وقد نُيذت فى وجوههم ، ورُدَّت فى

(١) فى الأصل : أباشر .

(٢) جمع درج : ورق للكتابة .

صدورهم ، وأنشبت في حلوقهم ، وكسرت في نحورهم .

وعرف مولانا ولى النعم أنهم يملون على جانب السعاية ، ويعتلقون أزمة الوشاية ، فلم يرفع بما حكى عنهم طرفاً ، ولم يشغل بما ورد منهم سمماً .

ولعلمهم حضروا هناك فلانا فشغلوا قلبه ، وأوقروا أذنه ، حتى خاطب بعض الناس برقة خائف وجلٍ مما ألقى إليه ، مرعوبٍ حذرٍ مما زُخرف لديه . وأجبناه بما أراه صورة القوم واضحة ، وأدلة على طرائقهم لأتحة . وعلى — ياسيدى — حفظ غيبك ما أمددتنى بنصح لهذا الملك تؤثره ، وجميل تؤثره ، وعدل تبسطه ، ومكان تعمُرُه ، فلا يقدرحنّ في نفسك ما تأتبه هذه الفرقة ، ولا يثلنّ في صدرك ما تجنيه هذه العصابة ، فسعّيها باطل ، وكيدها خامل . ولا وجه أيضاً لأن تُظهِر هذا ، فتجعل لما ارتكضوا فيه وزناً ، أو توهم أنه مما يشغل فكراً ، وداوٍ أسرك بدوائه ، وعالج عمك بعلاجه ، واشتغل بالتقرب إلى مولانا ولى النعمة وقد رفعك ، وأنبتك واصطنعك .

وإذا وصل الحملُ الذى أريد أن يكون الهمُّ أجمع موهوباً له ، ومقصوراً عليه ، ومشغولاً به ، وجارياً معه ، فقد توصلت إلى الزيادة في الدعاء لك تقوية لمنّك ، وإضعافاً لحسدك .

وقد شافهت فلانا بما لم يحز أن أسطره ، ولم يصلح أن أضمنه ما أصدره . ومحل فلان من مولانا لطيف ، ومكانه من رأيه — أعلاه الله — قريب ، فهو متجاوز رتبة الحجاب إلى منزلة التمداء والسمار . وسبيل تسييبه أن يكون مروّجاً ، وماله أن يكون مقدّماً ، ولا بأس إن كاتبته وباسطته ، فالما يخلفك به من منابٍ جميل موقعٍ أحبه لك وأوثره فيك ، وتكتب لأرباب النظر أجمع بما أنفذته مع فلان ، فليديموا الدعاء لهذا الأمير عن حسن رعايته ، لكافة رعيته ، والسلام .

وصل كتابك وعرفنا ما ذكرته في الأبواب أجمع ، واستدللنا منه ومن سائر ما ورد

على رضاك من نفسك بالتجوز ومن المعاملين بالتحكم. وليس لهذا نصبناك ، أو بهذا أمرناك ، تذكر مرة أن المقاطعين يتمتعون من التزام القبر^(١) ويطمعون في واقع نظر ، وتزعم تارة أن القُبَّاض الثقات لا يوجدون بقاسان ، وتلتبس إخراجهم من أصهبان ، وتُنهي إلينا أن أهل راوند^(٢) يتكرهون خروج غلام إليهم وولايته ، كجاري العادة عليهم ، وتحكى عنهم ما يقتضى التأديب ، ويستدعى التقويم .

وقد استظهرنا هذا الخطاب فيما أنكرنا ، ففارق طريقة التواني والمقاربة ، واعدل عن سمت التضجيع والمراقبة ، وخذ نفسك باستيفاء الحقوق وإجباؤها عن آخرها ، واجتمع مع أبي منصور على تهذيب الأمور وتثقيفها ، ومن كانت عليه مقاطعة ، في السنة الماضية ، فهي الآن له أوجب ، وأزم ، فلا تحلّ عن أحد معقودا ، وطالبه بمال الضمان موفورا . وأما القبض فالزم كلا من وجوه البلد وثقات الناحية وتناء^(٣) الشّقع تولى طائفة منه ، فإن كره أحدكم القيام بذلك ، فليقم صاحباً له ، مسكوناً عنده ، يلتزم عهده ، ويودع خطّه الديوان بدرك ما يصير في قبضته .

وأما أهل راوند فخذهم مما أجزوا إليه ، وازجرهم عن معاودة ما اجتروا عليه ، فابس للرية أن تختار العزل والتولية ، وأما العلّمان والفرسان المقيمون هناك للحماية ، فأزحّ عليهم في المشاهدة والجراية ، وأنفذ درج كتابك عريضةً بأسامهم وأصناف المقرر لهم ، والاستقبال الذي أرخت عنه في معاملة سنة ثمانِ عليهمُ بمشيئة الله . وتشدد في أمر الغلات ، وأحظر نقلها إلى الحومة ، على جاري الرسم في كل سنة .

ومتى انتهيت إلى باب ، وقبضك عائق عن إتيان الواجب منه ، فاذكره لأبي الوفاء وأبي منصور ، فما عندهما انقباض لأمر ، ولا اعتصام بعذر ، واعمل على أن تغنى عن الهزّ والبعث ، والتحريك والحث ، بما تستأنفه من جد واستنفاد للوسع ، فإننا — مع استحقار الأرض بما تنظم — نحاسب على النّقيير ، ونعاقب على القِطْمير ، فرأيك .

(٣) تناءج تاني : الدهقان .

(١) العبر : وزن الدراهم والدنانير .

(٢) بليدة قرب قاسان وأصهبان .

٧ - والـه

كتابي ، ياسيدى ! ، والأمور بهذه الحاضرة — أدام الله بهجتها — على غاية الاستقامة ،
والحمد لله ، وأنا معافى بدولة مولانا الأمير مؤيد الدولة ، والشكر لله .

وقد كتبت إليك — يامولاي — كتابا [ما^(١)] تمكنت من إشباعه ، ولا قدرت
على استيفاء أبوابه ، شغلاً منى بمهمات ، وقرنى مولانا عليها ، واعتمدنى لها . وورد كتابك
فحسبته خلص إلى من أثناء النجوم ، توقعا لما تحمله من ذكر المال واجتماعه ، والوقت المقدر
لإصداره ، فيزول عتب مولانا عنك ، وتحول استزادته إحمالا لك ، فأخلف ظنى ، وأخطأ
تقديرى . وعلام الغيوب يشهد بما يتزاحم على قلبى من أصناف الانزعاج متى رأيت — أدام
الله تمكينه — مستبطاً لك ، مستقصراً لفعلك ، بعد الرضا التام ، والحمدة الشديدة ،
والنقريظ الجم ، والأوصاف البليغة . وقد — يشهد الله — نبت ما أمكن ، وقت بالذر
ما اتجه ، ثم تراخى أمر المال فى أضييق وقت ، ومع أمس حاجة ، حتى رأيت ما أورده فى
الاحتجاج عنك يكاد يولد على ضجرا ، فأسكت ، وتركت الكلام لوقته وصمت . وأرجو
أن ييسر الله — بلطفه — حمدا وافرا كثيرا ، يقع موقعا لطيفا ، ويسد مسدا عظيما ،
فيسط من لسانى ما انقبض ، ويطلع من استرسالى ما غرب . وبالأمس أخرج محمد خليفة
الحاجب — أيدى الله — إلى مستقرك يا مولاي ! بكتاب أطلته ، واختصرته بالإضافة إلى
مارسَم ، وبسطته وإن حذف بعض ما مثل .

وأنت — يامولاي — أحزم وأعرف من أن تبصر مواضع الرشد ، وتدل على سواء
القصد ، فناشدتك — ياسيدى — أن تبيض^(٢) وجوه إخوانك ، وأهل ودك ، بحميد
صنعك ، وجميل رفدك ، فإن الأمر إن تراخى يسيراً أو تدفع قليلا ، أخرج أبو الوفاء الحاجب
على الجازات ، مستدعيا للمال ومقتضيا ، ووطأته ثقل ، ومثوته تعظم ، والقالة تقبح ، والصديق
يجزع ، والحاسد يشمت . وما يبعثنى على هذه الإطالة إلا الضن بمحلك ، والمنافسة فى ودك ،
والحرص على بقاء موقعك ، من ولى نعمتنا ونعمتك ، ومالك مهجنا ومهجتك .

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) فى الأصل : إن لم تبيض .

وأرجعُ لغير هذا ، قد عرفت مولانا مودع كتاب فلان إليك ، وبطلان ما أحال به عليك ، وقررت الصورة في توفير المصروف إلى الفيوج على تمام ووفور . وأحمد الغلام أنتظره ، وأنت -- يا مولاي ! -- لا تؤخره ، فربما اتفقت نهضة ، في أقرب مدة . وإذا لم تلحقني تلك المادة من التسيب وقع تنقص في الأهبة ، وكتبك متوقعةً ، وأرجوها لا تتأخر ، إن شاء الله .

٨ - ولـه

قد كاتبناك ابتداءً وجواباً بما قصرناه على ذكر المال وحمله ، ومساس الحاجة ودعائها ، وأعلمناك أن مثلك يُقدّم ويرُفع ، ويؤلى ويُنطع ، لمثل هذه الحال التي التقرب فيها فرضٌ على الخدم والأشباع ، وبذل الطاقة معها حتمٌ على المتصرفين والأتباع ، وضيقتنا عليك سبل المحاجة والتأخير ، وأبهمتنا دونك طرق المدافعة والتقصير ، وحضضناك على ما تحصل به المحمدة الدائمة ، وتدّخر عنه الحظوة الصادقة .

ولا شك في أنك قد جددت واجتهدت ، وقتت وقعدت ، واضطربت واحتلت ؛ واستخرجت وتمحلت ، وأن حملك هذا يوفى على كل الدي حُمل من تلك النواحي وعهد ، فنهضتنا تقرب بإذن الله وعونه ، والمؤن -- كما تعلم -- نشغل وتعظم ، وما من أوليانا وحاشيتنا إلا من قد وعدناه بهذا الحمل ومنيناه ، فليكن بحيث يسد مسدداً عظيماً ، ويقع موقعا لطيفا ، وأظهر ما يعرف من كفايتك وغنائك ، ومناصحتك وولائك ، وأعرض عن الراحة ، وارفض الدعة ، واستغن بالمعاملين ، وجدّ بالخالطين ، فالقليل لا يقنع ، واليسير لا ينجم ، والذي يرضى منك التكثير والتوفير ، وتجنب الاقتصاد والتعذير .

وقد دعت الصورة إلى ضرورة^(١) متابعة الكتب ومظاهرة الرسل ، وأخرجنا هذا الركابي بعد أن أصر بالإسراع والتعجل ، وحذّر من الإبطاء والتلوم ، ونحن نتوقع كتابك بمبلغ الحمد وقت صدره ، فالحال تمنع دون احتمال المطاولة ، والإحالة على الحواجز الممانعة ، والعوارض الشاغلة ، والأيام بل الساعات محصورة معدودة ، ومحصة عليك محسوبة ، إلى

(١) في الأصل : الضرورة .

أَنْ تُسْقِطَ عَنَّا الشُّغْلَ ، وَتَحْطُ الْكَلَّ ، وَتَقْدَمَ الْحُلَّ ، فَإِنَّ التَّوَانِي إِنْ عَرَضَ فِي ذَلِكَ عَرَضٌ
بِمَكَانِكَ لَدَيْنَا ، وَتَحْيِفَ حَقُوقَكَ عَلَيْنَا ، وَبَعَثَ عَلَى أُمُورٍ أَنْتَ بِحَزْمِكَ وَتَيَقُّظِكَ تُغْنِي عَنْهَا ،
وَلَا تُخَوِّجَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

٩ - وَلَهُ

عَادَ الْجَوَابَ عَمَّا حَاطَتْ بِهِ الْأُسْتَاذُ فَأَفَادَ سَكُونًا إِلَى سَلَامَتِهِ ، وَفَرَّ اللَّهُ مِنْهَا حَظَّهُ ،
وَحَفَظَهَا وَسَائِرَ وَدَائِعِهَا عِنْدَهُ ، وَأَعْقَبَ انْزِعَاجًا ، لِتَأْخُرَ الْمَالُ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي قَدَرْتَهُ ، وَتَهْذُرُ
حَمْلَهُ عَلَى مَا التَّمَسُّهُ وَأَرَدْتَهُ ، وَنَالَهُ مَا أُرْتَابَ ، بِمَنَابِ الْأُسْتَاذِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَإِنْ اسْتَبْطَأَتْ
وَاسْتَزِدَّتْ ، وَرَاجَعَتْ وَعَاوَدَتْ ، غَيْرَ أَنِّي أَحَبُّ أَنْ يُخَصِّرَ مِنْ غَرَائِمِهِ أَدْعَايَهَا إِلَى تَسْهِيلِ
مَا أَوْثَرَهُ ، وَيَعْمَلَ مِنْ لَطَائِفِهِ أَدَامَا مِنْ قَرِيبٍ مَا أَسْظَرَهُ ، لِيَتَسَهَّلَ بِعَوْنِ اللَّهِ التَّعَجُّلُ إِلَى
هَذَا الْبَيْحَارِ ، فَالْإِطَاءُ عَنْهُ عَجْرٌ ، وَالْأَخْرُ دَوَاهٍ ضَعْفٌ ، وَتَرَكَ السَّبْقَ إِلَيْهِ وَهْنٌ .

وَإِنْ انْعَقَتْ حَالُ أَفْصَحَ وَبِهَا عَنْ طَاعَتِي لِلْأَمِيرِ السَّيِّدِ وَلِي بَعْمَتِي فَهَدَهُ ، كَيْلًا يَحْسَبُ
صَانِعُهُ لَدَى صَانِعَةٍ ، لَا يَصَادَفُ زَكَاةً ، وَلَا يَسْجَعُ عَاءً . وَإِنْ قَرَّبَ اسْتِغْنَاءَ الْأُسْتَاذِ فَهُوَ
مَا اقْتَرَحَهُ ، وَأَحْرَصَ عَلَيْهِ وَأَحْبَهُ ، لِيَكُونَ مَا أَوْرَدَهُ وَأَصْدَرَهُ ^(١) عَنْ رَأْيٍ مِنْهُ وَمَشُورَةٍ ،
وَاسْتِصْصَاءَةٍ مَا يَشْجِدُ مِنْ بَصِيرَةٍ ، وَيَقْوَى مِنْ عَزِيمَةٍ . وَالْأَسْنَادُ — أَدَامَ اللَّهُ عَزَهُ — يَنْبِجُزُ
مَا وَعَدَ فِي اسْتِصْحَابِ أَكْثَرِ مَا يَتَسَعُّ لَهُ الْقُدْرَةُ ، وَتَنُوحُ فِيهِ الْحِيلَةُ ، فَالْهَضَّةُ لَا تَمُكِّنُ ،
وَالْخَوَاصُّ عَلَى اسْتِطْعَاءِ ، وَالْفُلُكُ عَلَى اقْتِصَاءِ ، لَا سِيَّامًا وَالْأَمْرُ الْمَوَاجِهُ يَقْنِضِي الزِّيَادَةَ
فِي الْإِحْسَانِ ^(٢) ، وَيَبْعَثُ عَلَى مَصَاعِفَةِ النَّظَرِ وَالْإِعْصَامِ ، لِيَبَاشِرُوا الْخُطْبَ بِصُدُورٍ مَنْشُرَةٍ ،
وَأَمَالَ مَنَاسِبَتَهُ .

نَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى وَلَوْ إِخَارَ مَوَاعِيدِهِ ، بِحَسَبِ مَا يَعْرِفُ مِنْ بَيَاتِ عِبِيدِهِ . وَهُوَ الْمَأْمُولُ
لِلدَّامَةِ أَيَّامَ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ السَّيِّدِ عَالِي الْكَلَمَةِ ، مَنْظَاهِرِ الْبَسْطَةِ ، سَامِي الرَّايَةِ ، نَاقِي الدَّعْوَةِ ،
لَا تَرْتَبِي هُمْ الْأَمَامَ إِلَى ذُرْوَةِ عَزِهِ ، وَلَا يَخْتَلُ الزَّمَانُ عُقْدَةً مَلَكَهُ ، إِنَّهُ فَعَالٌ لِمَا يَرِيدُ . فَإِنْ
رَأَى الْأُسْنَادُ أَنْ يَدِيمَ إِبْنِاسِي بَكْمِهِ ، وَيَعْلَمُنِي آفَ مَا يَبْجِشُهُ ، وَيَتَطَوَّعُ بِهِ وَتَوَثَّرَهُ ، فِي

(٢) فِي الْأَصْلِ : الْإِحْسَانُ بِهِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : وَأَصْدَرُ

أمر المال لأعتمد بحسبه ، وَيَقْنِي على خبره ، ويياسطنى فى مهمه ، فعل .

١٠ — ولـه

عاد الجواب عن كتابى إليه بذكر المال المطلق للخواص ، وما وصفه فى حال الناحية وارتفاعها ، والنجوم التى يقع الاستيداء عنها ، فانزعجت وقلقت ، واستبطنات واستزدت ، وعجبت من حُؤول الأستاذ عما عرفته ، وألفته ، فى التشر لما يعرض من مهماتى لديه ، ويُلقى من مآربى إليه . وقد علم أن الإنظار والانتظار بمكان ، ما كانت الأمور ساكنة ، والجيش هادئة ، وأن الحرب لا تمهل ، والخطب [لا ^(١)] يُنظر ، والرجال لا تجهز للقتال ، إلا بالأموال .

وإذا كان الأمير السيد قد أمرنى بالاستعداد للخروج ، واستعجلنى للنهوض ، وعول بدواوين خواصى على مال أرجان ^(٢) وكتب الأستاذ بأن مدة حصوله شهران ، فهل إلى النهضة سبيل ، وهل إلى امتثال المرسوم طريق . ألا يعلم الأستاذ أن المجمع الذى يهاب بى إليه مجمع يرمقه الولئ المناصح ، ويرقبه العدو الكاشح ، وأن خواصى إذا لم يباشروا تلك الحال بأحسن زينة ، وأجل هيئة ، وأوفر عدة ، تَصَوَّرَتْ بصورة يتفادى منها ، ولا يُضبر على الفضاضة فيها . ولم يكن الأمير السيد ليعول بى على مال ^(٣) ، أبوابه مرتججة ، وطرقه مبهمة ، وليس للحيلة فيه مساغ ، ولا للتمحل فى تحصيله مجال . وما أدفع ما قاله الأستاذ وأورده ، وشرحه ووصفه . غير أن كورة أرجان لا تضيق ، وقد حضرها الأستاذ ، إذا جد واجتهد ، واحتال ولطف ، عن القدر المطلق لأصحابه ، لا سيما وهو مصروف إلى أجمع الجهات لحظوظ الدولة ، وأدعاها إلى جمال المملكة .

والذى يزعمنى ويحوجنى أن الذكر قد اضطرب باستدعائى إلى الباب لهذا المهم ، فإن وقع فى حمل المال تأخير ، أو أبطأ به تعذير ، وتأخرت عن مزاوله الخطب ، لم أدر إلى ماذا ينسب تأخرى وعلى أى وجه يحمل هذا . ولو احتجت إلى الخروج منفرداً لما أبطأت عن

(١) زيادة يفتضحها السياق .

(٢) مدينة فى إقليم فارس فى الجنوب الغربى

من إيران .

(٣) فى الأصل : أموال .

موقف أبذل فيه مهجتي عن مالك رقي ونعمتي ، والأستاذ يقضى الحق كله في هذا الأمر ، ويتوخى ارتهان أقصى الشكر في هذا الوقت ، ولا يدع طريقاً يقضى إلى ما التمت إلا سلكه ، ولا يغادر ظهراً يذني مما حاولت إلا ركبته ، فما أعتد ما تحمله إلا معونة تكلفها من خالص ماله ، ولا يظن ما بسطت من القول عن سوء ثقة بمعتقده ، أو صرف ظنة إلى إشفاقه ، غير أن السمعة التي تخوفها ، والقالة التي تحاميتها ، تصورتا لي ، فبعثتا على ما كتبت واستفزتا لما أوردت ، وأنشده الله ونعمة الأمير السيد أن يترخص في مطاولة أو مدافعة ، أو يحوج إلى مرافعة ومراجعة ، فقد وثق لي ما أعرفه من حرصه على مسرتي ، وتنكبه لما ينتج وحشتي بأن كتابي يحض على تقريب البعيد ، ويهز لتسهيل العسير .

ولعل الأستاذ يفكر في أنه إذا أجاب إلى ما أردت بعد العتب ، وحصل ما أتطلع بتصرف العاملين بين الرفق والعنف ، ظننته — أيده الله — قَصْر عند أول ما خاطبته ، ثم تَشَمَّرَ لِمَا عَاتَبْتَهُ ، ومعاذ الله ، فإنه في هذه الحال مخبر بصدق في ذلك ، متشمر لقضاء حق . وساعاتي موهوبة لتقرب ما يكتب — أيده الله — مقصورة على انتظار ما يرد من جهته ، وإذا تفضل بما ابتغيته ، كان قد رهن عندي مَنَّةً توفى على المنن الغر ، وترى على الأيادي الزهر ، وتوجب من الإجماع ما لا تأخذ الأيام جدته ، ومن الاعتداد ما لا يتحيف الزمان مادته . فإن رأى أن يوفر فكره وخواطره ، وآراءه وهمه ، على توجيه هذا المال — فما يحسب حالا كهذه ^(١) ينبيء بها عن عنايته بما عانى ، واهتمامه بما خصني — فعل إن شاء الله .

فصل

قرأت كتابك — أطال الله بقاءك — فانبسط لساني بالمناب ، واتجه لي الخطاب في كل باب . وأوردت على مولانا ما وجب ، واصفاً لبيتك وطاعتك ، وبذلك في رضاه أقصى استطاعتك ، ومحبتك للتقرب نهاية جدك ومقدرتك . وتصرفت في وصف ناحيتك وشمول الكساد لغلاتها ، على كثرة آفاتها ، وشرحت صورة غلات المجاور وكيف بيعت بالرخص ،

(١) في الأصل : لهذه .

وَصُرِفَتْ بِالْوَكْسِ ، وَقُلْتُ إِنَّ مَعَوْلَكَ فِي تَوْجِيهِهِ ارْتِفَاعُكَ كَانَ عَلَى مَا يَمْتَارُهُ أَهْلُ كَرْمَانَ^(١) ،
فَانْهَمُ الْآنَ كَالْمُسْتَغْنَى عَنْ نُجْعَتِهِ ، لَخَصْبِ بِلَدَتِهِ .

وَوَقَعَ ذَلِكَ أَجْمَلُ مَوَاقِعِ الْقَبُولِ ، وَزَالَ — يَعْلَمُ اللَّهُ — عَنِّي شُغْلٌ عَظِيمٌ ، وَسَقَطَ دُونِي
هَمٌّ كَبِيرٌ ، فَالْمَطْلَعُ عَلَى مَا تَجَنُّ الْقُلُوبِ ، وَتَجْمَعُ الصُّدُورُ ، يَشْهَدُ مَسَاهَمَتِي إِيَّاكَ ، وَعِنَايَتِي بِمَا
عِنَاكَ ، وَمَحَبَّتِي لِازْدِيَادِ صُورَتِكَ جَمَالًا عِنْدَ وَلِيِّ نِعْمَتِنَا وَنِعْمَتِكَ ، وَأَنِّي إِذَا رَأَيْتُ تَوْجِيهِهُ أَدْنَى
عَتَبِ إِيَّاكَ ، وَتَسْلِيْطِ أَيْسَرِ اسْتِبْطَاءٍ عَلَيْكَ ، حَرَجَ صَدْرِي ، وَذَهَبَ عَلَيَّ أَمْرِي ،
وَإِذَا شَاهَدْتُ أَحْمَادَهُ وَقَدْ تَوَفَّرَتْ عَلَيْكَ ، وَرِضَاهُ وَقَدْ حَسِنَ عَنْكَ ، قَوِيَ قَلْبِي ، وَشُدَّ
مِنْ أَرْزَى ، وَالسَّلَامُ .

(١) كَرْمَانَ : وَلايَةِ مَشْهُورَةِ فِي شَرْقِ إِيْرَانَ .

الباب السابع عشر

فى الآداب والمواظظ وما يقاربها

وهو مشتمل على أربع رسالات ولم يكن فى الديوان ما يزيد عليها

١ - كتاب

وصل آنفاً من خطابك ما آسَ مُتَنَاولاً ومفضوضاً^(١) ، ومقروءاً ومعروضاً ،
ومرئى الله — تعالى — بعافيتك ، لا زالت مُرَبَّطَةً لديك ، مُسْتَحِيجَةً أقسام النعمة
إليك . واعتدلت بما وعدتني عن نفسك ، أمتع الله بها ، ودفع الحاذر عنها ، إداماً
للمكاتبة ، واستمداداً من الآداب بالمواظبة . وأرجو أن يكون الإنجاز من همك ، والوفاء
من عزمك ، فما أقتنى اسرؤ ولا أفتنى له أفضل من علم يسوءه باسمه ، ويبتّه على قدره ،
ويزيد فى قيمة نفسه ، قضاء من أمير المؤمنين رضى الله عنه حين قال : قيمة كل امرئ
ما يحسن ، وكلاً أن يقول ما يملك . وقد تقدمت فى باب فلان بما اقتضاه كتابك فى معناه ،
فأدّم مسرّتى بما تدينه ، مراعاةً بأخبارك ، ومناجاةً بأوطارك ، إن شاء الله

٢ - وله

كنابى — أطال الله بقاء الشيخ — عن سلامة فى النفس ، أسأل الله صلتها بسلامة
العافية ، وحسن الحاتمة ، وأن يلطف لنا فى تخليص النفوس من الشهات ، كما هداها فى دينه
الذى ارضاه بالبينات ، وأحمده قبل وبعد على إفصاله ، وأسأله الصلاة على النبي وآله .

ووصل كتاب الشيخ فسررت — يشهد الله — باسمه موقعاً على عنوانه ، ثم بخبر
سلامته ، فابى أعتدّه جمالاً لإخوانه ورمانه ، وإبنى لأتحسر على قر به وجواره ، وأنأسف على
ما يفوت من سماعه وجواره ، وأرجوه لا ينسانا فى الدعاء ، فإنا لا ننساه فى الثناء ، ومتى

(١) فى الأصل : مفضوضاً بدون وار .

اجتمع عندنا أهل العلم ، ذكرنا لهم ما خصّه الله به من الفضل .

وعلى هذا الذ كر فقد كان هذا البلد من البلاد المستغلبة على أهل عدل الله وتوحيده ،
والتصديق بوعدده ووعيدده . هذا وفي فقهاؤه وفور ، وفي الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على
بث كلمة الحق ، وسَمِعَ الأ كثرُ على لين ورفق ، وليس تمنعني كثرة شغلي من الانتصاب
في بعض ليلى للذاكرة والتبيين ، والتكشيف والتخليص ، فقد صلح خلق كثير ، والحمد لله
رب العالمين ، وبه نستعصم من أفعال ، لا تشبه الأقوال ، وهو حسبنا في كل وقت وحال .

والشيخ — أدام الله عزه — يَسُرُّ بمخاطباته ، وَيُؤَنِّسُ بخبره ، وخبر أبي سعد ،
أعزّه الله ، وعارض حاجاته ، إن شاء الله .

٣ — وله إلى أهل الصيمرة^(١)

كتابي — يا إخواني ومشايخي ! — عن سلامة تجمع النفس والدين ، والحمد لله رب
العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابكم — فسرّني بما دلّ عليه من استقامة أحوالكم ، وسألته أن يبلغكم
في دينكم ودنياكم غاية آمالك — مُتَوَقَّعاً ، إذ كنتم بحمد الله ومَنِّه ، وطوّله وفضله ،
المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله ، وصدقه في وعيده ووعدده ، وكان بلدكم من بين البلاد
كفرة أدهم ، وشهاب في ليل مظلم ، وما في النعم أجلّ موقعا ، وأهنأ مَشْرَعاً ، من النعمة
في القول بالحق والدعاء إليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانة من شبّه الله بخلقه ، فتتابع
في جهله ، أو جورّه في فعله ، فشك في حسن نظره وطوّله . والحمد لله الذي جمع على الصدق
آراءنا ، وحى من مكاييد الشيطان أهواءنا ، يزيدنا تسديدا وتأبيدا ، وتثبيتا وتمهيدا ، ويوقنا
لصالح الأعمال ، كما وقفنا لصالح الأقوال .

وكان في الواجب أن أبدأكم بالمواصلة والمكاتبة والمراسلة ، ولكنكم سبقتم إلى الجليل كما
توجيه أديانكم الصحيحة ، ونياتكم الصريحة . نسأل الله اجتماعا حيث لا فرقة ، وأنساً

(١) بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان على يسار الذهاب من همدان إلى بغداد .

حيث لا وحشة ، فإنما نحن له وبه ، ونَوَاصِينَا فِي مِلْكِهِ وَبِيَدِهِ ، إِلَيْهِ نَفُوضُ بِهِ نَسْتَعِينُ ،
وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد عرفت شكركم لفلان فاعتقدت له عن ذلك ودًّا وعهدًا ، وأوجبت شكرًا وحمدًا ،
ووجدتني الخصوص بما أزل^(١) إليكم ، واستمعدت به عليكم ، وقد خاطبته معتدًا بما أتاه ، حاضًا
على إتمام ما أنشأه .

وأنا أسألكم — أيدكم الله — أن تُسَمِّمُوا لِي فِي أَدْعِيَتِكُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجَهَارًا ،
ليُكْفِينَا اللَّهُ شُرُورَ أَنْفُسِنَا ، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، وَيُخْتِمَ لَنَا بِخَيْرِ أَعْمَالِنَا ، وَيَتَابِعَ الطَّافَةَ فِي تَخْفِيفِ
الْمَآثِمِ ، وَرَدِّ الْمَظَالِمِ ، وَتَجْدِيدِ التَّوْبَةِ ، وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْخَوْبَةِ .

ولولا أن الرسول خرج مستعجلاً لأصحابته بعض ما صنفت ، وأبليت وألفت ، وقد
أمرت بجميع ما أستصلحه لكم ، وسينفذ — من بعد بشيئة الله — إليكم . ومما أسركم
به أن الجبر خصوصاً كان استولى على هذه البقاع ، فحين يشر الله ورودى إياها ، انكشفت
الشُّبُهَة ، وزال العمه ، وقوى الحق ، وأهله ، ورجع كثير من الدين هُتَمَ ، ولله الشكر ، وله
الطول والمن ، فلا تدعوا مكاتبتى بأخباركم ، وحاجاتكم وأوطاركم .

٢ - وله خطبة نكاح

الحمد لله ناظم الأشبات ، ومسبب الأرحام للتشابات ، وجامع القلوب بعد افتراقها ،
ورادّها عن تباينها لاتفاقها ، حمداً يُرَافُ لديه ، وَيُقَرِّبُ إِلَيْهِ ، وَصَلَى اللَّهُ عَلَى الصَّادِعِ
بِأَوَامِرِهِ ، وَالدَّالِ عَلَى زَوَاجِرِهِ ، مُحَمَّدٍ الْخَتَرِ ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ .

وإن أحق ما استعمله الخالون^(٢) ، ولحق به الثالون ، كتاب الله الذي تعبد به عباده ،
وأظهر فيه مراده ، فما حضنا عليه ، وأهاب بنا إليه ، طيبُ النكاح ، الْمُغْنَى عَنْ خُبْثِ
السَّفَاحِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ الْآيَةَ .

وذكر فلان ابن فلان عقيلتكم فلانة بنت فلان خاطباً ، وبذل لها من الصداق رغباً ،
فخذوا بأدب الله إجابةً إلى ما حاوله ، وتصديقاً لما أمله ، خار الله لنا ولكم .

(٢) في الأصل : العالون .

(١) أزل : أسدى .

الباب الثامن عشر

فصول وغرر ، وتوقيعات ودرر

١ - فصل

ذلك إذا تسهل زاد في تراجع الأعداء على أعقاب الحصور ، وأدراج الإقصار والقصور ، وقد تقرر من الأمر ، ما يوجب على إدامة الشكر ، إذ كنت — يشهد الله — أفرض طاعة الأمير على نفسى فريضة ، لا أريد عنها سوى إحماده مَعُوضَةً .

٢ - توقيع

ما حسبت فلانا وإن علت حكمته ، وارتفعت كلمته ، يَشْجَعُ لتأخير المرسوم لعلان ، وهو يعلم كيف تخصُّصُه بى ، وتقدُّمُه أ كفاءه فى مجلسى ، وأنه من لا يكاد يبعد ليلا ونهاراً عن مرمى طرفى . وقد تلحق العامى السكره ، إذا ملكته من الإهمال نشوة ، فأنبههُ من رقدته قولاً ، قبل أنْ أَنْبَهَهُ فعلاً ، وليُعِدْ ذم فلان له حمداً ، أَسْتَبْدِلُ من الإعراض عطفاً . والسلام .

٣ - فصل

مطاولة سيدى تُسْتَلَذُّ ، وتقطيع ساعات الصوم بمثلها يُسْتَحَبُّ ، ولكن الشمس قد عادت كالمرآة فى كف الأشلّ ، كأن الأرض تجذبها بمِرْس ، وتكسوها السماء لباس وِرْس ، وآخرُ دعواى أن الحمد لله رب العالمين .

٤ - فصل

فلان قد أغلق بابى الأداء والحنل ، وسهّل طريق التأخير والمطل ، وأجرى أصحاب

التسييبات مجرّى واحدا في التأخر والمنع ، وصارت الكتب تصدر إليه ، فيعيدها عينا عمية ، وأذنا صماء . ويجب أن تُبهم عليه طرق المدافعة ، وتأخذ دونه بمنافذ المطاولة ، ولا تقنع بمواعيد ، قد استراح إلى اتصالها ، وأخذ ينجزها بأمثالها .

٥ — فصل

مولاي يعلم أن فلانا خدمني صغيرا وكبيرا ، وفارق صاحبه ، ليس لأن مرعاه كان جديبا ، ولكن ليزداد إمراعا ، وقد ازداد عندك إمعارا^(١) ، فليأذن له سيدى فى العود إلى حضرتى لثلا يُطلّ حقه ، ويُهدّر ذمامه ، إن شاء الله .

٦ — توقيع إلى عامل

بلغنى أنك عزمّت على تفرقة غلة السلطان فى الرعية كُرْهًا ، وما جعل الله ذلك لك ، ولا أمرك سلطانك ، أطل الله بقاءه ، وليت ما فعلته عامًا لم يُفعل ، فإنّ عاديتَه كَثُرَتْ ، وعاندته قَلَّتْ . فأجِرْ — أيدك الله — أمر القوم فى الرقى والإحسان مجراهم الأول ، بل زِدْهم بحسب زيادة إحسان الله عند مولانا وعندى فى خدمته ، وأشع ذلك لتكتسب النفوس عن ضعفها قوة ، وعن خيفتها أمانة .

٧ — فصل

وصل فلان اليوم بوصول الحمل :
فلم أدر أن الحاجبية وضـلـلها على القاب أخلا أم نزولى على نجدٍ
وأنا منذ الغداة أسأله عن أخبار مولانا ، فكأنى أجدح المسك فتيقا ، وأصبح الروض
أنيقا ، لازالت أخبار مولاي أنفاس الأسحار .

٨ — فصل

أبو فلان مشاهدته أبعد من النجوم ، فلمَ ذلك ؟ لأنه من عنايتى عارٍ ، أو من إيجاب

(١) الإعمار من أمرت الأرض : لم يكن فيها نبات .

مولای خال ، أولس كثرة من يساوقه فى الخفة والقرب من مجلسى ؟ . إذا ثقل بعض أعضائى على بعض ، وتبرمت بالنظر إلى الأرض ، وليس الحاملُ عندى بعذر ، فإن ماله عنه بمعزل ومعدل . ومولای يُعتبه أويكتب رجعتة ، لأقيم له البدل وأُكفى مراجعتة ، إن شاء الله .

٩ — توقيع على ظهر كتاب لابن جحا الكوفانى

لو استغنى موثوق بوده ، مسكون إلى عهده ، عن الإذكار بنفسه ، والدلالة على صحة عَقْدِهِ ، لكنت يا أخى ! — أطل الله بقاءك — ذلك الإنسان ، لاعتمادى سريرتك الخالصة ، ومودتك الصادقة .

والله يعلم أنى آنس إلى ذكرك إذا مرَّ بسمى ، واسمك إذا خطر بفكرى ، فكيف بكتابك إذا قابل طرفى ، وأوجب لك ما لعلّى لا أوجبه من خَلَصَ إخوانى إلا لأفراد وأعيان ، يعز أمثالهم فى الزمان ، فخطبني متى نشطت ، واسترسل فى حاجاتك كيف آثرت . وإن جريت فيما يخصك على الانقباض الذى هو طبعك ، فكاتبني بمحاجات إخوانك ، ليعرفوا موقعك من إشارى ، ومحلاك من اصطفاي واختيارى . سقك الله فرواك ، وحيّاك وأحيّاك ، وهو حسبي ، وصلواته على النبي محمد وآله .

١٠ — توقيع على رقعة لابن جحا

أنت الأخ ديناً ، والصديق يقيناً ، وكلفةُ التجشم موضوعةٌ عنك ، أطل الله بقاءك ، لقوة التحقق ، ولو عرفت مقامك حيث أحسرت لكددت الناظر طالباً ، واستنجدت الطرف رائداً . ولو وقفتُ على اعتيادك الباب لرتبت من يتلقاك مكرماً ، ويوصلك مؤثراً . ودون الغيوب أستار لا تكشفها العيون والقلوب . ومتى نشطت للحضور انفرجت أغلاق الأبواب ، وتجاافت أعطاف الستور ، وقالت الدار مرحباً .

الباب التاسع عشر

فى النوادر النادرة فى فنها

وهى الكتب الغريبة المـانى فى جنسها

١ - فصل فى صفة الخَرّ كاهات^(١)

سبيلها أن لا يتخللها ما يضعف عوده ، ويهين ممتنه ، أو يقع فيها ذوات العُقد والأبن ، أو يُتَجَوَّز فى أصباعها وأدهانها ، فتتشقق عند تداول الرياح إياها ، وأن يبالغ فى انتقاء أصوافها ، والتناهى فى عركها .

٢ - وله عتاب كاتب تراجع فى صناعته

كنت ابتدأتك بالخطابة ، وحضضتك فى آلات الكتابة على المداومة والمواظبة ، فأجدُ خطك يزاد على الأيام ويستجد . ثم أهملت التمهيد ، واستعملت التجوَّز ، وصار ما تكتبه مضطرب الحروف ، متضاعف الضعف والتحريف .

وجعلت أناول لك يوماً بقلم لم يُستجد برّيه ، ويوماً بمداد لم يساعد جريه ، إلى أن صارت رداة الخط سنةً لك وسنناً ، ورسمًا ثابتًا مرتهناً ، فقدمت هذا الخطاب مذكراً ، ورجوت ألاّ تحوج إلى مثله منكرًا .

وإياك إياك^(٢) واضطراى ، فتابر على المشق والتسويد ، واهتمّ بالتصحيح والتجويد ، واعمل على أن تقوم حرفاً حرفاً من خطك ، وتتصوره فى نفسك قبل تصويره بيدك ، وليكن لك من يوقفك على مواضع التقصير والتضجيع ، لأتبين الزيادة فيما يرد منك وقتاً وقتاً ، قبل أن أوسعك تهجيناً ومَقْتاً ، والسلام :

(٢) فى الأصل : وإياك .

(١) الحركة : الحيمة .

٣ - وله في تكذيب أراجيف العامة

دَلَّ كتابك على أراجيف تتردد بين العوام ، في أخبار مدينة السلام ، وما أدرى أيُّ اختلاف ، قاض للإرجاف ؟ وقد ذلَّ الله لمولانا الملك السيد رقاب الزمان ، وملكه أعنة الأيام ، واستصفي له ما لم تحلم به ملوك العرب ، وأكسرة العجم ، وانضافت الشامات إلى العراقيين في الانقياد ، وترتب العمال في جميع البلاد ، ودانت طواغيت الروم ، وتقرَّبَ المغربي برَسُول بعد رَسُول ، وصار بنو محمدان كرميم ، طاح في ريح عقيم ، ومُلكت قلاعهم التي لم تنتزع منذ مائة وخمسين سنة ، مملوءة ذخائر ، مشحونة غنائم ، والشمس لاسبيل إلى سترها ، وتغطية أمرها .

وقد عاد — حرس الله أيامه ، ونصر أعلامه — إلى حضرة الخلافة ، ومجلس الإمامة بآثار في الذب عن البيضة ، وأياد^(١) في الذب عن الحوزة ، ومقامات في تزايد البسطة ، وتضاعف العزة ، أسلمت المنابذين للأيدى والأفواه ، وكبَّتهم على الرؤوس والجباه ، تُنجيَ إليه ثمرات كل أرض ، وتُسَمِّح له الدنيا ذاتُ الطول والعرض ، فالحمد لله على ما أَسْنَى ، والحمد لله على ما سَنَى ، ولا زال موليانا الملك السيد والأمير المؤيد آخذين بآفاق المجد ، مادين لرواق الملك ، إن الله يفعل ما هو لبلاده أصلح ، ويمكن من هو بعباده أرف .

٤ - وله في إعفاء من استعفى من بهاء التلقيب

والوعد بما سواه من أنواع التشريف

كتابي — أطال الله بقاء الأمير — عن سلامة مولانا الأمير المؤيد واتصال السعادات إلى عالي حضرته ، واقتران البركات بسامى كلمته ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

وكنت خاطبت الأمير بالسبب الذي استعاد فلانا إلى الحضرة ، وعاد في الجواب مادل على أنه لو أُصْدِرَ بتلك الجملة ، واقتصر دون اللقب على اللواء والهد والخلمعة ، لكان ذلك أدعى إلى محبته ، وأدنى إلى مسرَّته ، وجدَّد القول في الاستعفاء من اللقب ، والاكتفاء بما

(١) في الأصل : والزيادة .

سواه من الرُتب ، وخاطبَ حضرة مولانا بما قدمت إصداره ، فعرف — أطال الله بقاءه —
بغيته وإشاره ، وقال ، حرس الله ملكه ، إنا حسبنا اللقب أوقع بقلبه ، وآثر في نفسه ،
وإذا كرهه فلا إكراه على التشریف ، ولا امتناع من التخفيف .

وإن فلانا مُنْهَضٌ في الأسبوع بالخلع التي يعرف الله ميامنها ، ويُفيض محاسنها ، واللواء
الذي يُلَوَّى أيدي المنازعين ، ويُلَوَّى بالمنابذين والقارعين ، والعهدِ أشرف ما عهد في أمثاله ،
وأولى ما قدمه السلطان لأمرأه أعماله . وكتاب مولانا تقتزن به هذه الخطابية . وإن مولانا
الأمير رأى إصدارها مع مجرزين ، يصلان مسرعين ، وما يلي هذه الخطابية ينبغي — بمشيئة
الله — عن فصول^(١) فلان ، والنص على اليوم الذي نهض فيه عن الحضرة أجلها الله .

٥ — وله في الانباء عن الوحشة لمفارقة وليّ النعمة

كتابي — أطال الله بقاء مولاي ورئيسي — وحالي منذ فارقت الباب المعمور حال
من أدخل الجنان ، حتى إذا عرف نعمها كيف تُسَبَّغ ، ونعيمها كيف يَخْلُص ، ودرجاتها
كيف تسمو ، وقطوفها كيف تدنو ، راءه الخروج منها ، فلم يكشف غمته كاشف ، ولم يدفع
حسرتة دافع ، وهل للخلود عَوْضٌ فتقبله النفوس ، وتطمئن به عليه القلوب ، والله وليّ
إعادتي إلى ظله الظليل ، وكفنه^(٢) الشريف العميم .

وأخّر كتابي عن مولاي حتى اليوم ، لأنني عدت فتعاون على من الحمى والقلق خصمان
يدفعاني بينهما ، وضعفت طاقتي عنهما . وقد كنت عن أحدهما عاجز القوة ، قاصر المنّة ،
فكيف إذا اجتمعا . هذا والبعد عن الحضرة العالية ، أشد وقعا وأحرّ لذعا ، لأنه قوّت
شرف كان يبسط باع الطاولة ، وتراخى مجد كان اكتسابه لسان المنافرة ، وليس الذي
يخص الجسم أذاه ، كالذي يشترك فيه النفس والجاء .

وشغلي الآن الدعاء لمولانا فقد كان في تواتر تلك النعم ، وتظاهر تلك المنح ما يشغل عن
الفكر في ارتفاع أقدارها ، واتساع أقطارها ، والآن أخذت أتبعها ، فلي عند ذكر كل
واحدة منها جبهةٌ ساجدة ، ودعوة صادقة ، وقُرْبٌ — كما أوجب الله — متصلة ، وزلفٌ

(١) الفصول هنا : الخروج ، وفي الأصل : الفصول (٢) في الأصل : وكف .

— إن شاء الله — متقبّلة . فأما انزعاجي لفراق مولاي فانزعاج الساري زال قره ، والروض تخطّاه مطره ، ومنّ هذا الذي يبتعد عن فرد دهره ، وشمس فصله ، ومن يستمدّ محاسن قوله ، كما يستظهر بمكارم فعله ، فتبقى له جانحة لم تلتهب قلعا ، ولم تشتعل أسفا ! ؟ على أنى حاضره بنتي ، ومسايره بطويتي ، والمرء يسير بقلبه ، وإن أقام بشخصه . والله لطائف تعيد الدار أدنى منها أنس ، وأحرى بالسرور والأنس ، فإن رأى مولاي أن يعين^(١) على سقمي وهمي بكتبه جلاء الأحزان ، وشفاء الأبدان ، ويصرفني على أمره ونهيه ، فعل إن شاء الله .

٦ — وله في وصف شعر

وصلت لك قصيدة هي السحر أو أدق ، والماء أو أرق ، قد جمعت إلى السلسلة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، فكأن الفحلين أبا فراس وأباحزة^(٢) ، أنشرا في مسلكك ، وانخرطا في سلكك ، فنحت هذا لك صخره ، وأما لك ذاك بحره . وحسبك بشعر وقف إعجابي وتعجبي إزاءه ، حتى كررت قراءته ، وأدمت استقراءه . هذا وأكثر ما أسمع — منذ اليوم — يصدى الريان ، ويصدى الأفهام . لا زال عودك في الفضل صليبا ، وغصنك منه رطيبا . وقد اغتفرت لك الغارة الشعواء ، وإن كنت فيها لقوة شغواء ، فأما النعمة التي هنأت بها ، فتوب مدحك طرته ، إن لم يكن طرفا شعرك غرته . وفلان حبذا هو في السجّاء ، فليؤلّ إيصال جوابه ، من تولى إصدار كتابه .

٧ — والـه

وصل كتاب الشريف سيدي ومولاي زائدا في بره ، عاضدا سابق فضله ، وآنس الله ربّي وسَمِعِي بخبر سلامته وصل الله خطامها ، وحرس أيامها . وعرفت ما رآه من إتمام غزيمته في الحج ، وتبينت له أمارات الخير والنجح . وإنما يقصد البيت الذي رفع جده خليل الرحمن — صلى الله عليه — قواعده ، وأعلى أبوه رسول الله — صلى الله عليه —

(١) في الأصل : يعيد .

(٢) يعني الفرزدق وجريرا .

مفاخره ، فلا يَرَى إلا مواقف الأنبياء والأصفياء من أجداده الكرام ، وآبائه العظام ، حيث يهبط الملائكة المقربون على رسول رب العالمين .

تلك منازل ورثها بشرفه العظيم ، ومفخره العظيم . فالحمد لله الذى أوضح فى ذلك دليله ، وسهّل سبيله ، كما أنار حجته ، ورفع فى الذرية الزكية درجته ، وأحسن الله أداؤه ، وأطال فى طاعته بقاءه ، وزكّى عمله ، وبلغه فى مضيه^(١) وانكفائه أمله . وأنا أسأله — أدام الله عزه ، إذا يسّر الله وروده الحرمين ، ووقوفه فى المشعرين ، وتنقله بين المعرف والمحصب ، وطوافه بالبيت المعظم ، واستلامه الحجر الأسود ، وقيامه على بئر زمزم ، وسعيه بين الصفا والمروة ، ودخوله ، إن دخل ، إلى الكعبة ، ثم إذا قرب من مشهد رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله ، زائرا ، وعدل إلى البقيع مسلما ، وعاد إلى الغرى^(٢) والحائر^(٣) صلوات الله على سكانهما سيد الأوصياء ، وسيد الشهداء — أن يذكرنى فى أدعيته ، ويتوسل عني برسول الله ، صلى الله عليه ، والسادة من ذريته ، ويكون ما يلتمسه لى العافية فى الدين والدنيا ، والسعادة فى الخاتمة والعقبى ، والتوفيق لردّ المظالم ، والخروج من التبعات ، والتوبة من السيئات ، والتباعد من الشبهات ، فتلك وديعتى إليه ، وأمانتى قد أخرجتها إليه .

وأما النيابة عن سيدى الشريف فلا أطيل القول ، فيشهد الله أنى — مع ما أثنانى الله من حظ دين ودنيا — لا أدفع نفسى عن أيسر أمره ، تقربا إلى خير الأولين ، والآخرين جدّه صلى الله عليه . وسينفذ منى إلى فلان ما يزيد بصيرة فى التكفل بتلك الأسباب ، وهؤلاء الأصحاب ، إن شاء الله .

٨ — وله إلى الأستاذ الرئيس أبى العباس^(٤)

وصل كتاب مولاي فليحّق بيدي ، ويدّى على كبدى ، ولم أدر بماذا أنعمته وقد ملّى قلبي وملاً صدرى ، وكيف أصفه وقد أمتع نفسى ورفع طرّفى ، وهل أقول نسيم الرياض تدرّجت الشمال على أنوارها ، وأغرّيت الصّبا بإخراج أسرارها ، أم أقول الحياة عادت فى

(٣) البقعة التى دفن بها الحسين بن على .

(٤) هو أبو العباس الضّبي .

(١) فى الأصل : مضيه .

(٢) البقعة التى فيها قبر على بن أبى طالب .

الجسد ، والروح سرى في البدن ، فله على كل مستحسنٍ أنيق فضل ، وعند كل حِضَارٍ سَبْقٌ وَخَصْلٌ . وحسبت انبساطَ مولاي فيه مواهبَ قصرت الأمانى عنها ، فطال إحسان الله بها ، ومنايحَ رقدت الآمال فيها ، فاستيقظت عَيْنُ أفضال الله عنها ، وأنا أرجو أن يعيدنى الله فيه لأفضل عاداته ، ويعيدنى فيه بلطفه ورأفته ، فأقرأ كتابه مبتسماً عن خطّه ، كما قرأته منتظماً للفظه ، لأجمع تحجيل المسرة إلى غُرَّتِها ، وأقرن حِجَّةَ الأنس إلى عُمرَتِها ، والله يفعل ما يريد ، وهو اللطيف المجيد .

قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره ، وأنبأ عنه من أحوال جسمه ، فدلّتنى جلته على بقايا في البدن يُحتاج معها إلى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية . فأما الذى يشكوه من ضعف معدته ، وقلة شهوته ، فلا مَرين : أحدهما أن الجسم — كما قلت آنفاً — لم يُنقَ فتفتق الشهوة الصادقة ، وترجع العادة السابقة . والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفئات ولزّت بها المُبرِدات ضعفت فتقل الشهوة ويضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد مما يطفى ويغذى ، ثم يَمُنُّكَ من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوِّى منها ، ويزيل العارض المُكْتَسَب عنها ، كما يقول الفاضل جالينوس : قدّم علاج الأهمّ ، ثم عُدْ فأصلح ما أفسدت .

والأقراصُ في أواخر الحَمِيّات خيرُ ما نُقِيَّت به الكبد ، وأصلحت به العروق ، وقوى به الطحال ، ليتمكن من جذب [العكر^(١)] لاسيا والذى وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها ، والبلدة التى وردها ، فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقيّاً من الفضولات لما أثر هذا التأثير ، ولا طوّل هذا التطويل ، وإنما اغترّ مولاي بأيام السلامة فكان يَنْبَسِط في أنواع الطعام ، ويُسْرِف في تناول الشراب ، فامتلاً الجسم من تلك الكَيْمُوسات الردية ، وورد بلدّاً شديد التحليل مضطرب الأهوية ، فوجدت النفسُ عوناً على حلّ ما انعقد ، ونفض ما اجتمع . وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن الجسد يخلص خلاص الإبريز إذا زال عنه الخبث ، وسُبِكَ فقارقه الدرن .

وأما الرعشة التى يتألم مولاي منها ، ويضيق صدرها بها ، فليست — والله — محذورة العاقبة ، وإنها لتزول بإقبال العافية ، فالرعشة التى يُخَوِّف منها ، هى التى تعرض من ضعف

القوة الحيوانية ، كما تعرض للمشايخ ونُودَى — بمشاركة الدماغ — إلى كثير من العظام ، فأما هذه التي تُعتاد بعقب الحى ، فهي على ما قال جاليوس في تقصيه الفضول : من أن حدوثها يكون ، إذا شاركت العروق --- التي تحدث فيها العلة — المصَّب ، وتزول عنه برِوال الفصل

وعَجِب مولاي من سكره شمِّ العواكه ، ولا عجب إذا عرف السبب ، فإن العموة التي في العروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، مما يصل إليها من الروائح الزكية يَرَد على النفس مغموراً تلك الروائح الخسنة فتسكرها ولا تقبلها ، وأناها ولا تؤثرها . وهذا قياس بين على ما كشفه الأفروديسي .

ألا يرى مولاي أن الأشياء الحلوة توحد في فم دى الصغراء بطعم الأشياء المرة ، لاستيلاء المرارة المصادة للحلاوة ، على آلات الدوق والمصغ والإدارة . وهذا راجع إلى ما حكما به أولاً من أن هناك فصلاً لا يمكن الهجوم على تحليله ، لما يُخْتَسَى من سقوط القوة ، وإن كان ما لم يخرج لم يؤثر وفور الصحة

وأنا أحمد الله ، إذ است شهوة سيدى مرأيه ، فالشهوة الغالبة مع الأحلاط العاسدة تغري صاحبها بالأكل الرائد ، وعرضه المزاج العاسد ، إلا أن التغذى لا يحور إهماله دفعة ، والترم به صرمة ، فإن المدن إذا احتاج إليه وح للعليل أن يتناوله تناوله الدواء الذى يصدر عليه ، وذلك أن في دقة الحمية وترك الرجوع أول أول ، إلى عادة^(١) الصحة ، إمانة للشهوة ، وحياة للقوة

وجاليوس شرط في المعالجات أجمع استحفاظ القوى . لأن الذى يفعله الصغف لا يتداركه أمر ، إلا أن ذلك بإزاء ما قاله الحكيم الأول نقرط في المدن السقيم : أنك متى ردت عذاء ردت سرأ ، وهو نفسه يقول : إن الحمية التي في هاية الدقة ليست بمحمودة ، والطرفان من الإسراف والإجحاف مدمومان ، والواسطة أسلم . أعنى الله مولاي عن الطب والأطباء ، بالسلامة والشعاء ، وقد كتبت في كذا ما يفنى اهتمام سيدى به عن ترديد ذكره :

وإذا رميت إلى ان عزم حاجة ~~بشيء~~ بأن جناحها يستتير

(١) هكذا في النبعة وفي الأصل : ~~لا يجرى~~

٩ — وله جواب كتاب فتح ورد من الشريف أبي طالب السيلقي

هذا كتاب الشريف سيدى طلع ، أم عهد الشباب رجيع ، وخطابه أسفر ، أم لقاءه تيسر ، والربيع ضحك وابتمسم ، أم بيانه ظهرَ فبهَر ، والزمان أعتب ، بعد ما أذنب ، أم حوارهِ تُلِي وُسمِع ، والوصل بعد الهجراتِ يَح وقدَّر ، أم صوب العقول من بين يديه اعتن^(١) وعرض ، وعشّيات الحمى لذت بمهب نسيمها ، أم فقر من سحره تجلّت في سلك نظمها ، وساعات اللوى أسغت بضمّ الشيتين ، ودفعت بالقرب في صدرِ البين ، أم رعت العينُ في حديقة بيانه أظارَ البلاغة ، وحوامل الخطابة ، وغرّة الدهر انّهزت من أثناء نوائها السود ، أم لمع من أفكاره تراءت من خلل السطور ، وصفحة العفو تجلّت لموبق من جرائمه ، أم صحيفته حدثت عن غرّة فوائده ، والهداية أتاحت للحيران وقد أخذ عن مراشده ، أم تهنئته أقبلت مقتبسة من محاسنه ومحامده ، والفقر عاجلته الثروة ناسخة بؤسائه بنعمائه ، أم مناجاته توشّحت بحلّل فهمه وحلاه ، والنزاع نُقع بالاجتماع غليله ، أم كلامه سهّل في المسامع سيله .

نم وصل الكتاب ، فكان مئى النفس وقرة الطرف ، وانسراحة الصدر ، وبرد الكبد ، والشفاء بعد السقم ، وغاية الأمل ، ونهاية الطلب ، ومظنة الوطر ، وغاية المراد ، ونهيّة المرتاد ، وفرحة الإياب ، وإصابة الغرض الأبعد ، والشماتة بالعدو الأنكد ، والعيش الذى يقال فيه سمح ، ويقال غضّ ، ويقال رطب ، فرأيت به فتحة ثانيا ، ونصرا تاليا ، وأنسا ناميا ، وعيشا راضيا ، وخيرا وافيا ، وسرورا صافيا ، واقتبست عنه علما جيا ، وأدبا غمرا ، وفضلا دثرا ، ووجها من الزمان طلقا ، وجانبا من الخير سمحا ، وقلت له أهلا وسهلا ، وسعة ورُخبا ، ولم لا ، وهو كتاب [سلاله^(٢)] خيرة الله من خلقه ، وحجته من أرضه ، والمهادى إلى حقه ، والمنبّه على حكمه ، والداعى إلى رشدّه ، والآخذ بفرضه ، والمؤدّب بنديه ، والمصرف بين إباحته وحظره ، والمؤيد من عنده ، والمحتج به على جنه وإنسه . مختار من أكرم المنابت ، منتجب من أشرف العناصر ، مرتضى من أعلى المحامد ، مؤثر من أعظم

(٢) زيادة يقتضيه السياق .

(١) فى الأصل : اعتز .

العشائر ، مُفْتَتَمٌ من أُنْجَمِ القَبَائِلِ ، معضود بالمعجزات الغرّ ، مرفود بالدلالات الزُّهْر ، لا تحبوا ناره ، ولا يوضع مناره ، ولا يُتَحَيَّفُ سناه وسناؤه ، هُدًى به الخلق من ضلالة سوداء دهماء ، وعُلمُوا به من جهالة رَبِّدَاءِ جهلاء . مبارك مولده ، سعيد مورده ، قاطعة حجته ، سامية درجته ، ساطع صباحه ، متوقد مصباحه ، مظفّرة حروبه ، ميسرة خطوبه ، نُسِخَتْ بلمته الملل ، وبشرعته الشَّرْع ، وبنحلته النُّحْل ، وبكلمته الكلم ، وبأتمته الأُم ، وبسننه السنن ، وصار العاقب والخاتم ، والقاطع والجازم ، قد أفرد بالزعامة وحده ، وختم بأن لا نبيَّ بعده ، فاستوفت دعوته شرق الأرض وغربها ، ومسحت برّ الدنيا وبحرها ، وأذعنت له سود الرجال وُحْمُرُهَا ، وذلت لعزته صيّد الملوك وكُبُرُهَا ، وصار الخالفون سرّاً ، يضطرون إلى اعتزاء إليه جهرا ، والمنحرفون عنه إدمانا ، يحقنون دماءهم بالانحياز معه إعلانا ، يُفَصِّحُ بشعاره على المنابر ، وبالصلاة عليه في المحاضر ، وتعمُرُ بذكره صدور المساجد والمنابر ، ويستوى في التطامن لأمره حالنا الغائب والحاضر ، والوارد والصادر ، لم يكتب كاتب إلا ابتداء مصليا عليه ، ولم يختم إلا بردّ السلام والتحية إليه ، كأنهم مستخرون غير مُؤثِّرِينَ ، ومجبرون غير متخيِّرين ، لطفًا من الله جمعهم على فضيلته ، وألقهم على جديله . ذلك سيد الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وإن للشریف مع هذا شرفا آخر تضع له الأفلاك خدودها وجباهاها ، وتلثم النجوم أرضه : أفواهاها وشفاهها ، ينضاف إلى ذلك الذى يلحظ الجوزاء من عال ، ويطول على السماء كلّ مطال ، بمن إسلامه سابق ، ومحلّه سامق ، ومجده باسق ، وذكره نجم طارق ، وسيفه قدر وبارق ، وعلمه بحر دافق ، وإمامته لواء خافق ، ونظير هرون^(١) عند المشاكلة ، وباب المدينة^(٢) عند المشابهة ، بدر يوم بدر بل شمس ، وأخو المصطفى بل نفسه ، مصلى القبلتين ، والهاشمي من الهاشميين ، كُفُوَ أشرف النسم ، وأكرم الكرائم في الأُم . نسله أعز نسل ، وأصله أفضل أصل ، به تُحلّ المشكلات ، وإليه ترجع المضلات ، ولداه الشمس والقمر ، ولولا علىّ لهلك عمر . سيفه أمّ الآجال ، ورحمه يتم الأطفال ، وحملته رفعُ السدود ، وصولته كسرُ البنود ، قوى الله [به^(٣)] أزر المسلمين ، وأفشى القتل

مدينة العلم وعلىّ بابها .
(٣) زيادة يقتضها السياق .

(١) إشارة إلى ما يروى من أن النبي (ص) قال
لعلى : أنت منى بمنزلة هرون من موسى .
(٢) إشارة إلى ما يروى من قول الرسول أنا

في المشركين . قيم^(١) الجنان ، وباب الرحمة والرضوان . ثاني أصحاب الكساء^(٢) في إذهاب
الرجس ، وحامل لواء الحمد عن يمين العرش ، وصاحب الخوض يسقى من شآئع ، وبآبع ،
ويمنع من ناصب ونازع . ذاك أمير المؤمنين صلوات الله [عليه^(٣)] تختص أوصافه عن
المشاركة ، وتخلص نعوته عن المزاخرة .

وهذا — أطال الله بقاء سيدي — باب إذا اشتغل به استنفد البحر مدادا ، وبسط
الأرض بياضا وسودا ، ونباتها وشجرها أقلاما^(٤) ، وأنفاس البشر خطابا وكلاما . وإنما
ذكرت من الدائرة نقطة ، ومن البحر قطرة ، لأکید مناصبا ، وأغیظ مجانبا . وأرجع
للكتاب . نعم وحمد الشريف سيدي ربه على هذا الفتح الكريم منصبه ، العظيم مرقبه ،
البهيّ مطلع ، السنّي موقعه ، الرفيع مناطه ، الواضح سراطه ، السابق رهانه ، القائم
برهانه ، الشاهد أثره ، السائر خبره ، المرفوع ضيعه وباعه ، المشبوح سطره وذراعه ،
الصادق سحابه ونوؤه ، الصادق صباحه^(٥) وضوؤه . وكيف لا يكون كذلك ومولانا
الملك السيد فاتح تدبيره ، ومبتدئ تقريره ، ومنشئ سحابه ، ورافع حجابيه ، ومهنيّ
دواعيه ، ومثقف مساعيه ، والقاسم له لحظة من حفافى سريره ، وقادمة من جناحي تقريره ،
وإذا غزم فقد أوقع ، وإذا أمر فقد نفذ ، وإذا قال فقد ارتسم ، وإذا صال فقد انتقم ،
ولاة الأرض خلفاؤه ، وجنود الأقاليم أولياؤه ، والقدر يخدم أمره ، والقضاء يتبع حكمه ،
والدهر يمثل رسمه ، والزمان يتقبل أخذه وتركه . ومولانا الأمير المؤيد مناهض الخطب
بنفسه ومراسه ، وناهض له بصولته وباسه ، ومرجف الأرض بسنابك خيله ، وحوافر الجياد
تحت الأبحار من جيشه ، ورام نغر الأعداء بكيده — وهو يرتقى مناكب الجبال الرواجح ،
حتى يحطمها إلى بطون الأباطح — ومعتمدة صدورهم بأيده^(٦) . ودونه ماتضع كل ذات حمل
عنده حملها ، وتحف الغبراء وتهجر ثقلها ، وملاقيهم بعد ذلك رجال يسترسلون إلى المنايا ،
كأن رحما — تجمعهم — دانية ، ويأنسون بالحروب كأن أمما^(٧) — تكفلهم — حانية ، فلم

(٤) في الأصل : أقلاما .

(٥) في الأصل : صاحبه .

(٦) الظاهر أن هذه السجعة سابقة للجملة :

الاعتراضية وقد وضعها الناسخ في غير موضعها .

(٧) في الأصل : إماء .

(١) القيم : السيد ، وفي الأصل : قسم .

(٢) يشير إلى ما يقص عند الشيعة من أن الرسول
ألقى عليه وعلى عليّ وفاطمة والحسن والحسين
كساء وقال نحن أهل البيت الخ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

تمص إلساعة ، حتى ^(١) أقيمت على المخاذيل الساعة ، وعلم أن الجليل ^(٢) أخس جيل . وكل هذا من تفصل الله على مولينا — أدام الله علاها — لا يدعيان حولاً ولا قولاً إلا به ، ولا يريان عوناً ولا نُصرة إلا منه ، يسجدان سجدات الشكر ، وتُقرآن لمالك الخلق والأمر ، علما بأنهما عمداه ، إلا أنه تعالى استكفاهما أمور العباد ، واسترعاها سبل الصلاح والرشاد .

وأقول لم يؤث الشريف سيدي من بيان والاعة ، وإحسان وإجادة ، ولسن وإصانة وسلاقة وذرانة ، ولكن الأمر جلّ في نفسه ، فحسر القرائح عن وصفه ، وقصر الأوهام عن علمه ، وفحص الأيدي عن عدّ فضائله ، وأياس القلوب من حصر مناقبه ، واستوى في الإحمار عن كنهه ، والإبباء عن حقه ، والتحدث بنعمة الله في إشراق نجمه ، وعلوّ قدحه ، حالنا القادر والعاجز ، والكامل والماقص ، والمفصول والفاصل ، والصامت والناطق ، والمسهب والمقتصر ، والمطنب والمقتصد ، والكثير والمختصر ، والمصيحج للهجة ، والرمي باللكمة ، والميسر لركة العدة ، والمميوّ بلفظ الأسله . بلى لبنوة النبوة توفيقاً ، أخذ منه الشريف محظ السائق ، وحق الوارت ، والمعلّي من قداح الياسر ، فكلامه فصل ، وكتابه في نفسه أصل ، سلع بالقول اليسير الغرض البعيد ، وبالإيماء القليل المطلب الشديد ، وبالنكتة يلقيها جملة ، ما يعجز خطباء إباد عن بقصيه رهة ، فهو سلالة من أوتى جوامع الكلم وقال : أنا أفصح العرب ، حتماً على الأفواه أن تعارصه ، وعلى الألسنة أن تناقصه ، بنفسى هو وأنفس الناس أجمعين .

شوقى إلى الشريف سيدي شوقاً لو تقاسمته ربيعة ومصر ، وتعارعت عليه العرب والعجم ، واشتركت فيه الطوائف والأئم ، وجعل فوسى يغمر القلوب ، وشورى يملأ الصدور ، ونهّجى يسع النفوس ، لما كان فيهم إلا ملتهب الجوانح صبوةً ، ومناججُ الأعضاء غلةً ، وسائحُ الدمع غصةً ، وعارب الصبر حسرةً ، ومهزور الأعطاف لوعةً ، وممتلئُ الأحشاء غمةً ، وهل يسع غير هذا وقربه الرّوح والراحة ، والأنس والغبطة ، والسرور والهجة . خلق عظيم ، وشرف عيم ، وطبع كريم ، وعهد قويم ، ولسان فصيح ، وعقد صحيح ، ومجد صريح ، وتواضع لم تتمنّ فيه نخوة ، وتسمّح بل سماحة غمرة ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وثغرها يبسم . يعطى من نفسه ما لا يُستحقّ ، ويسمح عنها بما هو الحق ،

وقد أصبح مع ذلك محفوظ الوقار ، سامى المقدار ، محفوظ الأطوار ، محيى الزمار ، عزيز الجوار ، يُخشى سطوه ، كما يُرجى حله ، وتُحذر صواقعه كما تُشام بوارقه ، ويُتخوف نكاله ، كما يُتَشَوَّف إفضاله ، فلا خير فيمن لم يجمع سلاسة وشدة ، وسكوناً وحدة ، وسهولة ومرونة ، وليناً وخشونة ، وانقياداً وجماحاً ، وطمأحاً وإسماحاً . والله المستول اجتماعاً على حال تشرح الصدر ، وتشد الأزر ، وتظاهر النصر ، وترفع القدر ، وتعلو الذكر ، وتوجب الغلبة والقهر ، وتلزم الأعداء الضُّر ، وتسلب على بقاياهم الدهر ، وتقسم لنا العيش السهل ولهم البقاء الوعر ، إلى أن يكونوا حصائد السيوف بعد أن تتساقط أنفسهم نفوساً بأيدي الحسرة ، وطرائد الحتوف بعد أن تنهات قواهم قوة قوة بعوادي الكربة ، فلا بقاء نجيح ، ولا فناء مُريح . وهذا دعاء اغتنمت أن يؤمن عليه الشريف سيدى ، فإن الإجابة — سيدى ! — هناك مرجوة ، وآية الإسعاف متلوة ، وعادة الإفضال مبلوة .

مازلت أترصد وقتاً يفسح لى فى الكتاب إلى الشريف سبدي فلا أجده ، وأتحنن زماناً يخلص لخاطرى فى إجابته فأستبعده ، ثم قلت : مالى وللتنصع وقد أسقط الله عنى كلفته ، ورفع بينى وبينه عُلقته ، فلم لا أملئ إملاء أسرع من سلة سارق أو لمعة بارق :

وخطفة برق أو كنظرة مغرم على حذرٍ أورد طرّف المراقب

فأملت ، وأنا لا أعلم كيف أحت خاطرى ويد كابتى ، وأستعجل لسانى وبنان ناسخى ، وبقي أن يكون الشريف يستر الزلل ، ويتجاوز الهفوة ، ولا يكشف السقطة ، ويغض على العثرة ، ويُغضى على الخللة ، فإنى له ومنه ، ومختلط بالولاء معه غير ممتاز عنه ، ومحاسنى — إن كانت — فله جمالها ، وإليه مآلها ، وعنده مستودعها ، وفى أفقه مطلعها ، وبروضه زهرها ، وفى سمائه قمرها ، ومقابحى — إن أحصيت — فعليه عهدتها ، وفى ذمته تبعها ، وهو المقنع بعارها ، المتلفع بشنارها ، والمرمى بنبالها ، والمقصود بحبائلها وحبالها ، وقد قال الصادق عليه السلام : نحن الأعْلَوْنَ وشيعتنا العُلَوِّون ، وقبله ما روى : مولى القوم منهم ، فليحسب لنفسه ثم ليحاسب ، وليثبت ثم ليطالب ، وليقض حق بطل الكتاب إن لم يكن فى نشره فائدة ، وإخفائه إن لم يكن فى إبدائه غنيمة باردة ، فهو عندى من الكلام الذى لا يفتح السمع له إلا حجاباً ضيق المسلك ، ولا يشرع له القلب إلا مجازاً ضحك المشرع :

وأسيء بالإحسان ظناً لا كُنْ هو بابنه وبشعره مفتون

١٠ — وله عهد لعلوى وَلِي النقاية بين الذرية الطيبة رضى الله عنهم

الشریف أبو القاسم زيد بن محمد بن الحسين الحسنی أدام الله عزه

قد استخرنا الله كثيرا ، وصلينا على النبي محمد وآله الذين طهرهم من الرجس تطهيرا ، واعتمدناك لما كان جدك ، رحمه الله ، معتمدا له من نقابة العلوية ، أيدهم الله ، بحضرتنا ، وفي أطراف مملكتنا ، إعظاما — لهذه الذرية الذكية ، والشجرة النبوية — عن أن يتولى الحكم بينها ، والنظر في أحوالها ، طبقات الحكم الخارجين عن جملة الأسرة ، وربة العترة . فكن من الأتقياء لله — تعالى — على ما يكون عليه ، مَنْ شَرُفَ بنبوة النبوة ، وكان سلالة الرسالة . والقرآن العظيم ، الذى يجمع المواعظ ، وينظم المرشد ، على جدك صلى الله عليه وعلى آله نزل ، والإنذار فيه بدأ الأقرب من عشيرته فالأقرب ، فأحق الناس بالسداد ، وأولاهم بالرشاد ، من نشأ في حجر الإمامة والوصية ، وانتمى إلى الدوحة الطيبة الرضية ، وكان جده رسول الله صلى الله عليه ، وأبوه سيد الأئمة الراشدين ، صلى الله عليهما وعلى آلهما أجمعين .

وخط هذا النسب الذى غشاه الله ملابس التعظيم وآتاه جوامع التفخيم ، وقدمه على مفاخر الأولين والآخرين عن أهل الدعوة^(١) ، والمتحلين اسم النسبة . ومن عثرت به منهم فأشهر ذكره ، وغير أمره ، فأجدر المناصب بالحراسة عن الدخلاء ، والحماية عن الأدعياء ، منصب كان المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله الأدنين — أصله ونجسه ، وذريته^(٢) مجده وفخره ، ووف شيوخ هذا البيت ، أيدهم الله ، حق الإكرام ، وفرض الإعظام ، بحسب مواقعهم من الصلاح ، ومراتبهم من السداد ، ومنازلهم من العلم ، ومحالمهم من الستر ، واكنف باقيهم — أعزهم الله — بالإعزاز والإيثار ، وتوخ غابهم^(٣) بالإعذار والإنذار ، ومن زاع عن الطريقة ، ولم يردّه الزجر إلى حسن البصيرة ، فخذ بأدب جدك ، فقيه العرب وسيد بنى عبد المطلب صلى الله عليه كثيرا وسلم على أهله وصحبه تسليما ، فى كف معرفته ،

(٢) فى الأصل : درعه .

(١) فى الأصل : الدولة .

ودفع مضرتة ، لئلا يقع من أحد ما يهجن علوَّ نسبه ، ويتحيف فضل حسبه ، فإن المنتمى وإن كان عظيما ، فهو مفتقر إلى تقوى الله شديدا .

وابعث الأشراف على إحسان معاملة سائر الرعية وصيانتهم عن الامتهان والأذية ، فقد كان محمد صلى الله عليه وعلى آله — كما وصف الله — رءوفا رحيا . ومهما وعظمتهم به وذكرتهم وهديتهم إليه وبصرتهم فاسبق إليه ، وقدم العمل عليه ، ليقصدوا بك ، ويهتدوا بمذهبك . واعلم أنا كما حملناك من أمانة الله ثقيلًا ، وقلدناك عظيما جليلا ، فسنوسعك إحسانا وتقديما ، وإكراما وتأييدا ، وإنعاما وتخويلا ، ونرسم إجراء نظرنا وصلاتنا ، وعطايانا وهباتنا ، للعلوية — أيدهم الله — على يدك ، وتفرقتها لديك ، فاستمد هذا الرأى بسلوك أرضى المذاهب وأحمدها ، وأهدى المسالك وأسعدها ، ولا تدع مشاورة أولى العلم والرأى من العلوية ، أعزهم الله ، عموما ، والشریف أبى طالب الحسينى ، أيده الله ، خصوصا ، والله ولى توفيقك وهدايتك ، وعصمتك وكفايتك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب العشرون

في الشوارد ، وهي الكتب المختلفة المعاني

— ١ —

كتابي ومولانا الأمير المؤيد متصل أمداد النعم ، مرفوع عماد الكلم ، وعبدہ سالم بامتداد ظله ، والله الحمد شكراً لمنه .

ووصل كتاب مولاي بعد تراخي العهد به ، واستبهاهم طرق السكون لتأخره ، فقد علم أن المخاطبات بأنبائه أقوات النفس ، ولها أوقات في الورود ، فإذا تدافعت عُدِمَ القرار ، ومِلِكْتَ الأفكار . وعلمتُ أن الذي بطؤ به ، الشغل بالخروج إلى الأعمال الميمونة ، ومشاهدة النعم الموفورة ، فإنها بهرت العقول قبل العيون ، وفاتت الأحلام قبل الظنون .

وإن كان كل أبيّ مستوعر ، وقصيّ متعذر ، متى قصدته الهمة العالية مصحبا يدور الفلك بتقريبه ، ويخف القدر في تسهيله . والله يديم سلطان مولانا لبحرس الدنيا كما ملكها ، ويحوطها كما افتتحها ، بمنّة الواسع ، وصنعه الجميل . وقُرِبَ الانكفاء ، بطالع البسطة والعلاء ، إلى السرير الأعظم ، لازال خصاصه مسدودا بمولى الأمم ، وصدره معمورا برب الملوك والكرام الأعظم ، بشرى تعيها المسامع ، وتنهأ معها المنح الجوامع ، ويكَبُّ لها الباطل لوجهه ، ويخِرُّ عندها الضلال ليدّه وفه . وكتاب مولاي من العسكر مرغَب النفس ومرقَب النصر ، وانتظامُ أمر كذا وما يجري معه ؛ أمرٌ كان القضاء تَضَمَّنَه ، يوم ألقى مولانا ظله .

٢ — وله

كتابي عن سلامة ونعمة ، مسبغها سكون ظل الخدمة ، والحمد لله . وتطلعت خبرك فأبطأ إبطاءً ، وشغل الفكر وإن لم يضيّق العذر ، لعلمي بطيئك المنازل ، وإدراجك المراحل ، وكنا تفاوضنا عود فلان من النهر وان^(١) ، وقلتُ : إن ذلك لمستقبل حُسْنِي وإحسان ، فلم

(١) كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرق .

يخطيء ظني ، ولم يبطل زجري ، لأن صدره كان بالخلع المباركة ، واللواء الميمون ، والعهد الكريم ، ثم أفكر مولانا في أن ذلك إذا تأخر عنه القلب وجد التشريف متحياً من بعض جوانبه ، مُخِلاً برسم من مراسمه ؟ فاستعاد فلانا لينضاف القلب المتخير إلى سائر ما استجزل فيه الشرف ، وأوعز في مخاطبة الأمير بهذا الذكر ، ليعرف وفور الاهتمام بمواقع الفخر ، ويؤمن عليه ذهاب الخطر مع سوء الفكر ، وإنباثك بالأمر لتمثله ، وتعرف آخره ، كما عرفت أوله . وأنا أنتظر إياك ، وقبله كتابك ، وأخبارك ، وآراك .

٣ -- والـه

كتابي ، ونعم الله عند مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — متصلة الورد ، متضمنة أقسام السرور ، وأنا سالم في ظله الظليل ، وبرأيه الجليل ، والله الحمد .
ووصل كتابك يذكر عرضك ، بحضرة الأمير صاحب الجيش ، ما استصحت ، ومجاورة بره قولاً وفعلاً لما تطلعت وارتقت ، إلى سائر ما تصرف — أدام الله نعماءه عليه — من بواعث الكرم ودواعيه ، وبسط الجليل والإغراق فيه ، وعرضته ، فاعتد مولانا بما تظهره الأيام زائدة في الثقة ، ومضاعفة للعودة السابقة ، وقال ، أدام الله تمكينه ، إنا لولا طعننا كيفاء ما عندنا من إكباره ، لتكلفنا ما لا حصر لأقداره ، لكننا علمنا أن القليل إذا اعتمد به حفظ نظام الاسترسال ، وما يجب من الانبساط عند امتزاج الأحوال ، لم يكتسب هجنة ، ولم يواجه ظنة .

وأوبك الآن متطلع ، إذا رأى الأمير ذلك وأوجبه ، واهتم به فلان وسببه ، فإنه خبرك على تلخيص^(١) ، إذ قد أبطأ من المجمرين من تقدمك ، وكذلك من صحبك ، وأذكره أحوالك .

٤ -- والـه

باب الفتى^(٢) بأصبهان كنت أعلقته ، بل أوثقته ، واقتدى مولانا بي في ذلك فردمه ، وسد ثلعه ، إلا أن الشاذ يقع من حيث لا يتوقع .

(١) تلخيص هنا : تبين .
من الفروسية وإكرام الضيف وحماية الضيف ونحو ذلك .

(٢) الفتى يراد به في ذلك العصر أعمال الفتوة

وورد الباب صبي بقرب فلان ، اضطره إلى الخروج إعراض أنيسيان ، آذاه بالدعاء إلى التفتي معه — فت الله عضده وأضلعه — ومولاي يزجره زجرا ، يصير حصرا ، ليسلم هذا الضعيف عليه ، ويمكنه المقام على أبويه ، إن شاء الله .

٥ — وله

وصل كتابك فأنست لوقوع الطرف عليه ، وامتداد اليد إليه ، وفضضته فجمع وفاقا وخلافا ، وأطلع شيات أخيفا^(١) ، فأما الشكر والاعتداد ، والإخلاص والاعتقاد ، فأمر أنت تستغنى عن ذكرها خبراً ونشراً ، بعد ماقتلتها علماً وخبراً ، فكل معرفتها إلى ، ولا تستزد فيها لدى . وأما فلان فقد كنت أحب أن يتفق مقامك بأصهبان ولما بعد عنها ، فتشاهد توفراً ترق حواشيه ، وتروق نواحيه ، كما تستحقه على ، وعلى من هو مني .

على أنه خارج بعد أيام ، وواصل — إن شاء الله — قبل مفارقتك أصهبان ، فيتلافى بعض الحق إن أعوزك له ، ويؤدّي غنى ما لا يؤديه إلا مثله . وأما ما شغلت به من أفكارك فكرا ، ومن سطورك سطرا ، في إرجاف زيد ، واختلاف عمرو ، فلو شئت لكفيت نفسك وإياي كلفته ، وضئت يدك وسمعى عن أن تثرّد^(٢) جلده ، فمثله لا يصدر إلا عن أفواه مناطق صوابا ، ولا قالت إلا كذابا ، لاسيما وأنت تعلم أن سمعى حرم لا تدخله بُنيّات الكلام ، وهنّات الطعام .

واستدعيت مهماتي ، فخذ — إن لم يكن وفاؤك ظهرياً وعرضك سابرياً^(٣) — للشيخ المرشد — أدام الله عزه — شرح كذا من الفقه ، وقد رأيت جلّه عندي ، إذ ذكرت موقعه من كتبي ، ولكنه بين هُجْنَتَيْن : من اختلاف الخط والتقطيع ، وسُبَّتَيْن^(٤) : من فقد التصحيح والتتيم ، فارتد — إذا عدت لي — نسخة تجمع التمام والحسن والصحة .

وخراجك قد قلت فيه لفلان ما يزيل عنك الشغل ، ويميط دونك الثقل ، والتسوية الثاني قد أجريت ذكره في المجلس الشريف ، وأنا — إن شاء الله — ألطف في التذكير ،

(٣) العرض السابري : عرض رقيق يشترى

بأذن ثمن . (٤) في الأصل : وستين .

(١) أخيفا : مختلفة .

(٢) تثرّد : تعرك وفي الأصل هكذا : يبرر .

والله وليّ التيسير . فاكتب — أيدك الله — ما أقت ، ثم إذا انصرفت ، فاذكر حاجاتك كيف اخترت وأحببت ، إن شاء الله .

٦ — والـه

وصلت رقعتك فذكرت فيها من شكائك — مسحها الله بإدامة معافاتك — ماشغل قلبي ، وقسم فكري ، والله يُهْدِي لك من العافية أفسحها وطناً ، وأثبتها مرتيناً ، بمنّه .
وفلان ورد كتابه بذكر ما لقي في طريقه أجمع ، من برّ تجاوز القصد إلى السرف ، وجاز كل غاية أمد ، وأنه — حين وصل — تلقاه الأمير متناهيًا في التوفر ، وموفياً أقسام التفضل ، فأورد بهذا الذكر ، ما استنفد طاقة الحمد والشكر ، فوقع بحضرة مولانا الأمير ألطف مواقع الاعتداد ، واستجزل من إحماده أكمل السهام والأقساط .
وقد أنهيت جليّة ماورد إلى الحضرة العالية إنهاء المشارك المخلص ، والمشايع المتخصص ، في كل الذي يتصل بجنبة الأمير مولاي ، والله يزيد الأحوال قوة أسباب ، وقرب أنساب ، بمنّه .

٧ — والـه

كتابي يوم كذا وقد تقدمت اليوم بتقديم مَضاربِي إلى سَخْنَة^(١) ، لأنْهَض — بمشيئة الله — بكرة ، مواجهها الحضرة الهية ، والله يعرف في ذلك الخيرة ، ويلقى النجاح والرافة .
وكانت علىّ في تهذيب هذه الأعمال — التي فسدت على الأيام ، واضطربت على الزمان — أشغال وأثقال ، ولم أحسها تنزاح في مدة قريبة ، ومهلة يسيرة ، إلا أن سعادة الخدمة البشرية تسهل العسير وتقرب البعيد ، وحداني على فضل التعجل ، والزيادة في التشمير ، أن الكتب من المجلس الشريف توالى إليّ ، بالبعث على البدار ، والحث على تقديم الفراغ ، للمهمات التي يلزم التصرف على تقريرها ، والتخفف في تقديمها .

(١) موضع بين بغداد وحمدان ، وقيل بلد بالقرب من همدان .

ووصل كتابك — فتكافأ موقعه وتوقعه ، وآنس مطلعه ومودعه ، وأحدث ماتصرفت فيه إحمادى سائر أحوالك ، واعتقدت فيه اعتقادى فى كافة أفعالك — بأنى أنكرت إيرادك ، فى جملة اعتذارك ، أنك حسبت كتبك لا تُتَرَقَّب ، فذلك خففت ، ومحاطباتك لا يؤبه لها ، فكرهت المواظبة وأقصرت ، وما علمت أنك — بعد — من اليقين بموضعك لدى فى هذه الدرجة القريبة ، والمعرفة الضعيفة ، وقد كانت لك فى المعاذير فسحة ، وفى مذاهب القول سعة ، فلم ألجأت بمسك إلى أضيق السبل وأوعر الطرق ، ولعمري إن كثيراً من الناس بالرتبة التى ظننت بمسك بها ، حاشاك منها ، فإنك إذا كنت كان سعيك مشكوراً ، وإذا اعتبت عوسك طويلاً ، ولم نظن بك إلا جيلاً .

وقد عرفت ماشرتني به من تماثل فلان وإقباله ، والفضل من ظاهر حاله ، وما شاهدته عند استقباله ، وأنا أرجو أن يهب الله له ولى فيه عافية ، يمتد ثوبها ، وتتوب القوة معها ، فإن الذى يملغنى من صعمه قد أضعف المنة ، وإن لم يضعف الظن بالله والثقة ، كفاه الله بالسلامة ، وشعاه بطائفه الخاصة والعامة . وقد عرفت ما أصدرته إلى الحضرة البهية ، فحمدت الله على معونته لك ، وتوفيقه إياك .

وكتب فلان بأن العدد نقص عن التوظيف شيئاً ، فنتج ذلك فى المجلس الشريف عتماً ، ولا أدري كيف أحاصمك لمسك ، فإنك أنشأ فى الكثير تحجيف السير ، وترييل محمداً الجليل بانتقاص الدقيق ، مع معرفتك بمسألة مولانا عن هذا الباب مستقصياً ، والتماسه الحساب به مستوفياً .

٨ — والـه

وصل كتاب مولاي فأفادنى من به ما قد سبق إقرارى بالقصور عن الواجب فيه شكراً واعتداداً ، وإن كنت لا أقصر بية واعتقاداً .

فأما الذى بشرنى به مولاي من إتمام مولانا فى اختيار يوم لورودى الباب المعمور ، ففوق كل أمل ومأمول ، لم تبلغه همتى ، ولم تشجع له مفتى ، إذا سعاد يوم ووقت لأمثالنا من أصاغر الخدم وأنشاء الدار ، يوم يمثلون فيه بإزاء السرير الأعظم مقبلين على الأرض

بالتقبيل^(١)، ولكن نفحات الإحسان من ملك الأملاك، وفلك الأفلاك، أدام الله أيامه، لا حصر لها ولا حد. وأنا عامل على ما مثل ومرتبسم بإذن الله. والذي أهّل له السلار أبو نصر — أدام الله عزه — تلقيناً له وترتيباً، وتشريعاً وتقريباً، يزيد أولياء الدولة وخدمها انشراح صدور وارتفاع نواظر، والمداهنين في فرائضها ولوازمها حرارات صدور، وممرات قلوب.

وقد بادرت بكتاب مولاي، أدام الله تأييده، إلى حضرة مولانا الأمير المؤيد، أدام الله أيامه، علماً بأنه يهتزّ لما اتفق، ويتحقق أن عنايته به، هي التي شفعت إلى الرأي العالى له، لا زال كل مرموق وملحوظ مستمداً خيره وجاهه بطاعة للحضرة العالية يلتزمها، وخدمة ليخدمها، ولحمة يستمدّها، وبظرة تُفَضِّل عليه بها.

٩ -- ولله

كتابي — أطال الله بقاء قاضى القضاة^(٢) — عن سلامة يسوِّغها بفضل الله الشامل، وإحسان فوق ما يأمله الآمل، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين.

ووصل كتاب قاضى القضاة، أدام الله عزه، فكان أنسى به، مشتقاً من أنسى بقربه، فأما بفضل مولانا، أعز الله نصره، فالصنيعة فيه عند قاضى القضاة — أدام الله عزه — مُصيبة طريق المصنع، وواقعة أكرم موقع، ولا غرو أن درّ الغمام، وقطع السيف الحسام، أدام الله أيامه، ولا أفقد إغراسه وإنعامه.

وفلان قد كان وثقى في بابيه، ما استقلت معه المنوى في عقابه، وإذ قد حكى قاضى القضاة براءة ساحته، فقد سرّني أن انصرفت اليد عن مساءته.

وما بينى وبين قاضى القضاة يكبر عن الشكر، لا بل عن إجراء الذكر. فأما أنا فالعافية سابقة على، والسعادة خالصة لى وإلى، والله حمد ذلك. بل أنسى مدخول،

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد على ما مر.

(١) لعله يشير إلى استدعاء عصف الدولة له كي يمثل ببابه على نحو ما سبق وصفه في غير هذا الموضع.

وساطى معلول ، لشكاة مولاي أنى العباس^(١) ، والله أسأل أن يقيه ويقيه ، ويكفيه ويمافيه .

الأمر الذى أوماً إليه قاصى القصة من حديث أحنانا ببغداد ، إذ قد جرت فيهم ضروب ، وترددت خطوط ، ورأيت الصواب فى ترك محاطبة المزكى لنفسه ، المعجب بدرس ، فأمسكت ، وللجملة تفصيل ، وإذا التقينا — بمشيئة الله — قلت .

وقد استحصرت فقهاء هذا البلد فى فرص الفراغ ، فرأيت قوماً بهم الاستفادة والتعرف ، والاستعلام والتفهم ، وأجل ما فيهم التصون ثم أن لا تنازع بينهم فى أمر الدنيا ولا تشعب ، بل جميعهم كاليد الواحدة يردون مورداً ؛ ويصدرون مصدراً ، وما بهم عن سماع الحق بغير ، بل ثم إصغاء وقرب ، وليس يخطئهم التقريب والرفق ، ومن عند الله التوفيق والرشد . هذا وفيهم من يتجاوز هذه الطقة ، ويعتمد الموافقة فى مقامى على بقر أحوال الدينور ، فإن استقرت ، كما أريد . كفيت الخروج إليها ، وإلا ألمت أياماً خمسة بها ، ثم أنكفى إلى الحصرة ، فإن المدة عنها بترك النفس فى جانب الفتور ، والأمل فى ناحية القصور ، إلا أن أهل هذه البلدة مد مدّ عليها ظل العدل كمن أحبى وهو رميم ، وأثبت وهو هشيم ، نسأل الله توفيقاً لما يرضيه ، وتسديداً فيما يحصيه ، وهو حسبي ونعم الوكيل . است أذكر تشويقى قاصى القصة ، أن كنهه إلى علمه ، وأسأله استشهاد نفسه :

فعلى القلوب من القلوب شواهد وعلى الصدور من الصدور دلائل

١٠ -- ولله

كتابى ومولانا محمود من النعم بما يتجلى صنع الله فيه باهراً للعيون ، محققاً للظنون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وتأخرت كتنى عن مولاي لسرور علل على صارت حلقاً لارما ، وطبعاً ثانياً ، حتى عادت الصحة كطارق مستعرب ، وطارى مسبدع . وعولت فى المهمات أجمع على ما ينهيه أو فلان ، فقد عرف فى كل باب ما عرفته ، وعلم منه ما علمته ، وقد نهض منذ أيام ، والله

(١) هو أبو العباس الصبي .

يبسر المنايح أين توجه الخدم عن الباب المعمور ، والأمير المتبوع ، بمنه .

وكان مولاي ، أدام الله عزه ، بشر بما تيسر في كذا ، فابتسمت تغور الأمل ،
وآذنت بنهاية المراد في أقرب أمد ، لازالت عزائم مولانا غنائم لأوليانته ، وصوارم على
أعدائه . وكتاب البشري بغية الطرف ليجلوه ، والروح ليغذوه .

آخر الباب العشرين ، وبه تمام هذا المجموع من الديوان ، والحمد لله حق حمده ،
والصلاة على النبي محمد وآله .

وفرغ من كتابته أبو الحسن علي بن أحمد بن زكريا المعروف بابن الشصاص
البغدادى بهمدان في شهر رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة م .

فهرس الرسائل

فهرس الأعلام

- إبراهيم بن القاسم ١٢١
 إبراهيم بن محمد الحاجب ٥٥ ، ٦٦
 إبراهيم بن المرزبان ١٦ ، ٨٧
 ابن الأثير ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ — ٢٥
 ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ١٨٤ ، ١٨٦
 ابن بابويه ١١٦
 ابن جحا الكوفاني ٢٢٣
 ابن حماد ١٨٣
 ابن حمدان ١٢
 ابن الحنفية ١٥٤
 ابن سيمجور (أبو الحسن) ٢٤ — ٢٦
 ابن الشصاص البغدادي (أبو الحسن علي بن أحمد بن
 زكريا) ٢٤٥
 ابن عباد (صاحب كافي الكفاة) ١ ، ٣ ، ٤ ،
 ١٦ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ١٦٨
 ابن عبد الرزاق (محمد) ٢٣
 ابن عساكر ١٥٧
 ابن عكبر ١١٥
 ابن علوية ١٨٣
 ابن العميد (الأستاذ الرئيس) ٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 ابن عنقرة ١١٦
 ابن قراتكين ٢٣
 ابن ما كان ٢٣
 ابن مخارق الهلالي ١٦٠
 أبو إسحق الكاتب ١١٨
 أبو بكر الصديق ١٠٧ ، ١٥٦
 أبو الحسين زيد بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
 أبو الشمقمق ١٦٠
 أبو طالب الحسيني (الصريف) ٢٣٧
 أبو طالب السيلقي ٢٣١
 أبو طاهر (الفقيه) ١٨٣ ، ١٨٤
 أبو العباس الضبي ١٤١ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٨٠
 ٢٠٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣
 أبو العلاء بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
 أبو علي بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
- أبو عيسى الكردى ١٨٤
 أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد ١٣٢
 أبو الفرج الحنط ١٣٤
 أبو القاسم بن مقرن ١٩٦
 أبو منصور بن محمد ٦٤ ، ٢١١
 أبو الهذيل (العلاف) ١٤٠
 أبو الهول الحميري ١٦٠
 أحمد بن إبراهيم (أبو عيسى) ٩٤
 أحمد بن محمد بن المحتاج ٢٣
 أساتكين (أبو الجيش) ١٨٢ ، ١٨٣
 الإستيندار ١٠٥
 إسحق بن بندار ١١٩
 إسفهلار بن كوريكنج (أبو منصور) ٤٦
 إسماعيل بن صبيح ١٣٥
 الإصبهيد ٧٩ ، ٨٠
 الأعشى ١٦١
 الأفروديسي ٢٣٠
 أمدروز ١٢ ، ١٤
 الأمير السيد = عضد الدولة
 الأمير المؤيد = مؤيد الدولة
 الأمين بن هرون الرشيد ١٣٥
 بختيار ١٩ ، ٢٠
 بشار ١٦٠
 بشر بن أبي خازم ١١٥
 بشر بن مروان ١١٩
 بقراط ٢٣٠
 بكتاش الحاجب (أبو الهيجاء) ٦٤
 بكتكين الحاجب (أبو الوفاء) ٦ ، ١٢٠ ، ١٢٢
 بيستون بن وشمكير ٤
 تاش (أبو العباس) ٢٥ — ٢٧ ، ٣٣
 تأبط شرا ١٥٦
 جالينوس ٢٢٩ ، ٢٣٠
 جركاس بن وشمكير ٦

الطائع لله (الخليفة) ٥ ، ٢٤ ، ٣٤

عاصم بن فهيرة ١٥٦

عباد بن العباس ١٦٠

عباد بن المطهر (أبو القرج) ١٥٩ ، ١٦٠

العباس بن فيلسار ٢٠

عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة) ٣٤ ، ٤٢ ،

١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

عبد الجبار بن يزيد ١٥٧

عبد الحميد الكاتب ١٣٥

عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر (القاضي أبو القاسم) ٥٢

عبد الله بن أريقط ١٥٦

عصام بن أحمد ٢٠٩

عضد الدولة (الأمير السيد ، الملك السيد ، شاهنشاه)

٣ — ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ — ٢٢ ،

٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٢ ،

٧٧ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١١٣ ،

١٢٤ — ١٢٨ ، ١٣٠ — ١٣٢ ،

١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ — ١٧٠ ، ١٧٢ ،

١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ —

٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣

عكبر بن إبراهيم ١١٦ — ١١٨

علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين ، وفقه الرب)

١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ،

٢٣٦ ، ٢٣٣

علي بن أحمد الحراويني (أبو القاسم) ١٤٤

علي بن كامة (أبو الحسن) ٥ ، ١٦ — ١٨

علي بن محمد (الشريف أبو الحسن) ٢٠٢

علي الرضا ٢٠٠

عمر بن الخطاب ١٠٨ ، ٢٣٢

عمرو بن براق ١٥٦

العبيد ١٣٢

فاطمة بنت الرسول (ص) ٢٣٣

فائق ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣

غفر الدولة ٥ ، ٣٥ ، ٣٣

الفرزدق (أبو فراس) ١٦٠ ، ٢٢٧

الفصل البرمكي ١٦٠

جرير (أبو حذرة) ٢٢٧

جعفر بن أبي طالب ١٣٠

الحجاج الثقفي ١٥٧

الحسن بن سهل ١٣٥

الحسن بن علي بن أبي طالب ٢٣٣

الحسين بن أحمد بن عبد الله بن هرون ٥٧

الحسين بن العباس الرندي (أبو عبد الله) ١٩٩

الحسين بن علي بن أبي طالب ١٤٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣

الحسين بن محمد (أبو منصور) ٥١

الحطيفة ١٦٠

خالد بن دثار ١٥٧

دعيبس الرمل ١٥٦

ربيعة الرق ١٥٩

الرشيد (هرون) ١٣٥

ركن الدولة (الحسن بن بويه) ١٦ ، ٢٤ ، ٥٠ ،

٦٤ ، ٦٥ ، ١١٧ ، ١٦٧

الزبرقان ١٦٠

زيار بن شهراكويه (أبو حرب) ٥

زيد بن محمد بن الحسين الحسني (الشريف) أبو القاسم ٢٣٦

سعد بن محمد (الحاجب) أبو القاسم ٢٠

السلار ٨٧ — ٩١ ، ٩٦ ، ٩٨ — ١٠٠

١٠٣ ، ١١١ — ١١٣ ، ١٢٣ — ١٢٥

١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٤٣

سليك المقانب ١٥٦

سهل بن سالم ١٦٠

سهيل بن عثمان ١٦٠

الشغرى ١٥٦

الصاحب كافي الكفاة = ابن عباد

صاحب الجيش ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ،

٨٢ ، ١٣١ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٩

صدقة بن أحمد ٦٥

صمصام الدولة ٥

طاهر بن محمد (أبو الوفاء) ١٤

— ٥٩، ٥٧ — ٧٢، ٧٠، ٦٩، ٦٥ —
 ٧٤، ٧٧، ٨٢ — ٨٤، ٨٧، ٩١،
 ٩٤، ١٠١، ١٠٢، ١١٣، ١٢١،
 ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٤،
 ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦ — ١٦٩، ١٧٢،
 ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٩، ٢٠١،
 ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٢، ٢٢٥،
 ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٤٣

النظام ١٤٠

نوح بن نصر ٢٦

النوشجان بن عبد المسيح (أبو عيسى) ١٦١

هرون (الرسول) ٢٣٢

وشمكير بن زيار ٢٤

الوليد بن يزيد ١٥٧

وهسودان بن محمد ١٦، ١٧

ياقوت ٦١

يحيى البرمكي ١٣٥

يحيى بن محمد بن زيادة العلوي (أبو محمد) ١٤٤،

١٤٥، ١٤٩

يزيد بن أسيد ١٦٠

يزيد بن حاتم المهلي ١٥٩

يزيد بن مزيد الشيباني ١٦٠

يونس بن حبيب ١٦٠

الفضل بن سهل ١٣٥، ١٦٠

الفضل بن العباس ١٦٠

قابوس بن وشمكير ٤ — ٧، ٢٤، ٢٦ — ٣٣،

قيصة (أبو قطن) ١٦٠

لشكرستان بن لشكرين ٧

المأمون ١٣٥

المتني ١٦، ١٧، ١٩٩

المتلمس ١٢٠

محمد بن أحمد الكاتب ٥٣

محمد خليفة الحاجب ٢١٢

محمد بن المرزبان بن الفرخان (أبو سعيد) ١٥٤

محمد بن يحيى بن خالد ١٦٠

محمد بن منصور بن زياد ١٦٠

المرزبان بن اسماعيل (أبو نصر) ١٧، ١٨،

مسكويه ١٢

مصعب بن الزبير ١١٩

المطيع لله (الخليفة) ٢٣، ٢٤

الملك السيد، ملك الملوك، شاهنشاه = عضد الدولة

متصور بن نوح ٢٤

المهلب ١٥٤

موسى (الرسول) ٢٣٢

مؤيد الدولة (الأمير المؤيد) ٤ — ٦، ٣٤،

٣٩، ٤٢، ٤٦، ٥٠ — ٥٣، ٥٥،

فهرس الأما كن والبلدان

الحطيم ١٤٦	آبة ٦١ ، ١٨٦
حلوان ٢٠	أذربيجان ١٦ ، ٦٧ ، ٨٧ ، ٩٨
خراسان ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ١١٣ ،	أرجان ٢١٥
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،	أردبيل ٦١ ، ٦٩
خوزستان ٢١٩	أردستان ١٥٦
الدامغان ٢٤ ، ٢٧ ، ١٣٣	أرمينية ١٧
ديالى ٢٠	إسترا باذ ٣ ، ٦ ، ٧
ديمرت ١٤٤	أصهان ٣١ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦١ ،
الدينور ٦٠ ، ٦١ ، ٢٠٥	١١٦ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ،
ذو بحار (جبل) ١١٥	١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨١ — ١٨٣ ، ١٩٨ ،
راوند ٢١١	٢٢٠ ، ٢٣٩ ، ٢١١ ، ٢٠٧ ، ١٩٩
الري ٦ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٦١ ،	أهواز ١٩ ، ٢٠
١٩٢ ، ١٨١ ، ١٠٧ ، ٧٢	إبران ٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٢١٧
زرين رود ٥٤	بجاری ٢٥
زمر (بئر) ١٤٦ ، ٢٢٨	البصرة ١٤ ، ١٩ ، ١٠٧
سارية ٦	بغداد (مدينة السلام) ٤ ، ١٩ — ٢١ ، ٦٧ ،
ساوة ٤٢ ، ٦١	١٠١ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣
سحنة ٢٤١	البيق ٢٢٨
سهرورد ٤٢	بوزجورد ١٢٦
شميران ١٧	البيت المظلم (البيت الحرام) ٧١ ، ١٤٦ ، ٢٢٨
الصفاء ٢٢٨	بئر معونة ١٥٦
الصيمرة ٢١٩	التيمرتين ٦١ ، ٦٢
طبرستان ٤ — ٦ ، ٢٤ ، ٢٤ ، ٧٩ ، ١٩٨	الجليل ، الجبال (بلاد) ٥ ، ٦ ، ١٧ ، ٦٧ ،
الطرم ١٧	٢١٩ ، ١١٣
الطف ١٤٨	جبل شهریار ٥
طهران ١٧٧ ، ١٨١	جرجان ٣ — ٦ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
طوس ٢٣	١١٩ ، ١٣٥ ، ١٤٤
طيبة ١٤٨	جیلان ٥ ، ٢٣٤
	الخائر ٢٢٨
	حرة بنى سليم ١١٥
	الحرم ، الحرمان ١٠١ ، ١٤٦ ، ٢٢٨

المشهد ٢٠٠	العراق ١٤٥ ، ١٩٨
معتق (جبل) ١١٩	
المعرف ١٤٦ ، ٢٢٨	الفرى ، الفرمان ١٤٨ ، ٢٢٨
مقام إبراهيم ١٤٦	
مى ١٤٦	فارس ٣ ، ٢١٥
مسور (جبل) ١١٥	
بايين ٥٠	قاسان ٥١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ١٥٦ ، ٢١١
سا ٢٧	قزوين ٤٢ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٩١ ، ٩٢
الويهار ٧٢	قم ٤٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٦
سهاوند ٦١	قوس ٢٧
الهروان ٢٠ ، ٢٣٨	كرمان ١٩٩ ، ٢١٧
بيسانور ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٣٣ ، ٢٤٩	الكنه ٢٢٨
واسط ١٩ ، ٢٣٨	الكوفة ٦١ ، ١٤٨ ، ١٩٨
ويعه ٦	الكوكان ١٧
هدان ٦١ ، ٦٧ ، ١٣٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٥	المحب ١٤٦ ، ٢٢٨
يدال (جبل) ١١٩	مدسة السلام = بغداد
رد ٢٠٨	المروة ٢٢٨
	شعر ، الشعران ١٤٦ ، ٢٢٨

فهرس الموضوعات

صفحة	
١	مقدمة
ح	مدخل
١ إلى ٢٤٥	الرسائل
١	مقدمة الرسائل
٣ إلى ٣٣	الباب الأول : في البشائر والفتوح
٣	الرسالة الأولى
٨	الرسالة الثانية
١٠	الرسالة الثالثة
١١	الرسالة الرابعة
١٤	الرسالة الخامسة
١٥	الرسالة السادسة
١٨	الرسالة السابعة
٢٢	الرسالة الثامنة
٣٠	الرسالة التاسعة
٣٣	الرسالة العاشرة
٣٤ إلى ٥٨	الباب الثاني : في اليهود
٣٤	الرسالة الأولى
٣٩	الرسالة الثانية
٤٢	الرسالة الثالثة
٤٦	الرسالة الرابعة
٥٠	الرسالة الخامسة
٥١	الرسالة السادسة
٥٣	الرسالة السابعة
٥٤	الرسالة الثامنة
٥٥	الرسالة التاسعة
٥٧	الرسالة العاشرة
	الباب الثالث : في الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير ومراعاة
٥٩ إلى ٦٦	الكبيسة من السنين وما يجرى مجراه
٥٩	الرسالة الأولى

صفحة

الرسالة الثانية ...	٦٠
الرسالة الثالثة ...	٦٠
الرسالة الرابعة ...	٦٠
الرسالة الخامسة ...	٦١
الرسالة السادسة ...	٦٢
الرسالة السابعة ...	٦٣
الرسالة الثامنة ...	٦٤
الرسالة التاسعة ...	٦٥
الرسالة العاشرة ...	٦٦

الباب الرابع : في الوصاة بالحجيج والمصالح وأمر الثغور ... ٦٧ إلى ٧٦

الرسالة الأولى ...	٦٧
الرسالة الثانية ...	٦٧
الرسالة الثالثة ...	٦٩
الرسالة الرابعة ...	٧١
الرسالة الخامسة ...	٧٢
الرسالة السادسة ...	٧٣
الرسالة السابعة ...	٧٣
الرسالة الثامنة ...	٧٤
الرسالة التاسعة ...	٧٤
الرسالة العاشرة ...	٧٥

الباب الخامس : في الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة والتودد إليهم

عباساتهم وما يقارب ذلك ... ٧٧ إلى ٨٦

الرسالة الأولى ...	٧٧
الرسالة الثانية ...	٧٨
الرسالة الثالثة ...	٧٩
الرسالة الرابعة ...	٨٠
الرسالة الخامسة ...	٨١
الرسالة السادسة ...	٨٢
الرسالة السابعة ...	٨٣
الرسالة الثامنة ...	٨٣
الرسالة التاسعة ...	٨٤
الرسالة العاشرة ...	٨٦

الباب السادس : في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين

صفحة	
٩٨ إلى ٨٧	العقوق بين ذوى الأحام وما يشا كل ذلك
٨٧	الرسالة الأولى
٨٨	الرسالة الثانية
٨٩	الرسالة الثالثة
٨٩	الرسالة الرابعة
٩١	الرسالة الخامسة
٩٢	الرسالة السادسة
٩٤	الرسالة السابعة
٩٦	الرسالة الثامنة
٩٧	الرسالة التاسعة
٩٨	الرسالة العاشرة

الباب السابع : في المدح والتعظيم

٩٩	الرسالة الأولى
١٠٠	الرسالة الثانية
١٠١	الرسالة الثالثة
١٠٣	الرسالة الرابعة
١٠٤	الرسالة الخامسة
١٠٥	الرسالة السادسة
١٠٥	الرسالة السابعة
١٠٦	الرسالة الثامنة
١٠٧	الرسالة التاسعة
١٠٨	الرسالة العاشرة

الباب الثامن : في الذم والتهجين

١١١ إلى ١٢٢	الرسالة الأولى
١١١	الرسالة الثانية
١١٢	الرسالة الثالثة
١١٣	الرسالة الرابعة
١١٤	الرسالة الخامسة
١١٤	الرسالة السادسة
١١٥	الرسالة السابعة
١١٦	الرسالة الثامنة
١١٨	الرسالة التاسعة
١١٨	الرسالة العاشرة
١٢١	الرسالة العاشرة

الكتاب التاسع : في التهناني والأجوبة عنها وما يجري مجراها ... ١٢٣ إلى ١٣٥ ^{صفحة}

١٢٣	الرسالة الأولى
١٢٤	الرسالة الثانية
١٢٥	الرسالة الثالثة
١٢٦	الرسالة الرابعة
١٢٧	الرسالة الخامسة
١٢٨	الرسالة السادسة
١٢٩	الرسالة السابعة
١٣١	الرسالة الثامنة
١٣٢	الرسالة التاسعة
١٣٣	الرسالة العاشرة
١٣٤	الرسالة الحادية عشرة

الكتاب العاشر : في التعازي ... ١٣٦ إلى ١٥١

١٣٦	الرسالة الأولى
١٣٧	الرسالة الثانية
١٣٧	الرسالة الثالثة
١٣٨	الرسالة الرابعة
١٣٨	الرسالة الخامسة
١٣٩	الرسالة السادسة
١٤٠	الرسالة السابعة
١٤١	الرسالة الثامنة
١٤٢	الرسالة التاسعة
١٤٤	الرسالة العاشرة
١٤٤	الرسالة الحادية عشرة

الكتاب الحادي عشر : في الإخوانيات والملاطفات والمداعبات ... ١٥٢ إلى ١٦٢

١٥٢	الرسالة الأولى
١٥٣	الرسالة الثانية
١٥٤	الرسالة الثالثة
١٥٥	الرسالة الرابعة
١٥٦	الرسالة الخامسة
١٥٧	الرسالة السادسة
١٥٨	الرسالة السابعة
١٥٩	الرسالة الثامنة
١٥٩	الرسالة التاسعة
١٦١	الرسالة العاشرة

صفحة

الباب الثاني عشر : في التشكر وما يشاكله ١٦٣ إلى ١٧٣

١٦٣	الرسالة الأولى
١٦٤	الرسالة الثانية
١٦٥	الرسالة الثالثة
١٦٦	الرسالة الرابعة
١٦٧	الرسالة الخامسة
١٦٧	الرسالة السادسة
١٦٩	الرسالة السابعة
١٧٠	الرسالة الثامنة
١٧١	الرسالة التاسعة
١٧٢	الرسالة العاشرة

الباب الثالث عشر : في الاستزادة والتقريع وما يجري مجرى ذلك ١٧٤ إلى ١٨٦

١٧٤	الرسالة الأولى
١٧٥	الرسالة الثانية
١٧٧	الرسالة الثالثة
١٧٩	الرسالة الرابعة
١٨٠	الرسالة الخامسة
١٨١	الرسالة السادسة
١٨٢	الرسالة السابعة
١٨٢	الرسالة الثامنة
١٨٣	الرسالة التاسعة
١٨٤	الرسالة العاشرة

الباب الرابع عشر : في التنصل والاسترضاء وما يشاكل ذلك ... ١٨٧ إلى ١٩٥

١٨٧	الرسالة الأولى
١٨٨	الرسالة الثانية
١٨٨	الرسالة الثالثة
١٨٩	الرسالة الرابعة
١٩٠	الرسالة الخامسة
١٩١	الرسالة السادسة
١٩٢	الرسالة السابعة
١٩٣	الرسالة الثامنة
١٩٤	الرسالة التاسعة
١٩٤	الرسالة العاشرة

صفحة

الباب الخامس عشر : في الشفاعات ... ١٩٦ ... إلى ٢٠٤

١٩٦	الرسالة الأولى
١٩٦	الرسالة الثانية
١٩٧	الرسالة الثالثة
١٩٨	الرسالة الرابعة
١٩٩	الرسالة الخامسة
١٩٩	الرسالة السادسة
٢٠٠	الرسالة السابعة
٢٠١	الرسالة الثامنة
٢٠١	الرسالة التاسعة
٢٠٢	الرسالة العاشرة
٢٠٣	الرسالة الحادية عشرة

الباب السادس عشر : في توصية العمال بتجلب المال وإظهار العفاف

وحسن السياسية ... ٢٠٥ ... إلى ٢١٧

٢٠٥	الرسالة الأولى
٢٠٦	الرسالة الثانية
٢٠٦	الرسالة الثالثة
٢٠٨	الرسالة الرابعة
٢٠٩	الرسالة الخامسة
٢١٠	الرسالة السادسة
٢١٢	الرسالة السابعة
٢١٣	الرسالة الثامنة
٢١٤	الرسالة التاسعة
٢١٥	الرسالة العاشرة

الباب السابع عشر : في الآداب والمواعظ وما يقاربها ... ٢١٨ ... إلى ٢٢٠

٢١٨	الرسالة الأولى
٢١٨	الرسالة الثانية
٢١٩	الرسالة الثالثة
٢٢٠	الرسالة الرابعة

الباب الثامن عشر : فصول وغرر ، وتوقيعات ودرر ... ٢٢١ ... إلى ٢٢٣

الباب التاسع عشر : في النوادر النادرة في قتها ... ٢٢٤ ... إلى ٢٣٧

٢٢٤	الرسالة الأولى (فصل من رسالة)
-----	---------------------------------

